

إمبراطورية هولندا البحرية

١٦٠٠ □ ١٨٠٠



تأليف : د . د . بوكسر

ترجمة : شوقي جلال

إمبراطورية هولندا البحرية

١٨٠٠ ● ١٦٠٠

تأليف : ك . د . بوكس

ترجمة : شوقي جلال

الطبعة الأولى

1994

منشورات المجمع الثقافي

Cultural Foundation Publications

ص. ب. ٢٢٨٠ - أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة - هاتف : ٢١٥٢٠٠
P.O. BOX : 2380 - ABU DHABI - U. A. E. - TEL 215300 - CULTURAL FOUNDATION

كانت وما زالت منطقة الخليج العربي، في دائرة اهتمام الباحثين والدارسين والمؤلفين. ففي قول الضابط البحري البريطاني «ارنولد تي. ولسون» ما يؤيد ذلك:

«من بين الخلجان كافة لا يوجد خليج كان وما يزال موضع اهتمام كبير للجيولوجي، وعالم الآثار، والمؤرخ، والجغرافي، ورجل الدولة، ودارس الاستراتيجية كالخليج العربي».

وإذا كان للمنطقة وزن تاريخي وجغرافي واقتصادي، فإن صراع القوى الأوروبية، وتنافسها فيما بينها للحصول على ثروات الهند والدول الشرقية ما كان ليحسم إلا بالسيطرة على البوابة الرئيسية لثروات الشرق، وهي الخليج العربي.

إن المؤلف (امبراطورية هولندا البحرية) للمؤرخ الإنجليزي (ك. د. بوكس) هو واحد من الكتب، التي تُورِّخُ لفترة مهمة من القرن السابع عشر، شهدت إنشاء الإمبراطورية البحرية الهولندية، على يد شركة الهند الشرقية، وصراعاً حاداً بين القوى المتنافسة - آنذاك - للسيطرة على الخليج العربي. فالكتاب يُورِّخُ لحقبة تاريخية مهمة، والكاتب مُورِّخٌ مختصٌّ في النشاط البحري البرتغالي والإسباني والهولندي، والكشوف الجغرافية في القرنين: السادس عشر والسابع عشر، وهو ذو معرفة واسعة باللغات اللاتينية، الأمر الذي يضفي على الكتاب صفة الوثيقة التاريخية.

يسرنا أن نُقدِّمَ هذا الكتاب في ترجمة عربية، عسى أن يفيد منه الدارسون والباحثون، ويضيف إلى المكتبة العربية وثيقة تاريخية عن منطقتنا. والله من وراء القصد.

فهرست

.....	* مقدمة المجمع الثقافي	ص ٥
.....	* مدخل حمد بلومب	ص ٩
.....	* الباب الأول:	ص ٢٩
	حرب الثمانين عاما ونشوء أمة	
.....	* الباب الثاني:	ص ٦٥
	حكومة الأقلية من أغنياء المدن والمغامرين التجار	
.....	* الباب الثالث:	ص ٩٥
	العمال المقيمون ورحالة البحار	
.....	* الباب الرابع:	ص ١٢٥
	البحار المفتوحة والبحار المغلقة	
.....	* الباب الخامس:	ص ١٦٩
	الكسب والورع:	
	أ- في أرض الوطن.	
	ب- في الخارج.	
.....	* الباب السادس:	ص ٢٢١
	إله الحكمة وإله التجارة.	
.....	* الباب السابع:	ص ٢٦٢
	القلاع والمحطات التجارية.	
.....	* الباب الثامن:	ص ٢٩٧
	الاستيعاب والفصل العنصري.	
.....	* الباب التاسع:	ص ٣٢٢
	حانة مجمع البحرين.	
.....	* الباب العاشر:	ص ٣٦٥
	القرن الذهبي وحقبة الركود والادعاء.	
.....	* ملحق:	ص ٤٠١
	ملاحظات عن العملات والموازين والمقاييس الأساسية المذكورة في النص	
.....	* المراجع:	ص ٤٠٣

Abbreviations

AGN	Algemeen Geschiedenis der Nederlanden
BGN	Bijdragen voor de Geschiedenis der Nederlanden
BMHGU	Bijdragen en Mededelingen van het Historisch Genootschap gevestigd te Utrecht
BTLVNI	Bijdragen tot de Taal-land-en Volkenkunde van Nederlandsch Indie
EIC	English East India Company
Knuttel	Catalogus van de pamfletten-verzameling berustende in de Koninklijke Bibliotheek, by W.P.C. Knuttel
LV	Linschoten Vereeniging
MM	The Mariner's Mirror. Journal of the Society for Nautical Research
TG	Tijdschrift voor Geschiedenis
VOC	Dutch East India Company
WIC	Dutch West India Company

مذخل

على مدى الأعوام الخمسين أو المائة الماضية، انحسر إيمان الإنسان بأن حركة التاريخ أكدت تعاظم سيطرة الإنسان على الطبيعة باطراد، إذ منيت عقيدته هذه بضربة قاسية. إن هـجـ-ويلز، الرجل الذي تحلى بطاقة إبداعية فائقة، وروح إنسانية تفيض بهجة، وتفاؤل مطلق، كان في باكورة شبابه يرنو في ثقة إلى المستقبل، مؤمناً بأن العلم، سليل العقل، هو ترياق الإنسانية، ودواء كل داء. ولكنه في سن النضج ألف كتابه «موجز التاريخ» وشابت نظرتة فيه بعض السوداوية وإن ظل متشبثاً بالأمل.

إن الحرب العالمية الأولى التي سفكت دماء الملايين من البشر في وحشية وغباء، كانت مصداقاً لواقع مؤسف وهو أن الإنسان قادر على إحداث كوارث بشرية تصيب العالم أجمع. إن ضياع حرية الإنسان، وما منيت به الإنسانية من أعمال وحشية وتحقير للكرامة خلال العشرينيات والثلاثينيات على يد الفاشية والشيوعية ثم ما أعقب هذا من تجدد للصراع العالمي، كل هذه الأحداث قتلت في النهاية نظرة ويلز المتفائلة. ولهذا نراه عندما تقدم في السن وانقضت الغمامة عن ناظريه كتب بلغة تقطر حزناً كتابه «العقل وقد تقطعت به الأسباب». تلاشى أمله في البشرية أو كاد. ويمكن القول دون أن نتجاوز الحقيقة كثيراً، لقد شهد ويلز في حياته كل ما تنبأ به في شبابه - الابتكارات التقنية المذهلة والتي امتدت أيضاً لتشمل مجالات النشاط البشري التي أثرت في لب المجتمع الإنساني ذاته. وإن هذه القدرة الفريدة التي تميز بها الإنسان على سبر أغوار الطبيعة بكل ما فيها من تعقد، والقدرة العجيبة على ابتكار آليات تيسر له استثمار معارفه، ظلت هي وحدها أساس الأمل الذي تشبث به مهما كان واهياً.

إذا كان إنسان مثل ويلز له نزعتة الإنسانية المشبوبة والعقلانية قد تقوض إيمانه فليس لنا أن ندهش إذ نجد من هم دونه قدراً عاجزين عن

الصفود إزاء مناخ اليأس الذي خيم على العالم الغربي خلال حقبة ما بين الحربين العالميتين، ويتجلى سقوط الوهم في فنون الرسم والموسيقى والأدب. نلمس ذلك واضحا في كل مكان في العالم الغربي. وقد جسدت هذه الأعمال من المشاعر والتعبيرات الكآبة والهرب من الواقع الاجتماعي والتاريخي الى عالم من المشاعر والتعبيرات الذاتية الملاء بالخوف والانطوائية. ونلاحظ أن الحياة الفكرية، خارج ساحة العلم، سارت في الدرب نفسه الذي سلكته الحياة الفنية تقريبا وإن أبدت قدرا اكبر من المهارة الابداعية والصلابة. ونزع الفكر الديني عن الآلهيات والفكر الفلسفي وعلم الاجتماع الى الانزواء في اطار المشكلات التقنية التي تتسم بتعقد مهني فريد ولكنها ذات أهمية اجتماعية محدودة. وكف المشتغلون بهذه العلوم عن تعليم العامة من النساء والرجال وعن تنشيط فكرهم ناهيك عن تعزيز ثقتهم وإيمانهم.

وعانى التاريخ وفلسفة التاريخ من هذا المناخ، مناخ الانحلال الثقافي والانحسار المهني. ذلك لأن العاملين في هذا الحقل، كما يحدث في الكثير من المباحث الفكرية الأخرى، عمدوا إلى تضيق حدود بؤرة اهتمامهم بحيث تقتصر على مجالات البحث شديدة التخصص. وانسحب أكثر المؤرخين من ساحة الثقافة العامة بغية الحفاظ على المبحث الأكاديمي عند أعلى مستوى له. وتركوا معنى التاريخ وهدفه إلى الفلاسفة المحترفين، وأنفقوا ساعات تفرغهم ليمزقوا إربا أي دراسة بلغ الحق بصاحبها أنه حاول أن يسبغ فيها على قصة البشرية معنى وغرضا، فإن كتابا ومؤلفين مثل هـجـويلز وأرنولد توينبي على ما بينهم من تباين في الفكر والنظرة، تعرضت أعمالهم للافساد والتشويه بمهارة فائقة. وشاعت أخطاء فاحشة في الدراسات والأغلاط في التاويلات، وسقطت المعاني، وفترت العزائم. وقليلون هم المؤرخون الأكاديميون الذين اعتصموا ببساتينهم الصغيرة يفلحونها، وأخذتهم العزة ولم يشعروا بأي ضعة إزاء أولئك الذين اتخذوا هدفا لهم استثناس البرية. والنتيجة ساد مناخ من التشوش الفوضوي نظرة الانسان الغربي وموقفه

من ماضيه.

ومنذ مائة عام، ومع أول فيض من الاكتشافات الاثرية احس الباحثون بقدر اكبر من الثقة، إذ بدا تاريخ البشرية في نظر الاغلبية يؤكد وجود قانون واضح صريح للتقدم الانساني، ولم يكن الماضي سوى معبر الى المستقبل. وأول من ألمح إلى ذلك فلاسفة الحقبة الأخيرة من عصر النهضة - يودان في فرنسا، وبيكون في إنجلترا - وأضحت فكرة التقدم بندا من بنود عقيدة مشتركة وإيماناً التزم به عصر التنوير، ولم يعد معنى التقدم قاصراً على التقدم التقني الذي كان محور فكر بيكون، بل يعني كذلك التقدم المعنوي والخلقي أيضاً. وقبل القرن التاسع عشر أثبت تاريخ الانسان للكثيرين من الباحثين ان ثمة تحسناً طرأ على طبيعة الانسان ذاته وكذا على الأدوات والأسلحة التي يستخدمها، ولكن هذا التفاؤل أو هذا الايمان بقدرة الانسان على السلوك العقلاني تقوضت دعائمه بفعل بعض الاكتشافات في مجال العلم الطبيعي والتاريخ ونتيجة لبعض الأحداث. ففي منتصف القرن العشرين برزت نوازع الانسان اللاعقلانية وبدت أقوى من قدراته الفكرية. وكشف فرويد وماركس زيف ما سمي سلوكاً عقلانياً سواء لدى الأفراد أم في المجتمع، وكذلك ما كشفت الحفريات عن تاريخ نشوء وانهايار الحضارات أكد على ما يبدو وجود نمط دوراني في حركة مصير الانسان مما افاد خطأ أي فكرة عن التقدم المطرد، واستهوى هذا بطبيعة الحال الداعين إلى فكرة أن حضارة الغرب مألها إلى انهايار محتوم. ولكن أكثر الشواهد اقناعاً، وربما أكثرها تدميراً لثقة الانسان في المصير البشري، هو افتقاد الاحساس بأي مظهر لسيطرة الانسان على نفسه وهو الاحساس الذي تولد عن حربين عالميتين وثورات دموية. ولم يعد يؤمن بقوانين التقدم لحركة التاريخ سوى أولئك البشر أو تلك المجتمعات الذين رأوا أن الحياة تمضي وفق الطريق الذي رسموه لها، وأعني بهم الثوريين وأولهم الماركسيون. أما من عداهم فقد بدت لهم فرضية ردة حركة التاريخ وتراجعها هي وفرضية التقدم سواء - يقفان على قدم المساواة.

وكان هذا التحرر من الوهم في الغرب أمراً ملائماً للمؤرخين الأكاديميين، ذلك أنه خفف عنهم أقسى مشكلاتهم. فإذا كانوا من المؤمنين المتدينين فقد قنعوا بأن يتركوا المعنى النهائي للتاريخ لله، وإذا كانوا من العقلانيين فقد لانوا اما بالحاجة إلى المزيد من المعرفة التاريخية أو بالمشكلات الفلسفية لموضوع هو بطبيعته خلو من ذات المعالجة الموضوعية التي أسبغت سلطة وثقة على البحث العلمي وركزوا أساساً على عملهم المهني. وكان هذا عملاً ضرورياً وعظيم الشأن على نحو فريد. إن الشيء الذي نادراً ما يسلم به القارئ العادي هو قصور المادة الواقعية المتاحة للمؤرخ منذ مائة عام، بل ومنذ خمسين عاماً مضت. إذ نادراً ما كانت المحفوظات التاريخية «الأرشيف» ميسورة له، وكانت أكثر مستودعات السجلات غير مبوبة أو مصنفة، فضلاً عن أن جميع الأحكام العامة عن شخص أو حدث أو عملية تاريخية هي في الغالب الأعم نوع من التخمين إن لم تكن تخميناً خالصاً. وأمكن بعد جهد جهيد إلقاء الضوء على ملايين الوقائع، ثم ترتيبها ووضعها في سياقها على نحو مترابط منطقياً. وشاع التخصص، واستشرى مثلما يستشرى السرطان، وبرزت التفاصيل الدقيقة، ولكنها أخفت معالم قصة البشرية.

وبات من المستحيل على المؤرخ المحترف أن يغامر، عن ثقة، بالخروج عن إطار مجاله المباشر، وقد يكون هذا المجال واقعاً دقيقاً شديد الدقة - مثل اضطراب عمال السكك الحديدية في أركانساس وميسوري عام ١٩٢١، أو أسماء الأماكن في روتلاند، روين في القرن السابع عشر. والتاريخ الشفوي عن بارونس، وفلسفة هنكار في رايمز. وهكذا أصبح من العسير للغاية على المؤرخ المحترف أن يصل عبر هذا إلى عقل الإنسان العادي، أو أن يجعل موضوعه جزءاً من ثقافة إنسانية. وبدت الصورة التاريخية العامة نتيجة النشاط الدؤوب الذي لم يتوقف عنه الملايين. وطبيعي أن البعض بذل محاولات للوصول إلى توليفة أو مركب لهذه الصورة العامة وظهرت الحاجة إلى محاولات لتدريب شباب المؤرخين المحترفين، أو الحاجة إلى نقل بعض

المعارف عن التاريخ إلى طلاب المباحث العلمية الأخرى. وأدى هذا إلى ظهور آراء متصارعة عن فترات طويلة، وهي آراء تلخص كلا من الوقائع والتحليلات. وصدرت بين الحين والآخر مؤلفات تعكس هذه البراعة والحكمة حتى أصبحت جزءاً من الميراث الثقافي للغرب. وحاول بعض المؤرخين، بدافع المال أو الشهرة أو الجهد الإبداعي أن يشركوا العامة معهم في معارفهم وفهمهم عن الماضي.

ولكن الهوة بين المعرفة المهنية وبين التاريخ عند الجماهير أخذت تتزايد وتتسع باطراد. إذ أصبح التاريخ المهني أكثر دقة وعمقاً بينما ظل التاريخ للعامة أمراً تقريبياً ضحلاً.

وهذه السلسلة التي بين يدي القارئ هي محاولة منا لكي تعكس اتجاه حركة هذه العملية. وسوف يتولى كتابة كل مجلد منها مؤرخ محترف على أعلى درجة من التميز التقني. بيد أن هذه المؤلفات لن تكون في فراغ، ذلك لأن السلسلة موضوعة على أساس أن تشكل معاً وحدة وغرضاً. ولكن ربما يكون الأفضل أن نبدأ بالحديث عما لا تستهدفه.

إنها ليست مرجعاً، إذ لا توجد سير وتواريخ حياة مختصرة ومقطعة عن الفراعنة أو أباطرة الصين أو البابوات، ولا توجد قوائم بتواريخ المعارك، ولا تواريخ مختصرة عن فنون الرسم والأدب والموسيقى. كما وأن هذه السلسلة لا تؤلف تاريخاً عاماً شاملاً. ذلك أن جميع الأحداث الدقيقة والحاسمة في تاريخ البشرية قد لا تجد بالضرورة مكاناً لها. نعم، البعض منها له مكان، والبعض الآخر لا مكان له. وتتوفر بكثرة الأعمال المرجعية التي تلتزم الدقة في سرد الوقائع بصورة أو بأخرى، ولا حاجة بنا إلى تكرارها. وليس هدفي أن أضيف تصنيفات جديدة إلى ما هو قائم منها. كما وأنا ليست تاريخياً «فلسفياً» ولا تزعم السلسلة أنها ستميط اللثام عن نمط متكرر في التاريخ

سوف يفصح عن غرضه. ان الفلسفة هي الأساس، وفيما عدا الاستخدام اللغوي، خارج موضوع التاريخ مثلما هي خارج موضوع العلم. ونقول أخيراً ان هذه السلسلة لن تشمل كل المجتمعات الانسانية. والمعروف انه سيصدر منها مجلدان مخصصان عن روسيا، ولن يصدر أي كتاب عن ألمانيا. وستصدر دراسات عن تاريخ الصين واليابان دون أندونيسيا. وثمة كتاب عن اليهود كتبوه عن أنفسهم بينما لا يوجد كتاب عن الفرس. ومع هذا تحمل السلسلة عنوان «تاريخ المجتمع البشري» وهو عنوان تبرزه أسباب معقولة جداً. إذ ان هذا التاريخ له فكرة رئيسية ووضع في الزمان.

والفكرة هي الأكثر وضوحاً والأكثر اغفالا، هي واضحة لأن كل امرئ مدرك لها ابتداء من القرويين المنعزلين من سكان الجزيرة النائية الى المدن المكتظة بسكانها في العالم الغربي، وهي مهمة لأن النهج الجديد الذي اتبعه المؤرخون المحترفون والغربيون هو أن يشغلوا أنفسهم إما بالتاريخ المهني التفصيلي الذي لا يمكن أن تكون له فكرة رئيسية عامة أو بالجوانب الروحية والميتافيزيقية لصير الانسان والتي لا تدخل ضمن نطاقه المميز. ومن ثم يكون السؤال: ما هي الفكرة الرئيسية لسلسلة «تاريخ المجتمع البشري»؟ ان الوضع الذي فيه الانسان الآن اسمى من وضعه في الماضي. ان ثمة ثورتين عظيمتين ثورة العصر الحجري الحديث والثورة الصناعية - تمكن الانسان بفضلها من أن يقيم مجتمعات واسعة شديدة التعقيد على نحو فريد حققت خلالها الأجيال البشرية تقدماً مذهلاً فيما يختص بالرفاهة المادية، ثم ان الثورة الثانية، وهي الأهم ثورة تهاوت فيها انماط الحياة القديمة ازاء متطلبات المجتمع الصناعي، كما وان الحياة في أحياء لندن ولاجوس وجاكرتا وريودي جانيرو وفلايفوستك ستغلب عليها وشيكا القسمات المشتركة فيما بينها وتكون أكثر من مظاهر الاختلاف. ومن ثم فإن هذه هي اللحظة التي يتعين فيها أن نجري عملية تقييم شاملة ونستعرض كل ما حدث ونستكشف أسباب حدوثه، وان نستعيد مجتمعات الماضي بينما نحن لا نزال على صلة

وثيقة بالكثير منها بحيث نشعر على نحو تلقائي بالضغط والاحتياجات التي تفرضها انماط الحياة في تلك المجتمعات. بيد أنني على الرغم من ذلك أمل في أن أضفي احساساً بالوحدة من خلال المقدمات التي اعتزم كتابتها وأقدم بها كل كتاب من كتب السلسلة، وأعرف أن المؤلفين أنفسهم لن يشغلوا بالهم كثيراً بالفكرة الأساسية الحاكمة. وإنما سيكون هدفهم إعادة بناء المجتمعات التي هم خبراء فيها. إذ سيكتشفون في وضوح تام بنية هذه المجتمعات .. الأساس الاقتصادي لها، وتنظيماتها الاجتماعية، وتطلعاتها، وثقافتها، ودياناتها، وصراعاتها. وسوف يقدمون في الوقت ذاته احساساً بالوضع الذي كانت عليه بالنسبة لأولئك الذين عاشوا فيها ونظرتهم إليها. وسيكون كل كتاب عرضاً مرجعاً معتمداً من حيث مادته؛ ومستقلاً بذاته عن غيره في السلسلة. ومع هذا سيوفر الكتاب مع بقية كتب السلسلة رؤية عن كيفية تحول المجتمع ونموه منذ أن عمل الإنسان فيه بالصيد ثم التقاط الثمار لغذائه وحتى عصره النووي الإلكتروني. وما كان بالإمكان أن يتحقق هذا إلا بفضل الاختيار الدقيق لخيرة الكتاب وأفضلهم. واستلزم هذا بطبيعة الحال أن يكونوا من بين أكثر الباحثين تميزاً، ممن يتحلون بقدرة على الكتابة بأسلوب شيق للقارئ العام. واستلزم أيضاً أن يكونوا ممن يتصفون بالحكمة فضلاً عن التعاطف الثابت إزاء الاحتياجات الغريبة للناس، وأن يكونوا كذلك أصحاب فطنة، وإناة في الحكم، وتذوق للحياة وأقبال عليها، هذا الأقبال الذي عزز حياة الناس العاديين، رجالاً ونساء، في أحلك الأزمنة، ولهذا فإن مؤلفي كتب هذه السلسلة هم مؤرخون أصحاب عاطفة وحكمة أو عقل وقلب معا.

إن المجتمعات البشرية شديدة التباين بقدر تباين الطبائع البشرية ومن ثم يمكن القول أن انتقاء هذه السلسلة هو بدرجة ما نوع من المختارات على أساس شخصي. ولعل شخصاً آخر صينيا أو روسيا أو هندياً أو أفريقياً قد يختار سلسلة أخرى، بيد أننا غربيون ومن ثم نكتب لأبناء الغرب. والجدير بالذكر أن تغريب العالم بفضل التكنولوجيا الصناعية هو أحد الموضوعات

الرئيسية في هذه السلسلة. وإن كل مجتمع وقع عليه الاختيار إنما كان داخلا ضمن التيار الأساسي لهذا التطور أو ينتمي إلى ذلك المحيط البدائي الشاسع الذي انبثق عنه كل التاريخ. وأغفلنا بعض المجتمعات لأنها ستصور فقط، وعلى نحو غير واضح، المجتمعات التي تعرض لها السلسلة، وأغفلنا بعضها الآخر لأن تاريخها غير معروف جيدا بحيث يمكن للباحث أن يسبر أغوارها ويصل إلى رؤية واضحة عنها حسب النهج المتبع، وأغفلنا مجموعة ثالثة لأنها غير ذات شأن يذكر.

وهناك بطبيعة الحال قوى اجتماعية ذات شأن كبير للغاية - الاقطاع أو التحول التكنولوجي أو الدين على سبيل المثال - والتي صاغت في الوقت نفسه مجتمعات بشرية متباينة. ويمكن لنا أن نعرف الكثير بفضل الدراسة المقارنة لتأثير هذه القوى. بيد أنني رفضت هذا النهج ما أن نصل إلى مرحلة التاريخ المسجل أو الموثق. وسبب رفضي لهذا المنهج هو في رأيي أن البشر يدركون هذه القوى ولهم خبرتهم بها في مجتمعاتهم وأن خبرة البشر هذه في المجتمع هي موضوع هذه السلسلة واهتمامها الأول.

أخيراً، قد لا نكون بحاجة إلى القول إن المجتمع ليس دائما مرادفا للدولة، ففي أوقات ما، وعلى نحو ما نجد عند اليهود، قد يفتقر المجتمع إلى أرض ثابتة متعارف عليها. ولكن اليهود على الرغم من هذا يمثلون موضوعا رائعا ومتميزا لدراسة التكتلات الاجتماعية الطفيلية، وليس من المتصور اغفال هذا لأنهم يمثلون في أحسن الأحوال، خبرة بشرية واسعة تكتلا اجتماعيا مزروعا في مجتمع غريب.

وثمة فكرة رئيسية تتعلق باطراد نمو سيطرة الإنسان على بيئته، وهو موضوع اعتقد أن هذه السلسلة سوف توفيه حقه أيضا. والهدف هو استعادة قدر قليل من الثقة في قدرة الإنسان ليس فقط على تحمل الكوارث المتكررة التي تلحق بوجوده بل والثقة أيضا في قدراته الفكرية. وقد لا نكون

بحاجة إلى القول بأن الكثير من عاداته، الفكرية والعاطفية، هي عادات وحشية. ولسنا بحاجة إلى التأكيد هنا على استمرار قدرته على فعل الشر. كذلك فإن نهمه لا يزال قويا الى حد كبير كما كان يوم ان بدأ يدب على الأرض. ومع هذا كله فإن المعجزات التي خلقها بفضل دهاته وبراعته تشكل الجانب الأكبر من حياتنا اليومية التي نرى أعاجيبها وكأنها امر عادي.

ان عبقرية الانسان - التي تركز على قدرته على الاستدلال العقلي - حققت انتصارات مذهلة على العالم المادي - وعلى مدى فترة قصيرة من الزمان على نحو يثير الدهشة. وان هذه الانتصارات، التي كثيرا ما نتجاوزها وكثيرا ما نقلل من شأنها، حري بها أن تغرس فينا تفاؤلا حذرا. وان هذه البراعة العقلية يمكن ان تتجه، ان عاجلا أم آجلا، وعلى نحو قد يكون شاقا اليما وبطيئا، الى المشكلات الأصعب والمستعصية في حياة الانسان وأعني بها العلاقات الاجتماعية للبشر والعلاقات الشخصية. ولا اقول يجب أن تتجه فقط، بل ربما يتعين قبولها باعتبارها السبيل الأصوب لتنظيم حياة البشر. ان قصة تقدم الانسان على مدى الأحقاب والقرون، وعلى الرغم مما اعترضها من عثرات وما شهدته خلالها من كوارث، حري بها أن تعزز فينا الأمل والارادة.

ولكن يتعين علينا أن نشير اشارة تحذير هنا. ان تاريخ المجتمع البشري اذا ما نظرنا إلى تفصيلاته، غلبت عليه المأساة دون الأمل المشرق. وسوف توضح لنا هذه السلسلة كيف ان حياة الملايين من البشر المغمورين الذين عاشوا وماتوا كانت حياة اضناها البؤس والعوز والجوع والقسوة الوحشية، وقليلة تلك المجتمعات التي وفرت لذويها السلام. ولم يستتب الاستقرار لأكثر من بضع قرون، كما كان الرخاء وحتى عهد قريب جدا، ضربة حظ تنعم به أقلية محدودة. وكانت هناك مظاهر السلوى وليدة الاشباع، والسكينة الناجمة عن ممارسة الشعائر والطقوس، والأمل في مستقبل باسم، كل هذا خفف من وطأة الشعور بالمأساة في أغلب الأحيان، ولكن نادرا ما محا

آثار البؤس الذي خيم على الجميع باستثناء حفنة قليلة من البشر منذ بداية التاريخ، وأخيراً تضخمت هذه الحفنة بنسبة كبيرة داخل عدد قليل من المجتمعات المحفوظة، ومما يثير الشفقة أن نلاحظ على مدى التاريخ البشري أن أغلبية الناس لم يجنوا غير الشوك والحسك في حياتهم. وأن الاعتقاد بتقدم البشرية لا يتناقض مع الإدراك الواضح لمأساة حياة الأفراد، بل ومأساة العصور والثقافات والمجتمعات. أن الخسران والهزيمة هما أيضاً موضوعان رئيسيان في هذه السلسلة، شأنهما شأن التقدم والأمل.

شهد العالم فيما بين عامي ١٤٥٠ و ١٧٠٠ واحدة من أعظم التحولات في القوة والاقتصاد العالميين. إذ قبل هذا التاريخ لم يكن لأوروبا الغربية شأن يذكر في شئون العالم. والمعروف أنه خلال القرنين الأولين الميلاديين: فقط لاحت امكانية بزوغ امبراطورية الصين، وبوسعها أن تضم الأراضي الغربية. ولكن خيم على أوروبا ظلام حقيقي إبان الفوضى السياسية التي أعقبت سقوط الامبراطورية الرومانية. حقا أن قيمتها كمصدر للغة الرئيسية أضفى - عليها مكانة رفيعة إلى حد ما في نظر بلدان البحر المتوسط.. كما وأن هيكلها الاجتماعي الذي كان مهياً جزئياً من أجل الحرب، منحها طاقة كبيرة على ممارسة العنف والتوسع. وهذا واقع تشهد على صدقه الحروب الصليبية. ولعل ثمة شاهداً آخر أكثر وضوحاً هو حرب المائة عام بين بريطانيا وفرنسا التي اكدت في جلاء تماثل نوازع تدمير الذات في أوروبا الغربية خلال العصر الوسيط. بيد أن هذه الطاقة على الاعداد للحرب تأسيساً على قاعدة شبه قومية، والتي كانت قسمة مميزة للحقبة الأخيرة من العصور الوسطى، كانت عاملاً هاماً في نهضة أوروبا الغربية لكي تصل إلى مكانة تهىء لها السيادة على العالم.

وربما لم يشهد التاريخ قبل ذلك مجتمعات يغلب عليها الطابع الزراعي وسادتها الروح العسكرية إلى حد مبالغ فيه، وأصبح الشغل الشاغل لجميع الحكومات هو تطوير قواتها المسلحة. وطبيعي أن هذا الاهتمام كان في بداية

الأمر محاولات تجريبية خاضعة للصدفة، غير أن القوة الدافعة له تزايدت مع تزايد مظاهر تعقد الحروب سواء من حيث القوة البشرية أو المواد والمعدات. ذلك أن المدفعية والسفن الحربية المزودة بالمدافع، وما اقتضاه هذا من دفاعات وتحصين للموانئ والمدن الاستراتيجية، لم تستلزم فقط حشد أكبر قدر من الموارد المالية والتقنية للدولة، التي تحولت هي الأخرى إلى إدارة أشد تعقيدا من الإدارات التي عرفها الغرب من قبل، بل استلزم أيضا المزيد من التحكم في طاقات البشر سواء عن طريق القوانين الاجبارية أو الانتماء من خلال التعبئة الايديولوجية. ولم يكن التوسع الكبير لبناء الامبراطورية امرا ممكنا الا بعد أن تحققت هذه العملية.

وطبيعي ان هذا ليس سوى رافد واحد بين كم هائل من الاسباب التي قادت إلى الثورة العالمية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، بيد أنه رافد حيوي. وارتكزت أوروبا على رادع القوة في سبيل هيمنتها على العالم. وحسمت أمورها اعتمادا على القتل وسفك الدماء. ولكن الاسباب التي أفضت إلى القتال كانت معقدة ومتنوعة - النهم والحماس الديني والفضول والغيرة بل ومحاكاة الآخرين، وربما حاجة الانسان البيولوجية إلى الاندفاع في تهور نحو استعمار الأراضي الفضاء التي كانت يوما حاجزا جغرافيا وقد تحطم. وتداخلت كل هذه الاسباب وكثير غيرها، ودفعت كلا من أسبانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى إلى التوسع فيما وراء البحار. وكان توسع الامبراطورية الهولندية وثيق الصلة بتوسع البندقية في مطلع العصر الوسيط حيث كانت الدوافع التجارية واضحة دائما ولكن فعالية التوسع الهولندي لم تركز فقط على الشهرة التجارية والقوة البحرية، بل ارتكزت أيضا على طبيعة المجتمع الهولندي ذاته.

وتدين المقاطعات المتحدة بنشأتها إلى الحرب، ذلك أن الحرب هي التي حددت وحسمت حدودها، وساعدت على انشاء الهيكل الاجتماعي لمدنها، وأعطتها قدرا كبيرا من زخمها وقوتها الدافعة إلى التوسع التجاري. وسرعان

ما اكتسب التمرد ضد الحكم الاسباني بمناخ الحروب الصليبية الدينية وهو التمرد الذي بدأ أساساً من أجل «الحريات» المدنية والطبقية التقليدية والتي كان الناس في العصور الوسطى مصممين على الكفاح من أجلها. وكان أشد المناهضين لأسبانيا قسوة هم بطبيعة الحال الكالفينون المتفانون لعقيدتهم، الذين سارعوا إلى تولي مسئولية شمال هولندا بغية تشديد مقاومتهم. وكشفوا عن براعة في حربهم ليس فقط بسبب قوة الأسلحة بل وأيضا بسبب التوسع التجاري العدواني. وأوقفوا تجارة نهر شلت Schedt حيثما استطاعوا واحتكروا لأنفسهم منطقة البلطيق. ومع اطراد الحرب انضم اليهم رجال من الجنوب يضارعونهم اخلاصا وتفانيا، خاصة أهالي أنتويرب Antwerp الذين استهوتهم الحياة التجارية التي انتشرت سريعا في أمستردام، كما استهوتهم حرية العبادة والفرص الاجتماعية المتاحة لأبناء عقيدتهم. وهكذا أصبحت التجارة أداة من أجل اطراد الحياة، وفرعا من فروع الحرب، وقوة جذب لمن جمعتهم رؤية واحدة ازاء العقيدة الدينية والمهنية والوضع الاجتماعي. وكان مؤسسو الشركة الهولندية في غرب الهند من كبار المؤمنين بالمذهب الكالفني، الذين تراودهم نزعة تدمير القوة الاسبانية. وخلال العقود الأولى من عمر الجمهورية الهولندية غلب مناخ الحروب الصليبية على الكثير من انشطتها التجارية. حقا كان آله الحرب هو القابلة التي تلقفت الجمهورية الهولندية. وكان آله الحرب ضنينا فيما أتاحه من فرص لامستردام التي بدأ نموها المادي والتجاري والفكري أشبه بمعجزة في نظر معاصريها. واصطلحت العقيدة الدينية للأقلية والعدوان التجاري من جانب القلة علاوة على النزعة الوطنية المدنية الحادة، وأدوا جميعا من خلال الحرب إلى خلق دولة وأمة لم يكن العرق ولا اللغة ولا الثقافة بل ولا الجغرافيا قد هياؤا لها استعدادا كافيا.

واثبت الهولنديون أنهم واقعيون متميزون بعد أن صهرتهم بوتقة الحرب، وهي حرب اتسمت بوحشية شرسة وامتدت زمنا طويلا، كأنها بلا نهاية. وعلى الرغم من أن التجار الكالفنيين حفزوهم إلى شن حرب من أجل

غزو البرازيل الا ان هذا الاتجاه العنيد سرعان ما خبا واضمحل. وأصبح شعار هولندا «تجارة لا حربا صليبية»، وغدت التجارة مع الكاثوليكين الرومان عملا طيبا شأن أي عمل مع غيرهم ولم يعد يستهوى أحدا، حتى أكثر الناس حماسا، تدمير أسبانيا أو القضاء على الكاثوليكية الرومانية في عقر دارها، بل ولا حتى إعادة فتح المقاطعات الجنوبية المنفصلة. وتأكد لدى الهولنديين ان كلمة السر هي الأمن وحرية التجارة والتسامح طالما أنها هي أساس الاستمرار. ومع هذا اضطر الهولنديون الى خوض غمار حرب طوال الشطر الأكبر من القرن السابع عشر. ودفعهم إلى الحرب منافسهم التجاريون، وأولهم البريطانيون ثم الفرنسيون. واستهلكت الحرب الجانب الأعظم من الناتج القومي لهولندا. وعانت من ذلك أكثر من أي بلد آخر في ذلك الوقت. ويمكن القول ان هولندا كان لديها جيش كبير واسطول ضخم بالقياس إلى عدد السكان، ولكن لم يكن ضخما بالقدر الكافي للتصدي للأعداء. وتبدو هذه الحقيقة أكثر وضوحا بالنسبة لبلد صغير يقوم بنظام الدولة فيه، بحكم وضعه الخاص، على عدم القيام بدور فعال. ولكن على الرغم من الحرب المتصلة، والضرائب الباهظة، لم يكن الهولنديون ضحية حالة الخوف من الأجانب التي يعاني منها البعض دون مبرر. ولعل السبب في عدم وجود نزعة قومية هستيرية عمياء هو طبيعة نظام الدولة في هولندا حيث كان من الطبيعي أن يتجه الولاء إلى المدينة أو المقاطعة وليس إلى أسرة أو إلى بلد.

وجوهراً الأمر، كما يوضح الاستاذ بوكسر، أن المقاطعات المتحدة كانت اتحادا كونفدراليا بين ولايات ومدن، تسودها جميعا، ويدافع الحذر، حقوق وحریات دفاعية، واتحاد كونفدرالي قام فيه بيت آل أورانج House of Orange، سادة الولايات بالوراثة بدور مشبوه. ولولا اسهاماتهم المالية الضخمة لفرضت امستردام نوعا من السياسة الموحدة لتحد من فوضى المصالح الفردية، ولسقطت زعامتهم تدريجيا مع الزمن. ولقد شهد القرن السابع عشر زيادة في مدة النظام الاوليجاركي في جميع المقاطعات السبع في المدن كبيرها

وصغيرها، ومع زوال الخطر الخارجي وهزيمة لويس الرابع عشر في حرب الخلافة على أسبانيا، انتقل المجتمع الهولندي عن قناعة الى حالة الكمون تلك، وأحست البرجوازية بسعادة ذاتية، وهي السعادة التي حرمتها منها خلال القرن السابع عشر الاخطار الخارجية التي كانت تتهددها. ولم يتخلص الهولنديون كدولة من رباطهم مع ماضيهم في العصر الوسيط. انهم لم يعملوا، كما عمل منافسوهم التجاريون الكبار، على انشاء نظام دولة شديدة المركزية قادرة على اتخاذ اجراء حاسم وسري وسريع. وهذا هو السبب في أن كثيرين من المؤرخين الهولنديين رأوا في التوسع السريع للسلطة الهولندية فيما بين ١٥٨٠-١٦٤٠ معجزة. ان المعجزة تتمثل في أن الهولنديين استطاعوا أن يجيشوا الجيوش والأساطيل الضخمة، وأن يدفعوا اجور هذه الجيوش والأساطيل من وعاء آخر غير وعاء الضريبة على الرغم من المناقشة الشديدة بين الدولة وبين المدن، وأيضا على الرغم من الحقوق والامتيازات الراسخة التي كانت بمثابة عقبة دائما في الطريق. وقد تأتى لهم هذا أساساً بفضل تفاني الاوليجاركيات الكالفنية التي كانت تملك حسا قويا وحيويا بمصيرهم كطبقة وامة معا.

لقد طبعوا المجتمع الهولندي وبصورة قوية لا تمحى بالساعات الشخصية المميزة لطبقته. وتصور بوضوح لوحات رمبرانت أو هالز وجوهم الحذرة الحكيمة الراضية في غير تفاخر، وتخفي القليل من حوافزهم غير الواعية، ولكنها تعبر في بلاغة وجلاء عن طابع الرصانة والتفاني والتضحية بالحياة، وإن واجهات قصورهم الانيقة على طول كيزير جراث وهرينجراث في امستردام والتي تبدو في اناسقتها جليلة متحفظة انما تنم عن وحدة وترابط أجيال البرجوازية في فكرها وسعيها - هذا المزيج من العمل الشاق، والمخاطرة المحسوبة والانغماس الحذر في الملذات. ويحدث كل هذا دون تفاخر أو غرور أو مباهاة وقد أصبح طابعا أساسيا مميزا للشخصية الهولندية. وتجسد حياتهم الحذرة شبه المنعزلة، كبرياء الاعتزاز بالنفس الذي

جعلهم يتوحدون مع مدنهم التي عاشوا فيها جيلا بعد جيل وكافاتهم بأن منحتهم سلطة ومناصب اسمية.

وكم كان يسيرا ان يتحول هذا المجتمع الى مجتمع منافق فاضح فاسد، لا يبالي بالطموحات، غارق في ملذاته منصرف عن الاصلاح او التغيير. والحقيقة انه قبيل القرن الثامن عشر كاد ان يخيم هذا المصير على هولندا. غير ان هذه النوازع في القرن السابع عشر، وعلى الرغم من اطرادها، لم تسيطر على سكان الشمال في هولندا الذين كانوا يعيشون بدورهم على حافة الهاوية حتى كادوا ان يقعوا فريسة شلل اجتماعي تام. وانقذوا انفسهم المرة تلو المرة من الهزيمة الكاملة بفضل ما يتحلون به من شجاعة وتضحية بالنفس، وكسر الحواجز التي تفصلهم وفتح خزائنها للتصدي للفرنسيين. وكانت قبضتهم واهية في الغالب الأعم في مراكزهم الموجودة في الخارج سواء في أوروبا أم في شرق وغرب الهند فيما عدا جاوة ومولوكا. وتزايد ايمان الهولنديين بأن الثروة ودّارة، والقوا الاعتقاد بأن ثروتهم عرضة للضياع هباء في أي لحظة. لقد فقدوا موقعهم في فورموزا. وتم طردهم من البرازيل، وألقى بهم البريطانيون خارج نيويورك. وكانت التجارة في المحيطات نوعا من المقامرة، إما أرباحا ضخمة أو خسائر فادحة. وسادت الحياة الهولندية إبان الأيام الأولى للجمهورية حالة حمى واندفاع، وتفجر هذا بطرق عديدة غريبة - هوس خيالي من أجل بصل زهرة التيوليب أو شغف معائل بالخزف الصيني، والاندفاع مرارا وتكرارا نحو المضاربات المزمنة في بورصة امستردام.

وانطوت سياستهم كذلك على عنصر فظ غير حاسم يمكن أن يؤدي، كما أدى بالفعل، إلى ثورات هزت دعائم الأوليغاركيات السائدة وإن لم تطح بها تماما، ان الصفاء الذي يتجلى في أغلب الأعمال الفنية الهولندية، والجمال والنظام في مدن هولندا هي مظهر خادع بمعنى من المعاني، يحكي صورة عالم مستقر نادرا ما عرفت المقاطعات المتحدة إبان القرن الأول من وجودها. وظل الشك في حاجاتها إلى المضاربة - اقتصاديا وسياسيا ودينيا وفكريا -

عاملاً قائماً في الحياة الهولندية حتى نهاية القرن السابع عشر، وربما كان هذا عاملاً من العوامل التي ساعدت على تعزيز ظاهرة التسامح الواسعة التي سادت شمال هولندا فيما يتعلق بالدين والسياسة ومن ثم جعل منها ملاذاً لديكارت، وماوى لسبينوزا، وحافزا قويا حفز جون لوك على نشر كتاباته.

كان المجتمع الهولندي منغمساً في الواقع بعمق ولعله كان أكثر انغماساً من أي مجتمع آخر في عصره. ولم يكن لدى حكام المقاطعات ولا أرستقراطية هولندا أي تصورات وهمية عن العظمة الاقطاعية كما لم تلههم أبهة الكنيسة عن السعي اليومي التماساً للربح والسلطة. وعلى النقيض من انجلترا لم تخضع مشكلات هولندا السياسية ولا تقسيماتها الاجتماعية لأي أوهام تتعلق بالماضي. العالم الواقعي هو عالم هولندا. لقد نما لدى هولندا حس بالواقع العقلي بفضل طبيعة موقفها الاستراتيجي المحفوف بالآخطار وبسبب طبيعة نشاطها الاقتصادي. وتؤكد هذا الحس وازداد قوة بسبب المشكلات الاجتماعية الناجمة عن النمو السريع لحياة الحضر، وبسبب تركيز عدد كبير من السكان في مساحة صغيرة وضئيلة من الأرض، وأكثر أجزاء هذه الأرض تأثيراً وفعالية، وهو الأرض الواقعة بين مصب نهر الراين - والشاطئ الجنوبي لمنطقة زويدر زي Zuider Zee لا يزال أقلها مساحة. ويمكن القول إن هذه المساحة، وفقاً لمعايير القرن السابع عشر كانت مكتظة بالسكان مما أدى إلى نشوء مشكلات تتعلق بالتنظيم الاجتماعي - نمو المدن والرفاهية والنقل والغذاء مما كان يقضي قدراً من الذكاء في مواجهتها، ومراقبة نقطة لمشكلات جديدة بطبيعتها مثلما كانت أكثر الحلول الهولندية، وإن روعة وجمال حياة المدن الهولندية وما اتسمت به من نظام ونظافة أسرى أوروبا. ولقد سحرت بوجه خاص عدداً من رجال الفكر الانجليز من أمثال سير وليام بيتي، وجون لوك، وسير وليام تمبل الذين عانوا بالمشكلات العملية للحياة الاجتماعية. ونعرف أن البندقية هي الوحيدة التي كان لها مثل هذا النجاح. بل إن مدينتي لومباردي وتوسكاني اللتين انجبتا مدينة برجوازية

تضارع مدن هولندا من حيث تعقد البناء ووفرة الثراء وجودة النظام اخفقتا في انجاز ما حققته مدن هولندا. إذ عجزت مدن البندقية عن أن تتجرد من بقايا السيطرة القطاعية ومن ثم كان استقرارها يتهدده دائما نشوب حرب اهلية، كذلك فإن الأوليغاركية التجارية في هذه المدن لم تنجح على الإطلاق في تأمين سيطرة مطلقة للحكومة. وطبيعي ان المقاطعات المتحدة، في الريف وفي المدن كانت تعاني، كما اشار الاستاذ بوكسر، من حالة فقر غير محتمل ، غير أن مستوى الوفرة الاجتماعية، كما تعبر عنه مظاهر الراحة في الحياة المدنية كان أفضل كثيرا من أي مستوى آخر عرفته أوروبا آنذاك. وجعلهم هذا، بالاضافة إلى مظاهر الثراء الواضحة التي يتمتع بها أثرياء هولندا، هدفا لحسد واعجاب جميع البلدان الأخرى في شمال وغرب أوروبا، وخاصة بريطانيا.

ان علاقات الترابط بين الفن والمجتمع لا تزال غامضة، ولكن يبدو أن ثمة قدرا من الحتمية فيما يتعلق بازدهار الفن الهولندي في القرن السابع عشر. ان هولندا لها تراث عريق في الانجاز الفني كعراقه الفن في ايطاليا. ولم يكن شمال هولندا وحده هو صاحب الهيمنة واليد الطولى في الرسم خلال تلك الحقبة وفي تلك المنطقة ذلك أن روبنز وفان ديك واتباعهما أحرزوا امتيازاً وتفوقاً كفنانين هولنديين إبان الاحتلال الاسباني، وهو ما عجز عن مجاراته جيرانهم الشماليون في العقود الأولى من القرن السابع عشر. لقد كان الفن الهولندي أكثر قتامة وأعمق جذورا في الواقع اليومي وهو ما نراه واضحا في رسومات رمبرانت للشيوخ من الرجال والنساء الذين حنكتهم الخبرة وأضناهم الزمان، أو المناظرة الطبيعية لكيوب أو الشواطىء عند فيرمر. ولكن مع العقد الثامن من القرن السابع عشر سار الفن الهولندي حثيثا نحو الانحلال. ولا يمكن للمرء أن ينسى كيف أن أغلبية الفنانين الهولنديين ووجهوا بالرفض من جانب معاصريهم. فقد مات هالز في بيت متواضع فقير، وافلس رمبرانت، وعمل ستين حارس فندق صغير ليستعين بذلك على الحياة،

واضطر فرمير الى رهن رسوماته ليحصل على الخبز. وفي القرن السابع عشر كانت المجتمعات الارستقراطية أكثر ثقة بذوقها الفني من مواطني الطبقة المتوسطة في امستردام و هارلم، كما وأن فرنسا، على نحو ما يشير الاستاذ جيل عن حق، والتي توقفت جيوشها عند خط المياه Water Line، رأت روحها تغمر مجال الفن في أراضي هولندا التي لم تقهر.

وعكس ذلك كان صحيحا بالنسبة لموضوع المعرفة، ذلك أن التأمل الفكري والفلسفي الذي كان في جوهره معاديا لنظم الحكم المطلقة، ازدهر في المناخ الحر الذي نعمت به المقاطعات المتحدة على نحو ما حدث في بريطانيا، ان هولندا لم تكن فقط ملاذا لكبار الفلاسفة التامليين من أمثال ديكرت او رجال التشريع من أمثال بيتر بابل وكذلك بالنسبة للفيلسوف جون لوك لفترة من الزمن بل انها أنجبت أيضاً علماء ومفكرين من المواطنين ذوي مكانة دولية عالية أمثال سيينوزا وهيجنز Huygens وليفهوك Leeuwenhoek وعلى الرغم مما حققته هولندا من انجازات جيدة في مجال العلم الا انها لم تتخذ اجراء من أجل وضع مؤسسات تعزز قواعده او تدعم تطوره. بينما على الرغم من أن لويس الرابع عشر استهجن الكثير من جوانب الفلسفة التأملية إلا أنه أدرك القيمة الكامنة للعلم وأنشأ أكاديمية العلماء لدعم تقدم العلم. ولم ينشئ الهولنديون أكاديميات للعلوم. كما لم يفعل ذلك بيت آل أورانج. ولكن وعلى الرغم من عدم توفر مساندة عامة إلا أن إسهامات هولندا في مجال العلم والفلسفة بل وأيضا في مجال مباحث علمية فرعية أخرى - مثل الهيدروليكا والزراعة والجغرافيا والقانون وغيرها - كانت إسهامات مذهلة بالنظر إلى إجمالي السكان. ووجد العلم والفلسفة حافزا لهما في الاتساع العظيم لمجال المعرفة التي يسرتها الاستكشافات الجغرافية. وحققت التجارة عبر المحيطات ما هو أكثر من الربح، إذ وسعت من آفاق معارف العقل.

كم كانت التجارة عبر المحيطات غنية عظيمة النفع لهولندا، مثيرة للعقل والفكر والخيال أيضا كما كانت حافزة للعلم والتكنولوجيا. بيد أننا نخطيء

إذا ما تسرعنا في الحكم وبالفنا في قيمتها وأثرها ودورها بالنسبة للمعجزة الهولندية في القرن السابع عشر. ويعود بنا الاستاذ بوكسر المرة بعد الأخرى الى تلك العوامل التي كان لها دورها هي الأخرى - تجارة بحر البلطيق الغنية التي كانت لهولندا الهيمنة عليها. وكذلك بطبيعة الحال التجارة الأوروبية المزدهرة التي اتخذت الأنهار وسيلة لها وسيطرت عليها هولندا. ويوضح لنا أيضا ان كثافة السكان في ذاتها حفزت كلا من الزراعة والصناعات الحرفية ومن ثم خلقت سوقا رائجة بين أبناء الطبقة المتوسطة التي كانت آخذة في التضخم وربما لو أن جميع أراضي هولندا كانت قد اتحدت لشهدت هولندا جميع مراحل التقدم الاقتصادي السريع الأخرى في مرحلة باكورة قبل بريطانيا. ان الفحم والصلب في بلجيكا والطاقة المؤتدة من مساقط المياه التي كانت ميسورة في أرينز Ardennes كان بإمكانها جميعها أن توفر العناصر الجوهرية الأساسية لثورة صناعية ولكن كان الهولنديون يفتقرون إليها. وحيث ان هولندا كانت خالية من كل مظاهر الصناعة الثقيلة فيما عدا بناء السفن، لذلك ظلت الصناعة فيها مركزة على الصناعات الحرفية. ومع تباطؤ سرعة حركة التوسع التجاري في هولندا، اتجهت حركة التنمية الاقتصادية الى خارج البلاد نحو الاستثمار وتصدير رأس المال بدلا من التقدم في اتجاه التنمية الصناعية. وترتب على هذا ان المجتمع الهولندي بعد عام ١٦٥٠، تغير ببطء شديد وغلب على هيكله طابع الثبات الملحوظ. وطبيعي ان المجتمع الثابت يؤكد بوضعه هذا انه مجتمع عادي مبتذل. وبعد عام ١٧٠٠ لم تعد هولندا تسهم إلا بالنزر اليسير في حضارة أوروبا. وإذا الجمال الرائع لمدنها الطافية على سطح الماء التي بلغت أوج الحدأة والفعالية في القرن السابع عشر قد اكتسب بطابع العصر. وإذا بنا ازاء بلد بغير تاريخ يعود ليعيش في الماضي.

جـ هـ بلومب

الباب الأول

حرب الثمانين عاما ونشوء أمة

في العاشر من يونيو ١٦٤٨ أرسل فرنسيسكو دي سوسا كوتينو، سفير البرتغال في لاهاي، برقية إلى سيده الملك معلنا ان هولندا فرغت توا من الاحتفال بتوقيع معاهدة السلام في مونستر بين مبعوثيها ومبعوثي الملك فيليب الرابع ملك اسبانيا وقال «اقتصر نداء السلام هنا على قراءة بنود المعاهدة في المحكمة العليا في الساعة العاشرة من صباح الخامس من الشهر الجاري - ووقع الاختيار على هذا اليوم والساعة لانه في مثل هذا اليوم والوقت منذ ثمانين عاما مضت تم اعدام كونت اجونت وكونت هورن على يد دوق الفا في بروكسل. وشاءت المقاطعات ان تستهل عهد حريتها في اليوم نفسه والوقت الذي مات فيهما هذان السيدان دفاعا عنهما. وبدا واضحا ان سوسا كوتينو تأثر للمعنى الذي استهدفه من تحديد الزمانحكام المقاطعات المتحدة في هولندا الحرة لهذه المناسبة التاريخية. ذلك لانه عاد وأكد عزمهم وتصميمهم على اختيار هذا التاريخ في برقية أخرى أرسلها بعد خمسة أيام إلى نظيره في باريس. وبذل أقصى ما في جهده، كوطني برتغالي، للحيلولة دون توقيع المعاهدة، التي اطلقت الآن إحدى يدي اسبانيا، العدو التقليدي للبرتغال، للتعامل معها بينما اليد الأخرى لا تزال مشغولة بالحرب ضد فرنسا. وأرسل تقريرا، افاد فيه، عن صواب، ان معاهدة مونستر أبعد ما تكون عن أن تصادف ترحيبا عاما من سكان المقاطعات المتحدة المزعومة. واختتم برقيته الثانية بملاحظة فلسفية اذ قال «ان الله يرفع ويحط قدر البشر لحكمة لا يعلمونها، وعادة ما يتجهون إلى عكس السبيل المتوقعة. وسوف يشهد الأحياء الكثير من التحولات التي سوف تجرى خلال فترة قصيرة.

لم تكن الاعوام الثمانون بالفترة القصيرة بالقياس إلى متوسط أعمار الناس في تلك الأيام، إذ كان هذا المتوسط ما بين ٣٠ و ٢٢ عاما في أغلب بلدان أوروبا وأن القليلين من شباب هولندا في يونيو ١٥٦٨ هم الذين امتد بهم العمر ليشهدوا اليوم الذي وصفه سنوسا كوتينو. ولكن ما كان لنا أن نجد مواطننا عاقلا في هولندا أو اسبانيا ممن هم على قيد الحياة في عام ١٦٤٨ ويذكر أن الاعوام الثمانين السابقة كانت أيام تحولات وتقلبات لم يسبق لها مثيل. ففي عام ١٥٦٨ شكل الهولنديون كتكتلات مركبة من ولايات ومدن يتحدث أهلها اللغة الفلمنكية أو الفرنسية. وشكلت معا اتحادا غير محكم الروابط يضم سبع عشرة مقاطعة تحت لواء ملك اسبانيا هابسبرج الذي امتدت املاكه من جزر فريزيان في بحر الشمال إلى الفلبين في بحر الصين. ومن المسلم به أن المؤمنين بمذاهب اللوثرية ودعاة مذهب إعادة التعمير Ana-baptism والكالفنية وغيرها من المذاهب البروتستانتية المارقة قد تدفقوا بكثافة إلى هولندا على نحو ما تشهد بذلك اضطرابات دعاة تحطيم الايقونات من المذاهب الإصلاحية التجديدية في عام ١٥٦٦ والذين نهبوا الكنائس وحطموا الايقونات وأساءوا معاملة القساوسة. غير أن أغلبية الناس كانوا لا يزالون على المذهب الكاثوليكي الروماني، بينما كان البروتستانتيون أقلية في صورة جماعات متناثرة في طول البلاد وعرضها. وكانوا في مقاطعات الشمال أقل كثيرا مما هم في الجنوب. واستطاع دوق ألفا أن يهزم بسهولة (في ٢١ يوليو ١٥٦٨) قوات الاحتياط التي استنفرتها وليام ولويس من آل أورانج في أول محاولة للمقاومة المسلحة ضد الحكم الاسباني والاضطهاد الديني. ولم تعد تلوح في الأفق فرصة أخرى كبيرة يمكن فيها لهؤلاء المتمردين المحبطين المفكرين أن يتحدوا اسبانيا ثانية دون مساعدة فعالة من انجلترا أو فرنسا. أما نبلاء شعب الفلاندر أو مقاطعة الولون ممن كان يمكن أن تعقد عليهم الآمال ليكونوا زعماء ثورة ناجحة فإن منهم من مات أو أودع السجن أو هرب أو قتله الخوف. وكانت مقاطعة انتويرب، من الناحية الاقتصادية هي مركز التجارة والتمويل دون منازع لأوروبا بشمال الألب وبيرينيس. وعلى الرغم

من أن امستردام كانت المدينة الرائدة والمركز الملاحي في شمال هولندا، وحققت ازدهارا مطردا من خلال عمليات الشحن التجاري الى منطقة البلطيق وفرنسا وشبه جزيرة ايبيريا إلا أنها لم يكن بإمكانها أن تكون المنافس، ناهيك عن أن تكون البديل لمقاطعة انتويرب كمركز تجاري رئيسي للعالم الغربي.

وبعد ذلك بثمانين عاما تغيرت الصورة تماما. ذلك ان المقاطعات المتحدة السبع للأراضي المنخفضة الحرة باتت متميزة تماما عن جاراتها العشر الشمالية وهي الأراضي التي ظلت على ولائها - أو أعيد فتحها - للتاج الأسباني والكنيسة الرومانية. ولم تؤمن المقاطعات الشمالية السبع استقلالها الكامل فحسب بل كانت سيدة امبراطورية بحرية وتجارية تفوقت على الامبراطورية البرتغالية، ونافست امبراطورية الأسبان، وامتدت من جزر التوابل في أندونيسيا الى شواطئ الكاريبي. وبدلا من أن تخضع الأراضي المنخفضة الحرة لحكم ملك هابسبورج أصبحت تخضع لحكم أوليغاركية محلية، وكان أول من تولى حكمها امير ثري قوي النفوذ من آل أوراج وحفيد لاجيء مطارد في عام ١٥٦٨ والذي تزوج أميرة من الأسرة المالكة الانجليزية. ومع حلول عام ١٦٤٨ اختفت الكالفنية تماما من الأراضي المنخفضة الجنوبية مثلما اختفت جميع أشكال المذهب البروتستانتي الأخرى. وكانت الكالفانية هي المذهب الرسمي والعقيدة الوحيدة المقبولة في المقاطعات الشمالية السبع على الرغم من أن أنصارها الملتزمين بها كانوا أقل من ثلث السكان. والجدير بالذكر ان القوات المتعددة المشارب والأجناس التي سحقها دوق الفا بسهولة شديدة في عام ١٥٦٨ نجحت هذه المرة بفضل جيش ممول بصورة حسنة وله قيادة متميزة ونظام جيد حتى أصبح ينظر اليه باعتباره الأول ولا ثاني له في أوروبا. وحاز الاسطول الهولندي الذي لم يكن له وجود في عام ١٥٦٨، شهرة بأنه أفضل أسطول في المحيط الأطلسي وذلك بفضل سلسلة من الانتصارات تمثلت ذروتها حين دمر م.هـ. ترومب أسطول الأرمادا الأسباني في ٢١ أكتوبر ١٦٣٩. وأخيرا وليس آخرا لم تحل فقط

امسترا دم محل انترويب كعاصمة تجارية لأوروبا بل حققت أوج ازدهارها حتى غدا اسمها علما في اقصى بقاع العالم على نحو لم تشهده لندن أو باريس أو البندقية. وايا كان رأي سكان بعض المقاطعات الأخرى في معاهدة مونستر Munster إلا أن أوليجاركية المدن في هولندا كانوا راضين عنها كثيرا وعبروا عن ذلك بالاحتفالات البهيجة واطلاق الألعاب النارية واضاءة الشوارع والمدن ليلة الخامس من يونيو ١٦٤٨. ولم يفسد شعورهم هذا بالرضى حلول صيف مطير على غير العادة وما أدى اليه من تعفن القش في الحقول. إذ لم تكن الزراعة هي عصب ثروتهم آنذاك.

ان العوامل الدينية والعسكرية والجغرافية أدت جميعها أدوارها في الاسهام في نشوء الأمة الهولندية على مدى سنوات حرب الثمانين عاما لتكون اشد امبراطوريات عصرها قوة ومنعة. وان هذا الصراع الذي بدا من أول امره غير متكافئ انتهى بأن قبل الملك الكاثوليكي الملتزم أكثر من غيره الشروط التي فرضها عليه بعد ذلك خصومه من المواطنين الذين انتفضوا فجأة ضده. والسبب الوحيد الغالب لنجاح الهولنديين هو التطور الاقتصادي اللافت للنظر. حقا للمقاطعتين البحريتين المعروفتين باسم هولندا وزيلاندة، أما الثروة الزراعية التي أصابتها المقاطعات الخمس الباقية فهي غير ذات بال عند المقارنة بنجاح المقاطعتين الأوليين. ونخص بالذكر الطفرة المفاجئة والدرامية للتجارة البحرية الهولندية منذ عام ١٥٩٠ وما بعده والتي تشكل نوعا من المباغته غير المتوقعة لمعاصريها كما تشكل لغزا في نظر الاجيال التالية. ويقول في هذا الصدد سير جوزيا تشايلد Josiah Child في عام ١٦٦٩: «ان الزيادة المذهلة التي حققها الهولنديون في تجارتهم المحلية والخارجية وفي ثرواتهم والشحن البحري هي موضوع يحسددهم عليه أبناء عصرهم. ولعلها قد تكون اعجوبة في نظر اجيال المستقبل»(*) ولكن كيف تاتي

• الطبعة الرابعة - لندن. وقد صدرت الطبعة الأولى في عام ١٦٦١

• J. Child, Anew Discourse of Trade .

لقاطعتين من الدرجة الثانية ولا تثيران الحماس نسبيا في بحر الشمال ان تشكلا قلب الاتحاد الكونفيدرالي الذي اصبح اهم امة بحرية في العالم خلال عمر جيل واحد؟

ان نهضة القوة البحرية الهولندية بدت في نظر الكثيرين ايامها وفيما بعد حدثا مثيرا ومباغتيا، وقد نمت وارتكزت على اسس صلبة كانت موجودة منذ زمن طويل قبل عام ١٥٦٨. والاسباب الاساسية للنمو الاقتصادي الذي حققته المقاطعتان البحريتان نجد تفسيراً واضحاً لها في عريضة قدمتها ولايات هولندا الى الامبراطور شارل الخامس بعد فترة وجيزة من اخضاعه للمقاطعات السبع للأراضي المنخفضة لسلطانه في عام ١٥٤٢ - وهو الحدث الذي يمثل ذروة عملية معقدة اشتملت على سياسة توحيد وثيق العرى والاستخدام الموسمي للقوة وما أصابته من ثروة.

من الصحيح تماما أن مقاطعة هولندا تمثل اقليماً صغيراً جداً، ويحيط بها البحر من الجوانب الثلاثة. ويتعين حمايتها من البحر عن طريق أعمال وجهود اصلاحية عديدة تقتضي نفقات باهظة، من ذلك انشاء الحواجز والسدود الترابية والقنوات والطواحين وانتزاع اراض من البر واستصلاحها واستزراعها. زد على هذا ان المقاطعة المعروفة باسم هولندا تشتمل على كثبان رملية ومستنقعات وبحيرات تتسع مساحتها يوميا علاوة على احياء جرداء لا تصلح لزراعة او رعي، لهذا كله نجد الرجال من سكان هذا الاقليم اذا ما ارادوا توفير معاش لزوجاتهم واطفالهم واسرهم اضطروا الى اداء أعمال مثل الصناعات اليدوية والاعمال التجارية. واتبعوا لسلوبا حكيما في هذا كان يحضروا المواد الخام من الاراضي الأجنبية ويعيدوا تصديرها في صورة منتجات مصنعة بما في ذلك انواع مختلفة من الاقمشة والملابس. ويصدرون منتجاتهم إلى اماكن عديدة مثل ممالك اسبانيا والبرتغال وألمانيا وسكوتلاندا، وبخاصة الدانمرك والبلطيق والنرويج ومناطق أخرى مماثلة ويعودوا من تجارتهم مع هذه البلدان ومعهم سلع وبضائع من منتجاتها وأهمها القمح

وغيره من الحبوب. ومن ثم فإن العمل الأساسي للاقليم لا بد وأن يحتاج إلى شحن بالسفن والمهن المرتبطة بها، التي يتكسب من خلالها كثيرون رزقهم، مثل التجار وربابنة السفن والملاحين والبحارة ونجارى السفن وغير ذلك من مهن. وهؤلاء يقومون بعمليات قيادة السفن وما يستتبعها غير أعمال الاستيراد والتصدير التي تشمل جميع السلع، يأتون بها من هناك ويبيعونها هنا في الأراضي المنخفضة وفي المناطق المجاورة لها مثل برابانت وفلاندرز وغيرهما. (٥)

بعبارة أخرى أن تجار وبحارة هولندا وزيلاندا كان لهم نصيب كبير، وربما الأكبر في تجارة النقل البحري بين البلطيق وغرب أوروبا إلى ما قبل منتصف القرن السادس عشر وقبل أن يبدأ الصراع مع اسبانيا. وربما كانت صناعات الألبان والصناعات الزراعية في شمال الأراضي المنخفضة أهم بكثير مما قد يظن أصحاب عريضة ١٥٤٨، ومع ذلك كان من الصحيح أن صناعة صيد الأسماك الواسعة النطاق في بحر الشمال، وكذلك النقل البحري مع البلطيق وفرنسا وشبه جزيرة ايبيريا أعظم شأنًا بكثير. وواضح أن أحد أسباب نمو تجارة هولندا الخارجية هو الوضع الجغرافي للأراضي المنخفضة المطلة على بحر الشمال، وسهولة اتصالها بالأسواق في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا، ولكن السبب الرئيسي في انعقاد لواء الريادة لهولندا دون منافسيها الأساسيين، وفي المدن الأخرى، هو أن سكان هولندا وزيلاندا اداروا سفنهم بكفاءة اقتصادية أفضل، بالإضافة إلى قدرتهم على تقديم أجور شحن أقل والبيع بأسعار أدنى من منافسيهم.

وثمة قسمة أساسية ميزت التجارة البحرية - وأشكال أخرى من الأعمال المشابهة - في الأراضي المنخفضة الشمالية وهي القسمة المعروفة باسم المشاركة Rederij وهذا نمط شديد المرونة من المشروعات التعاونية

* E. Luzac, Holland Rijkdoun.

● ٢ مجلد - طبعة ليدن ١٧٨٠ - المجلد الأول ص ٦٠-٦١.

التي يشترك فيها فريق من الناس يتضامنون بشأن شراء أو امتلاك أو بناء أو تاجير السفن وشحنها وكذلك حمولتها من البضائع. وكان الشائع الى ما قبل النصف الثاني من القرن السابع عشر أن يكون ربان السفينة أو قبطانها شريكا في ملكية السفينة وصاحب مصلحة مباشرة في بيع حمولتها. وصاحب السفينة المسمى Reders قد يساهم في رأس المال بنسب مختلفة، ويتدرج هؤلاء بين مستويات عديدة ابتداء من التجار الاغنياء الذين يدعمون بحصص كبيرة إلى النوتي الصغير بدراهمه القليلة. وزعم كاتب في عام ١٦٤٤ هأنك لا تجد مركب صيد كبيراً أو صغيراً أو حتى قارباً للصيد تم تجهيزه وانطلاقه من هذه الأرض الا وهو شراكة بين اشخاص عديدين. وقال ايضا انك لا تجد سفينة واحدة من بين مائة تعمل في هذا المكان الا وهي مملوكة لمشروع تعاوني من نوع الريديريج Rederij. وعلى أية حال فلإن هذا الأسلوب في العمل يسر نظام الاستثمار في مجال صناعة السفن وصناعة الصيد وساعد على الانتشار الواسع لنظام الملكية كما عمل على دمج وتوحيد المجتمعين التجاري والبحري الى حد كبير.

وكان طبيعيا تماما في مجتمع من التجار والبحارة مثل هذا المجتمع الذي وصفه أهله في عام ١٥٤٨، أن تتجه السلطات السياسية والاقتصادية إلى التركيز في أيدي طبقة التجار وبخاصة الاثرياء منهم. وضمنت هذه الفئة الأخيرة سيطرتها في نهاية الأمر على المدينة أو على المجالس المحلية خلال فترة الخريف من العصور الوسطى، وفيما يختص بكل من هولندا وزيلاندا نجد أن أغلبية أعضاء مجالس المدينتين هم إما من ملاك السفن انفسهم أو من المستفيدين مباشرة من فرع أو عدة أفرع من التجارة عبر البحار - تجارة الحبوب والأخشاب في الشمال، والنبذ والخمور والفاكهة والملح في الجنوب أو صيد أسماك الرنجة أو صناعة تصدير الأسماك. ووضح هذا كثيرا من تلك العريضة التي أسلفنا ذكرها والمقدمة من ولايات هولندا الى شارل الخامس في عام ١٥٤٨، وتعاظم نفوذ مجالس المدينة الذي زاد ولم ينقص بفعل الحرب

ضد الأسبان. واقتترنت هذه الحرب، باستثناء فترات قصيرة نسبيا، بزيادة مطردة في التجارة الهولندية عبر البحار، خاصة بعد سنة ١٥٩٠. وفي المقابل نلاحظ ان التجارة البحرية منحت سلطة سياسية واقتصادية اكبر لاعضاء مجالس المدن ولأبناء الطبقة المعروفة باسم وجهاء القوم وهي الطبقة التي تضم اعضاء هذه المجالس.

ونعود لنؤكد من جديد ان هذا التطور كان واضحا في مقاطعتي هولندا وزيلندا البحريتين اكثر منه في المقاطعات الأخرى، التي غلب عليها الانتاج الزراعي وسادتها طبقة النبلاء الزراعيين (كما هو الحال في جلدزلاند) وأغنياء الفلاحين (مثل مقاطعة فريزلاند). إذ مارس هؤلاء سلطة أوسع تفوق سلطة مجالس المدن. وفي جميع الأحوال كان وضع مجالس المدن في جميع المقاطعات قيما يختص بأول أمير من أسرة أورانج أقوى كثيرا مما كانت عليه في عهد دوقات آل بورجندي Burgundy أو ملوك أسبانيا. وعلى الرغم من الزيجات الثلاث الناجحة التي اقترن بها وليام سايلنت باميرات من الورثة الأثرياء الا انه كان كمتنرد نصف ناجح، وتزايد اعتماده باطراد على الدعم المالي والأدبي من المدن. حقا ان هولندا وزيلندا اعترفتا به في عام ١٥٨١ حاكما عليهما - ومن ثم الذين نصبوه بدورهم في نهاية الأمر. غير أن العديد من المدن التي ناصرت ثورة الأراضي المنخفضة تنصل أهلها من دين بريل Den Briel بعد ان وقع في أسر الجماعات المعروفة باسم شحاذو البحر Sea Bergers في عام ١٥٧٢ وهي جماعة شبه قراصنة وأنكروا أنهم منحوه مثل تلك السلطة على الرغم من ان هذه هي إحدى الصفات الشرعية لحكام المقاطعات.

وان انقسام الأراضي المنخفضة الى شمال تسوده البروتستانتية وجنوب كله كاثوليكي روماني لم يكن نتيجة حتمية بل محصلة تفاعل عوامل متباينة جغرافية وعسكرية ودينية واقتصادية - ومن بينها مجالس المدن التي كان لها دور عظيم الشأن. لقد حارب وليام الأول وهو من آل أورانج في سبيل حرية المقاطعات المتحدة السبع، وتصور (وهو الذي تحول على التوالي من

اللوثرية إلى الكاثوليكية الرومانية الى الكالفنية) قيام دولة يتعايش فيها البروتستانتيون والكاثوليكيون الرومان على أساس من الاحترام المتبادل والمساواة أو على أساس التسامح المتبادل على أقل تقدير. غير أن المجموعة الرئيسية التي تمثل القلب من بين مؤيديه الكالفنيين في صفوف جماعات شحاذي البحر نظروا نظرة ازدراء الى هذا الضرب من التسامح. وعقد هؤلاء العزم على فرض سيادة مذهبهم البروتستانتي الخاص بأي وسيلة كانت. وهذا ما فعلته أغلبية المدن التي استسلمت لهم خلال صيف ١٥٧٢، شريطة ألا - يتعرض سكان هذه المدن من الكاثوليك الرومان للأذى والسماح لهم بإداء شعائرتهم الدينية في كنائسهم. بيد أن هذه الشروط تهاوت تدريجيا وأغفلها المنتصرون الذين ملأوا مجالس المدن بأنصارهم الذين عينوهم من قبلهم محل أصحابها الذين أيدوا أي مظهر من مظاهر التردد من دفع البروتستانتية وأظهارها على الكاثوليكية الرومانية، وبعد أن ضمنوا لأنفسهم السيطرة على مجالس المدن طردوا رجال الدين الرومانيين وقصروا حرية التعبير على العلمانيين من الكاثوليك الرومان بدلا من كفالة حرية العبادة العامة. واستطاعت الأقلية البروتستانتية المكافحة العمل بهذه الصورة لأسباب منها أن الكثيرين من المواطنين الكاثوليك الرومان كانوا من بين حوالي ٤٠٠٠ نسمة فروا من هولندا وحدها خلال صيف الأحداث الدامية في عام ١٥٧٢. وبهذا أصبح بالإمكان ملء أماكنهم الشاغرة بمواطنين وتجار بروتستانت ممن سبق لهم أن تركوا الأراضي المنخفضة عندما عمد كل من الكاردينال جرانفيل ومحاكم التفتيش ودوق ألفا Alva على التوالي إلى تشديد اضطهادهم للمنشقين عن العقيدة، وعاد هؤلاء المنفيون الآن مع جماعات شحاذي البحار Sea Beggars. وعلى الرغم من أننا لا نملك معلومات كافية عن التحولات التي طرأت على تشكيل جميع مجالس المدن خلال السنوات الأولى من الثورة ضد إسبانيا، إلا أننا قد لا نخطئ إذا ما افترضنا أن أغلبية أصحاب المال والمكانة في المجتمع سلكوا على نحو ما سلك نظرائهم في الثورات الأخرى السابقة عليهم أو المعاصرة لهم. معنى هذا أن الكثيرين من المواطنين

الأثرياء الذين انتخبوا أعضاء مجالس المدن رأوا السلامة في مسابقة الأحداث الجديدة بدلا من أن يصيبهم ما هو أسوأ. وحتى يحفظوا وضعهم المتميز ومصالحهم المادية في أعمالهم - ناهيك عن ضمان أمن زوجاتهم وأطفالهم - أعلنوا قبولهم البروتستانتية سواء عن نية صادقة أم لا. ومع مرور الوقت، فقد أصبح واضحا أن الجمهورية الهولندية ظهرت لتبقى، ازداد توافقهم وتأقلمهم مع الكالفنية الرسمية ولو ظاهريا - بيد أنهم قاوموا عادة، بصورة نشطة أحيانا، وسلبية أكثر الأحيان جهود الكالفنيين المتطرفين بعامة والقساوسة أو رجال الدعوة والوعظ أو Predikants بوجه خاص حين يحاول هؤلاء جعل مصالح الدولة - والتجارة - في المرتبة التالية لمصالح والعقيدة المسيحية الصحيحة بعد الإصلاح..

وإنها لمشكلة مركبة أن نحاول معرفة إلى أي مدى وعلى أي نحو من حيث السرعة تخطى الشماليون من سكان الأراضي المنخفضة عن عقيدتهم القديمة إلى العقيدة الجديدة، غير أن بإمكاننا أن نشير بإيجاز إلى مختلف الضغوط التي مارسها الأقلية الكالفنية الحاكمة ضد العامة والخاصة من أهالي البلاد لحملهم على التحول إلى العقيدة الجديدة. ونظرا لأن جميع الوظائف البلدية والحكومية تم احتجازها على الفور لأولئك الذين اعترفوا باعتناقهم الكالفنية الأرثوذكسية، فإن هذا السبب وحده كاف ليكون حافزا للخاصة من أبناء المدن للملاءمة مع الوضع الجديد. وازداد هذا النزوع سرعة بفعل الأزمة السياسية الدينية في عامي ١٦١٨/١٦١٩ عندما وقع انقلاب الأمير موريس ضد أولدنبان رنفلت Oldenba renvelt وإجراءات المجمع الكنسي في دور درشت التي ساعدت جميعها على تعزيز نفوذ القساوسة الكالفنيين وأنصارهم من العامة. ومع الوقت جرى التوقيع على معاهدة مونستر Mun-ster في عام ١٦٤٨ وأصبحت الأغلبية العظمى من خاصة الناس كالفنيين بحكم الانتساب إلى الكنيسة أن لم يكونوا عناصر نشطة بوضوح. وعلى الطرف الآخر من الميزان الاجتماعي نلاحظ أن جميع الإجراءات والتدابير

المتعلقة بالاشراف على المؤسسات الخيرية ومساعدة الفقراء أصبحت بعد فترة من الزمن في يد رجال الدين الكالفنيين وأشياهم بعد طرد رجال الدين من الكاثوليك الرومان ومصادرة أديرتهم وبيوت الصدقات والاحسان الخاصة بهم وكذلك ما عرف باسم مؤسسات التقوى. وحفز هذا الكثيرين من الفقراء والكادحين من سكان الحضر، خاصة العاطلين وأولئك الذين كانوا يعانون من البطالة الموسمية (مثل البحارة والصيادين) الى السعى للتلاؤم مع العقيدة الجديدة ولو من أجل الحصول على الخبز لانفسهم ولعائلاتهم. وتولى الكالفنيون شئون الاشراف والرقابة على مناهج ومقررات التعليم في المدارس الابتدائية التي كانت أكثريتها موجودة في مبان صادرها الكالفنيون من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. ولا بد وأن هذا الاجراء أدى الى المزيد من إحكام قبضة العقيدة الاصلاحية الجديدة على الأجيال المتعاقبة من أبناء جميع الطبقات.

وثمة بحوث أعدها مؤخرا كل من اينو فان جلد Enno van Gelder وفرهيدن A.L.E. Verheyden تناولت الأصول الاجتماعية لـ ١٢٣٠٢ ضحية ادانهم «مجلس الأحداث الدموية» الذي اشتهر بسمعته السيئة، خلال الفترة ١٥٦٧-١٥٧٧. وتشير هذه البحوث إلى أن قطاعا كبيرا من سكان الأراضي المنخفضة اتخذ إما موقفا سلبيا أو معاديا نشطا إزاء الكنيسة الرومانية في ستينيات القرن السادس عشر وتورطت في هذا أعداد كبيرة اشتملت على ارسنقراطيين وتجار وأطباء جراحين ومحامين وصيادلة وحدادين ونجارين وبنائين وحلاقين وكثيرين غيرهم من أصحاب مهن وحرف ومشارب مختلفة. وعلى الرغم من أن أغلبية هؤلاء ليسوا كالفنيين، كما هو محتمل، إلا أن المرجح أن الكثيرين منهم ممن كان مصيرهم النفي أو السجن قد أصبحوا كالفنيين في المدن حيث حاولت جماعات «شحاذو البحار» فرض حكم الاختيار الإلهي. وفي ظل هذه الظروف كان لا بد وأن يكون تقدم البروتستانتية في المدن أسرع منه في الريف وأن يتسم بالبطء في الأحياء

الريفية حيث ظل السادة من ملاك الأراضي على ولائهم للعقيدة القديمة واقنذى بهم المستأجرون. وهكذا بدا تقدم العقيدة الجديدة في شمال الأراضي المنخفضة متباين المستويات. ومن المشكوك فيه الى قبيل معاهدة مونستر الحكم بأن البروتستانتين على اختلاف مللهم ونحلهم كانت لهم الاغلبية على ابناء بلدهم ممن ظلوا على ولائهم لروما او كانوا على وفاق معها بصورة او اخرى.

ونظرا لأن تفوذ ابناء الطبقة الحاكمة في المدن لم يهتز إلا بصورة عابرة نتيجة التمرد الذي تفجر ضد اسبانيا ونظرا لأن ابناء هذه الطبقة كانت لديهم القدرة على دعم موقفهم باعتبارهم الحكام على مدى حرب الثمانين عاما، فإن بالامكان ان ندرس بتفصيل اكثر وظيفتهم ومكانتهم، في ضوء مقاطعة هولندا باعتبارها الأهم شأنًا. كانت مدن هذه المقاطعة يديرها منذ الحقبة الأخيرة من العصور الوسطى، مجالس تتألف من ٢٠ الى ٤٠ عضوا من أغنى وأكرم المواطنين ويجرى انتخابهم من بين مواطني كل مدينة الذين عرفوا «بالحكمة والثراء» ويتولون السلطة مدى الحياة، أو الى حين اعتزامهم الهجرة للحياة في مكان آخر ويملا أقرانهم الأماكن الشاغرة بمواطنين لهم نفس المكانة الاجتماعية. وينتخب أعضاء مجالس المدن من بينهم كل عام عمدة أو عمدة المدن وأعضاء المجالس التشريعية الذين يشكلون الحكومة المحلية أو السلطة ذات السيادة، ومهمتهم الأساسية تطبيق العدالة وتنظيم الضرائب المحلية بالنسبة لمواطنيهم في المدينة. ويتولى الحرس المدني أو مجموعات الميليشيا مهام الحفاظ على الأمن والنظام، وهو ما يشبه إلى حد ما جماعات الحرس الوطني في إنجلترا ولكن يتولى امر قيادتهم العليا أعضاء الطبقة الحاكمة. وغالبا ما يقوم العمدة بدور الضابط المسئول أو الكولونيل لجماعات الحرس. ونرى أشكالهم مألوفة لنا في لوحات رسامين من أمثال رمبرانت في لوحة «حراس الليل» (١٦٤١) - وقرانز هالز في لوحة «الوليعة» للحرس الوطني في سانت أدريان (١٦٢٧).

وبعد أن توقفت ولايات هولندا عن ولائها للملك فيليب الثاني ملك اسبانيا في عام ١٥١٨ أصدرت قانونا يحظر على أعضاء مجالس المدن التشاور مع ممثلي النقابات الحرفية (الذين انبثقوا عنها أساسا في العصور الوسطى) أو مع ممثلي الحرس الوطني بشأن أمور المقاطعات. وهكذا استفاد أبناء الطبقة الحاكمة من الصراع ضد اسبانيا من أجل دعم وتعزيز وضعهم كأوليغاركية وطنية دائمة وكذلك من أجل حرمان المواطنين العاديين من أن تكون لهم أي كلمة مباشرة فيما يختص بالادارة المحلية أو ادارة المقاطعات. ويمكن القول ان هذا النظام لحكم الخاصة كان متشابها في جميع مدن المقاطعتين البحريتين مع وجود فوارق في التفصيلات من حيث عدد العمد (من ١ إلى ٤) أو عدد أعضاء المجالس التشريعية (من ٧ إلى ١٢). ويمكن أن نضيف إلى هذا أنه خلال القرن السابع عشر اشترى الراسماليون الحضريون أبناء الطبقة الحاكمة أغلبية الاراضي في مقاطعات هولندا وزيلندا وأوترشت. وساعدهم هذا على استخدام مجالس المدن من أجل تعزيز تطور التجارة والصناعة في المدن على حساب الصناعات المنزلية والريفية في الاقاليم.

كانت كل ولاية من ولايات المقاطعات السبع ولاية ذات سيادة وكانت الولايات في هولندا تتألف من وفود يعينها حكام المدن الثماني عشرة علاوة على وفد اضافي يمثل نبلاء المقاطعة ولكل ولاية حق ارسال وفد بأي حجم تشاء. ولكن الوفد له صوت واحد مهما كان عدده. وكانت المدن في زيلندا لها جميع الاصوات عدا واحد. وتمتع نبلاء جلدزلاند والملاك الزراعيون. ولكن الملاحظ أنه حتى في المقاطعات التي لم تكن فيها الهيمنة لممثلي عليا القوم من سكان الحضر، على نحو ما كان الحال في المقاطعتين البحريتين، كان هؤلاء يمارسون سلطة ونفوذا بفضل مكانتهم الاقتصادية، وجرت العادة ان تنتخب المجالس المحلية حكام المدن وتقوم ولايات المقاطعات بشغل المناصب القضائية والقيادية في الريف. وبهذه الطريقة، وكما يقول بروفيسور جـ. رينيار، فإن الاعتراف بسيادة ولايات المقاطعات يعني هيمنة الشرائع العليا

من الطبقة المتوسطة على كل الجمهورية الهولندية فيما بين عامي ١٥٨١ و ١٧٩٥. أو كما قال و/ب.م. فليك أن الجمهورية الهولندية كانت خاضعة في واقع الأمر لسيطرة أوليجاركية أو طبقة من الأغنياء تضم حوالي ١٠٠٠٠ نسمة احتكروا تقريبا جميع المناصب الهامة في المقاطعات والمجالس المحلية*.

وكانت السياسة الخارجية مسئولية ادارة عموم الولايات في لاهاي، إذ بعد اتحاد أوترشوت Utrecht في عام ١٥٧٩ وافقت المقاطعات المتمردة على أن تكون في هذا المجال على الأقل جبهة متحدة أمام العالم الخارجي. ولم تكن ادارة عموم البلاد سوى جمعية أو مجلس للمفوضين الممثلين لولايات المقاطعات السبع ذات السيادة، والمتزمين بالتعليمات التي تلقاها كل وفد من مقاطعته.

وبالنسبة لأي قرار يصدر عن هذه الادارة العامة أو الاتحاد ككل فإنه يلزم التصويت عليه بالاجماع ليكون قرارا صحيحا. وفي حالة عدم الاتفاق، أو حينما يناقش اقتراح ما ولا يتفق مع التعليمات يصبح لزاما على كل وفد العودة الى مجلس مقاطعته لاجراء المزيد من المشاورات والحصول على تعليمات جديدة، وغالبا ما كانت ولايات المقاطعات تحيل بدورها الموضوع إلى مجالس المدينة قبل الوصول بشأنه إلى قرار. ولا تعتبر أي مقاطعة نفسها ملزمة بالخضوع لأي أمر صادر عن ادارة عموم الولايات ما لم يقدم وفدها موافقتها المعتمدة على ذلك. وكل وفد له صوت واحد فقط مهما كان عدد أعضائه.

وهكذا كانت ادارة عموم الولايات المؤلفة على نحو غير ملائم هي الجهاز الإداري القومي الوحيد للجمهورية الهولندية، وكان عسيرا جدا عليها العمل

* G.J Renies, the Dutch Nation. An Historical Study. [London 1944] P. 16-31; B.M. Vlekke, Evolution of the Dutch Nation [New York, 1945] pp. 162-60

بفعالية وكفاءة مع تصارع مصالح المقاطعات او على الاقل إذا ما اخفقت المقاطعات في التوفيق بين آرائها. وفي فترة الازمات او إذا ما إدلهمت الأمور فلن شخصا ما قويا أو فريقا صاحب نفوذ يتولى القيادة ويفرض قرارا مستندا في هذا إلى مزيج بين السلطة والاقناع. وواضح ان القوتين القادرتين على توفير هذه القيادة هي مقاطعة هولندا وبيت آل اورانج. واعتادت هولندا ان تتحمل نظريا ٥٨ بالمائة من عبء الجمهورية المالي وان تحملت عمليا اكثر من ذلك. والجدير بالذكر أن الاهمية الاقتصادية الغالبة لاستردام عقب عام ١٥٨٥ هيا لها دور السيادة على ولايات هولندا في ادارة عموم الولايات. ولهذا فان مقاطعة هولندا، والتي تعني عمليا مدينة امستردام، كانت لها القيادة اذا ما تساوت جميع الأمور، ومارست هذه القيادة من خلال اعلى جهاز لها والمعروف باسم Road Pensienaris والذي يعمل متعاوننا مع لجنة صغيرة تنتخبها ادارة عموم الولايات. ومن ثم أصبحت الهيمنة الاقتصادية لهولندا هي ركيزة السلطة السياسية لجوهان فان اولدنبار نقلت Johan van Ol- denbarnevelt عقب وفاة وليم الاول (١٥٨٤) وجوهان دي ويت Johan de Witt بعد وفاة وليم الثاني (١٦٥٠).

وكان اقل ما يوصف به وضع آل اورانج في جمهورية أوليجاركية انه وضع فريد. إذ ان الامير حاكم مقاطعة او أكثر، وهو عمليا القائد العام للقوات المسلحة وادارة عموم المقاطعات، ولكن كانت له كلمة (وأحيانا الكلمة الحاسمة) في تعيين بعض أعضاء هذه الهيئات. والجدير بالذكر ان امراء آل اورانج أصبحوا حتما، وبحكم الميلاد والمحتد والثراء والبسالة الحربية سواء عمليا أم تقديريا - محور وبؤرة العواطف الملكية التي شاعت آنذاك بين صفوف الطبقات العليا التي كانت تنوق إلى حياة البلاد وإلى رأس متوج. ومن بين من حملوا هذه العاطفة أيضا بعض أبناء الطبقات الدنيا الذي يكتنون الكثير من التوقير والاحلال لامير من سلالة ملكية بحكم الدم إذ هو عندهم افضل من أمير تاجر. ومن المحتمل في هذا الصدد أن نجد أن القدر الأكبر من

مشاعر التعاطف مع آل أورانج والتي كانت سائدة بين الطبقات الدنيا من العمال إنما ترجع أساسا إلى عزوفهم عن الحكام من مواطنيهم الأوليغاركيين أكثر مما ترجع إلى أي سبب آخر. ولكن أمراء آل أورانج، وعلى الرغم من اقتراحهم بأميرات من أسر ملكية أجنبية بعد عام ١٦٤٤، إلا أنهم كانوا أكثر تأثرا بنظرة وعقلية الأوليغاركية الوطنية التي تربطهم بها علاقة وثيقة في مجال حكم البلاد ويعتمدون عليها كسند قوي يدعم وضعهم.

وعندما تعاون بصدق ومودة كل من أمير آل أورانج والحاكم الأعلى لمقاطعة هولندا، على نحو ما كان في عهد وليم الأول وأولدن بارنفلت ثم في عهد وليم الثالث وانطوني هنسيوس، بهذا أمكن حفز إدارة عموم المقاطعات وولايات المقاطعات للعمل وفق سياسة محددة ومتفق عليها مسبقا. ولكن لوحظ أنه عند وقوع احتكاك أو خلاف بين هاتين الشخصيتين البارزتين، أو حينما لا تكون لأحدهما أو لكليهما وضع السيادة التي لا تقبل التحدي (على نحو ما كان الحال بالنسبة إلى الأمير موريس في الفترة من ١٦١٨-١٦٢٥، وجوهان دي ويث ١٦٥٤-١٦٦٨، وليم الثالث في ١٦٧٢-١٦٧٨) فإن الغيرة القاتلة بين هولندا وزيلاندا أو بين هاتين المقاطعتين البحريتين من جهة وبين المقاطعات الخمس الأخرى أو شيوع كراهية عامة ضد استعلاء أمستردام بصورة مبالغ فيها، كان اتحاد المقاطعات، وهو اتحاد غير متماسك، يتحول إلى ما أسماه سير وليم تمبل «اتحاد المقاطعات المفككة». وقد يوصف الوضع في أحسن الظروف بأنه تحالف وليس اتحادا. علاوة على هذا فإن حكام الولايات حتى إذا ما تمتعوا بسيطرة سياسية لا تقبل التحدي، إنما كانوا يعتمدون في هذا على تعاون أبناء الطبقة الحاكمة في سبيل توفير الوسائل المالية والاقتصادية اللازمة لانجاز سياستهم. واستطاعوا أن يدفعوا خلصة بعدد من الأوليغاركيين المواطنين إلى داخل إدارة عموم الولايات مستعينين في هذا بأصدقاء شخصيين لهم بين صفوف الإدارة والارستقراطية الزراعية. بيد أنهم عجزوا عن تدمير السلطة الاقتصادية للشرائح العليا من

الطبقة المتوسطة التي جعلت من المواطنين الاثرياء - وليس حكام الولايات من الامراء - الحكم النهائي الذين يقررون مصير الجمهورية.

وإذا كان استيلاء فريق «شحاذا البحر» على مدينة دن برييل Den Briel وعدد آخر من المدن خلال صيف ١٥٧٢ يمثل بداية المقاومة المسلحة ضد اسبانيا، إلا ان الآراء مختلفة بشأن المدى الذي يمكن أن نصل إليه في وصف ثورة الاراضي الواطئة بأنه حركة شعبية. ان الشيء اليقين ان شعورا بالاستياء واسع النطاق بل وعميق الجذور في بعض المناطق ساد آنذاك ضد كنيسة روما بين جميع الطبقات على نحو ما تشهد به وقائع اتساع نطاق الانصار الذين انضموا الى مذاهب اللوثرية ودعاة تجديد العماد والكالفنية وغيرها من صور المروق التي انتشرت وناصرتها أفواج من جميع قطاعات المجتمع. بيد أن هذا الاستياء ضد العقيدة القديمة لم يكن يعني دائما وأبدا وفي جميع الانحاء اصرارا على نبذ حياة الفردية لرجال الدين، أو رفض الاحتفال بالقداس والغاء المراتب الدينية.

وظل الكالفنيون المكافحون دائما هم الاقلية، مثلما كان الرومانيون المكافحون في هذا الصدد أيضا في مناطق كثيرة، وأثر كل من المواطنين الموجودين في مناطق الحكم الذاتي والعمال اليدويين الحرية السياسية على الحرية الدينية على الرغم من أن الاغلبية العظمى من هؤلاء وأولئك لم يكونوا ليرتضوا ويتقبلوا اقامة محاكم التفتيش. ولا بد من الاعتراف أيضا بأن عددا كبيرا من النبلاء والوجهاء انضموا الى صفوف المقاومة مؤيدين لقضيتها بهدف توفير الزعامة الضرورية لها.

وعلى الرغم من أن هذا الخليط غير المتناسق من حشود النبلاء المناضلين وسكان المدن والحرفين والفلاحين والبحارة أشباه القراصنة كانوا جميعا ضيقا غير مرغوب فيهم تماما لدى الطبقتين العليا والوسطى في مدن هولندا وزيلندا ومن ثم تردد أبناء هاتين الطبقتين في قبولهم، إلا أن نجاح فريق

«شحاذه البحاره في عام ١٥٧٢ انما يرجع أساسا، وعلى الرغم من هذا، إلى احتمال وقوع عبء ايواء الجنود الأسبان على كاهل أبناء هذا الحشد فضلا عن نفورهم الشديد من قيام محاكم التفتيش بين صفوفهم.

ويبدو واضحا ان عمال المدن والعاطلين - ولا بد وانهم كانوا كثيرين في تلك السنوات التي عمت فيها الاضطرابات الدينية - السياسية مع ارتفاع الاسعار - لم يكن لديهم ما يفقدونه بسبب وقوفهم الى صف «شحاذه البحاره. ان الجوع والبطالة كانا منتشرين بوجه خاص في السنوات ما بين ١٥٦٧-١٥٧٢ عندما ساءت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الأراضي المنخفضة نتيجة قطع العلاقات الاقتصادية مع إنجلترا، ونتيجة مشكلات التجارة في البلطيق فضلا عن انتشار الطاعون في عام ١٥٧١ وارتفاع اسعار الحبوب في عامي ١٥٧١-١٥٧٢.

وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير هي التهديد بفرض عبء ضرائبي باهظ في صورة ضريبة مبيعات تسمى «البنس العاشر» والتي صيغت على نمط ضريبة اسبانية تسمى الكابلا Al Cabala وكان اول من فرض هذه الضريبة هو دوق ألفا Alva في ربيع ١٥٧٢ على الرغم من عدم استمرار تحصيلها إثر انفجار الثورة. زيادة على هذا، فبعد ان تولت مجالس المدن أمر توجيه الثورة وساعد الكالفينيون على مزيد من تصليب موقفها فقد توفرت لدى الفقراء وأبناء الشرائع الاجتماعية المتواضعة أسباب جديدة لاتباع القيادة التي بإمكانها وحدها ان تهى لهم العمل والمعاش. ومن ناحية أخرى، فإن الكثيرين من أبناء جميع الطبقات من سكان المدن التي استولى عليها ثانية الجيش الاسباني، لم يجدوا صعوبة كبيرة في اعادة موامة معتقداتهم الدينية مع تعاليم الكنيسة الرومانية، بعد ان تجددت وبعد ان نقتها من الشوائب الاصلاحات التي قررها مجلس الثلاثين. وإذا كانت المبالغات المفرطة من جانب الجنود الأسبان والايطاليين العاملين تحت امرة دوق الفاقد ارغمت الكثيرين على التحول، وقد كان بإمكانهم البقاء على الحياد او الى جانب

المتمردين، فإن أعمالا وحشية مماثلة ارتكبها فريق «شحانزو البحار» دفعت الكثيرين من المتمردين الى العودة الى رحاب الكنيسة والملك والخضوع لهما.

وأشرنا فيما سبق الى ان الكالفنية صادفت انصارا في جنوب الأراضي المنخفضة اكثر مما صادفت في المقاطعات الشمالية. والواقع ان التقسيم الذي حدث في النهاية استهدف على ما يبدو في اول الامر التركيز على طول محور يمتد من الشرق إلى الغرب وليس من الشمال الى الجنوب وضمت مقاطعة انتويرب طائفة كالفنية قوية في وقت كانت امستردام لا تزال ترتبط بكنيسة روما. اما المقاطعات الشرقية والتي تضم اليوم المنطقة الشمالية الشرقية الملتزمة بالبروتستانتية فقد سادها لفترة من الزمن المذهب الكاثوليكي الروماني. ولكن حين غزا الأمير بارما ثمانية كلا من فلاندرز وبرابانت وجزءا من الشمال الشرقي وذلك خلال ثمانينات القرن السادس عشر لم يستطع الاندفاع الى ما وراء خط الدفاع القوي الذي شكلته الطبيعة من أنهار شلد وماس ودرابين وايجسل علاوة على المستنقعات في جنوب فريزلاند. وبعد موت بارما عام ١٥٩٢ استطاع الأمير موريس استكمال غزو الشمال الشرقي. وحقق خليفته فريديريك هنري بعض المكاسب غير المضمونة في الجنوب من بينها الاستيلاء على ماستريخت معقل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وعلى الرغم من هذا لم يتم القضاء النهائي على الخطر الاسباني الذي يهدد قلب المقاطعات الشمالية الا بعد الاستيلاء من جديد على بريد Bredd في عام ١٦٣٧.

وكان فريديريك هنري، مثله كمثل وليام سايلنت راغبا في منح قدر من التسامح إزاء الاعتراف العام بالكاثوليكية الرومانية في المناطق التي عادت تحت السيطرة الاسبانية وذلك على أمل أن يشجع هذا الاجراء المقاطعات الخاضعة الى الانضمام الى المقاطعات المتحدة للأراضي المنخفضة الحرة على الرغم من الطابع الزائف لاتحادها. ولسوء الحظ ان العناصر الكالفنية الأكثر تشدداً كانوا من القوة التي مكنتهم من الحيلولة دون تنفيذ هذه السياسة

بأي صورة من الصور. ونعرف ان أصحاب العقيدة الكاثوليكية الرومانية من سكان «أراضي العموم» كما كانت تسمى الأحياء المفتوحة، لم يكن مسموحا لهم بأي حقوق سياسية او انتخابية، ولم يستطيعوا المشاركة بأي دور هام سواء في الحياة الاقتصادية ام الفكرية للجمهورية الهولندية. كذلك فإن الحكام الاسبان سادة الأراضي المنخفضة الجنوبية كانوا عازمين من جانبهم على استئصال الهرطقة في المقاطعات الخاضعة لسيطرة الكنيسة والمك وأدت هذه السياسة الى هجرة انصار البروتستانتية الى الشمال او الشرق، وانقرضت الكالفنية داخل المقاطعات الخاضعة لحكم بروكسل. ولكن هؤلاء المهاجرين الكالفنيين وما يحملونه من مرارة في نفوسهم، إذ هاجروا من الجنوب أضافوا قوة كبيرة عززت من نفوذ شركائهم من العقيدة من الكالفنيين في الشمال الذين كانوا على استعداد فقط لقبول إعادة توحيد المقاطعات السبع على أساس ضمان سيادة الكالفنية دون منازع من الكنيسة والدولة. وهكذا انقسمت الاقطار المنخفضة ولم يحدث الانقسام على أساس جغرافي أو لغوي أو عرقي بل على أساس مصطنع تماما فرضته التقلبات العسكرية وليدة حرب الثمانين عاما، كما فرضه النمو الموازي للتعصب الديني المتبادل.

وبعد أن استولى الأمير بارما على أنتويرب في عام ١٥٨٥ يسر عملية استسلام المدينة بأن عرض على الكالفنيين الذين عزموا على الهجرة (ما لم يرتدوا عن معتقدهم) ان يعطيهم سنتين فترة سماح لحين نقل اموالهم وممتلكاتهم، وأصبحت أنتويرب خلال القرن السادس عشر اعظم مركز تجاري في أوروبا على نحو ما وضع لنا. وبرع أبناء مقاطعتي الفلاندرز والون المقيمون فيها في فنون مسك الدفاتر والاعمال المصرفية وفنون التامين وجميعها اعمال لم تزدهر الا في جنوب الألب والبرانس. وكسبت الكالفنية أنصارا كثيرين من بين صفوف أغنياء التجار على الرغم من ان الأغنياء الذين هاجروا لم يكونوا جميعهم من البروتستانت. ونلاحظ ان

تشتتهم وانتشارهم في جميع أنحاء أوروبا بإحلال العقدين الأخيرين من القرن السادس عشر كانت له نتائج أبعد أثراً من نتائج شتات إيبيريا قبل ذلك بقرن واحد، أو من خروج البروتستانت الفرنسيين «الهيغونوت» بعد ذلك بمائة عام. واعتماد التجار الفلاندرز الاختلاف على كثير من الموانئ التجارية ابتداء من دانزج إلى ليفورنو قبل عام ١٥٨٥ ولكن خلال الأعوام الخمسة عشر التالية تضاعف كثيراً عددهم وازداد نفوذهم بعد وصول اللاجئين أصحاب الأعمال الأغنياء من الأراضي المنخفضة الجنوبية

وأن من هاجروا إلى هولندا وزيلاندا - ومن بينهم كثيرون من أكبر رجال الأعمال وأغنى الأغنياء - كانت تربطهم رابطة دم وعلاقة عمل مع عناصر منتشرة في أنحاء أوروبا من البلطيق إلى المشرق، وذلك لأن العائلات كقاعدة عامة لا تهجر دفعة واحدة إلى مكان ما بل ينتشر أبناء العائلات في مناطق مختلفة. ونلاحظ أن من استقروا في إيطاليا وشبه جزيرة إيبيريا ظلوا بحكم الواقع والضرورة، على عقيدتهم الكاثوليكية الرومانية، ولم يجدوا أي مشقة في التعاون مع أبناء عموماتهم من الكالفنيين أو اللوثرين المقيمين في الأراضي المنخفضة الجنوبية. وهم في هذا مثل المهاجرين من يهود شبه جزيرة إيبيريا الذين اعتادوا الحفاظ على الروابط الأسرية وعلاقات العمل مع أقاربهم الذين دخلوا جديداً في المسيحية أو «المتنصرين الجدد» الذين بقوا في إسبانيا والبرتغال. وأن رؤوس الأموال وروابط الأعمال التي جاءت مع هؤلاء المهاجرين إلى أمستردام وميدلبرج وغيرهما من المدن الهولندية أعطت دفعة كبيرة لتجارتهم بوجه عام وللتجارة في أمستردام بوجه خاص وطبيعي أن الأغلبية العظمى من بين الآلاف الذين هاجروا من المقاطعات الجنوبية لم يكونوا من سكان المدن الأغنياء بل من بين أبناء الطبقة المتوسطة وطبقة العمال. ومن بين هؤلاء كثيرون من صغار التجار والحرفيين المهرة والفنانين ذوي الخبرة وكذلك عمال موسميون وغير مهرة. وحقت صناعة النسيج في ليدن، على سبيل المثال، تقدماً كبيراً بفضل تدفق رؤوس الأموال واليد العاملة،

على هذا النحو من الجنوب.

وبينما افادت مدن هولندية كثيرة من هذا الكسب الذي شكل اضافة الى مواردها المالية والبشرية، إلا أن آثاره لم تبد واضحة الا في امستردام، اذ زاد عدد سكان هذه المدينة بحوالي ٧٥٠٠٠ نسمة فيما بين عامي ١٥٨٥ و١٦٢٢. ومن بين ١٠٥٠٠٠ هم اجمالي السكان في هذا العام الاول لهاجرين من هناك. وكتب واحد من هؤلاء الواقدين الجدد في عبارة تتطوى على مبالغة لها ما يبررها، وذلك في عام ١٥٩٤ «هنا تحولت انتويرب ذاتها لتصبح امستردام» وثمة عامل آخر ساعد على تعزيز موارد امستردام ورأسمالها والذي اشارت اليه فيولت باربور. اذ تذكرنا ان هولندا - أو بقية الاراضي المنخفضة الشمالية - لم تكن بها سوى ارض صغيرة محدودة للملك، وأن الجزء المحدود هذا كان مرتفع السعر جداً لما لا يشجع على البيع أو الاستئجار. ولهذا فإن كثيرين من أصحاب الموارد المتواضعة الذين يطمحون في البلدان الأخرى الى شراء أو استئجار مزارع أو حيازات صغيرة نجدهم هنا يستثمرون مدخراتهم في شراء اسهم وانصبية في السفن أو في أعمال الصيد أو في رحلات للتجارة قصيرة الأجل، واستصلاح الأراضي أو عمليات اقراض داخل المدينة أو المقاطعة. وإن نمو امستردام السريع كمركز تجاري دولي إنما انعكس واضحاً في اصدار قوائم اسبوعية باسعار السلع ابتداء من عام ١٥٨٥ - وما بعدها - الأمر الذي لم تقطعه لندن الا بعد حوالي ثمانين عاماً. ويمكن ان نشير أيضاً الى ان بنك تبادل العملات في امستردام تأسس في عام ١٦٠٩، كما تأسس بنك الاقراض في عام ١٦١٤.

واستطاع الهولنديون توسيع نطاق تجارة النقل البحري التي كانت مزدهرة اصلاً وتصل الى نرى لم يسبق لها مثيل خلال العقد الأخير من القرن السادس عشر ويرجع الفضل في هذا جزئياً الى شبكة التجار من ابناء مقاطعتي فلاندرز وواللون الموجودين في موانئ البحر المتوسط وشبه جزيرة ايبيريا. وإن خمس سنوات متعاقبة عانت خلالها جنوب أوروبا من

نقص المحاصيل (١٥٨٦-١٥٩٠) هيات لهم فرصة جيدة للسيطرة على اسواق جديدة فيما وراء مضيق جبل طارق اذ بينما كانت سفنهم مجرد سفن زائرة موسميا لموانئ البحر المتوسط والشرق فيما قبل عام ١٥٨٥ اذ بتجارتهم بعد هذا بعشرين عاما اوضحت الثانية من حيث الاهمية للتجارة مع البلطيق، وهي المنطقة التي كان اهل انتويرب على علاقة وثيقة بها قبل سقوط مدينتهم. وتؤكد ان روابط اللغة والدم والعمل اقوى، في أي وقت، من روابط الدين والسياسة. ففي ليفورنو على سبيل المثال عمل التجار من أبناء الفلاندرز المقيمين هناك بمثابة قناصل تجاريين لنظام الحكم في لاهاي وفي بروكسل، والجدير بالذكر ان كورنيليس هاجا اول مبعوث من هولندا الى الباب العالي قرر في عام ١٦١٦ ان جميع وكلاء المؤسسات الهولندية في الشرق هم من ابناء مقاطعة باربيانتز من حيث مكان النشأة والميلاد، ورعايا الامراء الذين حكموا «المقاطعات الخاضعة» باسم التاج الاسباني. وثمة عامل آخر ساعد على سرعة توسع التجارة الهولندية البحرية في تسعينات القرن السادس عشر هو استحداث سفن نقل رخيصة واكثر كفاءة وهي السفن المعروفة باسم الفلوت. ويعمل على هذا النوع من السفن عدد قليل من الايدي العاملة، ولكنها تسع لحمولات ضخمة وتكون مجهزة بعدد قليل من المدافع، وربما لا تحمل مدافع على الاطلاق، ويمكن بناؤها بتكلفة قليلة وباعداد كبيرة. وتعتبر بصورة ما النسخة المناظرة لسفن الحرية في الحرب العالمية الثانية.

وحقق نظام التأمين البحري تطوراً ملحوظاً في امستردام خلال الفترة نفسها اذ تم تنظيم غرفة للتأمين هناك في عام ١٥٩٨ حيث تجرى اعمال الاشراف على تسجيل سندات التأمين وحسم أي نزاع يتعلق بالدعوى المترتبة عليها، وفي عام ١٦٢٨ اعد أربعة من اثرياء التجار في امستردام خطة طموحة من أجل التأمين الاجباري على جميع السفن الهولندية التي تبحر في المياه الخطرة. ولكن كان الرفض مصير هذه الخطة، مثلما كان مصير مقترحات

أخرى تالية استهدفت احياء الخطة في صور متباينة. ولكن امستردام استمرت في تطبيق أعداد كبيرة ومتزايدة من أعمال التأمين، اشتملت على أعمال اجنبية. وجرى تطبيق نظام اعادة التأمين في امستردام قبيل الربع الأخير من القرن السابع عشر، واحتفظت المدينة بسيادتها في مجال التأمين البحري الى فترة متأخرة من القرن الثامن عشر.

وتوفرت عوامل عديدة افضت سريعا الى توسع المشروعات البحرية الهولندية بحيث امتدت الى اقاليم بعيدة تجاوزت حدود المتوسط والمشرق وهذه العوامل هي انهيار انتويرب كمركز تجاري دولي ونمو امستردام بصورة مذهلة، وتدفق الاثرياء من رجال الأعمال وكذلك العمال المهرة الذين وفدوا من الجنوب الى مقاطعات الشمال، وعائد هذا التدفق المتمثل في زيادة الانتاج الصناعي مع زيادة الحاجة الى أسواق جديدة. ثم قرارات المقاطعة والمصادرة التي فرضها التاج الاسباني (والتاج البرتغالي ابتداء من عام ١٥٨٠) على شحنات الأراضي المنخفضة الشمالية في موانئ شبه جزيرة ايبيريا في الأعوام ١٥٨٥ و ١٥٩٥ و ١٥٩٨، والعون والتوجيه للذين اعتمد ابناء هولندا وزيلاندا على تلقيهما في غالب الاحيان من سكان الفلاندرز والتجار المتنصرين الجدد من أعالي البحار. ونذكر ان التجارة الهولندية المباشرة مع البرازيل على سبيل المثال، والتي كانت غير ذات شأن قبل عام ١٥٨٥ زادت بعد ذلك زيادة كبيرة. وتحققت هذه الزيادة اول الامر في تعاون مع تجار المان في موانئ هانزا، ثم بالعمل المشترك مع اليهود البرتغاليين المتخفين أو مع المسيحيين الجدد. وحدث في عام ١٥٩١ أن ريان سفينة هولندية متجها الى البرازيل التقى مع برتغاليين من جزيرة ساو تومي حيث جمع معلومات قيمة جداً عن تجارتهم مع ساحل الذهب. وبعد عودته الى الأراضي المنخفضة شرع في رحلة رائدة وناجحة الى هناك وعاد في عام ١٥٩٤ ومعه حمولة غالية من الذهب والعاج. والتزاما بهذه القوة وهذا الداب استثمر الهولنديون هذه الأسواق الجديدة، حتى انهم قبيل عام ١٦٢١ ضمّنوا

لأنفسهم ما بين نصف وثلاثي تجارة النقل البحري بين البرازيل وأوروبا بينما كانت كل عمليات سك العملات الذهبية الخاصة بالمقاطعات المتحدة يجرى سكها بذهب وارد من غينيا. وسار الهولنديون مرة على اثر الانجليز وطوروا الطريق القطبي التجاري الى روسيا خلال تلك السنوات. بيد ان القدر الأعظم من طاقتهم القومية التي تفجرت بصورة مذهلة انما اتجه أساسا الى تجارة التوابل في الهند الشرقية.

ومن أهم قسمات حرب الثمانين عاما، وأكثرها غرابة، الطريقة التي اتبعها الطرفان في التعامل مع الموارد التي توفرها التجارة مع العدو. ان العمل في التجارة المحظورة او في التهريب يمثل عادة سمة من سمات الحروب بدرجة أو بأخرى، ولكن هذا النوع من العمل باشره الجانبان خلال السنوات ١٥٧٢-١٦٤٨ وتماديا فيه على نحو غير مسبوق. ذلك ان السلطات المسئولة في جمهورية هولندا، وأكثر أفرادها من ملاك السفن والتجار، انقسموا في التجارة مع شبه جزيرة ايبيريا ومع الاراضي الخاضعة للتاجين الاسباني والبرتغالي، وسمحوا (فيما عدا فترات قصيرة متباعدة) باستمرار هذه التجارة شريطة ان يدفع المشتغلون بها رسما يعرف باسم رسوم الموانئ. وسميت عائدات هذه الرسوم باسم «اموال الحماية والتراخيص»، وأصبحت تشكل مصدر دخل رئيسي للامارات البحرية الخاصة بالمقاطعات الخمس (روتردام وزيلاند وامستردام والربع الشمالي وفريزلاند) والذي أفاد للاتفاق على السفن الحربية الهولندية وقد كان أكثرها سفنا تجارية أو جرى تحويلها الى سفن عربية. ووجد الاسبانيون والبرتغاليون من جانبهم ان لا حياة لهم بدون المواد الخام والمصنعة، خاصة الحبوب والمستلزمات البحرية. التي تحملها الناقلات الهولندية - من البلطيق وشمال أوروبا. ومن هنا فإن نظام الحظر والمصادرة الذي كانت تفرضه سلطات ايبيريا من حين الى آخر بصورة دورية على السفن الهولندية تحول ليصبح عمليات ذات طبيعة خاصة تستهدف جدد الأنف على سبيل التشفي، وان لم يكن بالامكان استمرارها

على نحو فعال فترة طويلة.

وحيث ان الهولنديين عمدوا الى التوسع السريع في تجارتهم في المتوسط والمشرق وجنوب الأطلسي في أوائل العقد التاسع من القرن السادس عشر، فليس لنا أن ندهش ان حاولوا توسيع تجارتهم أيضا للوصول الى المحيط الهندي في الوقت ذاته. ان الهولنديين الذين ابجروا الى هناك في خدمة البرتغاليين، وأشهرهم جان هويجن فان لينشوتن - Jan Huighen Van Linschoten قد عانوا الى أرض الوطن يحملون قدراً كبيراً من المعلومات تشير الى ان زعم البرتغاليين بانهم أرباب الغزو والملاحة البحرية والتجارة مع اثيوبيا والهند وشبه الجزيرة العربية وفارس، ليس زعماً صادقاً تماماً كما تلمح الى ذلك الصفة البليغة الطنانة الى إطلاقها الملك عما نوسيل الاول في عام ١٥٠١. ويبدو ان الذكريات عن الخطر الذي فرضته ايبيريا عام ١٥٨٥ وتوقع خطر آخر في العامين ١٥٩٥-١٥٩٦ كل هذا جعل الهولنديين يدركون ان استخدامهم لشبونه سوقاً للتوابل بات امراً محفوفاً بالأخطار. وأياً كان ما حدث فانه في مارس ١٥٩٤ وجد تسعة من التجار من الأراضي المنخفضة الشمالية حوافز وأموالاً كافية لتدفعهم الى تنظيم «شركة الأراضي القاصية» في امستردام، وذلك بهدف ارسال اسطولين الى اندونيسيا لجلب التوابل.

الاسطول الاول لم تكن له قيادة واضحة محددة ولذلك أدبرت الرحلة ادارة سيئة. ولم يعد غير ثلاث سفن وتسعة وثمانين رجلاً الى تكسل Texel في أغسطس ١٥٩٧، من بين أربع سفن و٢٤٩ رجلاً بعد رحلة امتدت عامين. ولكن الشحنة المتواضعة من الفلفل الأسود التي أحضروها من بانتام غطت ما هو أكثر من تكاليف الرحلة. وأوضحت هذه الرحلة الرائدة ان بالامكان الوصول الى الهند الشرقية حتى وان كانت قيادة الاسطول قيادة سيئة. ولهذا فإن ما لا يقل عن اثنتين وعشرين سفينة جهزتها خمس شركات تجارية مختلفة - ومتنافسة الى حد كبير - غادرت موانئ هولندا متجهة الى اندونيسيا في عام ١٥٩٨. تولى امارة احداها اوليفر فان نورث، وهو ملاح من

روتتردام ويعمل مدير حانة.. وأخذ طريق أمريكا الجنوبية ثم المحيط الهادئ ليبدأ أول رحلة هولندية حول العالم.

بيد أن أكثر النتائج تشجيعاً تلك التي حققها الأسطول الثاني الذي تملكه في أمستردام «شركة الأراضي القاصية» وقاده جاكوب فان نيك. وعادت أربع سفن من هذا الأسطول في يوليو ١٥٩٩ بعد غيبة امتدت خمسة عشر شهراً وعلى متنها حمولة نفيسة من التوابل. وعلق على هذا رجل مجهول شارك في الرحلة قائلاً: «هولندا هي هولندا، وإن مثل هذه الحمولة النفيسة الضخمة لم يشهد أحد لها مثيلاً من قبل». وأجرت البلاد مراسم احتفال مسني لكبار الضباط وتجار الرحلة بينما دقت أجراس أمستردام انغام البهجة والفرح. وأحس المستثمرون بالرضا التام، إذ عادوا برأسمالهم وقد حقق أرباحاً تزيد على مائة بالمائة، حتى قبل وصول السفن الأربع الباقية التي جاءت بحمولتها ليزيد إجمالي الربح بنسبة ٤٠٠ بالمائة. وأكد فان نيك أن هذا الربح لم يكن وليد قوة أو قسر أو إرهاب، على نحو ما أشاع المغرضون من اليهود البرتغاليين في أمستردام بدافع الغيرة بل هو وليد تعامل تجاري حر وأمين مع تجار اندونيسيا والتزام بقواعد التجارة «لا تسرق ممتلكات أحد، بل التزم مبدأ الاستقامة في تجارتك مع جميع الأمم الأجنبية».*

وتكاثرت بسرعة كبيرة الشركات التجارية التي تعمل بالتجارة مع جزر الهند الشرقية. ومن المسلم به أن أيا منها لم يحقق النجاح الذي حصل عليه فان نيك في رحلته الأولى. والمعروف أن أربع عشرة سفينة فقط هي التي عادت من بين الاثنتي عشرة سفينة المذكورة آنفاً والتي غادرت الأراضي المنخفضة متجهة إلى الشرق في عام ١٥٩١ ومع هذا فان اغراء تجارة التوابل كان قوياً إلى حد أن أربعة عشر أسطولاً تضم خمساً وستين سفينة غادرت البلاد قاصدة جزر الهند الشرقية في عام ١٦٠١. وبات واضحاً الآن أن هذه

* H. Terpstra, jacol van Neck, *Amsterdams Admiraal en Regent* (Amsterdam, 1930) pp.31-73

الشركات الرائدة كانت تحاول ان تستأثر بكل شيء، وان التنافس الضاري بينها أدى الى زيادة أسعار الشراء في آسيا وهدد بخفض أسعار البيع في أوروبا. وجرى تنظيم هذه الشركات على أساس اقليمي أو محلي، واحتدم التنافس بوجه خاص بين شركات هولندا وشركات زيلانده. ومنذ يناير ١٥٩٨ اقترحت ادارة عموم الولايات أن تتجمع الشركات المختلفة أو تتعاون ودياً بدلاً من التورط في منافسة مهلكة غير ان هذه الوصية بدا تأثيرها ضعيفاً آنذاك. وجرت مفاوضات طويلة ومضنية قادها بكفاءة رجل الدولة الهولندي جوهان فان أولدن بارنفلت وساعده في هذا الامير موريس بأن أعطى جهوده دفعة في اللحظة الحرجة. وانتهت المفاوضات بالوصول الى نوع من التلاحم بين الشركات الرائدة المتنافسة اذ دخلت في شركة اتحادية احتكارية واحدة (٢٠ مارس ١٦٠٢) ولم يكن سبب امتداد المفاوضات لفترة طويلة هو غيرة زيلاندا فقط، وهي غيرة طبيعية، من وضع هولندا الاقتصادي المتفوق عليها، بل وايضاً بسبب ما جُبل عليه التجار الهولنديون المؤمنون بالتجارة الحرة من عزوف عن أي شيء له طبيعة الاحتكار التجاري. زيادة على هذا فإن بعض كبار المديرين في الشركات الرائدة مثل اسحق لومير Isaac Le Maire وبالتكار دوى موشيرون Baltagar de Moucheron، وهما من الجنوبيين تحلوا بأمزجة تماثل أمزجة نجوم الأوبرا في القرن العشرين، واقتضى هذا استثمار كل ما تميز به أولدن بارنفلت من صبر وإناة، وما تمتع به الامير موريس من نفوذ قوى في سبيل انجاز تشكيل شركة الهند الشرقية للأراضي المنخفضة المتحدة (التي سنشير اليها فيما بعد بأحرف الاختصار الهولندية فوك VOC. وبلغ رأسمال الشركة حوالي ٦,٥ مليون فلورين. وقسمت الشركة الاتحادية الجديدة الى ست غرف أو مكاتب اقليمية (Kamers) والتي اتخذت مكاناً لها في مواقع الشركات الرائدة السابقة في امستردام وميدلبرج ودفلت وروتردام وهورن وانخويزن على الترتيب.

وبموجب الصك الذي منحته ادارة عموم الولايات لشركة الهند الشرقية

الهولندية عام ١٦٠٢ نالت الشركة حق احتكار التجارة الهولندية والملاحة شرق رأس الرجاء الصالح وغرب مضيق مجلان لفترة أولية تمتد الى واحد وعشرين عاما وأصبح المجلس الحاكم الذي يضم سبعة عشر مديراً مفوضاً لعقد معاهدات سلام وتحالف وشن حروب دفاعية وبناء قلاع وحصون في المنطقة. وله ايضا حق ضم شخصيات مدنية وبحرية وعسكرية ممن يقسمون يمين الولاء للشركة وعموم الولايات. وهكذا أصبحت شركة الهند الشرقية الهولندية دولة داخل الدولة، ولكن الحرب المتوقعة من جانب مؤسسيها هي مجرد اجراء دفاعي ضد البرتغاليين الذين يزعمون احتكارهم لتجارة أوروبا في البحار الشرقية بناء على سلسلة من المراسيم والرسائل البابوية صدرت خلال القرنين ١٥، ١٦. ولكن الترخيص بشن حرب كان كافيا لآخافة عدد من كبار المستثمرين في الشركات الرائدة. ودفعهم الى الهرب من الميدان وايثار بيع اسهمهم بدلاً من تحويلها الى شركة الهند الشرقية الهولندية «نظراً لأنهم باعتبارهم تجارا عمدوا الى هذه الشركات لا لشيء الا من اجل العمل بشرف في مجال التجارة على أساس ودي وفي اطار السلم، وليس للتورط في حروب أو أعمال عدوانية. وتنبأ هذا النقد بأن شركة الهند الشرقية الهولندية ستنزح غالبا الى استخدام السيف دون القلم كلما كان ذلك مفيداً لها».*

وان انشاء وتنظيم شركة الهند الغربية، والتي حصلت على امتيازها من عموم الولايات في الثالث من يونيو ١٦٢١ انما جاء مطابقاً في نواح كثيرة لشركة الهند الشرقية على الرغم من ان الدور الهجومي للشركة الغربية في الحرب ضد الامبراطورية الايبيرية الاطلسية قد تاكد منذ البداية. وحصلت شركة الهند الغربية على احتكار كل التجارة والملاحة الهولندية مع امريكا وغرب افريقيا. وخولت الشركة بالمثل حق شن الحرب وعقدت اتفاقات سلام مع السلطات المحلية والحفاظ على قوات بحرية وعسكرية والقيام بمهام

* اعلان ديسمبر ١٦٠٨.

قضائية وإدارية في تلك المناطق. وتألفت من غرف إقليمية خمس - أمستردام وزيلاندة (ميدلبرج) والماس (روتردام) والريغ الشمالي ونيروجنج مع فريزلاند، وإن مجلس إدارة شركة الهند الغربية المناظر لمجلس إدارة السبعة عشر كان هو هيئة الإدارة الرئيسية وتضم ١٩ مديراً. واستغرقت شركة الهند الغربية فترة أطول من الفترة التي استغرقتها شركة الهند الشرقية من أجل زيادة رأسمالها العامل - عامين بدلاً من شهر واحد - ولكن الإجمالي الذي بلغته كان أكبر كثيراً إذ تجاوز سبعة ملايين فلورين. والمعروف أن اقتراح تشكيل شركة باسم شركة الهند الغربية جاء في وقت مبكر جداً خلال القرن السابع عشر ولكنه أرجىء بسبب توقيع اتفاق هدنة الاثني عشر عاماً بين إسبانيا والمقاطعات المتحدة عام ١٦٠٩. وكانت هذه الهدنة ثمرة لجهود أولدن بارنفلت ومؤيديه من بين الأغنياء من أبناء الطبقة الحاكمة وتم توقيعها على الرغم من الأمير موريس وقطاع كبير من تجار أمستردام والمتطرفين الكالفنيين والمعروفين باسم «معارضة المعارضة»، ولم تطبق الهدنة جيداً في المناطق المستعمرة، وتجددت الحرب رسمياً عام ١٦٢١ - عقب محاكمة وإعدام أولدن بارنفلت بتهمة الخيانة العظمى وهي تهمة زائفة - وهما هذا الوضع لكل من شركة الهند الشرقية وشركة الهند الغربية مجاًلاً واسعاً لشن أعمال هجومية

وعلى الرغم من أن إسبانيا كانت هي العدو الأول للدود في أراضي الفلاندرز المجاورة، حيث تحولت الحرب بإطراد إلى حالات حصار متفرقة ومناورات عسكرية غير محسومة، إلا أن الهجوم الهولندي ضد العالم الاستعماري الإسباني كان موجهاً ضد الممتلكات البرتغالية أكثر منه ضد ممتلكات الأسبان. ومنذ الوقت الذي تحول فيه رجال شركة الهند الشرقية الهولندية إلى الهجوم استولوا على أمبوينا في عام ١٦٠٥ ركزوا على الحصون والمستوطنات البرتغالية في المنطقة الاستوائية سواء في ملقا أو الملايو أو سيلان أو الهند. وعندما خاطروا بمهاجمة الأسبان في الفلبين لم يحالفهم

النجاح تماما. وهنا نجد تباينا واضحا وقويا بين عمليات الحصار العنيدة والناجحة التي قام بها الهولنديون ضد ملقا (١٦٣٥-١٦٤٠) وجوا (١٦٣٨-١٦٤٤) وبين الاخفاق المهين لرحلاتهم الى الفلبين في الاعوام ١٦١٠ و١٦١٧ و١٦٤٧-١٦٤٨. وعجز الهولنديون حتى عن طرد الاسبان من قلاعهم، وهي قلاع غير قوية التحصين، في تيرنيت Ternate وتيدور Tidore حيث بقي الاسبان فيها لاكثر من عقد من الزمان بعد توقيع معاهدة مونستر والتي انسحبوا على اثرها عندما هدد كوكسينجا Coxinga الفاتح الصيني لغور موزا الهولندية في عامي ١٦٦١-١٦٦٢ بغزو مانيلا.

وعلى الجانب الآخر من العالم نجد ان شركة الهند الغربية، وإن كانت قد تأسست وعينها على امريكا الاسبانية وعلى فضة المكسيك وبيرو الا انها تركزت عمليا على سكر البرازيل البرتغالية وعلى الذهب والعاج والعبيد في غرب افريقيا البرتغالية. وإن الطريقة المثيرة الى أسر بها بيت من Piet Heyn اسطول الفضة المكسيكي في خليج ما تانزاس الكوبي (عام ١٦٢٨)، كانت ان تطغى وتحجب واقع أن معاصريه وخلفاءه العاملين في خدمة شركة الهند الغربية حققوا بعض الانتصارات الكبرى والقليلة نسبيا ضد الاسبان. ان صيتهم وانتصاراتهم وغناهم حققوها في الغالب الاعم على حساب البرتغاليين في جنوب الاطلسي. وهذا هو جوهام دي لايت Johannes de Laet المؤرخ المعاصر - والمدير - لاعمال شركة الهند الغربية ينهي حوارياته عن عام ١٦٤٤ بكلمة تنطوى على نغمة النصر حيث يسرد تفصيلاً قائمة بأسماء السفن والغنائم التي استولت عليها قوات الشركة «من ملك اسبانيا» فيما بين عامي ١٦٢٢ و١٦٣٦ والقراءة المتأنية لهذه القائمة تكشف لنا عن أن الاغلبية الساحقة من هذه الخسائر انصبت على ممتلكات وسفن التاج البرتغالي - باستثناء اسطول الفضة في عام ١٦٢٨. وفي السنوات ما بين ١٦٣٦ - ١٦٤٨ كانت هجمات شركة الهند الغربية ضد امريكا الاسبانية اقل أهمية، فيما خلا بعثة برووير Brouwer الى شيلي عام ١٦٤٢ وقد ثبت انها اخفقت. وحدث ان

جردت هولندا البرتغال من نصف البرازيل وانجولا، ناهيك عن ساحل الذهب والرأس الأخضر، ولكن غزوتهم الوحيدة الجديرة بالذكر في البحر الكاريبي هي استيلاؤهم على كوراتشاو Curacao في عام ١٦٣٤ - وبالمقارنة بالجهود العظيمة التي بذلتها شركة الهند الغربية في جنوب الأطلسي نجد ان محاولاتها من أجل تأسيس «أراض منخفضة جديدة» نيونيذرلاند» فوق جزيرة مانهاتان وعلى ضفاف نهر هدسون لم يكن لها سوى صدى متواضع.

ومن الحقائق ان تمرد البرتغاليين في برنامبوكو Pernambuco عام ١٦٤٥، وهو التمرد الذي دعمته سرا بشكل او بآخر الأرض الأم التي تحررت من سيطرة اسبانيا قبل ذلك بخمسة أعوام، هذا التمرد أرغم الهولنديين على الانسحاب الى ما وراء اسوار رسييف Recife ومن عدد قليل من أماكن أخرى على طول الساحل الشمالي الشرقي للبرازيل. وصحيح ايضا انه بعد بضعة شهور من تاريخ اعلان معاهدة مونستر استعادت حملة أراضي البرازيل Luso - Brazilian التي زودتها امستردام ببعض حاجتها من الذخائر ومستلزمات السفن - أراضي لواندا Luanda وطردت الهولنديين من انجولا في الوقت الذي كادوا فيه هم وحلفاؤهم من الزنوج ان يفنوا البقايا الأخيرة الباقية من البرتغاليين في الداخل. ومع هذا لم يكن يعتقد ان موقف الهولنديين في البرازيل بات ميئوساً منه ولا اصلاح لها، واعترف الملك فيليب الرابع صراحة قبيل معاهدة مونستر بحق الهولنديين في غزو جميع المستعمرات البرتغالية والاحتفاظ بها وهي المستعمرات التي ادعت الشركتان الهنديتان العظميان انها صاحبتا حق فيهما.

ويمكن القول ان معاهدة مونستر تشكل من نواح كثيرة الحد الفاصل للعصر الذهبي للمقاطعات المتحدة، فقبيل عام ١٦٤٨ كان الهولنديون عن يقين اعظم أمة تجارية في العالم دون منازع، ولها مراكزها التجارية الخارجية

«المصانع» المحصنة المنتشرة في العالم من أركانجل الى رسييف ومن نيو إلى امستردام الى نجازاكسي. وإذا لم تكن السيطرة على بعض هذه الأماكن قوية ومستقرة فإن البعض الآخر حقق أرباحاً مشجعة. والواقع ان الانجازات الهولندية في المياه الأوروبية وحدها كانت انجازات مثيرة. وفي هذا يقول ك. ويلسون: «لقد استطاع بكفاءة استثنائية الاستيلاء على حوالي ثلاثة أرباع عمليات نقل الخشب، وما بين ثلث ونصف معادن السويد. ونقلت السفن الهولندية ثلاثة أرباع الملح الذي تصدره فرنسا والبرتغال الى البلطيق. وأكثر من نصف الأقمشة التي تستوردها منطقة البلطيق يجرى تجهيزها أو صناعتها ملابس جاهزة في هولندا.* هذا جميعه علاوة على انهم كانوا اعظم المصدرين والموزعين لمختلف سلع المستعمرات مثل التوابل والسكر والخرف وغيرها.

وهذا الانجاز غير المسبوق مرده أساسا الى الطاقة الدينامية والروح التجارية التي سادت موانئ هولندا وزيلاندا، اللتين تحملتا العبء المالي للحرب ضد اسبانيا. وشكلتا رأس رمح للتوسع الاستعماري، وذلك بفضل الموارد التي حققتها لهم عمليات النقل بأساطيلهم والتجارة عبر البحار. ولهذا كان منطقيا ان يستحوذ كبار التجار وملاك السفن في مدن هذه المقاطعات على قيادة الجمهورية الجديدة، ويفيدوا من سيطرتهم على مجالس المدن وولايات المقاطعات لكي تكون الأولوية لمصالحهم هم. وسبق أن رأينا كيف انه عندما تضاربت مصالح المقاطعات المختلفة بدات مصالح هولندا وامستردام تكون لها الغلبة والسيادة شريطة الاتفاق فيما بينهما. ويعد توقيع معاهدة مونستر خير مثال على هذا ولقد كان خصوم المعاهدة كثيرين وأقوياء، ومن بين هؤلاء انصار آل اورانج الذين رغبوا في الحفاظ على التحالف الفرنسي ودعم مصالح الأسرة الحاكمة عن طريق الحاق الهزيمة بالأراضي

* C.Wilson, Profit and Power. A study of England and the Dutch Ware (Cambridge, 1951)

المنخفضة الجنوبية ومساندة قضية ستوارت الفاشلة، وتأييد مقاطعة
زيلاندا في حربها الخاسرة ضد البرتغال في البرازيل في حالة عدم وجود دعم
كاف من الدولة لشركة الهند الشرقية، ومقاطعة أوترخت ومدينة ليدن انطلاقاً
من مزيج من الدوافع الدينية والسياسية. ومع هذا فإن حكام المدن الأخرى في
هولندا، وأولها امستردام كان باستطاعتهم دفع المعاهدة وفرضها على الرغم
من معارضة كثيرين من أبناء بلدهم ودون الرضوخ للـك اسبانيا ولطالبه
الملحة مثل فتح الملاحة عبر نهر شلد والسماح رسمياً بالكاثوليكية الرومانية
في المقاطعات المتحدة. وإن اصرار الهولنديين على إغلاق نهر شلد لم يكن
سببه فقط خوف امستردام من أن تستعيد أنتويرب قدراً كبيراً من أهميتها
كمركز تجاري دولي في حالة فتح طريق الملاحة عبر النهر بل بسبب خوف
بعض مواطني جنوب هولندا وزيلاندا (روتردام وميدلبرج وفلاشينج) من
أن تتدهور تجارة العبور الخاصة بهم أيضاً.

وأوضحت معاهدة مونستر أن الحركة التي بدأت قبل ثمانين عاماً في
صورة انفجار غضبة شعبية انتهت بتشكيل جمهورية اتحادية غير محكمة
الترابط وعلى رأسها فريق من أغنياء التجار. وقبل أن تناقش هؤلاء الحكام من
مواطني المدن بتفصيل أكثر، قد يكون من الجدير أن نسال إلى أي درجة
نشأت أمة جديدة تحت قيادتهم. وإذا ارتضينا معيار الوعي بالقومية الذي
وضعه رينان - وجوهره «توفر مهام عظيمة مشتركة ومتكاملة وإرادة فعلها
أيضاً، فإن انتصارات عام ١٦٤٨ ترقى إلى هذا المستوى. أن لهم أن يستعيدوا
بفخر ذكرياتهم عن هذه الأعمال البطولية مثل حصار ليدن وَاغاثتها،
والحملات المفطرة بقيادة موريس وهنري فريدريك، واستيلاء بيت هن على
اسطول الفضة، وتدمير أحد جيوش الأرمادا الإسبانية عند مضيق جبل
طارق (١٦٠٧) وتدمير آخر في «غرفة ملك إنجلترا في داونز Downs
(١٦٢٩)، وفي هذه السنة الأخيرة تغنى الشاعر جوست فان دن فوندل في
أحدى قصائده بالتوسع الذي لا نظير له الذي حققته التجارة الهولندية «إذ

وصلت أراضي بعيدة غربية بلغت اقاصي مشرق الشمس». وعكست هذه القصائد مشاعر كثير من الهولنديين ومجلس ادارة الـ ١٧: «الى حيث يقودنا الريح الى جميع البحار والشواطىء، حبا في امتلاك مرآتي العالم الرحيبة التي نستكشفها». وإذا أخذنا عظام الامور والمهام التي تحدث عنها رينان وراينا انها تشتمل على التعليم والآداب والفنون البصرية فإن ثمة أسماء تكفي لتذكرنا بانجازات الجمهورية الفتية مثل أسماء جروتويس وهيجينز وهوفت وفوندل وهالز ورمبرانت. أما عن المستقبل فإن الهولنديين تطلعون في ثقة الى مزيد من التوسع في جزر الهند الشرقية. وعلى الرغم من أن وضعهم في البرازيل كان محفوفا بالخطر إلا أنه كانت لا تزال هناك امكانية انشاء امبراطورية لهم في جنوب الاطلسي.

لهذه الأسباب، ولغيرها، كان كثير من أهالي المقاطعات المتحدة في الأراضي المنخفضة الحرة يدركون بكبرياء انهم فعلا أمة حرة على طريقتهم الخاصة. ولكن كان لا يزال هناك كثيرون آخرون تؤرقهم شكوك مثيرة، أو من يعوزهم سبب خاص يدعوهم الى الابتهاج بالسلم الذي أقرته معاهدة مونستر. وزعم الكالفينيون المناضلون أنذاك ثقتهم في بناء أمة كرما وتعطفا من الله ويعونه تعالى وتأييده الفعال. بيد أنهم نظروا الى إبناء بلدتهم ممن لا يزالون على عقيدتهم الكاثوليكية الرومانية، وهم كثيرون، باعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية مع احتمال أن يصبحوا خونة. بل أنهم نظروا شزا الى كثيرين من المنشقين البروتستانت باعتبارهم أضعف عوبا ومن ثم أخوة ولكن أقل شأنا. والافتقار الى أمير أو ملك كان سببا لمزيج من الحرج والأسف بين بعض قطاعات السكان وأن تباينت أسباب كل فريق. ونظراً لأن التمرد الأصلي كان موجهاً ضد أميرهم الشرعي فإن هذه الحقيقة لم يكن من السهل نسيانها في الداخل أو في الخارج. بل أن رجلا جمهوريا متشدداً مثل جوهان دي ويث عبّر فيما بعد عن قلقه ازاء هذه النقطة. وتفاقت مشاعر الغيرة فيما بين المقاطعات بالنسبة لبعض الأمور لمجرد نجاح عملية التوسع الهولندي عبر

البحار والى ما قبل عام ١٦٤٨ امكن استيعاب ابناء مقاطعات برابانتر والوللون والفلاندرز الذين هاجروا من الاراضي المنخفضة الجنوبية خلال العقود الأولى من حرب الثمانين عاماً، هذا على الرغم من ان امستردام كانت لا تزال تضمن غيرة ممن كانوا اكثر نجاحاً، هم وابناؤهم ولكن كان هناك ا جانب كثيرون ومهاجرون لم يتم استيعابهم كاملاً داخل الجمهورية الهولندية، وكان يمكن ان يصبحوا مصدر ضعف، خاصة في حالة الحرب، ضد أي جيش يتألف أساساً من مرتزقة أجنب.

وأخيراً كيف نظرت الأمم الأوروبية الأخرى والاكثر عراقية الى النشوء المفاجيء للجمهورية البرجوازية التي حظيت بأول اعتراف عام بها في عام ١٦٤٨؟ يتعين دائماً أن نغفل من الحساب انتقادات أبناء الأسر المالكة والمنافسين التجاريين. وليس لنا ان ندهش لأن جيمس الأول أبدى ملاحظة لها طبيعتها السيئة عن هولندا في عام ١٦٠٧ حين قال «ليدعوا جانباً أولئك المتعطشين بطريقة ملؤها الغرور الى ان يحملوا لقب دولة حرة». ومن الأهمية بمكان أنه بعد توقيع معاهدة مونستر بقرن من الزمان وبعد ان اصبحت بريطانيا العظمى والمقاطعات المتحدة حلفاء ثم أعداء على التوالي، إذا بنا نجد المفوض الانجليزي في مدريد يكتب في تواضع عن نظيره الذي وصل لتوه فيقول: «إنه شاب حقاً ولكنه كريم ودود، وتبدو عليه الكثير من سمات المحتد النبيل أكثر من أي إنسان آخر سبق لي أن رأيته من أبناء أمته ان كان لنا أن نسميها أمة».*

* Keene to Castries, Madrid, 14 March 1949 Cited R. Lodge: the Private Correspondence of Sir Benjamin Keene, K.B. Cambridge, 1933, pp. 106.

الباب الثاني

حكومة الأقلية من أغنياء المدن والمغامرين التجار

الخاصة من أبناء المدن الذين انتصروا بمعاهدة مونستر كانوا متخلفين من نواح كثيرة عن آبائهم وأجدادهم الذين تحملوا عبء النضال ضد أسبانيا خلال أيام الأمير موريس وليم سايلنت. فبعد ان كان الخاصة من أبناء المدن طبقة معنية أولاً وأساساً بالتجارة وثانياً بالحكم والإدارة محلياً، إذا بهم في عام ١٦٤٨ يضعون أقدامهم على أول الطريق ليصبحوا أقلية مغلقة من الحكام الأغنياء ولتكون الأولوية في نظرهم هي النقيض تماماً. ففي عام ١٦١٥ أكد عمدة امستردام بأن حكام المدينة كانوا اما تجاراً نشيطين أو أولئك الذين تقاعدوا مؤخراً عن ميدان الأعمال. وبعد سبعة وثلاثين عاماً نجد تجار امستردام يشكون من ان حكامهم لم يعودوا تجاراً كما كانوا، ولا نشطين غارقين في أعمال التجارة عبر البحار، بل باتوا يحصلون على دخلهم من ريع البيوت والأراضي وفوائد الأموال. بعبارة أخرى أصبح التجار ذوي املاك يعيشون على ريع املاكهم. وانطوت هذه الشكوى الفريدة على مغالاة واضحة اذ يكفي ان يفكر المرء في الإخوة بيكر اصحاب النفوذ وفي تجار وحكام امستردام اصحاب فكرة الدفاع عن المدينة ضد الأمير وليم الثاني في عام ١٦٥٠ والذين امتدت علاقاتهم التجارية واتسعت لتشمل الجزء الأكبر من المعمورة زيادة على هذا فإن بعض الحكام في المدن اعتادوا العيش أساساً على دخولهم من عائد العقارات، ولم يعطوا التجارة إلا قسطاً ضئيلاً من اهتمامهم. بيد ان شكوى عام ١٦٥٢ عكست في الحقيقة واقعا هو ان الكثيرين من أبناء طبقة الحكام بدأوا يتحولون من اطار المشاركة النشطة في التجارة الى العيش اعتماداً على عائد الأرض والاستثمارات ودخولهم السنوية علاوة على

مرتباتهم المتواضعة. وازداد هذا الاتجاه وضوحاً مع الزمن على مدى القرن السابع عشر وإن بأحقاد من كانوا الأقلية الغنية الحاكمة من التجار في الثلاثينات أصبحوا هم الأقلية الغنية الحاكمة من أبناء المدن «البرجوازيين» في التسعينات من هذا القرن. ولكن يجب أن نتذكر أن عضوية المجلس المحلي في امستردام كانت مهنة تقتضي التفرغ الكامل لشاغلها قبل ١٦٥٠. إذ كان التجار أعضاء المجلس لا يكادون يجدون وقتاً لمراعاة شئون أعمالهم. ومن ثم كان حتمياً بشكل أو بآخر الفصل بين العمل والوظائف الحكومية وبين المشاركة المباشرة في التجارة، وأصبحوا طبقة رسمية في الغالب الأعم، إلا أنهم ظلوا على علاقة وثيقة من خلال الاستثمار والتصاهر بأغنياء التجار ورجال المصارف في المدن. وبهذا ظلوا مدركين أن رخاء المقاطعات السبع رهن بالتجارة عبر البحار. ومع مرور الزمن شاع التصاهر بين الأسر الحاكمة وأغنياء التجار المتساوين من حيث المكانة الاجتماعية وإن لم تحدث هذه العملية طفرة واحدة. إذ كان لزاماً على أسرة العاملين في التجارة أن تعيش حياة الترف سنوات طويلة، ربما لجيل أو جيلين قبل أن يتمكن أحد أبنائها من مصاهرة أسرة من أسر وجهاء المدن ومن ثم تبدأ طريقها صاعدة سلم المناصب الإدارية المحلية من أدناها إلى أرقاها.

وكما أشرنا في الفصل السابق فإن الفوارق بين مختلف المقاطعات كانت كبيرة وواضحة في مجالات بذاتها بحيث أن التعميم بشأن البنية الاجتماعية للجمهورية الهولندية قد يضللنا. ولكن نظراً لأن هولندا كانت حتى ذلك الوقت أهم المقاطعات السبع، وحيث أن هذا الكتاب معني أساساً بالجمهورية الهولندية كإمبراطورية بحرية، لذلك فإننا سنستمر في إغفال أمر أغنياء الفلاحين في فريزلاند، وملاك الأراضي في جلدزلاند ومستأجري الأراضي الزراعية في أوفرجيسيل وذلك بهدف تركيز انتباهنا على الحكام والتجار والتجارة في هولندا وزيلاندا.

ان الانتقال من أوليغاركية التجار إلى أوليغاركية ذوي الأملاك

الذين يعيشون على الريع، والتي شغلت الجانب الأكبر من القرن السابع عشر في مقاطعة هولندا انما تمثله اجيال ثلاثة من أسرة هوجان دي ويت - Jan de Witt الهولندي الكامل، كما وصفه سير وليم تمبل، وواحد من اعظم من شهدتهم هولندا في جميع العصور. إذ كانت أسرته لها ممثلها في مجلس مدينة دور درشت منذ نهاية القرن الخامس عشر، ثم برز نجمهم وبلغ السمت بعد ١٥٧٢ - عندما وقفوا الى جانب وليم الاول والكالفنية. وولد كورنيليس ذي ويت في عام ١٥٤٥ وورث عن ابيه تجارة مزدهرة في أعمال الأخشاب، التي واصل العمل فيها بشخصه وان لم تستغرق كل وقته. وشغل مرارا منصب عضو المجلس التشريعي وعمدة لمدينة دور درشت خلال السنوات ١٥٧٥-١٦٢٠، وممثلاً لمقاطعة هولندا في ادميرالية زيلاندا خلال السنوات ١٥٧٥ - ١٦٢٠ وممثلاً لمقاطعة هولندا في ادميرالية زيلاندا خلال السنوات ١٥٩٦-١٥٩٩ وكان اكبر المساهمين في غرفة زيلاندا لشركة الهند الشرقية الهولندية في عام ٢١٦٠. ودرس ابناءؤه الثلاثة اندريس وفرانز وجاكوب القانون وقاموا برحلات عديدة خارج البلاد وهم لا يزالون في سن الشباب، مما اهلهم فيما بعد لشغل مناصب رسمية وادارية محلية - وهو أسلوب كاد يمثل قاعدة عامة يجرى تطبيقها على ابناء الحكام. وعلى الرغم من أن جاكوب واصل عمل ابيه لبضع سنوات، إلا أنه عمل أيضاً أمين صندوق لمجلس دور Dordt في عام ١٦١٨ وشغل مكان ابيه في مجلس المدينة بعد موته في عام ١٦٢٢. ثم شرع يركز اكثر فأكثر على واجبات مهامه الرسمية وتخلص من الأعمال التجارية للأسرة فيما بين عامي ١٦٢٢ و١٦٥١. وشغل مراراً منصب عضو بالمجلس التشريعي ومنصب العمدة. ومثل دور درشت في ولايات هولندا وفي ادارة عموم الولايات. وكان عضواً في كثير من اللجان الرسمية، ومبعوثاً الى السويد في عام ١٦٤٤، وخصماً مبرزاً لوليم الثاني في عام ١٦٥٠.

وعلى الرغم من أن جاكوب دي ويت عيّره خصم سياسي في عام ١٦٤٧

بأنه من أسرة محدثة النعمة إلا أنه كان يشعر يقينا بسعادة الانتساب إلى طبقة الحكام، وتقتله بالرأي القائل: «إذا كان ابن المدينة صغيراً فسوف يظل صغيراً». وهو نموذج للانتقاء من أبناء الطبقة الحاكمة إذ كان يعارض بحزم أي تدخل من جانب الكنيسة في الخطة السياسية على الرغم من التزامه بحضور صلوات الكنيسة ومواظبته على قراءة الانجيل وكان يؤم أسرته في صلواتها كل يوم. وسار أشهر ابنائه جوهان دي ويت على نهج أبيه مخلصاً تقياً ومدافعاً عن سلطة وامتيازات الطبقة الحاكمة. واعتاد أن يؤكد الأشخاص غير المؤهلين والذين هم من أصل وضيع ليس لهم دور مع الحكومة والإدارة اللتين يتعين قصرهما على المؤهلين وحدهم. وحصل جوهان دي ويت وأخوه كورنيليس على تعليم متميز في مجال الكلاسيكيات في مدرسة دور درشت الشهيرة ودرس القانون في جامعة ليدن وإنه حصل على درجته العلمية من جامعة هوجونت في انجرز. ولم يهمل تربيته البدنية مما ساعده على تكوين بنية قوية تتحمل اعباء ساعات العمل المضنية ومراجعة التقارير وهو عمل استمر في أدائه سنوات. وتميز بالطلاقة في اللغة الفرنسية مع دراية باللغات الانجليزية والالمانية والايطالية، وتميز كذلك في الرياضيات، وكتب رسالة عن الدخول السنوية مدى الحياة (١٦٧١) التي أهلته ليكون مؤسس علم التأمين على الحياة.

وفي الأعوام ١٦٤٥-١٦٤٧ قام الأخوان الشابان دي ويت بما أسماه جوهان «الجولة العظمى» عبر القطاع الأكبر من فرنسا وجزء من انجلترا بعد زيارة قصيرة لأبيهما في ستوكهولم. وعند عودتهما من أسفارهما إلى وطنهما تخصص الأخوان في أعمال المحاماة، ولكن ظل كورنيليس في دوردرشت بعد انتخابه عضواً بالمجلس التشريعي وقراره بأن يستقن سنة أبيه، بينما جوهان الذي مارس مهنة المحاماة فترة وأجادها في لاهاي انسحب تدريجياً منها ليشغل منصب قاضي الصلح في دور درشت (ديسمبر ١٦٥٠) ثم وزيراً أول لولايات هولندا (يوليو ١٦٥٣). وكذلك فإن زواجه بوانديلا بيكر ذات الثراء

الواسع في عام ١٦٥٥ جعله وثيق الصلة بالأعضاء القياديين من الأسر الحاكمة المسؤولين عن مجلس المدينة في امستردام لسنوات طويلة وأفاد من هذه الصلة كثيراً. وإن ما أصابه بعد هذا من نجاح كرجل دولة أمر معروف وشائع تماماً بحيث لا يحتاج الى تكراره هنا. ولكن قد يكون من المهم ان نذكر انه على الرغم من ان وضعه هذا كان وضعاً رسمياً خالصاً، وانه استثمر كل امواله في صكوك حكومية، إلا أنه كان من بين اصدقائه رجال أعمال مثل جين دويتش Jean Deutze رجل المصارف والتاجر في امستردام وكذلك رجال الصناعة في ليدن وغيرهم، وحيث انه كان ميسوراً في بداية حياته العملية فانه خلف ثروة تقدر بنصف مليون جيلدر عندما وافته المنية. وجمع ثروته هذه بفضل اسلوبه الاقتصادي في الحياة واستثماره الناجح لامواله وأموال زوجته*.

أسرة دي ويت في دور درشت نموذج لحكام المدينة على مدى أجيال عديدة، إلا أن عمليات الصعود المفاجيء الى مقاعد السلطة المحلية كانت معروفة الى حد ما قبل أن يصبح الحكام اقلية غنية «اوليجاركية» تعيش على الربيع مغلقة على ذاتها. مثال ذلك فرنسيس بونينج كوك، الشخصية المحورية في لوحة رمبرانت «حارس الليل» والذي شغل منصب عمدة امستردام في عام ١٦٥٠، اذ كان فرنسيس سليل أسرة أصابها الثراء فجأة، وهناك أيضاً العلامة نيتولا تولب وهو مالف لنا أيضاً من خلال لوحة أخرى رسمها رمبرانت وعنوانها «درس التشريح» - كان أيضاً رجلاً من اصل متواضع ثم ارتقى فجأة ليكون عمدة لامستردام، بيد ان هذه الامثلة أضحت أكثر ندرة مع مرور الزمن خلال القرن السابع عشر، ثم أكثر وأكثر في القرن الثامن عشر. زد على ذلك ان طبقة الحكام وان كانت حقاً سلبية طبقة التجار، إلا أن هذا النسب ليس وضعاً شاملاً خاصاً فيما يتعلق بالمدن الأصغر شأنًا وحجمًا. ان

* N. Japke, Jahan de witt (Amsterdam 1928)

مشكلة أصول الطبقة الحاكمة وتطورها التدريجي لتصبح «أوليغاركية» أو أقلية غنية من سكان المدن إنما تستلزم بحثاً مستفيضاً ودراسة تفصيلية على نحو ما أوضح مؤخراً د. ج. روردا في دراسة تقسم بالبصيرة النافذة عن الطبقات الحاكمة في هولندا خلال القرن السابع عشر.

وإيا كانت الأصول التي نشأت عنها أوليغاركية المدن. والمدى الذي وصلت اليه كطبقة حاكمة محددة المعالم خلال حقبة إدارة جوهان دي ويت، أو حقبة «الحرية الحقة» كما سماها أنصارها والمعجبون بها، فإننا نجد كل هذا واضحاً في الدراسة الكلاسيكية التي تضمنها كتاب «ملاحظات عن المقاطعات المتحدة للأراضي المنخفضة» تأليف سير وليم تمبل، الذي عرف الجمهورية معرفة جيدة على مدى السنوات التي سبقت مباشرة صدور كتابه (١٦٧٢)*

«تلك الأسر التي تعيش على عقاراتها الموروثة في جميع المدن الكبرى، هم أناس ذوو مشارب وتربية مغايرة لمشارب وتربية التجار، وإن تشابهوا معهم في تواضع الرزي والعادات فضلاً عن البخل وامسك اليد في الانفاق على متطلبات العيش. قضوا شبابهم عادة في المدارس وفي جامعات ليد أو أوترشت ودرسوا الدراسات المعتادة وإن عتوا بدراسة القانون المدني الخاص ببلدهم. ونظراً لشراء هذه الأسر فإن شبابهم بعد أن يكملوا دراساتهم في أوطانهم يسافرون لعدة سنوات شأن عادة أبناء الطبقة الراقية، وتتركز أسفارهم أساساً إلى إنجلترا وفرنسا، وقليلاً إلى إيطاليا، ونادراً إلى إسبانيا، وأحياناً إلى أقطار الشمال. والهدف الرئيسي من تربيتهم هو تهيئتهم ليكونوا صالحين لخدمة بلادهم في حكم المدن والمقاطعات والدولة، ونجد من بين هؤلاء كبار المسؤولين في الحكومة وهم من أبناء الأسر التي استأثرت لسنوات طويلة

* الفقرات الواردة هنا اقتبستها من الصفحات ١٦١-١٦٤ طبعة ١٦٧٦.

بحكم المدن بل ومنهم من تولى المناصب لأجيال عديدة.

كان هذا هو طراز أغلبية، وربما جميع الوزراء الأساسيين وأعضاء المجالس الكبرى، وهذا هو ما لمستته خلال اقامتي بينهم، إذ لم يكونوا من رجال الأعمال التجارية الوضيعة أو الحرفية على نحو ما كان متبعاً بين الأجانب وكان موضوعاً لدعابات ساخرة يطلقونها عن حكوماتهم. وهذا ليس من شأنه أن ينفي وجود كثيرين من التجار يشغلون مناصب أساسية في قيادة مدنها أو أن يكونوا أحياناً نواباً عن ولاياتهم، ولا أن نرى ولايات عديدة يتولى مسئولية التجارة فيها موظفون تخصصوا لهذا الغرض. ولكن إدارة عموم الولايات وحكامها هم من النوع الآخر، وكانت ممتلكاتهم هي دخولهم وعائداتهم التي يتقاضونها مقابل مسئولياتهم العامة، أو إيجارات الأراضي أو فوائد أموالهم في الخزائن العامة كانتورات Cantores أو في أسهم شركة الهند الشرقية أو حصصهم ضمن أعمال تجارية يتولاها كبار التجار.

وهذه الأسر التي اعتادت حكم مدنها ومقاطعاتها لم تكن لتحقق لنفسها ثروات طائلة، إذ كانت رواتب الوظائف العامة ضعيفة وعائد الأراضي أدنى من الرواتب، ونادراً ما يتجاوز الربح اثنين بالمائة. واعتادوا أن يقنعوا أنفسهم بشرف العمل لمصلحة المجموع، مع تقدير وإكبار مدنها أو بلدهم لهم، ثم هدوء البال إزاء ثرواتهم التي نادراً ما تخفق بسبب التزام الاقتصاد في شئون حياتهم.

ونجد الثروات الطائلة التي تتزايد بصورة مفرطة بين صفوف التجار الذين لا عمل لهم غير التجارة ويقنعون بأن لا يساهموا في شئون الحكم إلا بأقل نصيب ممكن، وتنحصر رغبتهم فقط في تأمين ممتلكاتهم، لا تؤرقهم أي موم أخرى فيما عدا ثرواتهم وتصريف أمور تجارتهم واستثمار الفائض من وقتهم وفكرهم للتسرية عن أنفسهم. ولكن ما أن يحقق هؤلاء ما يصبون

اليه من ثروات حتى يختاروا تنشئة ابنائهم على الدرب نفسه وتزويج بناتهم من أزواج من أبناء العائلات الأخرى الذين يحظون بثقة مدتهم وتفرغوا لحكمها. وهكذا تسلك أسرهم السبيل الى حكم البلد ونيل المجد والشرف وهي أمور لا تعتمد على لقب بل على العمل العام.

والجدير بالذكر ان سير وليم تمبل حين صنف أبناء الأسر حسب مراتبهم وضع أبناء الارستقراطية القديمة من ملاك الأراضي والنبلاء أصحاب الألقاب في مرتبة ادنى كثيراً من طبقة الحكام من حيث الأهمية. وأضاف قائلاً انه على الرغم من ذلك يرون أنفسهم أكبر شأنًا من النبلاء في بلدهم على عكس ما هو مالوف في بلدان أخرى، ويرون كذلك انهم يحظون من شرفهم بالزواج بأحد دون مستواهم حتى وان كان الزواج هو السبيل الى تكوين ثروة لأسرة نبيلة. بعبارة أخرى نقول ان طبقة النبلاء من ملاك الأراضي في هولندا - حيثما وجدت - كانت أقرب الى ان تكون ارستقراطية مغلقة، مثل ارستقراطية ملاك الأراضي في فرنسا واسبانيا والبرتغال وليست كطبقة الارستقراطية المفتوحة في انجلترا التي تسمح بالزواج المتبادل مع أسر دخلت مؤخراً في صفوف الأسر النبيلة بعد ان حقق رجالها ثروات عن طريق التجارة او العمل السياسي او القانون. ولم يكن نبلاء هولندا عادة من كبار ملاك الأراضي الذين يمتلكون مساحات شاسعة، بل ان أكبر الممتلكات العقارية في فريزلاند لا يمكن مقارنتها بالأراضي الشاسعة التي يملكها كثيرون من النبلاء الأوروبيين ابتداء من بولندا الى البرتغال.

واستنكر سير وليم تمبل ميل نبلاء هولندا الى محاكاة الارستقراطية الفرنسية في سلوكها ولباسها، ولكنه اقر بأنهم فيما عدا هذا نوع من الناس ذوي امانة واستقامة وود ورقة حاشية، وانهم اذا ما اضطلعوا بمسئولية عمل باسم بلدهم فانهم يبلون بلاء حسناً يستحقون من أجله الثناء والتقدير. وكانوا بطبيعتهم من انصار آل اورانج، وان كان هذا لا يمنع ان

نجد بين صفوف الحكام ومن عهد وليم الثالث (١٦٧٢-١٧٠٢) بعض النبلاء من أمثال جاكوب فام واسيناير فان او بدام. قائد عام الاسطول البحري الهولندي خلال الأعوام ١٦٥٥-١٦٥٥ الذي كان يفضل قيام جمهورية برجوازية بدلا من الامارة سواء عن اقتناع شخصي او بسبب الغيرة من بيت آل اورانج. أما عن العلاقات الاجتماعية للارستقراطية القديمة الحاكمة مع سكان المدن فإننا نجد ملاحظة كتبها زائر انجليزي في عام ١٩٨٥ يقول فيها: ان اولئك الذين يحكمون انفسهم عن حكمة واعتدال - ويتألفون مع من هم دونهم يحظون بقدر كبير من التوقير والتقدير والشعبية بينما اولئك الذين يتصفون بالجفاء والتعالي يكونون عادة مكروهين محقرين.*

وكان من المألوف لدى جميع الرحالة. الأجانب في المقاطعات المتحدة خلال العقود السبعة او الثمانية الأولى من القرن السابع عشر ان يروا ابناء الطبقة الحاكمة وطبقة التجار بل (ولدرجة أقل) والارستقراطية من النبلاء وضباط الجيش أكثر واقعية «انفتاحا» من نظرائهم في البلدان الأخرى. ويبدى سير وليم تمبل ملاحظة بشأن ميشيل دي رويتر وجوهان دي ويت الاول الذي يحظى بتقدير الأمم الأجنبية باعتباره بحارا عظيما، والثاني باعتباره رجل دولة عظيماً بالقياس الى أقرانها في عصرهما لم يكن بالإمكان التمييز بينهما من حيث اللباس اليومي والسلوك العام وبين أي ربان بحر عادي بالنسبة للاول او أي من سكان المدن بالنسبة للثاني. وكان أهل بيت كل منهما على القدر نفسه من التواضع وعلى الرغم من أنهما جمعاً ثروة كبيرة الا ان ايا منهما لم يكن يخدمه، خارج البيت او داخله، أكثر من خادم واحد يتبعه ويلازمه. ويضيف سير وليم الى ذلك قوله «ولم يكن هذا الأسلوب في الحياة شأن هذين الرجلين فحسب بل كان هو النمط العام السائد بين جميع حكام الولاية. وانا هنا لا اتحدث عن ضباط الجيش الذين يعملون باعتبارهم

* رواية غير منشورة رواها جيمس مونسون عن رحلته عبر بلدان غرب أوروبا في ١٦٨٥/١٦٨٦.

مستخدمين لهم، ولهم زيهم المتميز، وإن كانوا عادة أكثر تواضعاً من سواهم في البلدان الأخرى. ولا ريب في أن الكالفنية كان لها تأثيرها هنا في الالتزام بهذه الواقعية وسوف نرى كيف أن سكان المدن العاديين في أمستردام وميدلبرج حينما انتقلوا إلى جزر الهند الشرقية والغربية أغرقوا أنفسهم في مظاهر الأبهة والخيلاء على نحو ما فعل أسلافهم من أهل جزيرة إيبيريا ومثلما فعل منافسوهم الانجليز.

ولاحظ كثير من المعاصرين أن الطبقة الراقية بدأت في الربع الأخير من القرن السابع عشر في اتباع أسلوب جديد في الحياة يتسم بقدر أكبر من التفاخر والترف. مثال ذلك أن انجل Engel ابن ميشيل دي رويتر وقد كان عَزَباً عاش حياة تتسم بقدر كبير من الأسراف على نحو لم يكن مألوفاً بالنسبة لأبيه، إذ كان لدى انجل بيت في المدينة مؤثثاً فائزاً ويعمل فيه خادمان وخادمتان وسائق علاوة على هذا احتفظ انجل لنفسه ببيت كبير في الريف اعتاد أن يقضي فيه أجازة نهاية الأسبوع وأجازة الصيف. وسار على الدرب نفسه كونيليس ترومب، الضابط البحري، وابن م. هـ. ترومب القائد البحري الشهير. إذ عاش الابن حياة ترف فاقت حياة أبيه الذي كان يقنع بتناول سمك الرنجة كطعام افطار له. وتزوج كورنيليس بفتاة من بنات عائلة من حكام أمستردام، وعاش سنواته الأخيرة كواحد من كبار السادة ينتقل ما بين بيته في مدينة هرينجراشت في أمستردام وبين بيته الريفى الفاخر في جرافلاند. وما هو وليام كار القنصل الانجليزي في أمستردام، والذي نشر وصفه لوقائع الحياة في المقاطعات السبع لأول مرة في عام ١٦٨٨، يعرب عن صدمته إزاء الزيادة الواضحة لحياة الترف بين أبناء الطبقة الحاكمة وأثرياء المدن وهي الحياة التي سادت خلال الأعوام الستة عشر منذ أن كتب سير وليم تميل كتابه الشهير إذ يقول وليام كار أن حياة الشظف والاقتصاد تلاشت تماماً أو كادت في هولندا، الآن ولا تكاد تقع العين على مظاهر التواضع، إذ بدلا من البيت المريح يقيم الهولنديون الآن قصوراً فاخرة

بإذخة، ويمتلكون الحدائق البهيجة وبيوتاً تتوفر فيها كل مظاهر المتعة والترف، فضلاً عن العربات والمركبات المختلفة والجياد المطهمة بأفخر أنواع السروج والزخارف والأجراس القضية .. وتغير بنفس القدر مزاج النساء والأطفال بحيث لا يرضيهم غير أفخر وأغلى أنواع الثياب التي تزهو بها فرنسا والبلدان الأخرى، وأدمن الأبناء الميسر الذي أدى إلى دمار أسر كثيرة في امستردام*.

إن الأحكام النقدية القاسية التي أطلقها كار، وكذلك آخرون من المعاصرين ممن يمكن أن نورد أحكامهم هنا، إنما تنطبق أساساً، وربما على مقاطعة هولندا فقط، وتصدق بشكل أخص على البرجوازية الثرية في امستردام ولاهاي. والملاحظ أن تأثير الكالفنية على هذا القطاع المتميز من المجتمع الهولندي لم يكن واضحاً جداً مثلما كان الحال في أماكن أخرى. وإن الشباب الثري الذي قام بما عرف باسم «الجولة الكبرى» قد تأثروا دون شك بما شاهدوه في إنجلترا، وفي فرنسا قبل إنجلترا. وثمة عامل آخر ربما ساعد على غرس وتعزيز نزوع استعراض البذخ والتفاخر بالثروة ألا وهو عودة أولئك الذين صنعوا ثرواتهم في جزر الهند الشرقية. إن هؤلاء الهولنديين، أقران وأسلاف الوجهاء والأثرياء الانجليز في القرن الثامن عشر، قد اعتادوا حياة الترف والبذخ التي عاشوها في المنطقة الاستوائية، وتلاشى عندهم أي ميل للتلاؤم مع حياة التطهر بعد عودتهم إلى أرض الوطن. وإيا كان الأمر فإن الفن والعمارة في هولندا خلال هذه الحقبة يعكسان بوضوح هذا التغير على الرغم من أن الطبقات الهولندية الحاكمة ظلت دائماً وأبداً أقل اسرافاً من أرستقراطية إنجلترا وفرنسا. ويلخص وليم كار بصورة جيدة الموقف آنذاك حين أبدى ملاحظة قال فيها: على الرغم من أن الهولنديين لم يدمنوا هذا الطراز من الاسراف والترف الذي شاع بين الانجليز ... إلا أن أهل الوقار

* Temple, Observation [ed. 1676] pp. 128-9

* W. Carr, Accurate Description. [ed. 1691] pp. 71-4

والرزانة من الهولنديين كانوا شديدي الحساسية ازاء هذا التحول الكبير الذي يجرى الآن في هذا البلد.

وهناك واحد «من أهل الوقار والرزانة في هولندا» عبّر عن حالة الانزعاج حتى وقتما اعرب سير وليم تمبل عن اعجابه بما تتصف به الطبقة الحاكمة في هولندا من اقتصاد وتواضع. ذلك ان كاتباً مجهولاً ألف في عام ١٦٦٢ كتيباً اشتكى فيه من أن صغار البقالين والخياطين والاساكفة وأصحاب الحانات وزوجات كل منهم باتوا يرفقلون في الحرير والمخمل بحيث يتعذر على المرء ان يميز بين هؤلاء الذين هم من منبت وضيع وبين سادتهم في المجتمع. ومضى في حديثه مؤكداً أن الأمور سارت الى مثل هذا المأزق الخطير من ان «ابن العامة بات يظن ان من حقه ان يرتدي ما يشاء من ثياب طالما وانه قادر على دفع الثمن». وبالمثل نجد بعض صغار التجار والحرفيين وقد اثثوا منازلهم باثاث لا يتفق ابداً مع وضاعة منبتهم في الحياة. وتساءل الكاتب ساخناً «هل يمكنك ان تتحمل رؤية خياط يملك قاعة أو ردة زين جدرانها بجلود او سجاجيد مذهبة؟ اذ تقع عينك هنا وهناك على تاجر اقمشة او حرفي يزخرف بيته بزخارف يحاكي فيها بيوت السادة من سكان المدن؟ ودعا، والح في دعوته الى ضرورة القضاء على هذا الوضع غير اللائق عن طريق سن قوانين تتعلق بتنظيم نفقات المعيشة وتقيد استخدام الحرير والمخمل بحيث يكون قاصراً على أبناء الشرائع العليا من الطبقة المتوسطة وتفرض على أبناء الطبقة العاملة ارتداء «الصوف وغيره من لباس خشن». وحدد معنى عبارة الشرائع العليا من الطبقة المتوسطة بقوله انها تضم الحكام والمسؤولين والاشراف ونظار المزارع والجباة وغيرهم من كبار الموظفين وكذلك التجار الذين يتراوح رأسمالهم ما بين أربعين وخمسين ألف جلدري، ويدفعون ضرائب عن أموالهم هذه. وكان من رايه اعتبار المحامين والأطباء نظراء للمسؤولين في دست الحكم، اما وكلاء المحامين فهم أدنى مرتبة ويتساوون مع الكتبة والعاملين في ديوان الشريف. ووضع البقالين وصغار التجار وصغار الموظفين جميعهم في

سلة واحدة باعتبارهم الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى، وأنهم فوق الحرفيين مباشرة. وأوضح ان ضباط الجيش يشكلون طبقة منفصلة، غير انه بدأ متحيزاً ازاء تحديد المكانة الاجتماعية الخاصة بالفنانين والممثلين. اذ رأى ان أكثرهم يتسمون بالتهور، وان اتصف بعضهم بالذكاء والالهام في ابداعهم الفني. وقدم هذا الكاتب المجهول عديداً من الاقتراحات التي لا تعيننا هنا، بيد ان دراسته لها أهميتها بالنسبة لنا من حيث انها توضح لنا ذلك الوعي الطبقي الحاد الذي ساد الحياة الاجتماعية خلال العصر الذهبي للجمهورية الهولندية والذي زاد حدة وكثافة على مدى القرن التالي.

والحديث عن السلوك الوقور الرزين - الذي يستثنى منه دائماً الولاثم والافراط في الشراب - لأبناء الشريحة العليا من الطبقة الوسطى خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، وكذلك تطلعهم الى الرخاء الاقتصادي لا يعني ان هذه الفترة لم تعرف المحاباة والرشوة والفساد. إذ على العكس كانت هذه صفات أساسية في البنية الاجتماعية، وان زعمنا، صادقين، انها لم تكن أسوأ حالا مما كانت عليه في أماكن أخرى في أوروبا على الرغم من أن بعض الأجانب قالوا عكس هذا. ومن بين الأسباب التي حافظت على أن تكون هذه المظاهر السلوكية السيئة ضمن اطار محدود هو امكانية فضحها بسهولة ويسر من خلال ادب تأليف الكتيبات والذي كان قسمة شائعة سادت في المقاطعات السبع. ونادراً ما كانت السلطات المسئولة قادرة على فرض رقابتها وسيطرتها بصورة كاملة على كتاب الكراسات بسبب نظام اللامركزية شبه الكامل في الحكم، وبسبب الغيرة المتبادلة بين المقاطعات المستقلة اذ كانت اكبر الكراسات التي يحظر نشرها في مدينة من المدن يعاد طبعها في مدينة أخرى.

وطبيعي ان الانتقاد الصريح المطبوع لم يكن ليحول دون وقوع فضائح معينة مثل ذلك ان يستغل حكام امستردام وضعهم الرسمي لتحقيق أرباح

خيالية عن طريق بيع الأراضي خلال فترة توسيع المدينة في عام ١٦١٥، أو أن يثرى حكام مقاطعة هورن على حساب الفقراء والعامّة بسبب الكساد الذي ساد في عام ١٦١٨، أو أن يعتمد أعضاء ادميرالية روتردام الى خيانة الأمانة، ويستخدموا الاموال الرسمية لحساب مصالح شخصية خلال عام ١٦٢٦. ومن المظنون أن إدانة وفود زيلاندا لدى المجلس الاعظم في عام ١٦٥٠ لأعمال الرشوة والفساد داخل الأوساط الرسمية لم يكن لها سوى تأثير عابر. ومن الواضح ان الوفود كانت تشير في ادانتها الى كونيليس موش كاتم اسرار ادارة عموم الولايات الذي عرفت عنه شهرته المخجلة لجمع الرشاوي، ولم يكن ليتردد في تزويد سفير البرتغال بنسخ من جميع البرقيات السرية والقرارات السرية التي كان يحتاج اليها هذا السفير. وبعد بضع سنوات أكد سير جورج داووننج، المبعوث الانجليزي لدى لاهاي، وهو انسان عديم الضمير، اذ قال نادرا ما عمل انسان في عموم الولايات الا وحقق لنفسه ثروة من خلال عمله ولا بد وأن يبيع نفسه لمن يشتريه».

وإن سوسة كوتنهو، المبعوث البرتغالي الذي أسلفنا ذكره يقدم لنا صورة سريعة توضح كيف يتعرض للغواية زوج له اولاد كثيرون اذ من خلال دعوة مهذبة لهذا الزوج ومناقشته في امر معروض عليه، «يترك صاحب الشأن جوهرة ثمينة تبلغ قيمتها حوالي ألف كروزادو (وقد تزيد أو تقل حسب مكانة الشخص) تسقط من بين يديه كأنها سقطت مصادفة في يد واحد من اطفال هذا الموظف». ولا يطالب الأب ابنه برد الجوهرة، وبهذا لا يراق ماء وجهه. ولكن هناك استثناءات مشرفة وجديرة بالاحترام وهي اكثر عدداً مما توحى به هذه الانتقادات غير الودية. ولا ريب في ان السفير الفرنسي دو استراد كان مبالغاً تماماً عندما قال «باستثناء السيد دي ويت لا يوجد أحد ليس على استعداد لأن يغير رأيه مقابل المال». ولكن اذا كان «الهولندي الكامل» حظى بشهرة فريدة لامانته حيث يتعلق الأمر بمصلحة بلده، إلا أنه يكون من الصعب عليه ان يغفل روابط القرابة والصداقة اذا ما سأل أحد المرشحين

لشغل وظيفة ما ان يستخدم نفوذه لخدمته، بيد انه اذا ما فعل ما هو مطلوب منه فلان الصنيع الذي يقدمه لأقاربه ولأصدقائه السياسيين في هذه المناسبات لا يصل أبدا الى حد الفضيحة الكبرى.

ولكن لا يمكن ان نقول الشيء نفسه عن كثيرين من معاصريه، وان المحاباة كانت متصلة في النظام الاوليباركي للجمهورية الهولندية بحيث لا يمكن تفاديها او القضاء عليها. إذ ان كلا من انصار «الحرية الحقة» من الحكام ورجال الدولة من آل أورانج كانوا جميعاً على قدم المساواة من حيث التزامهم القوي بوضع انصارهم في المناصب الأساسية أو الوظائف التي تدر ربحاً على أصحابها، وعمد كل فريق الى هذا الأسلوب كلما استطاع الى ذلك سبيلاً دون اشارة فضائح مبالغ فيها - حتى وان اثار عملهم مثل هذه الفضائح - وربما ادت المحاباة على المدى الطويل، الى الاضرار بالسياسيين اكثر مما ادت الرشوة والفساد. لقد اثارت جميعها دون شك مزيداً من المعارضة، وفضلت مصالح الاوليباركية الحاكمة عن مصالح الطبقتين الوسطى والدنيا. واتصف أسلوب المحاباة الذي مارسته الطبقة الحاكمة بالعديد من القسومات. ونجد اكثر هذه القسومات خزيّاً في الاتفاقات المعقودة بين أعضاء أحد مجالس المدن بأن يجري تعيين أقاربهم وأصدقائهم في الوظائف حسب الدور. وكانت اتفاقات المعاملة بالمثل شفافية في بادئ الامر ثم مكتوبة بعد ذلك، وبعد ان كانت نادرة نسبياً في القرن السابع عشر أصبحت شائعة أكثر فأكثر خلال القرن الثامن عشر. وإذا كانت المحسوبية لا تعني بالضرورة اقضاء اهل القدرة والكفاءة إلا ان هذا لا ينفي أن مؤهلات المرشح لشغل وظيفة ما كانت روابطه الأسرية وليست شخصيته. بعبارة أخرى بات ينظر الى الوظائف العامة في الجمهورية الهولندية - وفي غيرها وان اختلفت الأسباب باعتبارها اموراً خاصة بالأسر وان كانت قابلة للتفاوض بقدر أو بآخر. وكتب بعض الانجليز الذين اقاموا زمناً طويلاً في هولندا عن هذا الامر في عام ١٧٤٠ - فقالوا: «حكومتهم ارستقراطية الطابع: ولهذا فان

الحرية التي تزدهر بها هولندا لا يمكن فهمها بصورة عامة أو مطلقة بل في سياق تطبيقها. ان العمداء وأعضاء المجالس هم ممثلو السيادة في المدن، وإذا أصبح مكان شاغراً بسبب وفاة فلان العمدة يثور ويغضب إذا ما تجرأ واحد من سكان المدينة على ان يهمس اليه برغبته في أن يشغل وظيفة واحد من ابنائه أو أقاربه*

وعلى الرغم من أن الأوليغاركية الحاكمة تمايزت أكثر فأكثر عن سكان المدن العاديين خلال القرن الثامن عشر، إلا أننا إذا ما ركزنا كثيراً على الهوية الفاصلة بين الحكام والمحكومين في حقبة باكرة. فإن من المسلم به أن كثيرين - وربما أغلبية - الحكام في «القرن الذهبي» ربما اتفقوا في الرأي مع جاكوب وجوهان دي ويت في أن على الصغير أن يظل صغيراً، وأن أبناء الطبقة الحاكمة هم وحدهم المؤهلون تماماً لحكم أبناء بلادهم. ولكن على الرغم من الإعجاب الواسع النطاق ببيت آل أورانج، تظل الحقيقة الماثلة وهي أن أكثرية الناس كانوا في أغلب الأحيان قانعين بالحكام باعتبارهم زعماءهم الطبيعيين. انهم تحولوا فقط الى بيت آل أورانج في الاوقات التي احسق بهم خلالها خطر شديد من الغزو الفرنسي في عام ١٦٧٢ وفي عام ١٧٤٨. كما أوضح مؤرخون هولنديون عديدون فإن جماعات كثيرة وكبيرة العدد في الجمهورية كانت لديها أسبابها المقبولة لاثار الأوليغاركية الحاكمة على خصوصهم الأشداء وأن لم يفعلوا هذا في صراحة ووضوح شأن الكالفنيين المتطرفين أو أنصار آل أورانج المتشددين. والملاحظ أن الكاثوليكين الرومان وجماعات المعارضين والمنشقين البروتستانت بعامه، الذين يؤلفون على الأرجح حوالي ثلثي السكان (احصاء ١٦٦٢) قد أدركوا ان أبناء الطبقة الحاكمة هم حصنهم المنيع الرئيسي لاحتماء به ضد الأحكام المتعصبة بشأن «عقيدة مسيحية اصلحية أصيلة». وأن هؤلاء المتعصبين المتطرفين رغبوا في أن يكون للكنيسة الكالفنية الأرثوذكسية السيادة والتفوق على كنيسة الدولة المتسامحة نسبياً.

* Anony. A Description of Holland: London, 1743.

ولم تكن الطبقة الحاكمة وحدها هي الكارثة لطموحات الاسرة الملكية وميولها التي كشف عنها أحيانا بيت آل أورانج. ومن الاهمية بمكان أنه بمناسبة هجوم وليم الثاني على امستردام سنة ١٦٥٠ وقف كل أهل البلد في عزم وتصميم الى جانب الإخوة بيكر وهم الاوليغاركية الحاكمة. بل انه حتى في أيام جوهان دي ويت و«الحرية الحققة» كان الحكام يضطرون الى أن يولوا بعض الاعتبار للرأي العام. وهذا هو ما لحظه سير وليم تمبل وأشار اليه حين كتب يقول «ان السبيل الى الوظيفة والسلطة يتمثل في تلك الصفات التي تحظى بتقدير عام من الناس». وعلى الرغم من ان الحكام اصبحوا فيما بعد اقلية غير نيابية، إلا أن أغلبية مواطنهم لم يتنازعوا بشأن حقهم في حكم البلاد طوال السنوات التي حكموا فيها جمهورية هولندا والتي تعتبر أعظم حقبة التاريخ العام لبلدهم.*

ان قيام شركتي الهند الشرقية والغربية يعد واحدا من أروع وأهم الأعمال التجارية الهولندية بالنسبة للمعاصرين وللخلف من أبناء هولندا آنذاك.

هذا على الرغم من أن الاهمية الاقتصادية لهاتين الشركتين الكبيرتين كانت في واقع الأمر أقل من تجارة النقل الى غرب اوروبا ومصايد الشمال البحرية. وسبق ان أشار دي ويت في عام ١٦٧١ الى أن تجارة الحبوب مع البلطيق كانت «المصدر والجذر الرئيسي لأهم الأعمال التجارية والملاحية لهذه الأراضي»، ففي بداية القرن السابع عشر كانت هولندا تمتلك حوالي ١٢٠٠ سفينة تعمل في هذه التجارة، وخلال النصف الأول من القرن نفسه تجاوزت السفن الهولندية العابرة لمنطقة ساوند Sound السفن الانجليزية وكانت النسبة ١٢ الى واحد. وذهبت بعض التقديرات الى ان ثلاثة أرباع رأس المال العامل في بورصة امستردام منذ عام ١٦٦٦ مخصص للعمل التجاري في

* Temple, Observations (ed. 1676) pp. 130

منطقة البلطيق. ووصف المتخصصون مصايد الشمال البحرية لصيد
أسماك الرنجة والبالا والكد وسك اللنج بأنها «التجارة الرئيسية ومنجم
الذهب الأول» للمقاطعات المتحدة خلال الفترة من ١٥٨٠-١٦٣٩

وبعد حوالي ٤٠ عاماً ذهب دي لاكور في تقديره الى ان هذه المصايد
تستخدم ما يزيد على ١٠٠٠ سفينة شراعية لصيد السمك، وتراوح حمولتها
بين ٤٨ - ٦٠ طناً. وحسب عدد العاملين في صناعة صيد السمك وما
يستتبعها بحوالي ٤٥٠٠٠٠ نسمة، مقارنة بحوالي ٢٠٠,٠٠٠ يعملون في
الزراعة وحوالي ٦٥٠٠٠٠ يعملون في صناعات أخرى.

أما تقديرات قيمة الصيد فإنها تتباين تبايناً كبيراً، إذ يذهب دي لاكور
(عام ١٦٦٢) إلى أنها تبلغ ٨ مليون فلورين، وربما كان مليون فلورين أو
أقل قليلاً هو الأقرب إلى الصواب. وخضعت صناعة صيد السمك لرقابة
وسيطرة محكمتين من النقابة والحكومة وفقاً للوائح تضمن ارتفاع مستوى
أسماك الرنجة المخصصة للتصدير، وكذلك الأسماك المدخنة والطازجة
المباعة للطعام في بلد يأكل فيه الأغنياء فقط اللحم أكثر من مرة في الأسبوع.
وتعتبر انخويزين وروتردام المركزين الرئيسيين لصيد أسماك الرنجة طوال
القرن السابع عشر كله تقريباً، أما أمستردام فهي مركز صناعة صيد الحوت
القطبي الشمالي. وجرى تنظيم هذه الصناعة الأخيرة باعتبارها احتكاراً
للشركة الشمالية في الفترة من ١٦١٤ إلى ١٦٤٢، ثم أصبحت بعد ذلك وعلى
نحو أكثر نجاحاً نشاطاً حراً عندما رفضت إدارة عموم المقاطعات تجديد عقد
الشركة.

وان الاخفاق الذي منيت به الخطط الضخمة والطموحة للشركة الشمالية
الاحتكارية يهيء لنا فرصة لعقد مقارنة هامة مع تطور شركتي الهند الشرقية
والغربية خلال الفترة نفسها على الرغم من ان شركة الهند الغربية الأخرى

الهولندية انتهت نهاية صعبة، ذلك أن هاتين الشركتين، شأنهما شأن المؤسسات الأخرى في الجمهورية الهولندية غلب عليهما طابع الأوليغاركية والذي ازداد وضوحاً وتأثيراً بمرور الوقت. كذلك فإن تنظيمهما وتطورهما في باكورة نشاطهما يوضحان لنا التفاعل بين طبقتي التجار والحكام وتأثير كل منهما على الأخرى، والدور المتزايد بإطراد، للراسماليين والمستثمرين في امستردام الذين هيمنوا على التجارة عبر البحار.

ان كلا من الغرف الاقليمية الست في الشركة الهندية الشرقية كان لها مجلس مديرين، يطابق في الاصل مجلس المديرين المحلي للشركات الرائدة الذين احتفظوا بمراكزهم مدى الحياة اذ كان المعتاد عند وفاة أحد المديرين أو استقالته - وهو امر نادر الحدوث - يقدم زملاؤه قائمة بثلاثة أسماء إلى الممثلين المحليين لولايات المقاطعات. وهؤلاء هم عادة عمداء وحكام المدينة المعنية ويختارون أحد الاسماء لشغل المنصب الشاغر. والمعروف ان مجلس مديري الـ ١٧ تم اختيار اعضائه من بين المديرين الاقليميين الذين اختيروا بدورهم من بين كبار المساهمين الذين لا يقل نصيبهم من الاسهم عن ٦٠٠٠ فلورين بالنسبة لأغلبية الغرف الاقليمية و ٢٠٠٠ فلورين في الغرف الأقل شأناً في مقاطعتي هورن وانخويزين. ويطلق على هؤلاء المساهمين الكبار Hoofd Participanten أي كبار المساهمين. ومثل غرفة امستردام ثمانية مديرين في مجلس ادارة الـ ١٧، وأربعة لمقاطعة ميدلبرج، وواحد لكل من الغرف الأخرى. ويتحدد المدير السابع عشر وفق نظام دوري بالتناوب بين جميع الغرف فيما عدا امستردام.

ولكن الطبيعة الأوليغاركية والأبدية للديكتاتوريات سرعان ما أثارت الكثير من النقد المعادي سواء بين أصحاب الاسهم العاديين الذين لم يكن لهم أي نفوذ على سياسة المديرين أو بين كبار المساهمين الذين ظلوا خارج الدائرة الصغيرة للمديرين وأصدقائهم. وعند تجديد صك الشركة لأول مرة في عام

١٦٢٢ لم تبذل ادارة عموم الولايات جهداً حقيقياً في سبيل التصدي لموجة النقد وقررت ان يكون المديرون بعد ذلك بالانتخاب لمدة ثلاث سنوات، وان قائمة الاسماء الثلاثة لمنصب المدير الشاغر لا بد من احوالها الى لجنة تضم اعدادا متساوية من المديرين وواحدا من كبار المساهمين. وفي البداية لم يؤد هذا الى اختلاف واضح من الناحية العملية. ذلك ان جميع المديرين الحاليين الى التقاعد كان بالامكان اعادة ترشيحهم وانتخابهم من جديد كما وان كبار المساهمين الذين لهم حق التصويت لم يشأ اي منهم ان يعرض للخطر فرصة لانتخابه مستقبلاً بسبب معارضة المديرين الفعليين. ولهذا كان يعاد انتخاب المديرين الذين انتهت مدة عملهم، واستمر شغل الاماكن الشاغرة نتيجة الوفاة باعضاء من نفس دائرة كبار المساهمين، وان تم ذلك احيانا عن طريقة القرعة.

وان الرابطة الوثيقة التي تربط بين المديرين والطبقة الحاكمة عبّر عنها بوضوح وقوة واحد من مؤلفي الكراسات في عام ١٦٢٢. وأعرب في كراسته عن شكاوى الانجليز والفرنسيين بشأن استحالة الحصول على تعويض بسبب أخطاء حقيقية او مزعومة ارتكبها العاملون في شركة الهند الشرقية الهولندية ضد تلك الأمم في الشرق. «إذ يقولون اننا اذا ما ابلغنا شكاوانا الى الحكام والمستولين في المدن فان هناك المديرين .. وإذا ابلغناها الى الادميرالية فإن هناك المديرين مرة ثانية. وإذا ابلغناها الى ادارة عموم الولايات فإننا نجدهم هم والمديرين وقد جمعهم مجلس واحد في الوقت ذاته». وان هذه الرابطة الحميمة بين المديرين والطبقة الحاكمة هي السبب الرئيسي في انهم استطاعوا اغفال او اهمال اي انتقاد لسلوكهم من جانب المساهمين الساخطين، وهي التي ساعدتهم على تعزيز وضعهم باعتبارهم اقلية اوليجاركية دكتاتورية أبدية لا تخضع لمحاسبة اي جهة أخرى. وهكذا كان مجلس مديري السابع واثقا من نفسه اشد الثقة عام ١٦٤٤ حتى انهم ابلغوا ادارة عموم الولايات بمذكرة قالوا فيها: «ان الاماكن والحصون التي استولوا

عليها في جزر الهند الشرقية يجب ان لا ينظر اليها باعتبارها مغنم قومية بل ملكا خاصا للتجار، الذين لهم حق بيعها لاي انسان يشاءون حتى ولو كان ملك اسبانيا اول خصم من خصوم المقاطعات المتحدة «ويمكن ان نضيف الى ذلك ان انتقاد المساهمين للمديرين في الشركة خفّت حدته كثيراً بعد عام ١٦٢٤ عندما بدأ مجلس مديري الـ سبع عشر في توزيع حصص نقدية سنوية سخية. وتراوحت هذه الحصص ما بين ١٥,٥ بالمائة و ٥٠ بالمائة، وبلغت ذروتها في الفترة ما بين ١٧١٥-١٧٢٠ إذ جرى توزيع ست حصص متعاقبة، نسبة كل منها ٤٠ بالمائة.

وكان المساهمون الاوائل في رأس المال الاصلي العامل في شركة الهند الشرقية الهولندية من جميع طبقات المجتمع. وإن كان الاغنياء والميسورون هم الاغلبية العظمى بطبيعة الحال، وذلك لاسباب اوضحها مؤرخ معاصر تحدث عن نجاح رحلة فان نيك Van Neck: «يرجع هذا الربح الى عدد قليل من الاغنياء الاقوياء ذوي السلطان، ممن استطاعوا الاستغناء زمنا طويلاً عن رأسمالهم بينما لا يستطيع الانسان العادي الاستغناء عن مورد رزقه اليومي لمثل هذه الفترة الطويلة. ومثل أولئك الاغنياء يفيدون كثيراً بفضل استثمار اموالهم في التجارة مع الأمم المجاورة». والمعروف ان كبار الموظفين وأعضاء مجالس المدن وأغنياء التجار وأصحاب رؤوس الاموال ساهموا جميعاً في رأس المال وشاركوا بمبالغ تتراوح ما بين عشرة آلاف فلورين الى خمسة وثمانين ألف فلورين. ومن ابرز كبار المساهمين الاوائل التجار الصيارفة اللاجئون من مقاطعة انتويرب والاراضي المنخفضة الجنوبية وظلت لهم الهيمنة المالية حتى نهاية عقد كامل. وبمرور الوقت ذاب هؤلاء المهاجرون الاغنياء في الطبقة الحاكمة، إذ استوعبتهم هذه الطبقة، واشترى كبار المساهمين القسط الاعظم من انصبة صغار المستثمرين، وفي الوقت نفسه فإن مستثمرى امستردام الذين ساهموا في البداية بأكثر من نصف رأسمال الشركة العامل، مدوا قرون استشعارهم الى الغرف الأخرى. وقبيل نهاية

القرن السابع عشر كان ١١٨ من أهالي امستردام يحوزون حوالي ٢/٨ رأسمال غرفة زيلاند، كما امتلكت امستردام أكثر من نصف رأسمال شركة الهند الشرقية الهولندية.

علاوة على هيمنة امستردام المالية على شركة الهند الشرقية الهولندية فإنها مارست نفوذاً كبيراً ومتزايداً باطراد على سياسة الشركة وإدارتها. وتعرّز هذا النفوذ بفضل السيد بيتر فان دام الذي شغل منصب محامي الشركة في امستردام ابتداءً من عام ١٦٥٢ وحتى وفاته عام ١٧٠٦. ونقرأ كلمة للقنصل الانجليزي المقيم في عام ١٦٨٨ يقارن فيها المحامي العجوز البالغ من العمر ٦٨ عاماً بالرجل العظيم جوهان دي ويت إذ يقول: «إنهما متشابهان في جوانب كثيرة وإن لم يكونا كذلك من حيث المبدأ (السياسة)». فهذا الوزير العظيم رجل كد ومثابر لا يعرف الكلل، يعمل ليلاً ونهاراً لخدمة الشركة. يقرأ أكثر من مرتين الصحف التي ترد إليه من جزر الهند ويستخرج منها مذكرات لاعداد موضوعات ذات صلة هامة وضرورية ليتدارسها مجلس مديري ال (١٧)، وتدرسها. أيضاً لجان أدنى مستوى في الشركة، ويعد الأوامر التي يتعين إرسالها إلى كبار المسؤولين عن الشركة في جزر الهند. ولم يكن وليام كار مبالغاً في تقديره وهذا ما أكدّه فان دام في وصفه الموسوعي للشركة وانشطتها، وهو الوصف الذي أعده ليستخدمه المديرون على نحو سري وخاص جداً خلال الفترة ما بين ١٦٩٢ و ١٧٠١. وكانت هذه المخطوطات محظورة على الأجانب وغير مسموح بالاطلاع عليها وظلت سرّاً خاصاً لعدد من الأجيال المتعاقبة من مديري الشركة إلى أن تم حلها في عام ١٧٩٥.

أما عن مدى انفصال الطبقة الحاكمة، بصورة أو بآخرى، عن طبقة التجار فهذا ما توضحه سجلات إدارة شركة الهند الشرقية الهولندية. فبينما

* W. Carr, Accurate Description (ed, 1691)

نجد مجلس مديري الـ ١٧ يبلغ ادارة عموم الولايات في عام ١٦٤٤ بأن الشركة ملكية خاصة لتجار أفراد، نجد الحكام الذين شغلوا مقاعد مجلس ادارة الـ ١٧ في عام ١٧٤٣ يصدرون قرارا يقضي بأن بالامكان في نهاية الامر السماح للتجار بأن يكونوا مديرين، ونجد من بين ٢٤ مستولا من الحكام الذين شغلوا مناصب العمداء في امستردام خلال الفترة من ١٧١٨ الى ١٧٤٨، اثنين فقط من التجار النشيطين. وانها لمقارنة مثيرة بالنظر الى تشكيل مجلس هذه المدينة منذ قرن مضى. ولا ريب في ان المقارنة تبدو اقل اثارة اذا ما تذكرنا ان وظيفة عضو مجلس بلدي امستردام كانت وظيفة تقتضي تفرغا كاملاً بعد عام ١٦٥٠. ومن ثم فان التاجر النشيط لا يمكنه الاضطلاع بمهامه كمستول عن المدينة ويولي عمله التجاري اهتماما ملانما في الوقت ذاته. ولكن يتعين علينا هنا مرة أخرى ان لا نصدر احكاما مطلقة. ان انقلاب انصار آل اورانج في عام ١٧٤٨ الذي اتى الى السلطة بمجموعة أخرى من الحكام، أدى الى توازن أفضل بالنسبة لمصالح التجار. ولهذا فإن من بين ٢٧ مستولا من بين عمداء امستردام خلال الفترة من ١٧٥٢-١٧٩٥ نجد ١٣ شخصا هم من التجار النشيطين او الذين اعتزلوا أعمالهم منذ فترة وجيزة، والباقي لهم روابط أسرية قوية مع المؤسسات التجارية. وجدير بالذكر أيضا كل مستول من حكام امستردام، منذ البداية والى النهاية، كان دائماً، على وجه التقريب، مديراً في شركة الهند الشرقية.

كذلك الحال بالنسبة لشركة الهند الغربية كان لها طابعها الاوليجاركي الواضح وروابطها الوثيقة بالطبقة الحاكمة، هذا على الرغم من أن واحدا من أوائل الداعين اليها مؤلف الكراسات وليم اوسيلنكس المشهور برأيه، أكد دون جدوى ان لا مجال لحاكم مستول لكي يعمل حاكماً أو مستولاً في الوقت ذاته.

وضم مجلس ادارة الـ ١٩ ثمانية لامستردام وأربعة لزيلاندا، واثنين لكل

من الغرف الثلاث الأخرى، وتعين إدارة عموم الولايات المدير التاسع عشر. واعتاد مجلس المديرين الـ (١٩)، شأنه في هذا شأن مجلس الـ (١٧)، أن يجتمع لست سنوات متعاقبة في امستردام ثم بعدها لستين في ميدلبرج. ويختار المديرين الأصليين حكام المدن الخمس التي بها غرف المقاطعات. ويجرى اختيارهم من بين كبار المساهمين الذين لا يقل نصيبهم من رأس المال المستثمر عن ستة آلاف فلورين. بالنسبة لامستردام، وأربعة آلاف فلورين للمقاطعات الباقية. ويتم شغل المناصب الشاغرة بطريقة مماثلة للطريقة المتبعة في شركة الهند الشرقية عن طريق التشاور والتعاون بين حكام المدينة ومديري الغرفة المعنية. وظل المستثمر الصغير عاملاً أكثر أهمية لزمّن طويل في شركة الهند الغربية، عما كان عليه في الشركة التوام. ونرى هذا واضحاً في زيلاندا حيث قيل في عام ١٦٤٨ أن أكثر من خمس سكان ميدلبرج وفلاشنج وفير كانوا من المساهمين في شركة الهند الغربية.

وما حدث بالنسبة للشركة القديمة حدث كذلك في هذه الشركة من حيث تعتمد المديرين اغفال أو التهرب من قواعد المحاسبة العامة الدورية ومراجعة الحسابات والتفتيش عليها، ونشر الموازنة الختامية. والنتيجة في الحاليتين تعزيز سلطة المديرين إزاء المساهمين، هذا على الرغم من أن كبار المساهمين في شركة الهند الغربية عمدوا أحياناً إلى عقد اجتماعات خاصة بهم وممارسة نفوذ أكبر على مديريهم. وإن أي مقارنة بين أسماء مديري الشركتين قبل عام ١٦٣٦ توضح لنا، كما هو متوقع، أن بعض كبار التجار من الأقلية الحاكمة الغنية من أمثال الأخوة بيكر في امستردام وعائلة لامبسين في فلاشنج كانوا ممثلين في مجلس إدارة الشركتين. وكان حماس تجار امستردام لشركة الهند الغربية في عام ١٦٢٢ أقل من حماسهم لشركة الهند الشرقية قبل ذلك بعشرين عاماً. ومع هذا فإن كبار المساهمين من غرفة امستردام في شركة الهند الغربية والبالغ عددهم ٨٣ مساهماً، أسهموا بمبلغ يزيد على مليون فلورين. وهو أكثر من ثلث إجمالي أسهم هذه المدينة. ومثلما حدث مع شركة

الهند الشرقية عمد المساهمون من امستردام بعد ذلك الى توسيع نطاق نفوذهم عن طريق شراء أسهم من الغرف الاقليمية الأخرى. وقبل عام ١٦٧٠ أصبح أكثر من نصف اجمالي رأس مال شركة الهند الغربية ملكاً لامستردام، وأصبحت هذه المدينة هي التي تقدم الأموال للغرف الأخرى.

وكان استعمار مناطق ملائمة من بين الأمور المستهدفة التي نص عليها ميثاق شركة الهند الغربية في عام ١٦٢١، غير أن هذه الشركة استخدمت منذ البداية كسلاح هجومي لاستئصال جذور سلطة شبه جزيرة ايبيريا في العالم الجديد. وسرعان ما تورطت شركة الهند الغربية في جهود غزو كل البرازيل أو بعضها. ولكن النفقات البحرية والعسكرية الناجمة عن هذا تجاوزت الأرباح التي حققتها الشركة من تصدير السكر وغيره من صادراتها من أراضي امريكا الجنوبية التي لم تكن قد احكمت سيطرتها عليها كاملة بعد. وان استيلاء بيت هين Piet Heyn على اسطول الفضة المكسيكي في عام ١٦٢٨ هيا الفرصة امام مجلس مديري الـ ١٩ للإعلان عن حصة استثنائية من الأرباح تصل نسبتها الى ٧٥ بالمائة في العام المالي ١٦٢٩-١٦٣٠. ولكن الشركة وزعت حصة أخرى أو حصتين قبل حلها في عام ١٦٧٤.

والملاحظ ان تجارة غرب أفريقيا، خاصة التجارة في ذهب غينيا، حققت حتى عام ١٦٥٠ تقريبا ارباحا جيدة. بيد أن هذه الأرباح جميعها تبذرت بسبب الورطة المالية الناجمة عن البرازيل. وبعد اعادة تنظيم الشركة في عام ١٦٧٤ حصل المستثمرون على ٣٠ بالمائة فقط من ودائعهم. ولكن الدائنين حصلوا على حقوقهم كاملة، وكانت الشركة الجديدة لا تزال قادرة على اقتراض أموال بفائدة ٤ بالمائة في عام ١٦٩٤. وحتى هذا التاريخ كانت تعمل أساسا في تجارة العبيد وتصدير الزنوج من غرب أفريقيا الى جزر الهند الغربية، حيث كانت جزيرة كوراتشاو Curacao قاعدة ممتازة للتجارة المحرمة مع أمريكا الاسبانية.

وسبق أن ذكرنا أن تنظيم شركة الهند الغربية أرجىء الى ما بعد صدور حكم باعدام اولدن بارنفلت وانتصار الحزب الكالفني المناضل، او معارض المعارضة الذي كان للمهاجرين فيه من جنوب الأراضي المنخفضة نفوذ كبير. لهذا السبب ولأسباب أخرى اتخذت شركة الهند الغربية من هذا الحزب قلعة لها في هولندا لبضعة أعوام وفي زيلاندا لفترة أطول. ولكن البروتستانتين الأقل حماساً المسمون الأرمنيين والأحرار - كان لهم دائماً من يمثلهم بين المديرين والمساهمين وخلال العقود الثالث والرابع من القرن السابع عشر أصبحت الهيمنة لهذه العناصر الأخيرة في هولندا. هذا على الرغم من الادعاء بأن بيكر عمدة امستردام قد قال في حق الشركة في عام ١٦٤٩، وهو الذي باع أسهمه في شركة الهند الغربية قبل ذلك بأعوام وقتما كانت أسعار السوق في الذروة: «لندع أهل مقاطعتي برابانت واللون يرون الآن أي اقطاعات سوف يحصلون عليها بفضل هذه الشركة. «غير أن الضغوط والقيود الداخلية التي أسهمت بدور كبير في تحطيم شركة الهند الغربية الأولى لم يكن سببها أساساً نقصاً في التعاون بين الكالفنيين والأحرار داخل مجالس الإدارة بقدر ما كان السبب الغيرة بين هولندا - وامستردام بوجه خاص - وبين زيلاندا، ونجد هذا واضحاً في آداب الكراسات في ذلك الحين، الذي شاع واتسم بالفزارة في الكتابة عن شركة الهند الغربية واستهجان سلوكها، بينما توقفت حملات النقد ضد مجلس مديري الـ ١٧ بعد عام ١٦٢٥ ولدة تزيد على ١٥٠ عاماً.

ومن الانتقادات التي ترددت كثيراً على لسان مواطني هولندا الذين أثروا البقاء في بلدهم ضد العاملين في كل من الشركتين ان هؤلاء العاملين في الشركتين الشرقية والغربية هم من العناصر الدنيا في المجتمع عامة. وهذا الزعم لم يأت فقط على لسان كتاب الكراسات من اصحاب الأقلام البذيئة بل تردد دائماً في مراسلات المديرين مع كبار ممثليهم في باتافيا ورسيف. ونقرا للباحث الاسلامي الكبير سنوك هرجورنجي Snouk Hurgronje في القرن التاسع عشر والذي يكتب عن بيئة ومعرفة واضحة بهذه المصادر ويحدثنا

عن قرنين من عمر شركة الهند الشرقية الهولندية في الشرق بهذه الكلمات اللاذعة ويقول: «المشهد الأول من مأساة الهند - والأراضي المنخفضة عنوانه «شركة»، ويبدأ تحديداً مع القرن السابع عشر، والممثلون الأساسيون يستحقون اعجابنا لما يتحلون به من طاقة لا تقهر. ولكن الهدف الذي عملوا من أجله، والرسائل التي لجأوا إليها وصولاً الى هذا الهدف، من النوع الذي نجد صعوبة في كبت نفورنا منه، حتى مع الالتزام بقاعدة الحكم على أفعالهم وأعمالهم على أساس معيار عصرهم. وبدأت «التجربة» على النحو التالي: أن أصبح سكان آسيا على اتصال بحثالة الأمة الهولندية، الذين عاملوهم باحتقار لا يطاق، وانحصرت جهودهم في إثراء فريقين من حملة الاسم الموجودين في الوطن الأم. وعمد أرباب الشركة الى الإبقاء على مستخدميهم في هذه الشركة المعتمدة في حالة عوز وان لم يكونوا اقل شهوة منهم الى الربح وجمع المال. ومن ثم كشفوا عن صورة الفساد وتتضاءل امامها أسوأ مظاهر الفساد التي يتهمون بها شعوب الشرق في هذا الصدد».

وأود أن أوضح هذا الحكم الدامغ والمطلق هو حكم غير منصف في بعض جوانبه، وان من ذهبوا الى الشرق لم يكونوا من حثالة الأمة الهولندية فقط. ولكننا لا نستطيع ان ننكر ان رأي سنوك الاستنكاري يتضمن قدراً كبيراً من الحقيقة، ان شركة الهند الشرقية، شأن شركة التاج البرتغالي قبلها وشأن الشركات الانجليزية والفرنسية المنافسة لها، كانوا جميعاً يدفعون رواتب ضئيلة لجميع العاملين فيها عدا قلة، بحيث كان يتعذر عليهم الحياة اعتماداً على ما يتقاضونه من أجور ومكافآت، ومن ثم اضطروا الى اللجوء الى وسائل غير شريفة بقدر أو بأخر ليحصلوا على معاشهم. زد على هذا ان مشاق رحلة تمتد من ستة الى سبعة أشهر، وأخطار الحياة في بلدان المنطقة الاستوائية، حيث لا يعرف أحد سوى القليل، وربما لا شيء أبداً، عن وسائل الوقاية من أمراض فتاكة مثل الملاريا والكوليرا والجذام والديزنتاريات، كل هذا حال دون الأغلبية العظمى من سكان الوطن الأم ومحاولة الحصول على عمل في

جزر الهند الشرقية والغربية طالما توفرت لهم فرص العمل أيا كان هذا العمل في بلدهم. وإن إبحام الهولندي من أبناء الشرائع العليا والمتوسطة في الطبقة الوسطى عن العمل في خدمة شركة تجارية احتكارية يساعدنا كذلك على بيان السبب في أن المديرين كان من العسير عليهم اختيار مساعديهم، ومن ثم يضطرون الى اختيارهم من بين أفضل العناصر المتاحة لهم. وإن ما كتبه دافيد هاناي عن مستخدمي شركة الهند الشرقية الانجليزية في القرن السابع عشر يمكن أن يصدق بالمثل على معاصريهم ومنافسيهم من مستخدمي شركة الهند الشرقية الهولندية. إذ قال: «لا شيء أكثر شيوعاً أو غرابة من ذلك التباين بين التأكيدات المفرطة للشركة من أنها تثق ثقة كاملة في فضائل السيد الذي تم تعيينه توا في هذا المنصب أو ذاك، ثم ما تطلقه من توبيخ غاضب بشأن خيانتة المخزية قبل مضي عام واحد».

وشغل المناصب العليا في شركتي الهند الشرقية والغربية الهولنديتين عبر البحار رجال من الشريحتين الوسطى والدنيا من طبقة سكان المدن مع قلة من أبناء الخاصة. ولوحظ بطريقة لافتة للنظر غياب ممثلي النبلاء من ملاك الأراضي. ولكن نذكر من بين الاستثناءات القليلة هندريك أدريان فانريد وهو لورد من مقاطعة مجدرشت والذي شغل منصب حاكم ملبار خلال الفترة من ١٦٦٩ الى ١٦٧٧. وغالباً ما منح المديرون وظائف لأصدقائهم وأقاربهم - من الفقراء ولديهم رغبة في تكوين ثروة هناك في جزر الهند ويمكن القول بوجه عام، وللسبب سالف الذكر أن أبناء الطبقة الميسورة من الهولنديين كانوا يؤثرون العمل في أماكن قريبة من الوطن ولا يقبلون العمل في خدمة إحدى الشركتين إلا كملاذ أخير.

ويفسر لنا هذا السبب في اعتماد الشركتين على توظيف أجانب. ولكن هذا يعني أيضاً أنه كان من السهل أيضاً على ذوي القدرة والعزم والتصميم

* D. Hannay, the Greet Chartered Companies, London, 1926; pp. 190-2

صعود سلم الترقى بسهولة. ذلك ان مجال العمل والترقي الى المناصب العليا كان مفتوحا لأصحاب المواهب في الشركتين على الرغم من اتساع نطاق المحسوبية والمحاباة. ويؤكد هذا العديد من الأمثلة لرجال دخلوا في خدمة إحدى الشركتين والتحقوا بمستويات وظيفية متدنية بل وضيعة وارتقوا الى أعلى المناصب. مثال ذلك انطونيو فان ديمن وقد كان مقلساً وعمل في وظيفة جندي ثم أصبح حاكماً عاماً لباتانيا في الفترة من ١٦٢٦-١٦٤٥، وايضا فرانسوا كارون الذي كان طباحاً في إحدى السفن ثم أصبح مديراً عاماً في الفترة من ١٦٤٧-١٦٥٠. وهذان مثالان لرجال صعدوا الى القمة لا لشيء إلا لجدارتهم وجهودهم. ونذكر أيضاً اثنين من أبرز الحكام العاملين لباتانيا في القرن الثامن عشر، وهم جاكوب موسيل (١٧٥٠-١٧٦١) ورينير دي كلارك (١٧٧٧-١٧٨٠) إذ بدأ كلاهما حياته العملية بحاراً عادياً في خدمة شركة الهند الشرقية الهولندية.

وهناك من ناحية أخرى سيرة الحياة المخزية لابن حاكم زيلاند واسمه بيتر نوتس Pieter Nuyts الذي اعترف بأنه «لم يأت إلى آسيا يلتمس الثمن غذاء له، وجمع ١٨٠٠٠ فلورين عن طريق الشركة بعد فصله بطريقة مخجلة في باتافيا لسوء سلوكه في كل من اليابان وفورموزا (١٦٢٧-١٦٣٠)». يوضح لنا هذا المثال ما الذي يمكن ان يفعله أصحاب الروابط الاسرية ذات النفوذ. ولم يكن ثمة فارق جوهري بين نوع البشر العاملين في خدمة أي من الشركتين لشرقية او الغربية، هذا على الرغم من أن واحداً من بين الكثيرين الذين عملوا في الشركتين زعم في عام ١٦٥٥ ان كبار موظفي شركة الهند الغربية كانوا «زيقا من الحمقى السكارى» والذين ما كان بإمكانهم ان يترقوا الى المناصب العليا في الشركة الشرقية التوام.

وإذا كان المسار العام لمستخدمي الشركتين ترك لنا شيئاً يمكن ان نرثه، فإننا نذكر انه كان هناك دائماً بعض الاستثناءات. ان على الرغم من

الأغلبية الساحقة من الهولنديين، شأن أكثرية أسلافهم البرتغاليين وكذلك منافسيهم الانجليز والفرنسيين، قصدوا الشرق مستهدفين «جني ثمار شجرة الباجوداء»، فإن هناك أيضا البعض ممن لم يعنهم أساسا جمع المال. فأنا لا أجد سببا للشك في اخلاص جاكوب فان نيك اذ اعترف بأن «الرغبة الوحيدة التي شغلته طوال حياته هي مشاهدة البلدان الأجنبية» وأن هذا كان حافزه الوحيد الذي دفعه الى الشرق. ويمكن ان نقول الشيء ذاته عن الطبيب الجراح نيقولا دي جراف، الذي عمل جراحاً على ظهر السفينة. إذ على الرغم من زواجه السعيد وحياته الميسورة في وطنه لم يستطع مقاومة نداء البحر والمنطقة الاستوائية وهذا نوع نادر من البشر. ولكن هناك آخرون قصدوا الشرق التماسا للثراء وجمع المال فقط، ثم اسرتهم حياة المنطقة الاستوائية أو أهلها وسجلوا انطباعاتهم ليقراها الخلف. وطبيعي ان الملاحظات السابقة تصدق أساسا على أبناء البرجوازية الذين أوضحوا حوافزهم في كتاباتهم. ويات لزاما علينا الآن أن ندرس أبناء المجتمع الهولندي الأكثر عدداً والأقل تعلموا الذين اضطروا الى كسب خبز يومهم بعرق جبينهم.

الباب الثالث

العمال المقيمون ورحالة البحار

على الرغم من عدم توافر احصائيات كافية، وغير ذلك من معلومات، عن العمالة والبطالة، إلا أن العديد من التقارير المعاصرة «القرن الذهبي» للجمهورية الهولندية توضح لنا ان التوسع الاقتصادي والرخاء القومي اقتربنا بشيوع حالة من الفقر الشديد بين صفوف جماعات كثيرة من العمال على نحو ما حدث بعد ذلك في إنجلترا إبان الثورة الصناعية. ويرجع هذا دون شك الى ثورة الاسعار وما أدت إليه من زيادة في تكاليف الطعام والاسكان، وهي الزيادة التي بلغت ذروتها في الأراضي المنخفضة الشمالية حوالي منتصف القرن السابع عشر، بينما تراجعت الأجور كالعادة وظلت متخلفة عن الاسعار المطردة الارتفاع، وثمة أسباب أخرى مساعدة، حدثت هنا مثلما تحدث في أماكن أخرى. من ذلك مثلاً الزيادة الحادة في عدد سكان بعض المدن (خاصة أمستردام) وحالات الاضطراب الدورية التي أصابت التجارة بسبب التورط في حروب خارجية. بل إن فترة حرب الثمانين عاماً (١٥٦٨-١٦٤٨) حتى لو أخذناها ككل كانت فترة رخاء عظيم ومطرّد للتجارة الهولندية فيما وراء البحار. وأشار المؤرخ ليوواردن Leeu Warden منذ عام ١٥٦٦ الى ان جموع «العامة من الجوعى المساكين المعوزين» كانوا على النقيض تماماً وبصورة حادة بالنظر الى الحكام والتجار الاثرياء. وأعلنت أمستردام في عام ١٥٧٩ استغلال الأطفال في العمل، عندما قيل ان بعض أرباب الأعمال اعتادوا «تشغيل اثنين أو أربعة أو ستة أو أكثر من الأطفال بحجة الاحسان اليهم وتعليمهم حرفة أو تجارة بينما يبقونهم في عملهم لسنوات طويلة ويعاملونهم معاملة العبيد لا صبية يتعلمون حرفة». وعندما بلغت صناعة النسيج

ذروتها في ليدن خلال الفترة من ١٦٣٨-١٦٤٠ تم احضار ما لا يقل عن ٤٠٠٠ من العمال الأطفال من لياج Liege الى المدينة. وعندما نزل تجار الالبسة من مقاطعة واللون في ليدن اهتمهم الناس بأنهم جلبوا اطفالا متسولين من بلدان بعيدة مثل نورويتش Norwich ودواي Dowai وكليفز Cleves. كذلك فإن بيوت البر واصلاحيات الاحداث زودت هي الاخرى المصانع بالنساء والاطفال. ونجد هنا أيضا صورة موازية لما حدث في انجلترا إبان الثورة الصناعية. حقا تم اتخاذ بعض الاجراءات لوقف هذا الاستخدام السيئ، مثال ذلك تحديد ساعات العمل في مجال النسيج بما لا يزيد على (١٤) ساعة عمل يوميا، وذلك في عام ١٦٤٦. ولكن بعد ثلاثة عشر عاما نجد ان أحد رواد الصناعة في ليدن يقول ان عمالا كثيرين كانوا يعيشون في أكواخ فقيرة مكتظة بساكنيها وان بعضهم اضطر الى احراق أسرّتهم وأثاثهم للتدفئة في الشتاء.

ونعرف ان من بين ١٥٦١ أسرة في امستردام في عام ١٧٤٧ كان حوالي ١٩٠٠ أسرة تعيش في مساكن جماعية قذرة وغرف نوم وقبائ صغيرة. وحتى نهاية القرن السابع عشر كانت أغلبية البيوت المقامة في أحياء الريف والكثير منها في المدن مبنية بالخشب والطين. وطبيعي ان ظروف معيشة الفقراء في الجمهورية الهولندية لم تكن أسوأ من مثيلاتها في انجلترا خلال القرن الثامن عشر. وهذا هو ما يذكرنا به ج. هـ بلومب J.H. Plumb اذ يقول: «بيوت الفقراء عبارة عن أكواخ من حجرة واحدة أو حجرتين مبنيتين من ألواح خشبية وأسقف مطلية بالقار وقد صفت ظهرا الى ظهر، أو كانت بيوتا مجرها أصحابها الاثرياء لأن مالكيها تركوها التماساً لمساكن أخرى أكثر ملاءمة من الناحية الصحية - وهي مساكن قذرة متداعية وأيلة للسقوط، موبوءة بالأمراض. ولم يكن يسكن القباء البشر وحدهم بل شاركهم السكنى حيوانات مثل الخنازير والماشية والخيول.» وقيل ان

* H.J. Plumb, England in the Eighteenth Century; 1714-1815 (ed; 1961) pp.12.

بيوت في هولندا وزيلاندا خلال النصف الأول من القرن السابع عشر كانت
أفضل مرتين أو ثلاث مرات من مثيلتها في فرنسا. بيد أن هذه المقارنة التي
نتسم بالمجاملة لا يمكن أن تصدق على مساكن الفقراء المكتظة بساكنيها
الذين أضناهم الفقر. ومع هذا تظل حقيقة واضحة بكل المعايير وهي أن
ساكن المدينة الهولندي العادي وزوجته كانا أكثر اعتزازا بمسكنهما من
نظيرهما في أي بلد أوروبي آخر. ربما كانت البيوت مظلمة شديدة الرطوبة،
ولكن كان يجري تنظيفها وكشط الأقدار الموجودة بها وتلميعها إذا ما كان
لدى سكانها أي قدر من التظاهر باحترام الذات.

وأثارت الملاجئ وبيت البر والاصلاحيات الهولندية الإعجاب الشديد من
جانب الكثيرين من الزائرين الأجانب. بل يبدو أن المرضى العقلين كانوا
يحظون برعاية أفضل في الجمهورية الهولندية عنهم في أي مكان آخر في
أوروبا. وتمتعت أمستردام بوجه خاص بسمعة جيدة تستحقها بشأن
المؤسسات الخيرية بها التي وصفها جيمس مونسون في عام ١٦٨٥ وتحمس
لها، ونقل عنه كثيرون من معاصريه رأيه هذا، وقال عنها، لا شيء يكشف عن
الطابع الخيري للهولنديين أكثر من رعايتهم الفائقة من أجل إغاثة الفقراء
وتخفيف المعاناة عنهم وتعليمهم فأنت لا ترى شحاذين في أي مكان من
الطرق. وأبدى إعجابا كبيرا بدور رعاية وعلاج الأطفال، خاصة اليتامى
والتي تضم دائما ما يزيد على ٥٠٠ من الفقراء المعدمين حيث يحظون برعاية
جيدة، ويتعلمون القراءة والكتابة وبعض الحرف التي تمنحهم الدار في
النهاية مبلغا من المال يبدؤون به حياتهم. وزار أيضا مصحات الفقراء التي
تتميز بالاتساع والنظافة. ووجد بها عددا كبيرا من الفقراء يتمتعون فيها
بالرعاية، ويعيشون في مكان نظيف أنيق بحيث لا يبدو أن أي روح عدائية
تجاه بعضهم البعض أو تجاه من يزورونهم أو يعيشون معهم. ومصحات
الرجال نظيفة ومريحة، بيد أنني أظن أن مصحات النساء المسنات تفوقها
جميعا، ولعلها ليست بأي حال من الأحوال أدنى مستوى من أفضل

المصححات في ايطاليا على الرغم من انها مبنية بالآجر بينما مصحات ميلان مبنية بالحجر. وإنني واثق من ان هذه النظافة تراها وتعجب بها في غرفهم ومطابخهم ولا تجد هذا في أي بلد آخر. وهذا المبنى الأخير كان يضم ما يزيد على ٤٠٠ من النساء الفقيرات عندما زاره جيمس مونسون لتفقدته، وختم جيمس وصفه لمؤسسات البر في امستردام بقوله «..... علاوة على النفقات والأعباء التي تتحملها هذه المدينة أو الولاية للحفاظ على هذا العدد الكبير من المستشفيات، يوجد أيضا (كما تفيد التقارير) أكثر من ١٨ طنا من الذهب يجري توزيعها كل عام على الأسر الفقيرة، مما يؤكد الطابع الخيري لدى اثرياء المدينة وأنهم شأن سكانها يتحلون باستعداد طيب للبر وحب الخير.

والاموال اللازمة لصيانة مؤسسات البر هذه تأتي من مصادر عديدة ومتنوعة، عامة وخاصة، وربما كانت الغلبة للمصادر الخاصة. ويأتي بعضها من أوقاف الكنيسة الكاثوليكية الرومانية (الأديرة والزوايا) التي استولت عليها المدن أو الاقطاعات، أو التي تم تخصيصها لكي تتولى كنائس الحركة الاصلاحية مهمة توزيعها. ويجري تمويل الجانب الأكبر منها عن طريق الضرائب البلدية والمحلية ووصايا البعض قبل الوفاة بمنح «أفضل ملابسهم» للفقراء وعادة ما يدفع أهل المتوفى مقابل هذه الملابس نقدا. وفي بعض الأماكن كانت دور الأيتام لها مطلق الحق في اعداد الأكفان وفي أماكن أخرى يحصل الفقراء على نسبة من ثمن بيع الممتلكات غير المنقولة. واعتادت شركة الهند الشرقية ان تدفع نسبة للفقراء خصما من مبيعاتها والتي تصل الى مبلغ كبير سنويا. ويكمل هذه الاسهامات العامة والبلدية تبرعات خيرية من أهل الجود والكرم ووصايا الارث. ويؤكد مواطن انجليزي مقيم في لاهاي عام ١٧٤٠ ان «أكثر من ١٠٠٠٠ فلوورين، أو ١٠٠٠٠ استرليني يتم جمعها كل سنة لمصلحة الفقراء، سواء من الكنائس أو بالمرور على المساكن، هذا فضلا عن المبالغ الكبيرة التي تتجمع حصيلة وصايا الإرث أو المخصصات الخارجة عن الخزانة العامة. وقبل ذلك بقرن من الزمان تبرع لوي دي جـ».

رجل الأعمال الشهير، بمبلغ ٢٠٠ فلورين سنوياً لصندوق الفقراء عن كل واحد من أطفاله الأحياء - وكان له ستة عشر. وكذلك الأدميرال م.م. رويتر اعتاد أن يقدم نذراً إلى صندوق الفقراء كلما عاد إلى أرض الوطن سالماً من رحلاته البحرية، وزاد من قيمة نذره بعد أن كبر في السن وازداد ثراء. وأشرف على اللجان المسؤولة عن المؤسسات الخيرية رجال ونساء من أثرياء سكان المدن ولوحظ أحياناً أن المؤسسات التي تديرها النساء أفضل من نظيرتها التي يديرها الرجال. وأياً كان الأمر فإن الاستعداد للخدمة في مثل هذه اللجان لم يكن مقطوع الصلة بما تسبقه من احترام ومكانة لأعمالها العظيمة وهو ما يؤكد تكرار رسم لوحات جماعية لمثل هذه اللجان.

بينما توفرت هذه المؤسسات في هولندا وزيلاندا لا نستطيع أن نقول الشيء نفسه عن المقاطعات الشمالية الشرقية من جميع النواحي. إن الإصلاحات موجودة في كل مكان ولكن مدناً هامة مثل دبلجول أوها رلنجن أو جرننجن لا تستطيع أن تفخر بوجود مستشفى عام فيها قبل عام ١٨٠٠ في الوقت الذي كانت أصغر مدينة في المقاطعتين البحريتين تمتلك مستشفى واحداً. علاوة على هذا وعلى الرغم من الثناء الذي عبر عنه جيمس مونسون وغيره من الرحالة الأجانب فإن الحقيقة الثابتة هي أن البطالة كانت في الغالب مشكلة خطيرة عانت منها الجمهورية الهولندية في قرنها الذهبي. وكان الشحاذون والمشردون مشكلة خطيرة أيضاً في المدينة وفي الريف. وعاشت البروليتاريا الصناعية حياة البؤس والكفاف. وفي عام ١٦٨٢ أصدرت هولندا قراراً يقضي بأن كل إدارة محلية مسؤولة عن حماية فقرائها، كما يتعين رد المشردين الوافدين من أي بلد إلى مواطن نشأتهم التي اتوا منها. وأصبح لزاماً على جميع الوافدين إلى أي مكان للعمل أو للإقامة أن يقدموا للسلطات المحلية شهادات مالية أو غيرها لإثبات حسن نيتهم وصدقهم. ولكن يبدو أن هذه الإجراءات لم تطبق كما يجب وظلت مهمة على نطاق واسع خاصة في أمستردام. وأكد وليم كار في عام ١٦٨٨ أن الشحاذين الذين تراهم في

امستردام هم من مواطني مقاطعة والون وأجانب آخرين. بيد أن هذا قول فيه قدر من المبالغة. إن المشردين الأجانب والجنود المرتزقة المشرحين كانوا يقينا من بين جحافل المتسولين الذين أصدرت بشأنهم مجالس المدينة والمقاطعات تشريعات لمقاومتهم دون جدوى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. ولكن قطاعا كبيرا من الطبقة العاملة الهولندية كان يعيش في فاقة شديدة ومعرضاً للبطالة بين الحين والآخر بسبب اعتماده على عمل موسمي قليل الأجر فضلا عن استحالة ادخار أي مبلغ من المال.

وحسب وجهة نظر العامل الهولندي فقد تدهور العمل نظرا لأن الرخاء الواضح الذي تمتعت به المقاطعات المتحدة كان الأمر الذي تطلع اليه العاطلون وأشباه العاطلين في الأقطار المجاورة وانجذبوا اليه. وهكذا كانت الجمهورية الهولندية القبلية ليس فقط لأبناء مقاطعتي فلاندر ووالون بل وأيضا أبناء اسكاندينافيا وألمانيا إذ زحفوا أسرابا إليها ظنا منهم أن شوارع امستردام يغطيها الذهب. وكتب أحد مؤلفي الكراسات في عام ١٦٢٣ فقال «بلدنا يعج بالناس، والسكان يتكالبون بحثا عن عمل. وحينما تتاح فرصة للحصول على درهم تمتد عشرات الأيدي مرة واحدة للاستئثار به.*

ومن المسلم به أنه كانت هناك أحيانا حركة في الاتجاه المعاكس. ولم تكن الحركة قاصرة على هجرة رأس المال الهولندي واليد العاملة الماهرة الهولندية إلى فرنسا وإنجلترا والسويد والدانمرك وألمانيا، بل شملت هذه الحركة أيضا اليد العاملة غير الماهرة، مع ملاحظة أن الدليل على هذه النقطة الأخيرة لا يزال غير متكامل. وعلى أية حال فإنه على الرغم من ضآلة الرواتب وتدنيها للغاية فضلا عن طول ساعات العمل بدرجة مفرطة، إلا أن البطالة في الأراضي المنخفضة الشمالية لم تكن بالقسوة الشديدة التي تكفي لحفز العمال الصناعيين والزراعيين على الهجرة الواسعة إلى ممتلكات شركتي الهند

* I in de la guerre, p. 23 (Kuntel. ns. 3428)

الشرقية والغربية الهولنديتين فيما وراء البحار. ويبدو أن الظروف تحسنت
الحد ما بعد عام ١٦٦٤ تقريبا مقارنة بالأوضاع التي سادت خلال حرب
الثمانين عاما، واثناء الصراع الماساوي المدمر مع انجلترا في الفترة من ١٦٥٢
إلى ١٦٥٤. وزادت الصدقات الخاصة كما تحسنت سبل ادارة الصدقات
العامة. ولم تعد تحدث، تلك الوفيات الفادحة بأعداد كبيرة بين الفقراء والتي
كانت تحدث بشكل دوري في السابق. كذلك فإن تذبذب أسعار الحبوب لم
يعد له تلك الآثار السيئة حيث أصبحت البطاطس غذاء اضافيا مع الخبز.
وطرا بعض التحسن على سكنى الطبقة العاملة بحيث بدأت تتلاشى المساكن
الخشبية المغطاة بأسقف من القش لتحل محلها مساكن مبنية بالأجر أو
الحجر. ولكن ظلت القاعدة العامة هي الأحياء الفقيرة للمساكن المزدحمة
بفقراء المدن في الجمهورية الهولندية على مدى قرنين من الزمان. ويمكن
القول ان الأوضاع هنا تدهورت ولم تتحسن. إذ يبدو ان عدد أولئك الذين
كانوا يعيشون على إعانات الفقراء خلال النصف الثاني من القرن الثامن
عشر زادوا كثيرا عما كانوا عليه قبل ذلك بمائة عام.

وعانت الزراعة في هولندا كثيراً خلال الحقبة الأولى من حرب الثمانين عاما
بسبب أحداث متباينة نذكر منها الهجرة الواسعة المتعمدة من الريف أثناء
حصار ليدن ونجدهتها عسكريا. وذهبت التقديرات التي تنطوي دون شك على
قدر من المبالغة، إلى أن ثلثي مقاطعة هولندا كانت لا تزال غارقة تحت الماء في
عام ١٥٩٦. ولكن الزراعة في هولندا سرعان ما انتعشت في العقد الأخير من
القرن السادس عشر، علاوة على الأمان الذي اضافته انتصارات الأمير
موريس وارتفاع أسعار المنتجات الزراعية اثناء هذه المرحلة من ثورة
الاسعار. كذلك فإن الزيادة الكبيرة في تجارة الأراضي المنخفضة الشمالية إلى
أعالي البحار خلال النصف الأول من القرن السابع عشر اقترنت بزيادة كبيرة
في الزراعة نظراً لتوفر رؤوس أموال ضخمة للاستثمار في الأراضي الزراعية.
وما هو بيتر فان هورن عضو المجلس الحاكم في باتافيا عام ١٦٧٤ يتحدث

اثناء مناقشة عما إذا كان الأولى بهولندا ان تحوّل امبراطوريتها التجارية والبحرية الى امبراطورية استعمارية حقاً، بمعنى امبراطورية تركز على استيطان الشعب الأبيض لبلدان في المنطقة الاستوائية فإذا به يؤكد ان حب الأرض الزراعية شيء غريزي عميق الجذور لدى البشر جميعاً. وأكد كذلك اننا حتى اذا ما تأملنا أصحاب العقول التجارية في هولندا وطريقة تفكيرهم، سنجد ان اكثر التجار نجاحاً ياملون في شراء قطعة أرض صغيرة تكون ملكاً لهم ليمارسوا من خلال عمل الزراعة أو البستنة كهواية. والشئ المؤكد خلال هذه الفترة ان مساحات أكبر من الأراضي الزراعية كانت ميسرة للزراعة عن طريق مشروعات استصلاح الأراضي، ولعل أشهرها مشروع بيمستر للصرف في عام ١٦١٠. وأكدت أول سلطة مسئولة في تاريخ العناية العلمية بالزراعة في الأراضي المنخفضة انه: «خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر تفوق فلاحو هولندا في مجال تربية الماشية ونتاج الالبان وزراعة المحاصيل الزراعية التجارية وفي البستنة وابتكار أدوات بسيطة زهيدة الثمن». وكانت هذه بطبيعة الحال عملية بطيئة ولم تكتمل وتتعاظم قوتها الدافعة الا بعد ان انعقد سلم وستغاليا عام ١٦٤٨ وان لم يكن هذا التحول على مستوى واحد في جميع أنحاء البلاد. علاوة على هذا فإننا نخطيء إذا تصورنا ان جميع الفلاحين كانوا يعيشون في أرض الوفرة والنعيم بسبب ازدهار الانتاج الزراعي في بعض اقاليم هولندا او بطرق أثارت حسد الأجانب الذين جاءوا لزيارة المقاطعات المتحدة. ان كثافة الانتاج الزراعي في هولندا لم يأت بسبب ان المقاطعات السبع أصبحت اكثر ثراء بقدر ما كان نتيجة الحاجة الى كثافة سكانية في الريف توفر أسباب المعيشة في عصر تسوده قيود تحدد طاقة استيعاب الصناعات في المدن بالإضافة الى هذا يجب التمييز بين فلاحي هولندا وزيلاندا وبين فلاحي المقاطعات الشرقية. مثال ذلك أنه في مقاطعتي جيلدر لاند وأوفريجيسيل حيث ملاك الأراضي هيمنة مطلقة وغير مقيدة على شئون العدالة والادارة. وكانت ظروف حياة الفلاحين اقل من ظروف نظرائهم في المقاطعتين البحريتين. ناهيك عن ان التربة الزراعية أفقر حالاً.

و في مقاطعة فريزلاند أيضا حيث التربة غنية خصبة، مارس نبلاء المقاطعة و غنياؤها من الفلاحين هيمنة و سطوة شديتين على مستأجري الأراضي. إن الحرية التي حظيت بها فريزلاند قديما والتي اعتاد ان يزهو بها ابناءؤها في القرن السابع عشر كانت في واقع الامر قاصرة على ملاك الأراضي الزراعية الذين احتكروا بدورهم السلطات السياسية والادارية والاقتصادية.

ولكن فلاحى هولندا وعمال المدن كانوا أفضل حالا نسبيا من نظرائهم في المانيا وفلاندرز وأسبانيا وفرنسا، على سبيل المثال، وذلك في مجالين اثنين اولهما، انهم اقل عرضة لنهب الجيوش الغازية. فإن الغزو الامبريالي الاسباني لفيلو Veluwe عام ١٦٢٩، والغزو الفرنسي لعدد من المقاطعات في عامي ١٦٧٢-١٦٧٣ كانا احتلالا عابرا لفترة وجيزة. ثانيا، ان البلاد مساحتها صغيرة وتتمتع بمواصلات جيدة (خاصة المواصلات المائية الداخلية) بحيث انه إذا ما أصاب الجفاف اي بقعة في المقاطعات المتحدة امكن اغاثته بسهولة ويسر وقتما كانت امستردام تسمى بحق «مستودع قمح أوروبا». ولم يكن هذا هو حال فرنسا، على سبيل المثال، إذ كان نظام المواصلات بها بدائيا وباهظ التكلفة وهو ما يعني ان حدوث مجاعة في اقليم ما لا يمكن نجاته بتقديم ما يكفيه من حبوب اقليم آخر بعيد عنه، ومن ناحية أخرى لا بد وان نسلم بان استخدام شبكة القنوات المائية الواسعة لم يكن يواجه اي اعاقه غير ضرورية بسبب المنافسة بين البلديات المختلفة التي تمتلكها وتتولى مسئولية صيانتها والحفاظ عليها وتشغيلها، ودفعت عوامل الغيرة بهذه البلديات الى الحفاظ على امتيازاتها التي اعطتها الاشراف على المرور والنقل في القنوات المائية داخل نطاق مسئوليتها وسلطتها والمدن الرئيسية التي تخصها مما يضمن لها فرض مكوس ورسوم محلية لمصلحتها. والمعروف ان هذه الرسوم وقيود المرور اثارت حفيظة دورد رشت وهارلم وجودا. ولكن على الرغم من هذه العوائق الادارية وعلى الرغم من كثرة الجسور والطرق التي كانت توجب نقل الشحنات الى سفن أخرى. ظلت

القوات المائية كوسيلة مواصلات افضل من الطرق البرية وأسرع حركة.

وإن النهج الاقتصادي الذي يلتزم به الفلاح الهولندي في حياته استحوذ على اهتمام جميع الزائرين الأجانب على الرغم من أن مراقبين كثيرين اتفقوا في الرأي مع سير وليم تمبل حين قال إن «الفلاحين السذج الأجلاف كما يسمونهم جادون أكثر منهم كادحون. ويقتصر غذاؤهم الرئيسي على الخضراوات واللبن والخبز والزبد أو الخبز والجبن. وظن تمبل أن هذا هو سبب التباين بين قوتهم وحجم أجسامهم». ونادراً ما كان الميسورون المعتدلون في حياتهم يأكلون اللحم أكثر من مرة واحدة في الأسبوع، أما أغلبية العمال فإن المحظوظين منهم من يطعم اللحم مرة في الشهر. واعتادت بيوت الصدقات والخير في القرن السابع عشر أن تقدم أنصبة تتألف من الفاصوليا والبازلاء والبرغل والجاودار وهي العناصر التي يظن أنها تمثل الغذاء الرئيسي لفقراء المدن. وعلى الرغم من أن سكان المدن والتجار الأكثر يساراً وثراء كانوا بطبيعة الحال يأكلون لحوماً أكثر من مواطنيهم الأدنى مرتبة في المجتمع، إلا أن غذاءهم الرئيسي خلال الربع الأول من القرن السابع عشر، والذي وصفه انجليزي معاصر، كان يتألف من «زبد اللبن المغلي والتفاح وسمك القديد واللغت والجزر مع الزبد والخس والسلطة والرنجة الحمراء المغموسة في قليل من شراب البيرة». وكان الانجليز مغرمين بتسمية الهولنديين «صناديق الزبد» بينما كان يسميهم الفرنسيون «أكلة الجبن». غير أن سير وليم تمبل يؤكد أن الفلاحين الهولنديين الاقتصاديين في حياتهم كانوا يبيعون أجود أنواع الزبد والجبن عندهم، إذ يخصصونها للتصدير، ويشترى «الارخص من أيرلندا أو شمال إنجلترا لاستعمالهم الخاص».

وإذا كان الفلاحون اعتادوا بأن يرضوا بالطعام الذي وصفه سير وليم تمبل بأنه «ما يفي بالحاجة ويمد الرمق»، إلا أنهم في جميع الأحوال كانوا

* Temple, observations (ed. 1676) p. 158-9, 182-232.

بحصلون على طعام أوفر وأكثر مما كان يحصل عليه عمال المدن أبناء الطبقة الأدنى أو من يسمون «الدهماء». وامتلات المدن الكبيرة بأعداد غفيرة من هؤلاء، ونظرت الطبقة الراقية اليهم نظرة نفور شديد على نحو ما يوضح لنا أدب ومراسلات تلك الحقبة. وإذا كانت فئة الحكام وهم الأقلية من الأغنياء يؤمنون إيماناً قاطعاً بأن سكان المدن من أبناء الطبقة الوسطى هم مواطنون صغار الشأن ولا بد لهم وأن يبقوا صغاراً على حالهم؛ فإنهم بالأحرى كانوا أشد احتقاراً في نظرهم إلى «الدهماء البله سيئي الطباع والاشرار الذين يملأ قلوبهم الحقد والكراهية تجاه حكام جمهوريتهم الارستقراطيين»، على حد قول مؤلف كتاب «مصلحة هولندا» في عام ١٦٦٢. ولم يخف هذا الاحتقار بمرور الوقت، إذ بعد قرن من الزمان كان لا يزال الحكام ينظرون الى بروليتاريا المدن باعتبارهم «أهل فظاظة أجلافا، أغبياء كالبهائم غارقين في ملذات فاجرة مخزية». * وتفيد الاتهامات وغيرها الموجهة في حق الفئة من الناس ان الحكام كانوا يخشونهم أو أنهم يخشون ما قد يفعله الغوغاء إذا ما أقلت الزمام من أيديهم. إذ المؤكد ان الغوغاء سيكشفون عن أسنان حادة إذا ما حانت الفرصة، ولكن أسوأ مثال للغضب الشعبي غير الموجه يتمثل في إعدام الأخوين دي ويت في لاهاي دون محاكمة قانونية (في ٢٠ أغسطس ١٦٧٢) إنما كان أولاً ولا أساساً من عمل الحرس الوطني المؤلف من سكان المدن، وبتحريض عمدي من أنصار بيت آل أورانج.

وكانت الطبقة المنوه عنها تتألف من العمال اليوميين والمتشردين والعاطلين المحليين وقت تعطلهم. ويدعم هؤلاء عمال آخرون يعتمدون في معيشتهم على العمالة الموسمية أو العرضية بين حين وآخر ومعرضون للفصل من عملهم في أي وقت، وغالبا ما كان البحارة ضمن هذه الفئة لأسباب سنوضحها فيما بعد. أما العمال من أصحاب المهن المنتظمة أمثال أصحاب المهن الحرة والعمال الفنيين والحرفيين وصغار البقالين والكتبة والتجار فقد

* Interest of Holland (ed. 1702) pp. 394

كانوا جميعاً يندرجون تحت وصف «الرجل ذو الشأن الوضيع» أو «الإنسان العام». ويمكن أن يندرج بين هؤلاء أيضاً صغار الموظفين والفلاحين والنوتية. أو لنقل بعبارة أخرى إن «الإنسان العام» يضم الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى والقطاعات المحترمة من الطبقة العاملة. وقد يتسع نطاق المصطلح في اتجاه صاعد ليشمل البقالين والتجار الأكثر غنى ورؤساء الكتبة والموظفين العاملين في إدارات المقاطعات والبلدية - خاصة كل من يأتي موقعه بين الفئة آتفة الذكر في قاع السلم الاجتماعي وبين الأوليغاركية الحاكمة وأثرياء التجار في القمة.

وكان هناك ثلاثة أنواع من نقابات الحرف خلال القرن السابع عشر في الأراضي المنخفضة المتحدة: نقابات الحرفيين لعمال ذوي مهارات محددة، ونقابات التجار، ونقابات العمال العاديين التي تضم عمالاً من أمثال الحمالين الذين يعملون في حمل القمح والبرية، والبرجية أو الحمالين الذين يعملون في السفن، وسائقي المرائب وعمال تعبئة سمك الرنجة. وتشبّثت نقابات الطوائف في أغلب المدن بحقها في تنظيم ساعات العمل والأجور وعدد الصبية الأمر الذي تعرضت بسببه النقابات لانتقادات مستمرة على لسان بيتر دي لا كورت رجل الصناعة في ليدن في القرن السابع عشر. وعبر عن انتقاداته هذه في كتابه «مصلحة هولندا». وشاركه في هذا الانتقاد عديد من المؤرخين في القرن العشرين، ومع هذا، وكما أوضح الاستاذ جيل Geyl فإنه إذا كان ضيق أفق المسئولين عن هذه النقابات ونزعتهم إلى الرتبة حالاً دون ظهور رأسمالين كبار مستقلين في المجالات التي كانت مسرحاً لقوة هذه النقابات إلا أنها أيضاً عطلت نمو الدماء المعدمين المحرومين من كل الحقوق في عدد من المقاطعات. ولا يشمل هذا عدداً من الصناعات الكبرى مثل صناعات بناء السفن والبرية والصابون وتكرير السكر التي كان جميعها، أو أغلبها، خارج دائرة نفوذ النقابات. مثال ذلك صناعة النسيج في ليدن ظلت زمناً خاضعة لسيطرة

النقابات لمتابعة تصنيف وفرز ومراجعة الأقمشة، ولكن دون ان تكون لهذه النقابات سيطرة على عمالها الفقراء ذوي الرواتب الضئيلة. ومع هذا غالبا ما كان الحرفيون أعضاء النقابة يعملون من الفجر حتى الغسق، وكان المعتاد ان تمتد ساعات عمل العامل الى ما بين اثنتي عشرة ساعة وأربع عشرة ساعة. هذا على نقيض ساعات العمل التي يمضيها او يعمل بها أرباب العمل في مكاتبهم إذ كان بعضهم لا يعمل أكثر من ساعة أو أربع ساعات يوميا.

ولكن ما يثير الدهشة أكثر، ان السخط الاجتماعي لم يجد تعبيراً له في صور حالات من الهياج الشديد إلا من خلال العمال الثابتين، وكانت الاضرابات نادرة نسبيا حتى بين عمال النسيج الكادحين في ليدن. وجاء وقت كان في هذه المدينة ٢٠٠٠ نسمة - ليسوا جميعاً عاطلين - وانما يعيشون على الصدقات بسبب تضورهم جوعا. ولا ريب في ان سوء التغذية المزمن الذي عانى منه هؤلاء العمال هو السبب في ارتفاع نسبة المرضى بداء السل بينهم، وحدث ان تقدم عمال البيرة في امستردام بعريضة يطالبون فيها برفع أجورهم في عام ١٥٧٨، زاعمين ان أجورهم ضئيلة لا تفي ولا تكفي لدفع غائلة الجوع عنهم وعن أسرهم في وقت ارتفعت فيه تكاليف الغذاء والاسكان. وحصلوا على جزء من مطالبهم، وجددوا مطالبهم في عام ١٥٩٥ وعام ١٦١٧. وعبر عمال النسيج في امستردام كذلك عن سخطهم واستيائهم من اوضاعهم المعيشية ولكن ليس على المستوى الذي يمكن للمرء ان يتوقعه على ضوء الوقائع التي تؤكد ان الأمراض المعدية التي كانت تحصدهم بصورة دورية في مطلع القرن السابع عشر لم تكن لتصيب سادة المدن والحكام وقساوسة الكنيسة والمدرسين وموظفي المدن نظراً لأنهم يتمتعون بغذاء جيد ومساكن أفضل. والمعروف ان أغلبية العمال اليدويين كانوا يعانون من شظف العيش. ويرجع سبب قلة الاضطرابات الى غياب أو ضعف التنظيمات العمالية (على نحو ما أوضح فيوليت باربور) أكثر مما ترجع الى النظام الأبوي المستنير الذي يلتزم به الحكام الدكتاتوريون من أبناء الشريحة العليا

من الطبقة الوسطى. ولكن من الواضح ان الفوارق الطبقيّة في جمهورية هولندا، مثلما هو الحال في بلدان أخرى، كانت مقبولة باعتبارها الوضع السائد في تنظيم الوجود علاوة على هذا فقد كانت طبقة عمال المدن غير مسلحة، بينما هناك ميليشيا المدن أو الحرس الوطني الذي يمكن الاعتماد عليه في طاعة أوامر الحكام لدى نشوب أي صراع ضد الطبقات آنفة الذكر.

ومن المتوقع أن يقع عبء الرسوم والضرائب في جمهورية هولندا، مثلما هو الحال في أكثر البلدان الأخرى، على عاتق الفقراء أكثر من الأغنياء، وإن لم يغفل إطار الضرائب «القدرة على تحمل عبئها». إذ فرضت السلطات رسوما وضرائب متنوعة على أغلبية أو معظم السلع الاستهلاكية وعلى كثير من أنشطة الحياة العادية. وطبيعي أن يقع العبء الأكبر لهذه الضرائب على عاتق الفلاح والملاح والحرفي أكثر من ساكن المدينة الثري أو التاجر أو ذوي الاملاك. ولكن كثيراً من مظاهر الحياة الميسرة التي كان بإمكانها أن تغفل من الضرائب في أقطار أخرى، كانت تخضع لضريبة تصاعديّة في المقاطعات المتحدة حسب مكانة الرجل وراثته أو حسب مظاهر الحياة. وقدم لنا القنصل الانجليزي في امستردام عام ١٦٨٨ قائمة طويلة بالضرائب المفروضة على أرباب الأسر والتي تضمنت بنوداً مثل ضريبة الرؤوس السنوية على كل ذكر أو أنثى من العاملين وتجاوزت أعمارهم ثمانية أعوام وضريبة على «النبيذ» حسب المكانة والجودة، وضريبة «حراسة» حسب مظهر البيت وفخامته، وضريبة إضاءة الطرقات «حسب سعة وضخامة البيت». وفرضت السلطات كذلك ضرائب على مختلف أنواع المركبات حسب نوعها وكمياتها.

وفرضت ضرائب على العديد من ضروريات الحياة، من بينها الملح والصابون والزبد والحبوب والخطب (المستخدم أساساً للوقود)، والخشب واللحم والخبز. وكانت هناك ضرائب أخرى كثيرة على أنشطة التجارة، مثال ذلك أنه لا يستطيع انسان أن يزن أو يكيل بضاعته بصورة اجمالية، بل

يتولى هذه المهمة عنه موظفو الدولة المسئولون. وفرضت الولايات ضرائب خاصة بها تسمى Ver Pounding على جميع الأراضي والبيوت الواقعة في نطاق سيطرتها. وهناك ضريبة على الورق المختوم وضريبة تسجيل الأراضي أو البيوت، وضريبة على الأبقار والخيول والعجول ومختلف أنواع الفاكهة والثمار. وكان على كل عابر يعبر سور المدينة ذهاباً أو إياباً منها بعد حلول المساء أن يدفع ضريبة عبور البوابة. وفرضت رسوم عبور الكباري عند تقاطع القنوات تدفع مقابل مرور البشر والحيوانات والمركبات. وفرضت ضريبة على اللبن كما هو، ثم ضريبة ثانية عند استخراج الزبد منه، وليس هذا 'فحسب بل وضريبة على مخيض اللبن وشرش اللبن، بحيث يخيل للمرأة أن أي شعب حريص على حريته لا بد له وأن يتمرد ويرفض الدفع. ويؤكد لنا وليم كار أن هذا كان أمراً نادر الحدوث للغاية وإذا ما وقع، فإن الفاعلين يتعرضون لأشد أنواع العقاب. وأضاف قائلاً: «لو اضطرت انجلترا إلى فرض مثل هذه الضرائب لتعاقبت الثورات الواحدة تلو الأخرى. وهنا، وبعد كل هذه الضرائب التي يدفعها الناس، لا يستطيع إنسان أن يخبز خبزه، ولا أن يطحن قمحه أو يصنع بيرته، بل ولا يجرؤ إنسان على الاحتفاظ بطاحونة يدوية في بيته حتى وإن لم يستخدمها إلا لطحن القهوة أو الخردل.

وبعد أن عرض القنصل عدداً من الأمثلة في ضوء خبرته والتي اعترف له بها بعض من تحايلوا عن دفع الضرائب من مختلف فئات المجتمع، علق على هذا قائلاً: «الضرائب هنا لها قدسية كبيرة وواجبة السداد. ولو لم تكن محددة بدقة متناهية هنا لاستحال على بلد صغير كهذا أن يستمر في البقاء لهذا من المالكوف أن تسمع السكان هنا يقولون أنهم يتحملون هذه المعاناة من أجل أرض الآباء. ومن ثم فإن أرقهم حالاً راضٍ عن دفع ما هو مفروض عليه لأن كل ما ندفعه لأرض الآباء هو لنا على حد قولهم.» وإذا كان صحيحاً أن الهولنديين اعتادوا دفع ضرائبهم مع قدر من المعارضة أقل من نظرائهم في البلدان الأخرى طاملاً وأنهم لا يشكون في إهدار المال على مظاهر اسراف

شخصية من جانب الملك أو البلاط، فإن الصورة التي قدمها وليم كار عن دافع الضرائب الهولندي الذي يسدد ضرائبه عن رضا وسعادة وإنما هي صورة مبالغ فيها بقصد تنوير وتهذيب أبناء بلده الذين يتذمرون من الضرائب المفروضة عليهم، ذلك أن الضرائب المفروضة على الاسطول الهولندي والتي قال انه تم الاقتراع عليها مسبقا وسارع الناس بدفعها، إنما كان قرارها يأتي غالبا بعد تردد ثم يسوّف الناس في سدادها. وسنرى فيما بعد أن ادميرالية امستردام هي الوحيدة التي لها سجلات جيدة من بين ادميرالات المقاطعات الخمس. ولقد عارض بشدة بيتر دي لاكور، وغيره من رجال الصناعة دفع ضرائب عن «جميع السلع الخام المستوردة التي سيصنعها سكان البلدة».

وشاعت محاولات تهرب أصحاب السفن الأثرياء من دفع الضرائب التكميلية. أما أبناء الطبقات الفقيرة الذين قال عنهم كار أنهم يدفعون دون تذمر، فلا بد وأنهم اتفقوا في الرأي مع تعريف الانجليز للرسم الضريبي بأنه ضريبة «شائنة يفرضها أوغاد»*

وبقدر ما كانت قاسية ظروف معيشة عمال الصناعة والزراعة كانت حياة العاملين في البحار أشد قسوة. لقد كانت البطالة الموسمية بين صفوف عمال البحار أمرا حتميا إلى حد ما بحكم طبيعة العمل ذاته، وطيلة موسم الشتاء الذي تتعرض له الأراضي المنخفضة الشمالية. وكثيرا ما يزداد الوضع سوءا بسبب الريح المعاكسة أو بسبب الجليد الذي قد يغلق الموانئ لأسابيع عدة أو بسبب الحروب أو شائعات عن نشوب الحروب مما يؤدي إلى إغلاق موانئ شبه جزيرة ايبيريا فرضها على السفن الهولندية قبل عام ١٦٤٨، أو

* W. Carr; An Accurate Description (ed, 1691) pp. 44-50. Temple, Observations (ed. 1676)pp.

بسبب توقف الملاحة عبر الساوند بالنسبة لتجارة البلطيق الحيوية. وعلى الرغم من الزيادة الكبيرة في صناعة السفن في هولندا والمشاريع البحرية الهولندية فيما بين ١٥٨٥ و ١٦٥٠ كان هناك فيما يبدو. فائض من البحارة خلال القسط الأكبر من هذه الفترة وربما أيضا خلال الأعوام الستين أو السبعين التالية. إذ كان بإمكان أي ربان سفينة هولندي أن يحشد العدد الكافي من البحارة على الرغم من ضالة الرواتب وتفاهة الجراية. أو هكذا كان على الأقل حال السفن العاملة بالتجارة في المياه الأوروبية. إذ غالبا ما كان الأمر على غير هذا النحو بالنسبة لسفن شركتي الهند الشرقية والغربية التي تبحر في البحار البعيدة وترسو في موانئ استوائية عرضة لأمراض خطيرة تكاد تنضال فيها فرص عودة البحارة أحياء الى بلادهم.

وواجهت الإمارات البحرية للمقاطعات كذلك صعوبة في حشد الرجال اللازمين لسفنها الحربية، خاصة إمارة روتردام البحرية، وهي الإمارة العظمى وإن كانت مقلسة، ولذلك لم تدفع الرواتب بطريقة منتظمة. وعندما توفر المال لم تكن ثمة حاجة إلا نادراً لحشد القوى البشرية اللازمة للخدمة البحرية خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر، وذلك بعد أن أصبح بمقدور هولندا أن ترسل الى البحر أساطيل مزودة بأي عدد من الرجال يتراوح عددهم ما بين ١٦٠٠٠ الى ٢٤٠٠٠، وأكثرهم من المتطوعين. وعلى الرغم من أن الحكومة الهولندية لم تلجأ الى التجنيد الاجباري للبحارة، على نحو ما فعلت إنجلترا، إلا أن السلطات الهولندية وجدت من الضروري لها أحيانا أن تفرض حظراً مؤقتاً على سفن التجار المتجهة الى الخارج ايام الحرب، حتى تجبر البحارة على ادراج اسمائهم ضمن العاملين في الاسطول كفرصة وحيدة امامهم للحصول على خبزهم اليومي. وكثيرا ما يزعم المؤرخون الهولنديون ان معدلات أجور البحار في الأيام العادية تظل عن عمد ادنى من أجور البحارة العاملين في خدمة التجار، خوفاً من أن أي زيادة في الاولى قد تؤدي الى زيادة الثانية. ولا ريب في أن أي زيادة في أجور البحارة

العاملين مع التجار من شأنها ان تعوق اصحاب السفن عن مواجهة المنافسة الخارجية، نظراً لأن الأجر الضعيفة التي يدفعها أصحاب السفن الهولنديون لبحارتهم تمثل الحجر الأساس لقدرتهم على تقديم أجر شحن منخفضة. واستطيع انؤكد، في حدود معلوماتي، ان هذا الفارق اذا ما كان قد خصص لهذا الغرض اصلاً، فإنه لم يعد كذلك بعد منتصف القرن السابع عشر. والمعروف ان المعدل الأساسي لأجر العامل البحري الكفاء خلال الفترة من ١٦٦٥ الى ١٧٨٠ ظل كما هو دون تغيير -حوالي خمسة عشر جلدراً شهرياً. ولكن الملاحظ خلال هذه الفترة ذاتها ان البحار الكفاء الذي يعمل في خدمة شركة الهند الشرقية الهولندية كان يتقاضى راتباً اقل، إذ كان المعدل العادي ما بين عشرة واحد عشر جلدراً شهرياً.

وحيثما زعم (في عام ١٦٢٩) بعض كبار اصحاب السفن في امستردام وكانوا على صواب تماماً، انه خلال الهدنة التي دامت اثني عشر عاماً حازت هولندا نصيب الأسد من تجارة النقل في أوروبا بفضل انخفاض تكاليف الشحن وارتفاع مستوى الخدمة الفنية. لم يشاءوا ان يضيفوا شيئاً إنما تحقق أساساً بفضل ما وفره اصحاب السفن من أعداد البحارة، وما اقتصدوه او انتقصوه من غذائهم. ولكن معاصرين آخرين تحدثوا بصراحة أكثر. فهناك فان ميثران يبين في تاريخه لأحداث عام ١٥٩٩ ان مهنة صيد أسماك الرنجة في بحر الشمال كانت خطيرة وغير مأمونة حتى ان الانجليز وغيرهم، نأوا عن الإبحار الى هناك بسبب انخفاض الأجر وسوء الغذاء الأمر الذي ارتضاه الصيادون الهولنديون لأنفسهم. وبعد هذا ببضع سنوات يذكر مؤرخ ان ربابنة السفن والبحارة الهولنديين يتصفون بالمهارة الفائقة فيما يختص بصناعة الملاحة البحرية وكذلك في الصيد وهم اقتصاديون يتوخون التوفير او التقدير في غذائهم حتى انهم يوفرون لأصحاب السفن عندنا ما لا يقل عن ثلث النفقات بالنسبة للرجال والغذاء مما تحتاج اليه بلدان أخرى بكميات أكبر وجودة أفضل. وثمة معلق آخر أكثر صراحة في بيانه لحساب

نجاح اصحاب السفن في زيلاندا وهولندا في منافستهم مع مزاحمهم من اصحاب السفن في اسكنديناфия والمانيا. وقال عن هذا في عام ١٦٤٥ اما الاولون فيديرون سفنهم على أساس اقتصادي اكثر من سواهم، ويعطون ملاحيهم جرية اقل .. وساد اعتقاده بأنه عندما تحتاج سفينة متجهة الى الشرق الى اكثر من عشرة رجال، نجد السفينة الهولندية من الحجم نفسه يعمل عليها ستة رجال فقط. وها هي صحيفة *Hollandtse Mercuries* تشير في عددها الصادر في اكتوبر ١٦٦٧ - الى تزايد المنافسة الحادة بين الصيادين الهولنديين والانجليز في بحر الشمال، ثم تقول: «ان الهولنديين الشجعان لا يسعهم تحمل ان الانجليز الذي يؤثرون القيام بدور السيد وفي يديه قفازان بدلا من عمل أي شيء) سوف يحرمونهم من استخدام العنصر المشترك الذي كان حكرًا لهم على مدى مائة عام».

ويستلم البرتغاليون والاسبان المعاصرون لهذه الفترة بأن السفن الشراعية الهولندية الضخمة المستخدمة في التجارة الى الهند كانت تدار على نحو اقتصادي وبكفاءة اكثر من سفنهم. واعترف الانجليز أحيانا بهذا التفوق ايضا. ومن ناحية أخرى فان بحارا انجليزيا خبيراً عمل على ظهر السفينة بيرشت فان ليدن المتجهة الى الوطن في عام ١٦٧٤ يقول ان سوء وقلة الغذاء هما السببان في ارتفاع نسبة الوفيات على ظهر السفن الهولندية بالمقارنة بالسفن الانجليزية المنافسة. والجدير بالذكر ان استحداث نوع جديد من السفن المعروف باسم «الفلوت» والذي كان عاملاً هاماً في ازدياد تجارة النقل الهولندية كان له ايضا مساوئه وذلك عندما أدخل هذا النوع من السفن للخدمة، ووفر عدد العاملين، ثم طرد الكثيرين من البحارة الهولنديين من الخدمة مما اضطر بعضهم إلى ادراج أسمائهم للعمل على ظهر سفن القراصنة وانتقد كثيرون بشدة أسلوب التقنين الذي اتبعه اصحاب السفن الهولنديون العاملون في مجال تجارة الاخشاب للنرويج. إذ كانت السفن العاملة هنا سفنًا قديمة بطيئة غير جديدة بمهامها البحرية، لولا ما زعموا أن

طبيعة حملتها من الأخشاب قد ساعدتها على الطفو.

وفي العام ذاته الذي تفاخر فيه رجال امستردام بأنهم حصلوا على نصيب الأسد من تجارة النقل في أوروبا وصف المختصون العاملون في الملاحة البحرية في ماسلويس Maassluis بأنهم «بؤساء محطمون .. وهم صيادون يحصلون على رزقهم من خلال معاناة الفقر المدقع والتعرض للأخطار الفادحة». وطبيعي ان حياة رجل البحر هي دائما وأبدا حياة شاقة طوال أيام الإبحار. وليس عسيرا ان نجد ملاحظات أخرى مماثلة تؤكد هذا الرأي عن المشاق التي يعانيها بحارة آخرون مثل البحارة الفرنسيين أو البريطانيين أو البرتغاليين. وعلى أية حال ثمة شواهد كثيرة تؤكد أن البحارة والصيادين الهولنديين كانوا يعيشون على الكفاف خاصة حين يتزوج الرجال وتتكون لهم أسر يتعين عليهم إعالتها. واستغل هذا الوضع أرباب العمل سواء أكانوا مديري الشركات الهندية أم أعضاء الإمارات البحرية في المقاطعات أم التجار أصحاب السفن. ووجد أصحاب السفن وربابنتها إغراء شديدا في أن يجهزوا سفنهم ببحارة يتقاضون أجورا ضئيلة وغذاء هزिला. ودعم هذا الإغراء توفر أعداد كبيرة من البحارة الهولنديين بل وكثرة الأجانب الذين وفدوا بحثا عن عمل داخل المقاطعات المتحدة الذين استهوتهم رائحة طعم الريح الكبير، وهؤلاء هم بحارة من اسكندينايا والمانيا.

وتفيد تقارير يرجع تاريخها الى عام ١٥٨٨ الى انه كان لدى هولندا اكثر من ٢٠٠٠ سفينة تجارية ضخمة تصلح للعمل كسفن حربية. كما زعم نائب امير البحرية الهولندية ان بإمكانه ان يحشد ٣٠٠٠٠ بحار خلال اسبوعين. وفي عام ١٦٠٨ زعم مديرو شركة الهند الشرقية الهولندية ان لديهم ٤٠ سفينة مجهزة بخمسة آلاف رجل في آسيا، و ٢٠ سفينة على متنها ٤٠٠ رجل عند ساحل غينيا، و ١٠٠ سفينة مجهزة بالف وثمانمائة رجل في «جزر الهند الغربية» بينما عدد السفن والرجال العاملين في المياه الأوروبية يزيد كثيرا

على عدد السفن والرجال العاملين في التجارة مع المستعمرات. وفي عام ١٦٤٤ قال واحد من كتاب الكراسيات ويبدو انه كاتب حسن الاطلاع. ان لدى الهولنديين آنذاك أكثر من ألف سفينة صالحة للاستعمال كسفن حربية علاوة على ١٠٠٠ سفينة شراعية تجارية. تعمل في أعالي البحار. هذا خلافاً لـ ٦٠٠٠ سفينة لصيد الرنجة مستخدمة في المياه الداخلية. وأضاف ان هذه السفن مجهزة بأكثر من ثمانين ألف رجل من أفضل وأمر البحارة في العالم. وهو قول ينطوي على قدر من المبالغة التي تشف اعتزازاً وطنياً. وقال ان شركة الهند الشرقية وحدها تملك ١٥٠ سفينة يعمل عليها ١٥٠٠٠ رجل (واضح أنهم ليسوا جميعاً من البحارة) وتؤكد في الربع الأخير من القرن السابع عشر ان شركة الهند الشرقية تحتفظ بأكثر من ٢٠٠ سفينة كبيرة وثلاثين ألف رجل أجير نصفهم تقريباً من البحارة.

ويمكن القول إجمالاً ان مجتمعات البحارة الهولنديين كانوا أقل استسلاماً لحياة الشغف من العمال الزراعيين وعمال الخدم، إذ كان التمرد شبه شائع بينهم، وكلما شعر البحارة ان أرباب العمل تحايّلوا لسلبهم أجورهم لجأوا الى الشغب وإثارة الاضطرابات بطريقة أثارت قلق الطبقة الحاكمة. مثال ذلك انه في عام ١٦٢٩ استاء بعض بحارة شركة الهند الشرقية ولم يرضوا بنصيبهم من الغنائم بعد ان أسر بيت هين Piet Heyn أسطول الفضة، وحاولوا اقتحام المبنى الذي أودعت فيه الغنيمة التي كان سيبددها رجال الحرس الوطني. ووقعت أحداث شغب أكثر خطراً في امستردام بسبب تمرد بحارة الاسطول في سبتمبر ١٦٥٢ - ولم يتمكن المسئولون من قمع هذا التمرد الا بعد ان اطلق الجنود النار على البحارة واعدوا اثنين من زعماء التمرد شنقا. وفي ١٥ يونيو ١٦٦٥ حاول حشد غاضب من زوجات البحارة وابنائهم ومن يعولونهم في دين بريل اعدام جوهان افرتسين القائد البحري في مقاطعة زيلاند بعد ان اتهموه كذبا بالجبن في معركة لويستوفت Lowestoft التي وقعت مؤخراً، ولكن الجنود انقذوا القائد النعس في اللحظة الأخيرة. غير

ان السلطات المسئولة لم تجرؤ على اعتقال أو معاقبة أي من الذين أثاروا أحداث الشغب. وتؤكد التقارير الرسمية للقرن السابع عشر وكذلك الأدب الشعبي لهذه الحقبة على الطبيعة الهمجية وغير المنضبطة التي اتصف بها الجمهور من الغوغاء وما واجهه الضباط وأرباب الأعمال من صعوبة في سبيل السيطرة عليهم. ولقد كان الضباط من نفس النوع في الغالب على نحو ما أوضح الضابط البحري م. هـ ترومب عندما رفض دعوة للغذاء مع الأدميرال سيرجون بنينجتون إذ قال: «لقد قال إن لديه كثيرين من الفلاحين الأجلاف بين ضباطه، الذين لا يفهمون معنى المدنية ولا آداب السلوك».*

وسواء أكانوا «فلاحين أجلافا» أم أبناء «سكان مدن» فإن ضباط السفن اعتادوا الاعتماد على النظام الصارم وتطبيق عقوبات شديدة في سبيل الزام رجالهم بطاعة الأوامر، وعاملوهم كما يقول المثل «كبشر على البر وحمير على ظهر السفن». وفي هذا الصدد كتب رحالة خبير في عام ١٧٥١ «بالنسبة للبحارة على متن السفن الشراعية التجارية الضخمة التي تعمل على الطريق البحري إلى الهند كان صب اللعنات وتوجيه السباب والشتائم المقذعة والإغراق في الملهذات الحسية والقتل أمورا تافهة لا تعني شيئا. ولهذا كانت تجد شيئا ما يختمر بين صفوفهم وإذا لم يبادرهم الضباط بتوقيع عقوبات صارمة رادعة سوف تتعرض حياتهم للخطر وسط هؤلاء الغوغاء الجمّاح. «وكتب أحد العاملين بشركة الهند الشرقية ممن يتصفون بالتزمت وذلك في عام ١٦٧٧ «إن جنود وبحارة شركة الهند الشرقية الهولندية يتصرفون مثل الخنازير. إنهم يسرقون وينهبون، ويسكرون ويعربدون دون خجل أو إحساس بالعار.» ويضيف قائلاً ولهذا السبب لا بد من حكمهم بالحديد والنار شأن الوحوش البرية وإلا افترسوا كل من صادفهم في الطريق.» ويحدثنا نيقولا دي جراف الرحالة الخبير ويكشف لنا عن أسباب تصرفاتهم الهمجية فيقول: «إن جان ماعت، أقل وأدنى شخص على ظهر

* Journal of Peter While por 26 Sept. 16 Oct. 1639.

السفينة لا بد وأن يكون على أهبة الاستعداد مع أول إيماءة أو أمر يصدر إليه من هو أرقى منه، وأن يفعل كل ما يؤمر به دون تأفف أو امتعاض. وإذا ما أبدى أي مظهر من مظاهر التردد فلا بد من تهديده وضربه ضربا مبرحا. ويتعين على البحارة أن يصعدوا ويتسلقوا حبال الصاري وعوارض الأشرعة ليلا ونهارا، وفي العواصف والأعاصير. ويجب عليهم القيام بأعمال تحميل السفن وتفريغها وأن يقفوا مثل الأصنام والعبيد الأذلاء عند جانب السفينة أو كلما غادر الريان أو أحد من الضباط ظهر السفينة أو عاد إليها.

وكانت عقوبة الإعدام إحدى العقوبات التي تطبق على جريمة القتل والتمرد والشذوذ الجنسي (وتنفذ العقوبة عادة بالقاء جثة المجرم مقيدة بجسم الضحية أو شريكه في البحر)، ومن العقوبات كذلك تقييد المذنب في عارضة الشراع وتغطيسه في الماء أو صلبه على عارضة الشراع ودق المسامير في يديه. ومنها أيضا الجلد من عشر إلى خمسمائة جلدة. يضاف إلى هذا عقوبة الغرامات التي تتباين درجاتها وقد يكتفى بالغرامة أو تقتنر الغرامة بالعقوبات البدنية. واشتهرت شركة الهند الشرقية الهولندية بهذا النوع من العقوبات. ومن بين الجرائم الشائعة سب كبار الضباط أو اهانتهم أو السكر أو الشجار مع استخدام السكاكين. وشهدت سفن شركتي الهند الشرقية والغربية العديد من أحداث التمرد وعدم الخضوع للأوامر، أكثر مما هو معروف بالنسبة لسفن الأسطول العادي أو السفن التجارية الأخرى. ويرجع هذا لأسباب منها طول الرحلات البحرية التي تقوم بها سفن الشركتين وإلى ارتفاع عدد البحارة الأجانب العاملين على ظهر هذه السفن على الرغم من تباين الآراء بالنسبة لهذه النقطة الأخيرة.

وحدث أن أصدر مديرو الـ ١٧ قرارا بأن لا يعمل بحار عندهم أي نرويجي ناهيك عن الفرنسيين والانجليز والاسكوتلنديين. بيد أن هذه القاعدة ولدت ميتة منذ البداية. ذلك أن الخسائر الفادحة في أرواح الأوروبيين في المناطق الاستوائية، وإحجام كثيرين من أبناء الأراضي المنخفضة عن

الخدمة هناك أو عن خدمة شركة تجارية احتكارية كان يعني (كما شاهدنا) ان على شركتي الهند الشرقية والغربية ان تستخدم أي رجال يتيسر لهما تشغيلهم. ولم ير كثيرون أي ضرر في هذا، وهم بذلك يتفقون في الرأي مع نيقولا ويتسن Nichola Witsen الذي ذكر في عام ١٦٧١، ان خليط الجنسيات المختلفة على ظهر إحدى السفن من شأنه ان يقلل فرص وقوع تمرد ناجح. ولكن آخرين رأوا رأي جاك سبكس الحاكم العام الذي استنكر في عام ١٦٢٩ ارتفاع نسبة الأجانب مذكرا مديري الـ ١٧ بالمشكلات الكثيرة التي واجهتنا في آسيا بسبب كثرة العاملين بين صفوفنا من الانجليز والفرنسيين، وهي المشكلات التي نأمل ان نحول دون وقوعها مستقبلاً بأن توفرنا لنا مواطنين من أبناء الأراضي المنخفضة أصحاب القلوب الطيبة الجديرة بالثقة». ومما يؤسف انه حين تتوفر القلوب الطيبة من أبناء الأراضي المنخفضة فإن أصحابها لم يكونوا دائماً خيرين وجديرين بالثقة على نحو ما كشفت عنه أحداث التمرد العديدة التي وقعت والتي شارك فيها هؤلاء بدور نشط في أغلب الأحيان.

واختلفت الآراء بطبيعة الحال بشأن نوع الأجانب المرغوب فيهم أكثر - أو على الأقل غير المرغوب فيهم - للعمل، مثال ذلك ان اصدرت الشركتان أوامرها مرارا وتكرارا تحظر تشغيل الكاثوليك الرومان مهما كانت كفاءتهم. ولكن هذه الأوامر كان مصيرها كالعادة الإغفال أو التحايل عليها عند الحاجة الى جنود أو بحارة. بل إنه كان ينظر بازدراء الى اللوثرين أنفسهم. ولكن على الرغم من تفضيل الكالفينيين اهل الاستقامة الذين يخشون الله، حسب وجهة النظر الرسمية. إلا انه لم يكن هناك ما يكفي منهم. وسادت نظرة شك الى الانجليز، ولكن بدرجة أقل الى الاسكتلنديين، بسبب التنافس طويل الأجل بين انجلترا وهولندا. ومع هذا تم تشغيل كثيرين منهم في أوقات الحاجة. والقى رينست سبوك، الحاكم العام، كلمة طيبة وهو على ظهر بارجة القيادة في عام ١٦١٩ زعم فيها أن «من يحافظون على نظافة أنفسهم هم اهل الطاعة

والرغبة الصادقة. ولكن، لأسباب واضحة، كان جيناء اسكتلندا والمانيا عناصر واضحة جدا بين طاقم العاملين على ظهر السفن الهولندية، سواء الأسطول البحري أم السفن الشراعية الضخمة العاملة على خطوط الهند أم سفن التجارة العادية.

وفي نهاية القرن السابع عشر، اشتكى بيتر فان دام المحامي والمؤرخ في شركة الهند الشرقية من أن الشركة بينما كانت تستطيع في أعوامها الباكورة أن تجند بسهولة ما تحتاج اليه من بحارة بأجور تتراوح ما بين ٨ و ٩ فلورين شهريا بات من العسير عليها الآن أن تجد ما يكفيها من بحارة على الرغم من انها تعرض أجراً شهريا يتراوح ما بين ١٠ و ١١ فلورين فضلاً عن مكافأة شهر سنويا. ولأسباب ناقشناها فيما بعد، نلاحظ أن مشكلة تجهيز السفن العاملة على خطوط الهند للشركة الشرقية بأغلبية من البحارة الهولنديين ازدادت حدة وصعوبة خلال القرن الثامن عشر. وعندما زار الرحالة السويدي ك.ب. ثانبرج مدينة ناجازاكي في عام ١٧٧٥ لاحظ أن جميع العاملين على سفن الشركة، وحسب لوائح الحكومة اليابانية، لا بد وأن يكونوا هولندي المنشأ، إلا أن كثيرين من بينهم هم من السويد والدانمرك وألمانيا والبرتغال وإسبانيا فضلاً عن ٢٤ عبداً.

وإذا كان الأجانب كثيرين نسبياً بين البحارة، فإن نسبتهم أكبر بين الجنود على نحو ما يبين لنا فيما بعد. والتنافس التقليدي بين الفريقين في جميع الاقطار والظروف كان أكثر ما يكون وضوحاً على ظهر السفن الهولندية الضخمة التي تعمل على خطوط الملاحة ما بين هولندا والهند. لقد أطلقوا على بعضهم القاباً رمزية بقصد السخرية، ولولا النظام الصارم المفروض على الجانبين لحدثت معارك وتضارب بالأيدي أكثر مما وقع بالفعل. ويشهد على صدق هذا ما كتبه أحد حكام المستعمرات إلى مجلس إدارة الـ ١٧ من على ظهر سفينة القيادة الراسية في خليج تايل Table في عام ١٦٣٠، إذ قال «إنني أرى أن العواصف القديمة لا تزال راسخة تفعل فعلها،

وأن البحارة يعادون الجنود ويرونهم أعداء لدودين لهم»

وعلى الرغم من أن الضباط العاملين على ظهر السفن العاملة على الخطوط الملاحية الهندية الهولندية ليسوا مخولين بتوقيع عقوبات، فيما عدا العقوبات البسيطة، شريطة موافقة أغلبية أعضاء مجلس السفينة - والذي يضم ربان السفينة ومساعديه وكبير التجار - إلا أن هذه القاعدة لم تكن مطبقة على النحو المطلوب. وكثيرا ما تعرض ربانة هذه السفن، وبخاصة سفن الشركة الشرقية، للنقد الحاد ليلهم الى القيام بدور الحاكم الطاغية للسفينة، هذا على الرغم من الأمر الصادر عن مجلس ادارة الـ ١٧ في الثامن من أغسطس ١٧٠٥ والذي يقضي بتفريم المذنب راتب ستة أشهر عند ارتكابه الجريمة الأولى ثم فصله من الخدمة في المرة الثانية. وباستثناء قسوة ربانة السفن، الحقيقية أو المزعومة، فإنهم اكتسبوا كراهية أكثر بسبب تقديرهم في جرایة البحارة، وبين الفائض منها عند وصولهم الى باتافيا، وكانت الفرصة ضئيلة نسبيا امام البحارة للتعبير عن استيائهم بقوة طالما ان السفينة لا تزال شرق رأس الرجاء الصالح، إذ يخشون ان تفرض السلطات عليهم الخدمة لفترة أطول في البحار الآسيوية، أو إرسال بعضهم الى مناطق غير صحية. ولكن عندما تقترب السفينة المتجهة الى الوطن من وجهتها، يحدث أحيانا ان يتجمع البحارة على ظهر السفينة ويسيطرون عليها وينفسون عن رغبتهم في الانتقام، ويصبون جام غضبهم على كل من كان موضع كراهيتهم. ويحكي شاهد عيان لمشهد من هذه المشاهد وقع في عام ١٧٠١ ويصف كيف امسك البحارة الثائرون بطباخ السفينة وجروه من مخبأه وضربوه ضرباً مبرحاً بأدوات مطبخه حتى شوهوه وظل مقيدا وقتا طويلا وحاول ربان هذه السفينة تجنب ثورة البحارة أول الأمر، ولكن ما أن رست السفينة في الميناء «تحدثوا في مواجهته وامام الجبرين عن كان يربح على حسابهم وقالوا انه متشرد، لص سارق للجراية، يستأسد على الضفاف، وهددوه بأنه سيدفع الثمن عند العودة. ونفذوا تهديدهم في ميناء ميدلبرج اذ أوسعوه ضربا حتى

تحول الى كتلة هلامية.

ويمكن ان نستلخص مما سبق ان البحارة العاملين في شركة الهند الشرقية هم جماعات لهم نشاطهم الاجتماعية الخاصة. ويقول لنا نيقولا دي جراف ان ربانة السفن العادية كانوا يتوخون الحذر عند تشغيل من سبق لهم العمل في خدمة هذه الشركة. ولكن البحارة الذين عملوا على ظهر سفن الأسطول البحري، أو في بحر البلطيق أو مع الخطوط التجارية عبر الأطلسي أو المتوسط لم يكونوا أقل غلظة إذا ما صدقت بشأنهم تقارير السفن المعاصرة لهذه الحقبة. وما هو جان سنوب القسيس الكالفني الذي عمل قسيساً مع أسطول دي رويتر في البحر المتوسط خلال العامين ١٦٦١ - ١٦٦٢ يرسم لنا صورة لرفاقه، وهي صورة يمكن ان تكون نموذجاً للسفن الأخرى. لقد أفزعته قسوة وغلظة البحارة وجهلهم وقلة إيمانهم، وقبح لسانهم، وشجارهم وتقاتلهم. وقال ان الكنيسة العائمة بدت وكأنها بيت خنازير وليست عروساً للمسيح. واشتكى مر الشكوى بسبب كثرة عدد الكاثوليكين والاحتجين واللوثريين والملحدين والساخرين الموجودين بين صفوف البحارة، خاصة سفينة القيادة لأسطول دي رويتر

إنهم يستمعون لكلمة الرب دون إنصات أو اهتمام، ويحضرون للصلاة ولكن بدون قلب نقي، ويدنسون يوم الأحد دون موجب أو ضرورة. وإذا سألتهم عن أركان العقيدة المسيحية لزموا الصمت جهلاً كأنهم أصنام. ووجد من العسير عليه تماماً أن يغرس في نفوس هؤلاء البحارة أي بذرة طيبة عن «الدين المسيحي الأصلي في صورته الحقيقية بعد الإصلاح». ذلك لأن اهتمامهم الأول والوحيد ينصب على إله الخمر وربة الجمال.

إذا كان هذا هو الوضع الروحي للبحارة على ظهر السفينة يقودها ميشيل دي رويتر، الرجل التقى حقاً والقاريء والمرتل الكالفني للمزامير، فإن لنا ان ننخيل ما حدث على ظهر السفن الأخرى التي قادها قباطنة لا يدا نون رويتر

تقوى وفضيلة. لقد كان كل من دي رويتر وسلفه ترومب شغوفين بأن يوظفا قساوسة الكالفنيين للعمل رجال دين يعظون على ظهر السفن ويكون لهم تأثيرهم الحضاري على البحارة ومن ثم يكونون عوناً على حفظ النظام. ولكن المعلومات المستقاة من صحيفة جان سنوب تفيد بأن القساوسة الكالفنيين الاكفاء لم يتطوع منهم العدد الكافي لاداء هذه المهمة. ولهذا استمر فرض النظام بالقوة عن طريق عقوبات الجلد وغيره من عقوبات قاسية، حتى وإن تولى قيادة السفن قادة محبوبون من بحارتها مثل هذين القائدين العظيمين اللذين اعتاد بحارتهما ان يطلقا على كل منهما لقب «أبانا المعظم».

واشتكى الاب جان سنوب ايضا من قلة الجراية وصعوبة الاحتفاظ بالغذاء طازجا في مناخ البحر المتوسط الحار صيفا. ولا ريب ان الوضع بالنسبة لهذا الامر كان على ظهر سفن الملاحة الى الهند التي تظل مبحرة لمدة تتراوح ما بين ستة وثمانية أشهر. ونعرف انه قبل الاكتشافات العلمية والهندسية للقرن التاسع عشر كان من المتعذر على عقل المرء ان يتخيل وسائل كافية لحفظ الطعام والشراب شهورا طويلة داخل مخازن سفن خشبية تعمر عباب البحر تحت سماء المنطقة الاستوائية. واتهم جيرار رينست حاكم عام السفينة المتجهة الى الهند المتعهدين وحملهم مسئولية تقديم مواد تموينية من نوع رديء على أمل ان يعزو المسئولون فسادها فيما بعد الى حرارة جو المنطقة الاستوائية. ولكنه اعترف ايضا بانها لا بد وان تفسد لاسباب أخرى كثيرة، وقال «ان الماء والنبيد نخرجهما يوميا من المخازن ساخنين لدرجة تقرب من درجة الغليان .. وهذا هو سبب فساد اكثر المؤن ووجه العجب في حقيقة الامر ليس فساد وتعفن الطعام والماء سواء كان السبب متعهدي توريد الاغذية وعدم امانتهم ام لا، ولكن ان بعض المؤن ظلت في حالة جيدة طوال رحلة استمرت أكثر من ستة أشهر.

وتتباين مقادير الجراية باختلاف الفترات الزمنية على نحو ما يبين لنا من جدول توزيع الجراية الذي قدمه كل من نيكولا دي جراف و أ.ف. منتزيل، اذ

اوضحا ان البحارة يتناولون اللحم مرتين أو ثلاث مرات في الاسبوع بينما الفلاح أو العامل الهولندي يكون سعيد الحظ إذا ما تناول اللحم مرة واحدة. ولكن الشواهد المعاصرة تتباين تبائنا واضحا بشأن تقديرها لجراية البحارة وهل كانوا يحصلون على ما يكفيهم كما ونوعا. ويبدو واضحا في جميع الاحوال انه كذا كان ربان السفينة والمسئول عن الحسابات بها والخدم امناء، وكان الطاهي كفتاً فإن البحارة، لن يكون لديهم ما يشكون منه سوى القليل في بعض الاحيان، ولكن، وكما كان يحدث غالبا، إذا ما حاول ربان السفينة أو المسئول عن الحسابات بها ان يختلس جراية البحارة، أو إذا ما فسدت الاطعمة بسبب حرارة المناخ في المنطقة الاستوائية أو لأسباب أخرى فالويل كل الويل للبحارة بسبب المعاناة التي تنتظرهم.

ولا ريب في ان الضباط كان وضعهم أفضل في جميع الاحوال. فإن هؤلاء الذين يشغلون مرتبة عرفاء البحارة وما دونها يحصلون على ضعف الجراية طعاما وشرابا، بينما نجد بعض القيود المفروضة على مائدة ربان السفينة في المقصورة الكبيرة بالنسبة لطعام وشراب الجالسين امامها. ولعل من قرأوا مذكرات وليم هيكى Hickey يتذكرون كيف كان ذلك الرجل النهم في وضع أفضل كثيرا وهو على متن السفينة الهولندية الضخمة في رحلتها من رأس الرجاء الصالح الى تكسيل في عام ١٧٨٠. وقبل هذا بقرن من الزمان قام روبرت نوكس R nox بعد هربه من مملكة كاندي، برحلة الى باتافيا بصحبة الحاكم الهولندي لساحل سيلان. ويحكي نوكس عن رحلته فيقول: «كان يجاملني كثيرا جدا، إذ يوضع على مائدتنا مع كل وجبة عشرة أو اثنا عشر طبقا من اللحوم مع عديد من أنواع النبيذ، وان هذا التباين الفاضح بين مستوى معيشة الضباط وبين غيرهم، لم يكن بطبيعة الحال امرا خاصا بالهولنديين، وإنما كانت هذه سمة عامة في الرحلات البحرية لسفن البلدان المختلفة، بما في ذلك سفن الاسطول الملكي وشركة جون، وقد يتذكر من قرأوا يوميات بارسون تونج Teonge (١٦٧٥-١٦٧٩) الاسراف في الطعام

والشراب داخل مقصورة قبطان السفينة في وقت كان البحارة يموتون بسبب الجوع وسوء التغذية.

ولقد وضحت بطريقة غامضة الى حد ما منذ الرحلات البرتغالية الاولى اهمية الاغذية الطازجة في مكافحة التهاب اللثة. وغالبا ما كانت السفن الهولندية الضخمة تحمل معها ثمار البرتقال والليمون والتفاح على الرغم من انه لم تكن معروفة بعد الاهمية الفائقة لليمون كعلاج مضاد لمرض الاسقربوط، وانه يتفوق في هذا على جميع الحمضيات الاخرى. وقبل تأسيس مستوطنة رأس الرجاء الصالح كمحطة تموين للسفن الهولندية التي تعمل على خطوط الملاحة الى الهند بذل القادة الأوائل للأساطيل العابرة جهودا تلقائية لزراعة أشجار الفاكهة والخضراوات في أماكن مختلفة مثل سانت هيلينا وموريشيوس بحيث يمكن لمن يأتي من بعدهم أن يجني ثمارها ويغرس بدوره بذورا جديدة. وتتميز هاتان الجزيرتان بمناخهما الصحي الفريد، على عكس أماكن أخرى مثل جزر كيب فيرد وسيراليون ومدغشقر التي كانت تلجأ اليها أحيانا السفن الهولندية للحصول على فاكهة واطعمة طازجة. وهنا يشفى الناس من أمراض الاسقربوط بفضل تغيير الغذاء، ولكن قد يصاب كثيرون بالمalaria او بغيرها من أمراض الحميات الاستوائية.

وثمة مصدر آخر للأمراض وهو نقص الرعاية الصحية على ظهر السفن أو بمعنى آخر صعوبة فرص معايير صحية كافية وواجبة الاتباع على البحارة. وهناك من قارن، عن حق، بين السفن الهولندية الضخمة التي كانت تعمل على خطوط الملاحة من وإلى الهند خلال القرن الذهبي وبين بيوت الهولنديين العاديين خلال الفترة نفسها وهو أمر مألوف لنا توضحه رسوم كبار الفنانين آنذاك. تبدو البيوت جميلة جذابة متعددة الألوان من الخارج، ولكنها باردة سيئة التهوية رطبة من الداخل، وكان الجنود والبحارة يعيشون في أماكن ضيقة محصورة ومكدسة فوق ظهر المركب حيث يتأرجحون في الشباك المعلقة ويحتفظون بداخلها بملابسهم وأطعمتهم ويتناولون طعامهم

معا. والمصدر الوحيد للضوء والتهوية فتحات قليلة ضيقة أو فتحات فوهات المدافع والتي يتعين إغلاقها عندما تشتد الرطوبة أو تهب العواصف. وهكذا تكون الحياة غير محتملة بسبب شدة الحرارة والرطوبة عندما تكون السفينة في المنطقة الاستوائية. ويزداد الوضع تدهورا مع هذا المناخ الخائق بسبب حرارة المطبخ والدخان المتصاعد منه. ونظراً لأن هذه السفن تحمل شحنات تنوء بها وتزيد عن طاقتها، إذ كان يتعين عليها في جميع الأحوال ان تحمل مؤناً تكفيها على الأقل لمدة تسعة أشهر، لذلك فإنها تضيق براكبيها الذين نادراً ما يجدون مكاناً لعزل المرضى عن الأصحاء أو لعلاجهم وتمريضهم وفقاً للقواعد الصحية.

ولعل أسوأ الأمور جميعاً إحصاء البعض عن قضاء حاجتهم في الأماكن المخصصة لذلك. ولقد كان هذا الأسلوب غير الصحي محظوراً تماماً. ويحدثنا البحار الفرنسي بيرار دي لافال، عن رحلته على ظهر سفينة برتغالية من نوع القرقور، وهي سفينة شراعية ضخمة في عام ١٦١٠ ويقول: «هذه سفن شديدة القذارة أكثر الناس لا يكلفون أنفسهم مشقة الصعود الى ظهر السفينة لقضاء الحاجة. وهذا أحد أسباب كثرة الوفيات، ويفعل الفرنسيون والايطاليون والاسبان الشيء نفسه. غير ان الانجليز والهولنديين حريصون على التزام قواعد النظافة». وكان هناك أيضاً الذباب والقمل وغيرها من الحشرات والهوام التي تعيش متطفلة على ملابس البحارة القذرة التي تظل على أجسادهم دون تغيير لعدة أسابيع. ثم هناك الجرذان والصراصير وغيرها من الحشرات المؤذية التي تمرح وسط الأغذية الفاسدة في مخازن السفن. وفي مثل هذه الظروف تظل النظافة، حتى على ظهر السفن الهولندية دون المستوى المنشود. ويحكى قبطان سفينة هولندية من زيلاندا الى الهند عن حالة سفينة من السفن المرافقة وقتما رست عند رأس الرجاء الصالح في عام ١٧٧١ فيقول: «كان ظهر السفينة غارقاً في القذر المكس فوقه، حتى ان بعض ضباطي أكدوا لي انهم لم يروا في حياتهم مثل هذا القدر من القذر، ولا

وكان نقص الملابس أحد أسباب ارتفاع نسبة الإصابة بالمرض بين البحارة. ويبدو أن مديري الـ ١٧، على سبيل المثال، اتفقوا في الرأي مع متعهدي الانتفار على أن من يعملون على ظهر السفن في الشتاء الهولندي لن يكونوا بحاجة الى ملابس دافئة نظراً لأنهم سرعان ما يكونون في عرض البحر داخل المنطقة الاستوائية. ومنع هذا اغمض المديرون عيونهم أمام حقائق بسيطة ومؤكدة وليس غريباً أن نجد الشاعر فوندل يكتفي بإشارة عابرة الى إهدار البشر كحالة مزمنة، بسبب ما يعانونه من مشاق وبرد قارس، وذلك في قصيدته التي نظمها تحت عنوان «في مديح الملاح البحرية». التي أهداها الى دكتور لورنس راي. ونجد الشكوى نفسها يقدمها الى حاكم عام من حكام جزر الهند الشرقية كثيرون من كبار ضباط الشركة نتيجة لخبراتهم الذاتية. وشارك راي بنفسه في الحياة الشاقة التي يعانيها الملاح في رحلات عبر الاطلسي والبحر المتوسط، وكذلك في المحيط الهندي وبحر الصين الجنوبي. وسطر سيمون فان دير ستيل حاكم رأس الرجاء الصالح (١٦٧٩-١٦٩١) رسائل مطولة الى مديري الـ ١٧ يوضح فيها الحاجة الماسة الى طعام وملابس، وأن هذا النقص هو سبب الارتفاع الكبير في نسبة الوفيات. وقال «انهم يتهاون بسبب نقص التغذية مما يجعل بوفاتهم». بل لقد ارتفعت نسبة الوفيات حتى في البحار الأوروبية. مثال ذلك ان بحارة الاسطول الهولندي في ميناء كوبنهاجن الذي يغطيه الثلج شتاء عانوا في شتاء ١٦٥٩-١٦٦٠ معاناة قاسية من وخز البرد القارس، وسقط منهم صرعى حمى التيفوس وغيرها من الأمراض في ظروف تذكرنا بأهوال شتاء القرم اثناء حرب ١٨٥٤-١٨٥٥. وأيا كان الأمر، فإن من المسلم به أن معايير الغذاء والكساء خلال القرن الثامن عشر تدهورت كثيراً خاصة في الاسطول

* J. S. Stavorinus, Voyage to the East indies 1768 (4 vols. London, 1798)

الهولندي. وقيل ان هذا الوضع هو أحد الاسباب الرئيسية التي حالت دون توفر العدد الكافي من البحارة في عام ١٧٨٠.

وإذا تأملنا مخاطر حياة البحارة في أعماق البحار فلن ندهش لارتفاع نسبة الوفيات الى درجة الكارثة في أغلب الأحيان، خاصة على ظهر سفن شركة الهند الشرقية. ويمكن أن نذكر فيما يلي أكثر الأمراض شيوعا وأشدّها فتكا التي أصابت العاملين على ظهر السفن: الاسقربوط، وهو مصطلح استخدم للدلالة على مجموعة من الأمراض الناجمة عن نقص الغذاء. وحمى السفينة ويقصد بها التيفوس ويحدث عادة بسبب العدوى من ملابس حاملة للميكروب وهي الملابس الملوثة للمجندين الذين يوردهم متعهدو الأنفار. والديزنتاريا، «أو السيلان الدموي» كما اعتاد أن يسميه البحارة الهولنديون والانجليز. وأمراض البرد وذات الجنب والالتهاب الرئوي وغيره من أمراض تصيب الرئة وأودت بحياة الكثيرين. ويعتبر مرض احتباس البول أحد الأمراض الأخرى المروعة، ويحدث غالبا بسبب تضخم البروستاتا، ويصيب بوجه خاص البحارة كبار السن فيما بين الخمسين والستين من العمر. ولم يكن معدل الحوادث بسيطا، كما وأن الأساليب البدائية في اجراء العمليات الجراحية آنذاك جعل من كل عملية جراحية مخاطرة كبرى ناهيك عن احتمالات الاصابة بالفرغرينا.

وليس لنا أن ندهش إذا عرفنا ان البحارة بعد عودتهم الى أرض الوطن إثر غياب امتد خمس سنوات في جزر الهند يقبلون على تبديد ما اكتسبوه وادخروه في المواخير والحانات مما جعلهم يستحقون تسميتهم «لوردات لسته أسابيع». ولقد كانت امستردام قبله الاغلبية العظمى منهم على اختلاف أصولهم ومواطنهم. وتعتبر الاموال التي اعتادوا انفاقها على هذا النحو مصدر دخل يرحب به الكثيرون من التجار وأصحاب الحانات على مدى قرنين من لزمان، وعرف القنصل الانجليزي في امستردام في عام ١٦٨٨ ان السلطات سمحت بالمواخير التي أخذت اسم قاعات الموسيقى لاختفاء طبيعتها وذلك لأن

البحارة العائدين كانوا «يتحرقون شوقا للنساء، حتى انه لو لم تتوفر لهم هذه البيوت لاشباع رغباتهم فلأنهم سوف يفرضون أنفسهم على زوجات وبنات المواطنين». وبعد مائة عام أفاد شاهد عيان آخر أن «اللوردات لستة أسابيع» انقلب حالهم من الوفرة الى الإفلاس. ولكنه أضاف وفي نفسه رضا وارتياح: «ولكن أين سوف سيستقر المال الذي بددوه؟ في أمستردام. ومن الذي سيحصل على الأرباح؟ سكان هذه المدينة نفسها».

ولقد عرفنا انه إذا كان الأجانب كثيرين بين صفوف البحارة العاملين في أعالي البحار، فإنه توجد نسبة أكبر منهم بين الجنود سواء في الجيوش التي تدفع رواتبها إدارة عموم الولايات، أو بين الجنود المرتزقة الذين يعملون في خدمة الشركتين الهندية الشرقية والغربية، بل إنه حتى أثناء حرب الثمانين عاما فإن أغلبية الجنود الذين حاربوا تحت قيادة أمراء آل اورانج لم يكونوا هولنديين بل من الألمان وأبناء مقاطعة والون وغيرهم من الأجانب. ونعرف أن فرقا كاملة من الاسكوتلنديين والانجليز خدموا في جيوش المقاطعات المتحدة لسنوات طويلة. هذا على الرغم من عدم ندرة الجنود الهولنديين كما يزعم بعض الكتاب. وتذكرنا كراسة مكتوبة في عام ١٦٢٣ ان الجوع والبطالة حتى في الأراضي المنخفضة الحرة، كانا حافزين قويين للانضمام الى الجيش «إن ام الجنود تلد مرتين في العام مرة في الصيف لأولئك الذين لا يتحملون عناء العمل ورائحة العرق، ومرة ثانية عند حلول الشتاء وقتما يقل الحطب وخشب الوقود وغير ذلك من مؤن لازمة لبرد الشتاء»*. ولا ريب في أن نسبة الهولنديين بين الضباط كانت أكبر منها بين الجنود، ولكن كان هناك أيضا كثيرون من الضباط الألمان والفرنسيين والسويسريين والانجليز والاسكوتلنديين بين الضباط ابتداء من ملازم بحري الى فيلد مارشال. وكان كثيرون من الضباط سواء من الهولنديين او الأجانب، من أبناء النبلاء. هذا على نقيض الوضع بالنسبة للخدمة في البحار حيث كان أغلبية الضباط من

* Anoni fin de la guerre (Amsterdam, 1623)

بناء الطبقة الوسطى أو أبناء العمال قبل النصف الثاني من القرن الثاني عشر.

وعلى الرغم من الانهيار المأساوي للأسطول الهولندي وكذلك - وبدرجة أقل - للبحرية خلال القرن الثامن عشر كان حشد البحارة أيسر دائما من حشد الجنود من بين أبناء الطبقة العاملة في مقاطعات هولندا وزييلندا وفريزلاند. وأفاد شاهد عيان في عام ١٧٨٠ أن فرقة عسكرية أقامت كحامية عسكرية في مدن عديدة في شمال هولندا لمدة عامين عجزت أن تجمع آنذاك أكثر من خمسة عشر رجلا (تسعة منهم أجانب) على الرغم من الجهود المطردة التي بذلها الضباط في هذا الشأن. وكان من المسلم به أن حشد الجنود في المقاطعات الزراعية ليس أمراً بالغ الصعوبة ولكن يمكن القول بوجه عام أن حشد ألف بحار كان أيسر من حشد مائة جندي في أيام الجمهورية الهولندية.

وارتفعت نسبة الأجانب أيضا بين جميع صفوف ورتب القوات المرتزقة العاملة لحساب الشركتين الهندية الشرقية والهندية الغربية الهولنديتين. ففي يناير ١٦٢٢ ضمن حامية باتافيا ١٤٢ جنديا واسكوتلنديا وإيرلنديا ودانماركيا وغيرهم، فضلا عن سبعة عشر من الفلمنك والواللون، وتسعة آخرين جنسياتهم غير معروفة على وجه اليقين. وإذا استعرضنا سجل أسماء جنود وضباط حاميات ملقا في الأعوام من ١٦١٨-١٦٢٠ نجد تباينا وتنوعا مماثلا، حيث نجد أسماء الجنود من بريمن وهامبورج وسكوتلندا وشتلاندرز. وهناك حوالي ٦٠ شخصا صدرت ضدهم أحكام بالإعدام من محاكم عسكرية انعقدت على ظهر السفن في بحر الصين الجنوبي خلال الفترة من يوليو ١٦٢٢ وأغسطس ١٦٢٤. ونجد من بين هؤلاء ثمانية عشر شخصا على الأقل من الأجانب من سويسرا واسكوتلاندا وفرنسا واليابان، وضمت حامية رأس الرجاء الصالح في عام ١٦٦٠ جنودا من إنجلترا وسكوتلاندا وإيرلندا. ولكن هنا، كما في أماكن أخرى، يشكل الألمان الأغلبية

بين صفوف الجنود المرتزقة الذين يخدمون شركة الهند الشرقية. ويبدو ان نسبة الالمان الذين خدموا لحساب شركة الهند الغربية لم تكن عالية جدا قبل عام ١٦٤٢. وعندما اصدر مجلس مديري الـ ١٧ اوامره الى كونت جوهان موريتس حاكم عام البرازيل التابعة للأراضي المنخفضة، بأن يفصل، في هذا العام نفسه جميع الجنود الذين هم من اصول غير هولندية او المانية او اسكاندينافية، فإنه اجاب بأن أغلبية رجاله من الانجليز والاسكوتلنديين والفرنسيين. وفي الوقت نفسه كانت حامية بارايا Paraiha تضم أكثر من ١٥٠ جنديا انجليزيا تحت إمرة القائد الانجليزي جون جودلاد. واضطرت شركة الهند الغربية الى تعيين قسيس كالفني انجليزي ليقدم عظاته الى هذه القوات بلغاتهم في منطقة رسييف.

ولا ريب في ان ثمة قدرا من المبالغة فيما كتبه رجل الماني زعم ان حامية باتافيا في عام ١٧١٠ ضمت جنودا من المانيا وسويسرا وبولندا، ولم يكن بها أكثر من عشرة هولنديين. ولكن بعد ثمانين عاما عبات شركة الهند الشرقية للخدمة في الشرق وحدتين كاملتين من المرتزقة الأوروبيين. وكما هو الحال بالنسبة للجيش في أرض الوطن، كانت نسبة الهولنديين أعلى بين رتب الضباط منها بين الجنود. ولكن المراكز القيادية شغلها في الغالب أجانب. ونكتفي هنا بعدد قليل من الامثلة النموذجية: تراس باتافيا قائد فرنسي بروتستانتي يدعى اسحق دي سان مارتان خلال الفترة ١٦٨٦-١٦٩٦. وتراس منطقة رأس الرجاء الصالح رجل من برلين يدعى حـت. رينيوس في الفترة ١٧٢٨-١٧٤٠. وعلى الجانب الآخر من العالم تراس انجليزي يدعى جيمس هندرسون الحامية الهولندية في لواندا خلال الفترة ١٦٤١-١٦٤٢ ويمكن ان نشير على نحو عابر الى ان المكانة الاجتماعية لضباط الجيش ليست رفيعة جدا في جمهورية هولندا على نحو ما هو سائد في الاقطار الأوروبية الأخرى. ولكن هذه المكانة انخفضت الى حد ما خلال القرن الثامن عشر وان لم تتدهور في المقاطعات المتحدة بنفس القدر الذي حدث في جـر.

الهند الشرقية. وجدير بالذكر ان ضباط جيش الولايات واسطولها الذين جاءوا الى باتافيا ضمن حملة فان برام في عام ١٧٨٢ ضاقوا كثيرا إذ رأوا الموظفين المدنيين العاملين في شركة الهند الشرقية يعاملون نظراءهم العسكريين باحتقار شديد. ويلاحظ خلال هذه الفترة ان احدا من سكان المدن المحترمين المقيمين في سيلان لم يكن ليقدم على دعوة أي من ضباط الحامية الى حفل في بيته، باستثناء اربعة أو خمسة من كبار الضباط.

ويؤكد ادوارد بارلو، وقد كان سجيناً لدى الهولنديين في باتافيا خلال العامين ١٦٧٢-١٦٧٣ أن «الهولنديين في جزر الهند الشرقية أقوى من جميع الأمم المسيحية الأخرى؛ إذ لدى شركة الهند الشرقية دائماً ما بين ١٥٠ و ٢٠٠ سفينة شراعية موزعة هنا وهناك و ٣٠٠٠ رجل أو مستخدم، ولكن سرعان ما يقعون فريسة للمرض ويلقون حتفهم. إذ من بين ٣٠٠ رجل أتوا على ظهر السفن من هولندا مات ٨٠ أو ١٠٠ رجل قبيل وصولهم الى الهند الشرقية. والحقيقة ان الخسائر كانت قاذرة دائماً بين البيض بسبب الوفاة والمرض والفرار من الجندية. وان الشكوى من الصعوبات التي تواجه عملية حشد الجنود والبحارة ومن سوء حالهم يرجع تاريخها الى العقد الأول من وجود شركة الهند الشرقية واستمرت هذه الشكاوى لمدة مائتي عام، وتصاعدت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وظهرت الى الوجود في امستردام وفي الموانئ الهولندية الأخرى طبقة جديدة لمهنة جديدة هم متعهدو توريد الانفار للعمل جنوداً وبحارة في خدمة الشركة. ويبدو أنهم كانوا يجمعونهم من بين العاطلين المعدمين خاصة الألمان الذين كانوا يزحفون الى الأراضي المنخفضة الشمالية بحثاً عن عمل والتماساً للثراء.

وكان متعهدو توريد الانفار يحتفظون بالرجال في أماكن مغلقة تشبه محاجر المجرمين أو المعازل التي يحتجز فيها تجار العبيد في غرب أفريقيا السود الذين أطلقوا عليهم اسم «العاج الأسود» وذلك الى حين إعلان بدء توريد الانفار للعمل في خدمة جيش أو اسطول الشركة. ويحكي شاهد عيان

في عام ١٧٧٨ أنه رأى ٢٠٠ رجل محتجزين في غرفة نوم تحت الأرض «حيث يتعين عليهم البقاء فيها ليل نهار، وحيث يقضون حاجتهم ويأكلون، ولا يوجد مكان للنوم بل يتكوم بعضهم على البعض». وأضاف قائلاً: «وشاهدت أمثلة أخرى إذ رأيت عدداً - كبيراً جداً من الرجال المسجونين في غرف نوم. مضى على بعضهم هناك أكثر من خمسة أشهر وهم يتنفسون هواء فاسداً تماماً. وبلغت نسبة الوفيات في هذه الأماكن نسبة مروعة حتى أن أصحابها لم تواتهم الجراءة لذكر العدد الصحيح من الوفيات. واعتادوا أن يلقوا كل جسد في كفن واحد. ولم يكن الغذاء أفضل حالاً. وطبيعي أن رجالاً تم حجزهم زمناً طويلاً في مثل هذه الأماكن يقعون فريسة سهلة للأمراض المعدية فور صعودهم إلى ظهر إحدى السفن».

وسرعان ما شاعت في طول المانيا وعرضها السمعة السيئة التي لاحقت النخاسين أو «باعة النفوس» الهولنديين وأساليبهم اللاأخلاقية. ولكن ما يثير الدهشة أنهم وعلى الرغم من هذا استطاعوا الاستمرار في توريد الضحايا دون توقف. ويؤكد لنا شاهد العيان الذي أسلفنا ذكره أنه في عام ١٧٧٨ كان هناك عشرون وثلاثون وأربعون وأكثر من ذلك من متعهدي توريد الانفجار مقيمين في مدن المقاطعات حيث لم يكونوا معروفين قبل ذلك وكان في امستردام، وهي دائماً محط الاهتمام والانتباه، أكثر من مائتين. ومهمة هؤلاء النخاسين أو «باعة النفوس» تزويد شركة الهند الشرقية الهولندية بحاجتها من العاملين العسكريين والبحريين. وقاموا بالمهمة ذاتها أحياناً لحساب شركة الهند الغربية الهولندية. وإذا تعذر عليهم الحاق ضحاياهم من السذج بإحدى الشركتين، فإنهم يحاولون التخلص منهم بتوريدهم إلى الجيش أو الاسطول أو البحرية التجارية. وفي عام ١٦٣٤ كان قيد الشخص للعمل لدى شركة الهند الشرقية يعني العمل لمدة ثلاثة أعوام بالنسبة لأغلبية البحارة وخمس سنوات للعاملين الآخرين. بعد ذلك أصبح التعاقد على العمل لمدة خمسة أعوام إجبارياً بالنسبة لجميع البحارة مع أجر يتراوح ما بين ستة وعشرة

جلدر. أما الصبية فيتعاقدون على العمل لمدة عشر سنوات.

يتضح لنا مما سبق ومن أدب الرحلات وما أغزرة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر أن حياة الملاح الهولندي بغیضة كريهة قاسية قصيرة - خاصة أولئك الذين عملوا نوتية في شركتي الهند الشرقية والغربية. وطبيعي أن الأمر لم يكن على هذا المنوال دائما فإذا كانت سفن كثيرة عانت من قسوة الرحلات الطويلة بين تكسيل وباتفيا، فإن سفنا أخرى قامت بهذه الرحلات دون أن تخسر انسانا واحدا مع تمتع جميع العاملين بالصحة والعافية. وإذا كان الطعام سيئا في أغلب الأحيان، مع القسوة الصارمة للحفاظ على النظام فإن الغناء كان له دوره الكبير في تخفيف دوافع الوحشية، وثمة رحالة كثيرون كتبوا تعليقاتهم على الأوامر التي تصدر في صورة غناء أو ترنيل وأضحت قسمة للحياة اليومية على ظهر السفن الضخمة المبحرة من وإلى الهند. وساعدت أهازيج البحر على تخفيف عناء العمل على نحو ما قال منتزيل عندما تذكر رحلته إلى رأس الرجاء الصالح. وكان وليم هيكي كالعادة شديد الحماس للغناء الثنائي والقصائد الغنائية «الحزينة الحلوة التي تطابق ذوقي» والتي استمتع بها على ظهر سفينتين من السفن إلى الهند. «لقد كنا نقضي القسط الأكبر من السهرة ضمن مجموعة تغني في تناغم صحيح». وطبيعي أن هاتين السفينتين الهولنديتين كانتا سعيدتين، ولا بد وأن كانت هناك سفن أخرى كثيرة مثلهما.

الباب الرابع

البحار المفتوحة والبحار المغلقة

عندما أصدر بيتر دي لا كور كتابه الشهير «مصلحة هولندا» في عام ١٦٦٢ عنون واحدا من أقصر فصول الكتاب وأكثرها اقناعا بالعنوان التالي: «قبل كل شيء، الحرب، والحرب البحرية أساسا، أشد ضررا بهولندا، والسلام أكثر نفعاً» وكتبت مجلة Hollandtst Mercurius الشهرية في افتتاحيتها لعدد فبراير من العام نفسه أن «المقاطعات المتحدة إذ تزخر بحكام أكفاء، وسكان روعتهم الحروب والقرصنة واستخدام القوة، فرحوا فرحا شديدا حين سمعوا أن ملك فرنسا مستعد لتوقيع معاهدة جديدة معهم. وطبيعي أن تتوق إدارة عموم الولايات إلى السلم نظريا لأنهم حكام أمة تجارية تمخر سفنها التجارية الضخمة عباب البحار السبعة من أركانجل إلى كيپ تاون، ومن أمستردام إلى ناغازاكي، بيد أنهم وجدوا أنفسهم أغلب سنوات القرن السابع عشر متورطين في هذه المنطقة أو تلك من المعمورة. ولعلمهم حين وقعوا معاهدة مونستر في عام ١٦٤٨ ظنوا أن بإمكانهم التطلع إلى فترة مديدة يعم فيها السلام في علاقات المقاطعات المتحدة للأراضي المنخفضة الحرة بالعالم قاطبة. ولكن سرعان ما تكشف لهم أن هذا وهم وخداع. وثمة رسالة بعث بها كاتب من ميشلين Mechelen إلى جوهان دي ويت في ديسمبر ١٦٥٢ بعد فترة غير طويلة من اندلاع الحرب المأسوية المدمرة ضد الكومنولث البريطاني. ويقول صاحب الرسالة في رسالته: إن دولتنا مكروهة هنا كراهية شديدة، وبعد ثلاث سنوات تقريبا أبلغ ريجوف فان جونز مديري الـ ١٧، فور عودته من باتافيا إلى أمستردام: «لا أحد يتمنى لنا الخير في كل جزر الهند، إننا مكروهون كراهية الموت من جميع الأمم.. لهذا فإن من رأيي أن

الحرب ستكون امرا محتوما أن آجلا أم عاجلا.

لقد كانت الجمهورية الهولندية في واقع الأمر تعيش في عزلة دبلوماسية طوال العقد التالي لتوقيع معاهدة مونستر. كانت الدانمرك حليفها الوحيد. ولكن أمما كثيرة، علاوة على البرتغال الكاثوليكية وانجلترا البروتستانتية وماكسار الاسلامية في اندونيسيا ينظرون الى الرخاء التجاري الدنيامي لهولندا والتي توسعها عبر البحار اما نظرة حسد او نظرة خوف. ربما استطاعت الاوليجاركية التجارية الحاكمة في هولندا وزيلاندا ان يعلنوا انهم محبوبون للسلام، ولقد كان لأكور بيشر يقينا بالتحول الذي وقع فعلا عندما دعى الى الحفاظ على علاقات سلام مع الأمم القوية مثل انجلترا وفرنسا مهما كان الثمن وما هو كبير رؤساء مدن هولندا يقول وفي حديثه نذير شؤم عند اندلاع اول حرب انجليزية هولندية: «الانجليز يستهدفون بهجومهم جبلا من ذهب ونحن بصدد مهاجمة جبل من معدن الحديد». ولكن لو أن «أكلة الجبن»، كما اعتاد الأجانب ان يطلقوا على الهولنديين من باب السخرية، أحجموا عن حمل السلاح دفاعا عن النفس عندما هاجمتهم انجلترا في عام ١٦٥٢ وعام ١٦٦٤، وعندما هاجمتهم فرنسا وانجلترا مجتمعتين في عام ١٦٧٢ فإنهم ما كانوا ليرتدوا عن المبادرة بشن الهجوم في اوقات وأماكن أخرى حسب ما يروونه ملائما لهم. علاوة على هذا فإننا حتى إذا افترضنا ان ادارة عموم الولايات او حكام الولايات او مديري شركتي الهند الشرقية والهند الغربية كانوا ينزعون الى السلم لأسباب تتعلق بالدولة أو بالتجارة فسوف يترتب على هذا ان يلتزم مستخدموهم في الهند بالأوامر السلمية لسادتهم. ولكن اولئك الذين تلقوا الضربات منه على الطرف الآخر أقروا، على ما يبدو بصواب الرأي الذي ذهب اليه مؤرخ برتغالي في القرن السابع عشر حين قال: «يبدو ان إله الحرب بعد أن حام حول العالم رأى في النهاية ان يثبت قيادة أركان حربه في هولندا».

وثمة مثال يوضح كيف ان بناء امبراطورية عسكرية عَقْد مسألة الخيار.

بين السلم والحرب بالنسبة للأقلية التجارية الغنية «الاوليجاركية» الحاكمة لمقاطعات المتحدة. ونجد هذا المثال في تقلبات علاقتهم مع البرتغال خلال العقود الثلاثة بعد ان قطعت هذه الدولة روابطها بالتاج الكاستلي Castilian Crown، وذلك انه عند اعلان دوق براجانوا ملكا على البرتغال باسم الملك جون الرابع في ديسمبر ١٦٤٠ كانت لا تزال اسبانيا هي العدو التقليدي لهولندا وكان حكام المقاطعات وعموم الدولة على استعداد للتعاون مع حليف جديد قادر على تحويل الاتجاه عن الجبهة في الفلاندرز. ورحب أيضا بعض تجار امستردام باحتمالات زيادة التجار مع البرتغال نفسها خاصة من أجل تمليح الرنجة. ولم يكن مديرو الشركتين الهنديتين الشرقية والغربية من انصار هذا الرأي اذ اعتقدوا ان من المفيد أكثر اطراد فتوحاتهم على حساب ممتلكات البرتغال في المستعمرات حتى ولو أوجبت الظروف عقد هدنة مع الملك جون الرابع في أوروبا. وثمة مذكرة عرضها مجلس مديري الـ ١٧ على ادارة عموم الولايات في مايو ١٦٤١ زعموا فيها «ان الشركة الموقرة تعاضم شأنها كثيراً بفضل الحرب ضد البرتغاليين، وانهم لهذا السبب ضمنوا الآن احتكار معظم التجارة البحرية في آسيا. وانهم يتوقعون عائدا سنويا متوسطه ما بين سبعة وعشرة ملايين. وإذا ما سمح لهم بالاستمرار على هذا النهج فإن هذا العائد السنوي سوف يزيد بالضرورة، وكدوا بعد هذا انهم إذا أوقفوا حربهم الآن مع البرتغاليين، فإن هؤلاء سرعان ما ترجح كفتهم ويميل الميزان لمصلحتهم ويصبحون منافسين خطرين لنا في مجال التجارة الآسيوية، وإذا ما حدث هذا فإن النتيجة هي انهيار تجارة الشركة والذي سيفضي بدوره الى نقص شديد في شحناتها البحرية ونقص المؤن في الأراضي المنخفضة، وهكذا نجد المقاطعات المتحدة نفسها محرومة من «الكثير من السفن الحربية القوية وسوف يفقد آلاف البحارة والعمال التي تدفعها الشركة. واستطرد مديرو الـ ١٧ مؤكدين انه اذا ما أصرت ادارة عموم الولايات على عقد هدنة مع التاج البرتغالي في أوروبا فإنه يتعين استثناء جزر الهند الشرقية صراحة او ضمنا على نحو ما حدث في هدنة الاثني عشر عاما للأعوام ١٦٠٩-١٦٢١.

ولأسباب مماثلة أبدى انطونيو فان ديمن ومستشاروه في باتافيا تردداً كبيراً إزاء عقد هدنة مع البرتغاليين في آسيا. إذ رفضوا الاقتراحات الأولية التي عرضها نائب ملك جوا. وحاولوا على مدى ثلاث سنوات، وبحجج ومعاذير مختلفة، تجنب الانتهاء من توقيع اتفاق هدنة لمدة عشرة أعوام والذي جرى التفاوض بشأنه في لاهاي في يونيو ١٦٤١، وإذ أردنا أن نعرف موقف الرسميين في شركة الهند الشرقية الهولندية من ادعاءات البرتغاليين في آسيا، سواء أكان هؤلاء على حق أم لا، فإننا نجد هذا الموقف واضحاً في رسالة كتبها مقيم انجليزي في كولومبو. والرسالة تتعلق بنزاع الحدود بين الدولتين في سيلان عقب اعلان الهدنة في نوفمبر ١٦٤٤ والذي جاء متأخراً عن مواعده. يقول الكاتب في رسالته:

«أرسل نائب الملك سفيراً إلى جال Galle مطالباً بتسليمه نيجومبو وفقاً للشروط التي تم الاتفاق عليها بين ملك البرتغال وعموم ولايات الاقطار المنخفضة. ولكن ما يتسوكر الحاكم العام في جول وممثل الشركة الهولندية أبلى السفير بوضوح انه قد بلغه حقا امر من الولايات وأمير آل أورانج بتسليم نيجومبو إلى البرتغاليين. ولكنهم ليسوا مستخدمين لحساب الأمير ولا لإدارة عموم الولايات، علاوة على هذا فإنهم حتى إذا ما تلقوا أمراً بهذا المعنى من شركتهم فلن يسلموها إلا بالقوة ولهذا عاد السفير إدراجه دون أن ينفذ شيئاً مما ذهب من أجله.

أما مديرو شركة الهند الغربية الذين رحبوا أول الأمر بأنباء القطيعة بين البرتغال وإسبانيا في عام ١٦٤٠ فإنهم سرعان ما اتفقوا مع مديري الـ ١٧ في معارضتهم لعقد اتفاق هدنة لوزو-دانش Luo-Dutch في المنطقة الاستوائية. وفي حالة عدم التوقيع على اتفاق سلام راسخ يمكن مديري الـ ١٩ من تعزيز وتطوير مستعمراتهم غير المستقرة في برنامبكو Pernambuco فسوف يكون من الأفضل لهم، حسب رأيهم، مواصلة عدوانهم ضد المستعمرات البرتغالية المتهاوية في البرازيل وغرب أفريقيا. وعندما قررت إدارة

عموم الولايات تحت ضغط الحاكم والسفير الفرنسي، قبول الاقتراح البرتغالي بحقد هدنة لمدة عشر سنوات خارج الحدود وفي أوروبا أيضا كان مديرو الـ ١٩ قد أصدروا أوامرهـم بالنقل إلى حاكمهم العام في برنامبوكو بالاستيلاء على أكبر مساحة ممكنة من الممتلكات البرتغالية قبل سريان الهدنة المقترحة. وأصرروا على خططهم هذه على الرغم من معارضة إدارة عموم الولايات، وبذلك تهيأت الفرصة للكونت جون موريس لتنظيم حملته للاستيلاء على أنجولا، وساو تومي ومارانهاو في وقت كان البرتغاليون انفسهم قد أمنوا من احتمالات أي عدوان من جانب الهولنديين.

ورغبة من مديري الـ ١٩ في تخفيف حدة غضب البرتغاليين بسبب استفزازهم معنويا ان لم يكن قانونيا - نتيجة غزواتهم الأخيرة، فقد استدعى مديرو الـ ١٩ جون موريس وخفضوا بنسبة كبيرة من قوة حامياتهم في البرازيل بعد أن اعلنوا في وقت متأخر، الهدنة هناك في يوليو ١٦٤٢. وشجع هذا البرتغاليين في برنامبوكو للثورة ضد سادتهم الكفرة في يونيو ١٦٤٥. ولقى هذا التمرد تأييدا من البلد الأم سرا أول الأمر ثم علناً فيما بعد. وعندما وصلت أنباء هذا التمرد الى المقاطعات المتحدة، كان طبيعيا ان يعيد مديرو الـ ١٩ الى تحريض إدارة عموم الولايات وشركة الهند الشرقية وحثهما على تجديد النزاعات والحروب ضد البرتغال في أوروبا وآسيا، وأعادوا تجديد طلبهم هذا بقوة أكبر عقب خسارتهم في أنجولا وبنجويلا في عام ١٦٤٨. وترددت إدارة عموم الولايات وانقسمت في الرأي ازاء هذه القضية. ويرجع هذا أساسا الى ضغوط من حلفائهم الفرنسيين ومعارضة تجارة امستردام لارتباطاتهم مع البرتغال في تجارة الملح التي تدر عليهم ربحا وفيرا. وتنازع مجلس إدارة الـ ١٧ رأيان أيضا في بعض الأحيان. ولكن سرعان ما تغلب حماسهم إلى لاقتصاد على نوازع الحرب وعمدوا الى استمرار سريان الهدنة كما كان متفقا عليه لتنتهي في موعدها المقرر في عام ١٦٥٢. وهنا جددوا الحرب مع قدر من لتردد، وأبلغوا إدارة عموم الولايات انهم لجأوا الى هذا لا لشيء إلا لاصرار

وضغوط الدولة ونزولا على ارادتها وليس استجابة لرغبة خاصة بهم اي لمصلحة تعنيهم. وان هذا التحول الكامل والمفاجيء عن موقفهم قبل اثني عشر عاما عندما احتجوا بشدة ضد توسيع نطاق الهدنة لتشمل آسيا ايضا، إنما يفسره ان تجارة البرتغال في آسيا، على عكس مخاوفهم في عام ١٦٤١، لم تنتعش كثيرا خلال سنوات الهدنة، ومن ثم لم يتأثر تفوقهم التجاري في المحيط الهندي ولم تصبه اي اضرار كما كانوا يتوقعون.

وبدا واضحا قبل نهاية عام ١٦٤٦ أن شركة الهند الشرقية التي أشرفت على الإفلاس بدت عاجزة عن مواجهة تمر برنامجكو مما يتعين معه ان تقدم ادارة عموم الولايات مساعدات ضخمة من حيث المال والرجال والسفن. وبعد مفاوضات مضمنة، وافقت هولندا وأمستردام على مساعدة شركة الهند الشرقية وذلك خلال العامين ١٦٤٧-١٦٤٨ مقابل السلام بين زيلاندا واسبانيا. ولكن الأزمة بين المقاطعات تجددت في عام ١٦٤٩ بعد أن بدا واضحا ان الشركة ستكون بحاجة إلى المزيد من المساعدات. وهنا قررت ادارة عموم الولايات ارسال اسطول لحاصرة تاجوس لارغام الملك جون الرابع على الاندحار لمطالبهم بشأن رد ما خسرت شركة الهند الشرقية في البرازيل وانجولا. ورفضت زيلاندا التصديق على اتفاقية التعويض التي تم توقيعها مع الدانمرك في اكتوبر ١٦٤٩ وهي الاتفاقية التي تهم امستردام بوجه خاص بسبب التجارة عبر الساوند. وأصرت زيلاندا على عدم التوقيع ما لم توافق هولندا على تنفيذ قرار ادارة عموم الولايات. وغضبت هولندا لموقف امستردام. ومن ثم رفضت توفير السفن والمال اللازمين للحملة البرتغالية المتوقعة ما لم تصدق زيلاندا أولاً على الاتفاقية وهنا رفضت هولندا ان تدفع نصيبها ما لم تدفع جميع المقاطعات أنصبتها وكذلك المتأخرات التي تمثل ديونا عليها مقابل الدعم المالي الذي تلقتة شركة الهند الشرقية منذ عام ١٦٣٠. وهذا ما لم يكن بمقدورهم. ونظراً لاندلاع الحرب مع انجلترا في مايو ١٦٥٢ فقد بات من غير العملي اتخاذ أي اجراء عنيف جديد ضد لشبونة أو البرازيل.

وبعد ثلاث سنوات من ضياع برنامج بوكو في عام ١٦٥٤ استطاعت أخيراً إدارة عموم الولايات اقناع هولندا بالموافقة على ارسال اسطول لمحاصرة ناجوس ومطاردة البرتغاليين. بيد ان تدخل الدبلوماسيين الانجليز والفرنسيين لمصلحة البرتغال سرعان ما هيا لهولندا مبرراً مقبولاً لتجديد معارضتها للحرب والاصرار على استئناف المفاوضات مع مبعوث البرتغال في لاهاي في عام ١٦٥٨. وبغض النظر عن احكام اتحاد أوترخت التي تنص على أن جميع مثل هذه الأمور يتعين الاتفاق بشأنها جماعياً، عمد مندوبو هولندا، برئاسة جوهان دي ويت الى النرويج داخل إدارة عموم الولايات لكسب تأييدها لعقد معاهدة سلام على الرغم من معارضة زيلاندا الشديدة وتصدى كل من جلدرلاند وجرونيجن في العامين ١٦٦١-١٦٦٢.

وإذا تأملنا موقف هولندا، وكذلك موقف امستردام بوجه أخص تجاه مشكلة لوزو - البرازيل خلال الأعوام ١٦٤١-١٦٦١، لاتضح لنا بجلاء كبير ملاحظة سير جورج داوونج والتي تضمنتها رسالته الى حكومته في عام ١٦٦٤: «لديكم ميزات لا نهاية لها ازاء حكومة هذا البلد التي هي كيان منهار ومنقسم. وعلى الرغم من أن بقية المقاطعات تصوت لمصلحة هولندا. ولا تملك زيلاندا ما يمكن ان تفعله إلا النزر اليسير بسبب فقرها الشديد، أما المقاطعات الأخرى فإنها لا تستطيع ولا تريد.» وقبل هذا بأربعة عشر عاماً أعرب مبعوث البرتغال في لاهاي عن هذه الحقيقة نفسها بصورة أقوى وذلك عندما أبلغ حكومته: «إذا كانت هولندا تريد السلام فإن هذا يكفي وزيادة لضمانه، وإن موافقة امستردام وحدها سوف تكفي، ذلك لأنه بقدر ما كانت جمهورية هولندا تعاني، كانت امستردام هي التي تدفع الثمن ومن ثم يحرص الحكام على مسايرتها.

ومن الواضح ان الطبقات الحاكمة في هولندا وامستردام حين أعربت عن عزوفها عن الحرب انما كانت تحركها الاعتبارات الاقتصادية قبل مبادئ السلام الخالصة على نحو ما يبين لنا من التزامهم بمبدأ القوة حينما رأوا أن التجارة الأساسية في بحر البلطيق تهددها هذه السلطة أو تلك من سلطات

دول الشمال. إذ على النقيض تماما من احجام امستردام عن ارسال اسطول لحصار تاجوس في السنوات ١٦٤٥-١٦٦١، كانت هي المحرك والمحرض الاول في الدعوة إلى إرسال عدة اساطيل هولندية الى منطقة الساوند خلال الفترة ذاتها. واستهدفت هذه القوة البحرية ارغام الدانمرك والسويد بالتبادل على عدم التعرض للملاحة في الساوند او التفكير في اغلاق المنطقة او ارغام السفن الهولندية على دفع أكثر مما يريد اصحابها. وحيث ان هذه حقبة الامبريالية السويدية لذا كانت السويد هي الخصم الحقيقي او المحتمل بعد عام ١٦٥٠. والملاحظ انه عندما هدد شارل العاشر، خلال حديث له مع المبعوث الهولندي بأنه سيفلق البلطيق في وجه السفن الهولندية رد عليه كومزاد فان بوننجن بأنه رأى مفاتيح الساوند الخشبية ملقاة في ميناء امستردام. وفي عام ١٦٤٥ قام أصحاب السفن المغامرون في امستردام بتزويد كل من الدانمرك والسويد بسفن حربية لاستخدامها في الحرب الدائرة آنذاك بين الناجين ولكن حين زادت قوة السويد، وضعت الدانمرك، بدأ استخدام القوة البحرية الهولندية لمساندة الدانمرك فيما بين ١٦٥٨-١٦٦٠ ثم مرة أخرى خلال الفترة من ١٦٧٥-١٦٧٨.

ونظراً لأن هولندا كانت تملك اعظم ناقلات بحرية في العالم على مدى قرن أو يزيد، لذا بادرت بمطالباتها بمبدأ حرية البحار. وفي ١٥ مارس ١٦٠٨ مررت ولايات هولندا قرارا سرياً يقضي بانها لن تتخلى عن مطلب حرية البحار في أي مكان وفي جميع انحاء العالم لا بشكل كامل ولا بشكل جزئي لا مباشرة وعلى نحو غير مباشر». وحثت هولندا ادارة عموم الولايات على تبني الموقف نفسه، مما اضطر الادارة في عام ١٦٤٥ إلى أن تعلن «ان وجود الدولة ورفاهيتها وسمعتها رهن بالملاحة والتجارة البحرية». وليس أيسر من أن نعدد الكثير من الأمثلة الدالة على الوعي العام والخاص بأن سكان جمهورية هولندا يشعرون بضرورة المكابدة والكفاح ضد أي قيد على الملاحة الحرة، وضرورة الاحتفاظ بحق الملاحة في جميع البحار، والصيد عند جميع

السواحل، والتجارة مع جميع الأمم وحماية حقوق القوى المحايدة في زمن الحرب، وتعريف السلع المحظورة في أضيق حدود ممكنة.

وغني عن البيان أن هذه المتطلبات لم تكن تتطابق دائماً وأبداً مع متطلبات الأمم الأخرى، ومن ثم نشبت على سبيل المثال نزاعات مع الدانمارك بشأن سداد الرسوم المفروضة على الملاحة في الساوند، ومع إنجلترا بشأن المصايد العظمى ومزاعم إنجلترا بشأن السيادة على البحار المحدودة Narrow Seas. ولكن النزاعات كانت تشتد بشأن حقوق الملاحة المحايدة وتعريف معنى السلع المحظورة. وقد دافع الهولنديون عن مبدأ «سفن حرة وبضائع حرة» ويقضي بإعفاء شحنات السفن المحايدة وعدم تعرض الدول المتحاربة لها سواء بالاستيلاء عليها أو احتجازها، إلا إذا كانت هذه الشحنات تشتمل على أسلحة محظورة أو ذخائر للحرب. ومن الواضح أن عبارة «سلع محظورة» عبارة غامضة، ولذلك نلاحظ أن إدارة عموم الولايات حرصت على كل المعاهدات التي وقعتها مع أمم بحرية أخرى ابتداءً من ١٦٤٦ على تعريف هذه العبارة في أضيق الحدود مع استبعاد المؤن الغذائية والمعادن ومخزونات السفن وغير ذلك من سلع. وحاولوا أيضاً جاهدين تقييد حق التفتيش وفحص وثائق السفن وحظر تفتيش شحنات السفن إذا ما تأكدت سلامة هذه الوثائق. ولجأ الهولنديون كثيراً إلى نظام سفن الحماية. المرافقة للسفن التجارية، خاصة في البحر المتوسط وفي بحر البلطيق وذلك لحماية سفنهم التجارية خشية تعرض السفن الحربية الأجنبية لها في البحار الأوروبية. وأرسلوا كذلك سفناً حربية لمقابلة أساطيل شركة الهند الشرقية والغربية المتجهة إلى الوطن أثناء عبورها القنال الإنجليزي أو عند شيتلاند.

وقد لا يكون ضرورياً أن نكرر القول بأن الدعوة إلى حرية التجارة الدولية بعامية وحرية البحار بخاصة، لم تكن إلا تعبيراً عن مصلحة ذاتية فقط عندما دعت إليها أولاً وأساساً الأوليغاركية التجارية في هولندا وزيلاندا.

لقد كانوا مقتنعين، ربما على حق الى حد ما خلال القرن السابع عشر، بأنهم سيكونون قادرين على الاحتفاظ بنصيب الأسد في مجال النقل البحري الأوروبي طالما سادت المجال النزاهة والنصفة. وشاركهم الرأي كثيرون من منافسيهم خاصة الانجليز الذين كانوا مقتنعين أغلب الوقت بأن الهولنديين سيسعون دائماً للمزايدة أو المناقصة عليهم في أي أسواق تضم الفريقين على قدم المساواة. ونذكر هنا ما قاله كلارندون في رسالته الى داوننج اثناء المفاوضات التي جرت في لاهاي عام ١٦٦١. «أولى بسيدنا الملك الا يتحمل ان يحظى الهولنديون بمزايا متكافئة معه في مجال التجارة.»

ومن ناحية أخرى لم يتمهل الهولنديون في التخلي عن مبادئهم بشأن حرية التجارة إذا ما لاءمهم هذا. أو إذا ما ظنوا أن بالامكان الحفاظ على احتكار مريح لهم. وهذا ما أشار اليه داوننج صادقاً عشية الحرب الانجلو-هولندية الثانية حين قال: «إنها بحار مفتوحة في البحار البريطانية ولكنها بحار مغلقة على ساحل افريقيا وفي جزر الهند الشرقية». وربما بإمكانه ان يضيف الى ذلك القول بأن الهولنديين يتادون بالبحار المغلقة كلما اقتربوا من أرض الوطن. لقد أبقوا مصب شلدت مغلقا أمام الملاحة الأجنبية منذ معاهدة مونستر في عام ١٦٤٨، خشية ان تستعيد مقاطعة انتويرب مجدها البحري القديم على حساب امستردام. وخلال المفاوضات الفاشلة، من أجل عقد حلف انجلو-هولندي في عام ١٦٥٠، اقترح الهولنديون: «أن جميع البضائع التي تخص عدوا وتوجد على ظهر سفينة صديق ينبغي اعتبارها حرة، وجميع البضائع التي تخص صديقا ولكنها محمولة على ظهر سفينة عدو ينبغي اعتبارها غنيمة ... والبضائع الوحيدة المستثناة هي بضائع البرتغال المحمولة من أوروبا إلى آسيا وأفريقيا وأمريكا او بالعكس، ذلك لأن تلك التجارة مخصصة لنقلها بسفن انجليزية. وهذا نموذج لمن يريد امتلاك الكعكة ثم يأكلها وحده. ولكن الهولنديين تخلوا عن مبادئهم بشأن حرية التجارة، وكشفوا عن أنفسهم كاحتكاريين ومضاربين أشداء. في البحار التي

تخضع لسيطرة شركة الهند الشرقية ذات الشهرة الواسعة.

وكلمة سيطرة هنا هي المنطوق الاجرائي، إذ على الرغم من أن نطاق نشاط شركة الهند الشرقية الهولندية امتد من رأس الرجاء الصالح الى اليابان، إلا ان الهولنديين استطاعوا في مناطق معينة فقط أن يمارسوا احتكارا حقيقيا فعلا لفترة طويلة. ونجد عرضا طيبا لموقفهم في الشرق في «التعليمات العامة» التي جمعها مجلس ادارة الـ ١٧ ليسترشد بها الحاكم العام لباتافيا ومجلسها في عام ١٦٥٠ وقد حلت هذه الأوامر محل الأوامر السابقة عليها في الأعوام ١٦٠٩ و ١٦١٧ و ١٦٢٢ وظلت سارية المفعول حتى نهاية حكم الشركة على الرغم من أن أغليبتها لم تعد لها أي قيمة عملية قبيل عام ١٧٩٥. إلا انها تعطينا فكرة عن الحوافز التي انعشت المديرين، وعن التمايز في نظرهم بين المناطق التي يمكن للشركة أن تهدد فيها باستخدام القوة وبين المناطق التي يتعين عليها فيها أن ترتدي قفازا من حرير. واعترف مجلس ادارة الـ ١٧ صراحة بأن تجارة الشركة في آسيا يمكن تقسيمها الى ثلاث فئات. أولاً، التجارة في مناطق تتمتع فيها الشركة بسيطرة اقليمية مطلقة وفقا لحق الغزو أو التنازل. وفي عام ١٦٥٠ كانت هذه المناطق قاصرة على عدد قليل من الجزر في ملقا، وعدد متناثر من المستوطنات التجارية الحصينة مثل تلك التي اقيمت في باتافيا (جاوه) وفي الملايو وفي الهند وزيلاندا (فورموزا). ثانيا، مناطق تتمتع فيها شركة الهند الشرقية الهولندية وحدها بحقوق المتاجرة بناء على عقود احتكار تمت بعد التفاوض (تحت الضغط والاكراه والتهديد عادة) مع حكام المنطقة المحليين مثل سلطان ترنات Ternate وزعماء أمبوينا Amboina. ثالثا، المتاجرة مع حكام الشرق، وعلى أساس اتفاقيات حرة ثم التفاوض بشأنها، وكذلك على أساس الانجاز الحر المباشر مع تجار جميع الأمم الأخرى».

والجدير بالذكر أنه على الرغم من أن الصنفين الأخيرين اتسع نطاقهما

كثيراً بعد عام ١٦٥٠ نتيجة استيلاء الشركة على ميناء ماكاسار في أندونيسيا وساحل سيلان ومليبار. وكذلك نتيجة المكاسب الإقليمية إثر حروب جاوة في القرن الثامن عشر إلا أن الصنف الثالث، حيث افتقدت الشركة فرص تأمين احتكار تجاري، كان دائماً هو الأهم. بل يمكن القول إنه حتى عندما بلغت الشركة ذروة مجدها وسطوتها، كانت السلع الوحيدة التي يمكن لها أن تحتكرها بصورة فعالة هي القرنفل وجوزة الطيب «والميس» وهو تابل مستخرج من قشرة جوزة الطيب الذي تنتجه ملقا، ثم القرفة من سيلان. أما فيما عدا هذا من سلع - الفلفل الأسود والحريير والاقمشة والسكر والبن والشاي - فقد اضطرت الشركة الى مواجهة منافسة شرسة سواء بالنسبة لشراء هذه السلع في آسيا أو بالنسبة لاعادة عرضها للبيع في الأسواق الأوروبية والآسيوية، وأكثر من هذا في اليابان، حيث كان الهولنديون هم التجار الأوروبيون الوحيدون المسموح لهم بالتجارة مع اليابان منذ ١٦٢٩ إلى ١٨٥٤، اضطروا الى الدخول في منافسة مع تجارة صينية واسعة الانتاجية. وعجزوا عن التحكم في سوق ناجازاجي والافادة به لمصلحتهم. نعم لقد استطاعوا احتكار الاتجار في بعض أنواع التوابل لفترة من الزمن، ولكنهم اضطروا الى الدخول في منافسة مع الأمم الأخرى من أجل شراء الاقمشة الهندية والتسيج الهندي الذي يدفعونه مقابل التوابل. بعبارة أخرى نلاحظ ان تجارة الشركة في منطقة من المناطق لم تكن تحدها سلعة واحدة بل منتجات كثيرة، بعضها بعيد عن سيطرتها الاحتكارية.

وشدد مجلس ادارة الـ ١٧ على ضرورة الحفاظ على وجودهم الاحتكاري في مولوكا Moluccas مع استخدام القوة المسلحة إذا اقتضت الضرورة. ولكنهم كانوا يستنكرون استخدام القوة في مجالات أخرى خاصة في «الاماكن المحايدة التابعة للبلدان الحرة حيث تسود القوانين ولا نكون بحاجة الى استيرادها». واعتادوا ان يذكروا مستخدميهم في الشركة الشرقية بأنهم في مثل هذه الاماكن لم يكن لهم الحق في الاستيلاء على التجارة سالفة الذكر وفقاً

لافكارنا وان نجبر مثل هذه الأمم بقوة السلاح؛ تماما مثلما ان الشركة لا يسعها ان تسمح للأمم الأخرى ان تضع القانون الذي يحدد كيفية الاتجار في اماكن تخضع لولايتها». وأكدت التعليمات الصادرة في عام ١٦٥٠، مرة أخرى، على الحاجة الى معاملة سكان امبوينا معاملة تتسم بالنزاهة والاعتبار في الوقت الذي ننتزع منهم خضوعا كاملا والتزاما صارما بتعهداتهم بشأن توريد القرنفل. ومواطنو فورموزا الذين كانوا دائما شعبا حرا لا بد وأن يظلوا على ولاء للشركة عن طريق معاملتهم معاملة حسنة دون ارهاق للفقراء بضرائب باهظة. وان النوايا الطيبة للحكام الآسيويين الاقوياء مثل شوجان اليابان وشاه فارس يتعين ترسيخها بفضل السلوك القائم على المصالحة والتوفيق من جانب مستخدمي الشركة في تلك البلدان. ويصدق هذا بخاصة في اليابان حيث كانت الأوامر الصادرة اليهم تطالبهم بالنظر الى رغبات تلك الأمة الجريئة المترفعة بغية أرضائها من جميع النواحي». ولهذا السبب يجب أن يذهب الى هناك فقط «الأشخاص المتواضعون المهذبون الودودون» وتبدت طبيعة هذه التعليمات في الأمر الذي يقضي «بضرورة الاهتمام، بشكل خاص، من أجل تنشيط التجارة بطرق سلمية في كل أنحاء آسيا. لأنها الوعاء الذي يحفظ المواد اللازمة لمطبخ أرض الآباء».

ونجد هذا التأكيد على التجارة السلمية وعلى الأرباح الفعلية أو المحتملة هو الفكرة الثابتة في مراسلات مجلس إدارة الـ ١٧ خاصة اذا ما ثبت عن يقين ان الحروب التي يشنها مستخدموهم في الشرق باهظة التكلفة، ففي عام ١٦٤٤ استنكر مديرو غرفة دلفت Delft Chamber الاصابات الفادحة والنفقات الباهظة التي تسببت فيها الحملات العسكرية في ملقا وسيلان، وقالوا «خير للتاجر ان يضاعف مواهبه ويرسل شحنات غنية من آسيا الى الأراضي المنخفضة بدلاً من انفاذ غزوات اقليمية باهظة التكلفة التي هي ملائمة لأصحاب التيجان وجبابرة الملوك أكثر من التجار الذين يعينهم نهم الربح». ولكن الناس في الموقع غالبا ما يكون لهم رأي آخر. فهي هو انطونيو

فان ديبمن ومجلسه يعلنون نظرياً انهم يتفقون في الرأي مع غرفة دلفت ولكنهم يضيفون قوله: «هناك فارق كبير بين العام والخاص، وبين نوع من التجارة ونوع آخر. لقد علمتنا الخبرة اليومية ان تجارة الشركة في آسيا لا يمكن لها ان تبقى دون غزوات اقليمية» وحين التزم فان ديبمن بهذا الخط الداعي الى الحرب فإنه كان يردد اقتناعات جان بيترز كويين مؤسس باتافيا، الذي أكد لمجلس ادارة الـ ١٧ في عام ١٦١٤ هذا المعنى حين قال لهم: «سوف تعرفون فخامتكم عن طريق الخبرة ان التجارة في آسيا لا بد وان تجرى وتبقى في حماية وفضل أسلحة فخامتكم انتم دون غيركم، ولا بد من دفع نفقات السلاح من أرباح التجارة، ولهذا لا يمكننا ان نتاجر دون حرب، ولا ان نحارب دون تجارة». وبالمثل نجد ريجكوف فان جونز في تقريره عن عام ١٦٥٥ (ص ٨٤) يؤكد أن «الشعارات المسيحية» التي ضمنها المديرون في تعليماتهم لعام ١٦٥٠ أسىء فهمها أو تفسيرها من جانب السلطات الآسيوية المعادية واعتبروها علامة ضعف. وقال ان هذه السلطات كانت غيورة في الاساس من الهيمنة البحرية المعقودة للشركة ولم يتمنوا إلا خرابها.

وعندما وقعت خلافات في الرأي بشأن السياسة بين مجلس ادارة الـ ١٧ في الوطن وبين الحاكم العام ومجلسه في باتافيا، كانت لدى الطرف الثاني بطبيعة الحال ميزة عندما كانت هناك شخصيات قوية مثل كوين، وفان ديمين وريجكوف فان جوينز وسبيلمان وشغلوا المناصب الرئاسية في «ملكة بحار الشرق» واستغرق الأمر حوالي ثمانية عشر شهراً، أو سنتين للحصول على اجابة من امستردام أو ميدلبرج فيما يتعلق بمسار العمل الذي بداته باتافيا. وكان من اليسير نسبياً على الحاكم العام والمجلس في ظل هذه الظروف إرغام مجلس الـ ١٧ ولّى ذراعه. ووجد القسيس فرانسوا فالنتين انه خسر في عام ١٧٠٦ إذ عرض على المدير العام في باتافيا امرا كتابيا من مجلس ادارة الـ ١٧ حين أبدى بشأن هذا الموظف ملاحظة سافرة قائلاً له: «المديرون في أرض الوطن يقررون اموراً يرونها هي الأفضل لهم وهم هناك، ولكننا هنا

نعمل ما نراه نحن الأفضل والأصوب لنا هنا. «بعبارة أخرى فكانه يقول وهو الهولندي ما يقوله المثل الاسباني «أطيع ولا أنفذ» وهو المثل الذي اعتاد ان يردده نواب الملك في المكسيك وبيرو وهم يلقون على الرف أوامر منريد التي لا تلائمهم، وكانت لدى سلطات باتافيا ميزة أخرى حيث أنه بعد عام ١٦٥٠ تقريباً لم يخدم في آسيا سوى عدد قليل جداً من المديرين أو أنهم في الحقيقة لم يبدوا أي اهتمام كبير بالحالة السياسية هناك. وبهذا كان اعتمادهم على مشورة ومعلومات مندوبيهم عبر البحار أكثر مما كان ملوك اسبانيا والبرتغال، على سبيل المثال، إذ كانت مجالسهم في الهند يشغلها أساساً حكام ومديرون بحكم مناصبهم قبل الاستعمار، ويساعدنا هذا على تفسير السبب في أن المديرين على الرغم من انتقادهم أحياناً لسياسات القوة التي بدأها رجال من أصحاب النظرات التوسعية، ينتهون عادة إلى قبول الأمر الواقع، أو يرسلون السفن والرجال والمال استجابة لما طلب منهم. واطردت هذه السياسة بطبيعة الحال عندما أفضت الى نتائج ملموسة على نحو ما حدث عقب غزو كوين لجاكرتا (١٦١٩) أو احتلال سيلمان لبانتام (١٦٨٤). ومن ناحية أخرى كان المديرون أحياناً يلغون سلطة رؤسائهم وتكون لهم الهيمنة كاملة. إذ عندما أيد الحاكم العام والمجلس في باتافيا السماح لملك كاندي بالاتجار في حرية من موانئ الساحل الشرقي لسيلان خلال الأعوام من ١٦٩٦-١٧٠٣ قلب مجلس إدارة الـ ١٧ هذه السياسة إلى عكسها تماماً، مثلما انتقدها الحاكم الهولندي في كولومبو، وأمروا باغلاق جميع موانئ الملك أمام التجار الأجانب في عام ١٧٠٣.

ويجب أن نشدد ثانية على أن مجلس إدارة الـ ١٧ لم يكن دائماً وأبداً وفي كل مجال معارضاً لاستخدام رؤسائه القوة في الشرق، وإنما عارضها فقط في الأماكن التي يظن المديرون انها ستكلفهم ثمناً باهظاً، أو سيجدون صعوبة كبيرة لكفالة واستمرار نظام احتكاري مربح لهم بهذه الطريقة. ولقد كانوا منذ عام ١٦١٤ عاقدين العزم تماماً على اتخاذ أعنف الخطوات في سبيل كفالة

مثل هذا الاحتكار في جزر التوابل ضد جميع الوافدين، سواء كانوا تجارا برتغاليين أم اسبانيين أم انجليز أم صينيين أم اندونيسيين. واتفقوا في الرأي مع كوين وهو أن من الميثوس منه في هذه المنطقة محاولة ايجاد موضع قدم وتحسين مركزهم فيها استنادا الى «التزام الفضيلة وفعل الخير فقط» وانما من الضروري «ملاحقة المواطنين بمهماز حاد وقاس». ومن المسلم به أنهم أحسوا بداية بالخوف الشديد بسبب الأنباء التي وردت عن إبادة لسكان جزر باندا في عام ١٦٢١، ولكن سرعان ما كشفوا عن رضاهم عن هذه السياسة وقنعوا بتوجيه لوم خفيف له. وتجاهل المديرون الـ ١٧ - أو أغلبيتهم إذ لم يكونوا على رأي واحد دائما - نصيحة بعض رفاق كوين الذين لم تعجبهم قسوته وراوا أن الأساليب الأقل عنفا أقدر على تحقيق نتائج أفضل. وزعماء هذا الاتجاه في التفكير كل من لورنز راييل وستيفن فان دير هاجن. وأكد الاثنان ان الشركة ليس لها حق ارغام مواطني ملقا على بيع التوابل للهولنديين وحدهم دون سواهم ما لم يمدهم الهولنديون بدورهم بما يكفيهم من واردات غذائية وأقمشة بأسعار معقولة. وقال راييل في هذا الصدد (٢٠ أغسطس ١٦١٨) «نحن أنفسنا نحضر كميات غير كافية من السلع التجارية الى ملقا، ونمنع غيرنا من أن يأتوا بما يكفي منها. وإن السكان لا يمكنهم جمع أي كمية من القرنفل بسبب التكلفة العالية لاستيراد المواد الغذائية وهو ما يجبرهم على زراعة محاصيل غذائية بدلا من القرنفل. وإن دقيق الساغو Sago الذي كان يورده لهم سابقا أهل جاوة بخمس سعره الحالي باتوا يستوردونه بأنفسهم عبر مسافات طويلة. وبات لزاما عليهم ان يشتروا منا وبأسعار مرتفعة الأقمشة الهندية (على رداءتها) وهي لا تساوي هذا الثمن ولكن لكي يذهبوا لقطف القرنفل (وهو عمل شاق وخطر). علاوة على هذا فإننا نتشبت بأرباحنا ومصادر كسبنا حتى لا نسمح لأي أحد غيرنا بأن يتكسب ولو ربع درهم.

ولكن كوين وأغلبية أعضاء مجلس ادارة الـ ١٧ راوا أن الهولنديين

مخولون لاحتكار مشتريات القرنفل وجوزة الطيب بالأسعار التي يحدونها بأنفسهم. ولأنفسهم مقابل «الحماية» التي هيؤها لأبناء الجزر ضد البرتغاليين والأسبان. واسقط هذا الرأي واقع ان احتكار الهولنديين للتوابل تحول شريعا الى عبء على كاهل أبناء الجزر أكثر مما كان على نظرائهم الأسبان والبرتغاليين. وسبب ذلك من ناحية ان الهولنديين دفعوا أسعاراً متدنية، ومن ناحية ثانية لأن احتكارهم كان مفروضا على نحو أكثر عنفا وقوة. واكد رايل وفان دي هاجن ان العقاب ما كان ينبغي أن يطبق على رؤساء وشيوخ أندونيسيا الذين وقعوا، تحت التهديد والاكرام، عقودا مجحفة بهم ولم يكن باستطاعتهم الوفاء بها حتى لو أرادوا. واكدوا ان من الأفضل للهولنديين على المدى الطويل ان يقتنوا بمبيعات كثيرة وأرباح قليلة بدلاً من الإلحاح في السعي من أجل احتكار قاس وقهري يقضي الى مبيعات قليلة وأرباح كثيرة. زيادة على هذا انه بينما كان رايل وفان دي هاجن على التقيض في التطرف من ناحية اخرى من حيث الاستعداد لاستخدام القوة ضد منافسيهم الانجليز في ملقا، الا انهما ترددا في التخلي عن هذا النهج خشية ردود افعال غير مواتية بالنسبة للعلاقات الانجليزية الهولندية في أوروبا وهي إمكانية لم يكن يعبا بها كوين. وأخيراً رأى رايل وفان دي هاجن انه قد يكون من الظلم والغفلة استبعاد التجار الآسيويين سواء من الصين ام الملايو أم جاوة بالقوة عن ملقا. وهو ظلم لأن العقود القائمة لا تنص على مثل هذا الاستبعاد، وبعيد عن الحكمة لأن مثل هذه السياسة قد تدفع أبناء الجزر الى الارتقاء في احضان المنافسين الأوروبيين وتزيد تجارة الملايو وجاوة بدلاً من تدميرها.

وعلى الرغم من أن حجج رايل وفان دي هاجن لقيت بعض التأثير بين المديرين إلا أن أغلبية مجلس ادارة الـ ١٧ وافقوا على السياسة العدوانية التي دعا اليها كوين وهنريك برووير. وكتب كوين الى المديرين يقول: «لا شيء في العالم يعطي للمرء حقاً أفضل من السلطة والقوة حين يكونان سندا للحق».

وعندما تلقى الإذن من الشركة باستخدام القوة لمنع أبناء جاوة وغيرهم من الآسيويين من التجارة في ملقا، أعرب كوين عن ارتياحه (١٠ نوفمبر ١٦١٧) وأضاف قائلاً: إن دروس الطبيعة وتجارب جميع الشعوب من عصر الى عصر كانت دائماً كافية لي.. وإذا كان المديرون على استعداد لاستخدام القوة في ملقا وترددوا عن استخدامها في أماكن أخرى فإن أحد أسباب ذلك أن الحكام المحليين لم يكونوا يملكون سفناً حربية أيا كانت قوتها، وأن المقاطعات التي تنمو فيها التوابل تمتد على السواحل ومن ثم تقع على مرمى مدافع الاسطول الهولندي. كذلك كان سكان جزر التوابل يعتمدون على استيراد الأرز والأقمشة القطنية وغير ذلك من ضروريات الحياة من جاوة والملايو والهند، ولهذا لم يكونوا في وضع يسمح لهم بالانتقام من الهولنديين لأخطاء حقيقية أو متوهمة، على نحو ما كان الحال، على سبيل المثال بالنسبة للممالك القوية في داخل قارة آسيا. علاوة على هذا ظلت تجارة التوابل زمناً طويلاً ينظر إليها باعتبارها الهدف الأساسي لنشاط الشركة في جزر الهند الشرقية، وباعتبارها المصدر الفعلي أو المحتمل لأرباحها الكبيرة. ومن هنا عمد مجلس إدارة الـ ١٧ إلى الوقوف بحماس لمساندة التصرف العدواني في ملقا في الوقت الذي يستنكرون فيه أو يحذرون استخدام الحرب العدوانية في أماكن أخرى.

ومع هذا، وكما تنبأ رايل وفان دي هاجن، فإن الصراع من أجل السيطرة الكاملة على محاصيل توابل ملقا امتد لسنوات طويلة وأثبت أنه فادح التكلفة من حيث الخسائر في المال والأنفس. ولم ينته الصراع إلا في عام ١٦٨٤ بعد أن سقطت ملقا وماكاسار وبانتام في أيدي الشركة، وانعدمت التجارة والسفن الاندونيسية في جزر التوابل، وما ترشّب على هذا من نتائج قاسية على ظروف حياة سكان هذه المناطق واقتصادهم. وفي عشرينيات القرن السابع عشر حدث أمران: استتصال شأن السكان الأصليين في جزيرة باندا أو ترحيلهم للعمل عبيداً أو جنوداً. وعندما وقعت مذبحة في عام ١٦٥١ راح ضحيتها ١٦٠ هولندياً، من بينهم كثير من النساء والأطفال، في سيرام الغربية، شن

الهولنديون نتيجة لهذا، سلسلة من الحملات التأديبية بلغت ذروتها في اجبار حوالي ١٢٠٠٠ نسمة على النزوح بالقوة من قراهم واستوطنوا في امبويينا ومانيبيا. وتم فرض احتكار التوابل بالقوة في ملقا عن طريق ما عرف باسم Hongi-Tochten ، وهي حملات بحرية دورية مسلحة تشنها السفن الحربية أو ما سمي Cora-Coras التي تدمر جميع مزارع القرنفل غير المرخصة. ومن الأمور القابلة للجدل ببيان الى انني أخذ أقواد احتكار التوابل الشركة تجاريا بعد أن تحقق لها ما أرادت. فإذا كانت قد حققت أرباحا كبيرة مقابل بيع بعض التوابل في الأماكن، وفي أوقات بذاتها، إلا أن تلك المناسبات أخرى قلت فيها أرباح الشركة وربما انعدمت تماما - ناهيك عن أن تكلفة استخدام القوة لفرض الاحتكار وما اقتضاه هذا من بناء أساطيل وقلاع حصينة وحاميات عسكرية ابتلعت جميع الأرباح على المدى الطويل بيد أن هذا أمر لا سبيل الى التاكيد منه نظرا لتعقد أسلوب الشركة في مسك دفاتر حساباتها الأمر الذي منع مجلس الـ ١٧ من أن يحسب بدقة النفقات الحقيقية أثناء وجود الشركة. وهذا على أية حال فرض مقبول.

والملاحظ ان العلاقات بين سلطات شركة الهند الغربية فيما وراء البحار وبين المسؤولين عن الشركة في الأراضي المنخفضة كانت مختلفة عن تلك العلاقات السائدة في الشركة التوأم خاصة بعد استدعاء كونت جون موريس واندلاع ثورة برناميكو في العامين ١٦٤٤/١٦٤٥. ولقد كان جون موريس يطبق القانون ولو على نفسه، إلا أن خلفاءه في البرازيل وغيرها كانوا أكثر خضوعا لسلطان مجلس إدارة الـ ١٩ على عكس الحال بالنسبة له، وذلك بسبب نشاته كامير ونفوذ بلاط حاكم الدولة. وبعد عام ١٦٤٥، وبسبب الديون المالية لشركة الهند الغربية واعتمادها الكامل على معونات الدولة. أصبح مجلس إدارة الـ ١٩ وعلى مدى أكثر من عشر سنوات أشبه بالملوك جيئة وذهابا بين مقاطعتي هولندا وزيلندا المتنافستين. وحتى بعد إعادة تنظيم الشركة في عام ١٦٧٠ أصبحت نشاطاتها سواء على الساحل الافريقي

الغربي أو الكاريبي خاضعة لسيطرة المستولين في هولندا أكثر مما هو الحال بالنسبة لنشاطات شركة الهند الشرقية. ويرجع ذلك جزئياً إلى أن المسافات الفاصلة ليست بعيدة جداً، كما يرجع من ناحية أخرى إلى أن شركة الهند الغربية وهي الأفقر حالا عجزت عن اتخاذ النهج الأقوى والأكثر استقلالا الذي اتخذته غالباً شقيقتها الغنية.

ومن ناحية أخرى فإذا كانت الأقلية الغنية الحاكمة من التجار الأوليغاركية التجارية في الأراضي المنخفضة، وخاصة امستردام، ساندوا عن كره منهم، شركة الهند الغربية في أزمته الممتدة على مدى الأعوام ١٦٤٤-١٦٦١ بسبب اهتمامهم أكثر بتجارة الملح في البلطيق، فإنهم قدموا لمجلس الـ ١٩ مساعدة أكثر ايجابية في مناسبات أخرى عندما رأوا أن الأمر يتعلق بالمصلحة القومية وكذا بثورة الشركة. وإن المفاوضات المتعثرة من أجل عقد هدنة مع أسبانيا في الأعوام ١٦٢٩-١٦٣٣ توقفت أساساً بسبب رفض إدارة عموم الولايات التنازل عن (أو تبادل) فتوحات شركة الهند الغربية في برنامجها على الرغم من أن هولندا لم تكن تسيطر آنذاك إلا على جزء صغير من تلك المنطقة. وفي عام ١٦٦٤ وبإيعاز من امستردام، أذنت إدارة عموم الولايات بإرسال نائب قائد البحرية دي رويتر مع أسطوليه في المتوسط إلى غينيا لاسترداد قلاع شركة الهند الغربية التي استولى عليها سير روبرت هولمز في وقت السلم. ولم يتخذوا إجراء كهذا منذ أكثر من قرن في جزر الهند الشرقية وقتما أرسلت إدارة عموم الولايات مجموعة من السفن الحربية لمساعدة شركة الهند الشرقية في خليج الملايو.

ولم تتردد عموم الولايات بدورها عن مساندة شركة الهند الغربية في خلافها الدائم مع ملك البرتغال بشأن الوصول إلى مناطق معينة على ساحل غينيا خلال القرن الثامن عشر. فبعد اكتشاف الذهب في مينا س جريس (١٦٩٥) جدد البرتغاليون في البرازيل تجارتهم السابقة مع غينيا الدنيا Lower Guinea على أساس مبادلة التبغ والكروم والذهب من البرازيل

بالعبيد من أندرا وداهومي. وادعى الهولنديون في المينا Elmina ان هذه التجارة انتهك الحقوق الاحتكار المخولة لشركة الهند الغربية. وعمدوا، كلما أمكنهم ذلك، إلى إرغام سفن العبيد التابعة للبرازيل على التوجه إلى المينا ودفع رسوم لشركة الهند الغربية. واشتكت حكومة البرتغال مر الشكوى من هذا السلوك على فترات متباعدة طوال القرن الثامن عشر ولم يجدوا رداً شافياً على احتجاجاتهم الديبلوماسية المتكررة في لاهاي، سوى تخفيف حدة الموقف أحياناً عندما يرسلون سفناً حربية ترافق سفن تجار العبيد.

والمعروف ان الهولنديين دخلوا في نزاعات مع الانجليز والبرتغاليين بشأن مزاعم شركتي الهند الشرقية والغربية عن حقوقهما الاحتكارية البحرية في مناطق مختلفة من العالم. واستشعر الهولنديون قدراً من الحرج لوجود جروتبوس، بطلهم الأول الداعية إلى حرية البحار والذي دأب على معارضتهم. ففي عام ١٦١٢ أرسلوا جروتبوس ذاته إلى إنجلترا ليوضح الأسباب التي تدعو الهولنديين إلى إبقاء الانجليز وجميع منافسيهم الآخرين بعيداً عن جزر التوابل وكانت حجته الأساسية في هذا ان الهولنديين وإن ذهبوا في البداية إلى ملقا كتجار سلميين، إلا أنهم اضطروا، دفاعاً عن النفس، إلى طرد البرتغاليين والاسبانيين، وتعزيز مراكزهم ضد الاسبانيين بواسطة حاميات عسكرية وأساطيل حربية كلفتهم غالباً. وحيث أنهم خاضوا صراعات وحدهم فإنهم أصحاب الحق في جميع الأرباح الناجمة عن تجارة التوابل، بغض النظر عن عقود الاحتكار التي وقعوها مع الحكام المحليين. وغني عن البيان ان الانجليز لم يقبلوا هذه الحجج، تماماً مثلما كان موقف البرتغاليين بعد قرن من الزمان حين رفضوا القول بمشروعية استيلاء شركة الهند الغربية على سفنهم قبالة ساحل غينيا، والواضح في التحليل النهائي ان الهولنديين اعتمدوا على مصالحهم العملية أكثر مما اعتمدوا على حججهم القانونية المبهمة واتبعوا في سلوكهم سنة من قال:

القاعدة القديمة الصالحة، والخطة البسيطة أن يخدعوا صاحب السلطة وتبقى لهم القدرة

وهذا هو المبدأ الذي التزم به، بنجاح، جان بيترز كوين، وأنطونيو فان
ديمن وكورنيليس سبيلمان.

يبدو واضحاً مما سلف أن الصورة التي رسمها بيترز دي لاكور، وبعض
الكتاب المحدثين، عن الأوليغاركية الهولندية التجارية، وصورتهم جميعاً
تجاراً مسالمين لا يمتشقون الحسام إلا بعد تردد طويل إنما هي صورة
بحاجة إلى تعديل كبير. ولقد رأينا أنهم، ومنذ عام ١٦٤٨ وما بعدها، اعتادوا
تجنب الحرب مع سلطة كبرى كلما تأتى لهم ذلك، ولكن القصة تختلف تماماً
إذا ما تعاملوا مع دول أضعف أو ظنوا أنها أضعف منهم مثل البرتغال أو
الدانمرك أو ماكاسار أو تيرينت. ومن ثم لم يترددوا في فرض الالتزام الصارم
بالمعاهدات والعقود على الطرف الآخر المعني حتى وإن جاءت هذه الاتفاقات
نتيجة إكراه وتهديد على نحو ما كان الحال غالباً. ولست بحاجة إلى أن أضيف
أن هذا الموقف لم يكن خاصاً بالهولنديين وحدهم، بل هو نهج مشترك،
بدرجات متفاوتة، بين منافسيهم. إذ التزم البرتغاليون السلوك نفسه مع
الحكام الآسيويين الصغار الذين كانت سواحلهم هدفاً سهلاً للقوة البحرية
الأقوى وأن معاهدة ١٦٥٤ التي أرسى التفوق التجاري الانجليزي
على البرتغال كانت نوعاً من الفرض والإملاء.

وسارت على هذا النهج العقود والمعاهدات التي أبرمتها شركة الهند
الشرقية مع صغار الأمراء الأندونيسيين خلال فترة امتدت قرنين من الزمان
تقريباً. ويتضح من صياغة كلمات هذه العقود أن الهولنديين هم الذين
صاغوها ولم يكن على الحاكم الأندونيسي إلا أن يوقع حيث أشاروا إليه،
وأعطوا الهولنديين حقوق احتكار واسعة (أو الأفضلية) في شئون التجارة
داخل الإقليم المعني ويقترن هذا عادة باستبعاد التجار الأجانب الآخرين

الأوروبيين أو الآسيويين على السواء. وسمحوا بإقامة قلاع وحصون وحاميات عسكرية هولندية حيثما كان ضروريا، واعترفوا في غالب الأحيان بحق ممثل شركة الهند الشرقية في التدخل حكما أو وسيطا في النزاعات المحلية. واحتفظ الهولنديون لأنفسهم دائما، على وجه التقريب، بحق الولاية على رعاياهم الذين اتهموا بارتكاب أعمال عدوانية، وكان لهم عادة حق محاكمة المواطنين المتورطين في نزاعات معهم.

وطبيعي أن مثل هذه الشروط لم يكن من المستطاع التفاوض بشأنها مع الحكام الأقوياء داخل القارة في أماكن حيث «يكون الأمر مسألة تسامح الشركة مع الهنود مثلما هو تسامح الهنود مع الشركة». وهو رأي بدا واضحا في عام ١٦٢٤. ولكن حتى في هذه الأماكن سعت الشركة - مثلما سعى البرتغاليون والانجليز - الى كفالة ما أصبح معروفا بعد ذلك بالحقوق خارج نطاق تشريع الاقليم لممثليها حيث كان هذا نهجا عاما اتبعه الحكام الآسيويون مع التجار من جميع الجنسيات. ولكن ثمة استثناء واضح للعلاقات التعاقدية المألوفة بين السلطات الأوروبية والآسيوية، وهو ما نجده في معاهدة التجارة والصداقة الهولندية الفارسية الموقعة في لاهاي في فبراير ١٦٢١. إذ نصت هذه الوثيقة على أن التجار الفرس الموجودين في هولندا لن يعاملوا فقط على قدم المساواة الكاملة مع المواطنين الهولنديين بل سيتمتعون بالامتيازات التجارية والتشريعية التي يتمتع بها الانجليز في دلفت والاسكوتلنديون في فير. وهذا السخاء الذي نصت عليه المعاهدة إنما منحته إدارة عموم الولايات، على الأرجح، لأنهم عرفوا أن الفرس لا يملكون اسطولا لنقل تجارتهم، وحيث أن الطريق البري الى غرب أوروبا تسده دولتان معاديتان هما تركيا وروسيا، فإن من المستبعد أن يذهب التجار الفرس للإقامة في هولندا. وعلى أية حال فإن شركة الهند الشرقية لم تعبأ بهذه المعاهدة التي ظلت حبرا على ورق.

واقصر التوسع الاقليمي لشركة الهند الشرقية على سيلان، وجنوب

أفريقيا وجاوة، وقنع الهولنديون في مناطق أخرى، مثل سومطرة وسلييس Celebes على سبيل المثال بضمنان الهيمنة التجارية عن طريق المعاهدات والعقود مع سلاطين الساحل، وقد أصبح أغلبهم توابع. ولم يمتد سلطان الهولنديين بعيدا داخل البر. وتدخل الهولنديون بداية في سيلان (١٦٣٨) لمساعدة راجا سنها الثاني ضد البرتغاليين وللاستيلاء على كل، أو بعض مقاطعات زراعة القرفة في الجزيرة. وانتهى الصراع مع الوقت بطرد البرتغاليين في عام ١٦٥٨ وأصبحت شركة الهند الشرقية السلطة المهيمنة على المقاطعات الساحلية وحرمت ملك كاندي من منفذ له على البحر. وكان استعمار الهولنديين لجنوب أفريقيا أمراً له خاصيته المميزة في تاريخ شركة الهند الشرقية وهو ما ناقشناه في الباب التاسع، أما عن غزو جاوة فقد بدأ بتدخل ما يتسوكر الحاكم العام في سلسلة من النزاعات في امبراطورية مانارام لمصلحة الحاكم الشرعي المعزول شوشو نان في عام ١٦٧٧. وبلغ الأمر ذروته بفرض السيطرة الهولندية على الجزيرة لمدة قرن من الزمان. ولم يخطط مجلس إدارة الـ ١٧ عن وعي لهذا الغزو، إذ لم تكن لدى المجلس أي رغبة في تحويل امبراطوريتهم التجارية والبحرية الى امبراطورية ممتدة في اليابسة ولكنهم شأن «أكلة الجبن» في ليدن هول في أيام كليف ووارين هاستنغ ملتزمون عن طريق مستخدميه في باتافيا بسلسلة من التدخلات في النزاعات المتبادلة بين حكام جاوة، الأمر الذي أدى الى التحولات المذكورة، وكما قال لونزر ابل في معرض الحديث عن شيء آخر في عام ١٦١٤ : «بدأنا بجذب طرف السلسلة فتوالت حلقاتها الواحدة بعد الأخرى». وعلى الرغم من أنه في القرن الثامن عشر لم (تعد أي من الشركة الهولندية في جاوة والشركة البريطانية في الهند اتحادين تجاريين) في الأساس بل أصبحتا قوتين استعماريتين اقليميتين، إلا أنه كانت هناك فوارق واضحة في طبيعة تحول كل منهما. إذ بينما نجد القوة البحرية البريطانية صاحبت نمو قوة شركة جون في الهند وفرضت عليها مظلة من الحماية نجد القوة البحرية لكل من شركة الهند الشرقية والقوة البحرية لهولندا قد ضعفت كثيرا اثناء الصراع من

أجل جأوة. نعم ظلت سفن النقل التابعة للشركة الشرقية والمتجهة إلى أرض الوطن محملة بشحناتها الكبيرة والغنية مثلما كانت دائما، وإن أصبحت حمولتها من الشاي والبن والخزف أكثر منها من التوابل والنسيج. بيد أن الهيمنة الهولندية على مياه الملايو وأندونيسيا تدهورت كثيرا في مناطق عديدة بسبب ازدياد التهريب والقرصنة زيادة رهيبة وكان الدافع الأساسي وراء هذا هو السيطرة التامة للاحتكار التجاري التي اتخذتها الشركة الشرقية الهولندية سياسة لها لتفرض بقاءها في البحار التي زعمت أنها صاحبة السيطرة عليها.

نقول أن هذا هو الدافع الأساسي وليس الوحيد ذلك أن تدهور القوة البحرية للشركة في الشرق كان ناحية من النواحي انعكاسا لتدهور القوة البحرية للمقاطعات المتحدة في أوروبا إن الاسطول الذي كان تحت قيادة ميشيل دي رويتر تحدى بنجاح أساطيل إنجلترا وفرنسا مجتمعين، مما كان تعبيراً عما كانت عليه في السابق بعد قرن من الزمان. وعلى الرغم من الخسائر التي منيت بها هولندا في الحروب الأوروبية خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر، إلا أن تجارتها فيما وراء البحار في عام ١٦٩٩ بلغت الدرجة الثانية التي حققتها منذ خمسين عاما وقت نفاذ معاهدة مونستر. ولكن مع الصراع الأخير ضد لويس الرابع عشر، وهو الصراع الذي بدأ في عام ١٧٠٢ وانتهى بعقد معاهدة أوترشنت (١٧١٣) أخفقت الجمهورية الهولندية في تحقيق أهدافها. لقد ضحت بقوة أسطولها بغية تمكينها من الوفاء بتكاليف مجهود حربي كبير على نحو لا يتناسب معها في الفلاندرز وشبه جزيرة أيبيريا. ولقد اتبع سياسة إنجلترا وهولندا سياسة خاطئة في سبيل اقناع البرتغال للانضمام إلى الحلف الكبير بغية الاستفادة من لشبونة واستخدامها كقاعدة للأسطول. وأدت هذه السياسة الخاطئة، بوجه خاص، إلى تورط الحلفاء في عمليات توسع، غير ضرورية لنطاق الحرب. وكان العبء ثقيلاً على النحو الذي جعل إنجلترا تستجيب للمقترحات الفرنسية من أجل السلم بعد

عام ١٧١٠، مما أدى الى تراجع الجمهورية الانجليزية ان تقتض بفاضة ٦ بالمائة في الوقت الذي اضطرت فيه هولندا الى دفع ٩ بالمائة كسعر فائدة أعلى من أي سعر آخر منذ أيام أولدن بارن فلت. وارتفع الدين الوطني لجمهورية هولندا، من ٣٠ مليون جلدري في عام ١٦٨٨ الى ١٤٨ مليون قبل نهاية حرب الخلافة الاسبانية.

ولم تسهم المقاطعات الزراعية الأربع بأي مبلغ من المال من أجل صيانة الاسطول خلال الأعوام ١٧٠٦-١٧٠٧ و ١٧١١-١٧١٢ وكانت اسهاماتها المالية ضئيلة جدا خلال الأعوام الأخرى، ولهذا غرقت المقاطعات البحرية الخمس الأخرى في الديون الى ما قبل ١٧١٣. واضطرت الاوليغاركية الحاكمة بسبب هذه الديون الى الاقتصاد في نفقات الدفاع حتى بعد أن انتهت الحرب وبعد أن بدأت التجارة الهولندية فيما وراء البحار في الانتعاش من جديد. وأوضحت مشدودة أكثر من ذي قبل الى سياسة السلم بأي ثمن، مع تجنب أي انفاق قد يورطهم في فرض ضرائب جديدة على ما تقتضيه صيانة اسطول بحري كبير. وظلت المقاطعات البحرية غارقة في ديونها حتى ان القيادة البحرية في روتردام لم تبني سوى سبع سفن حربية على مدى ٢٨ عاما (١٧١٣-١٧٤١)، ولم تمتلك ادميرالية نورث - كوارتر سوى ثلاث سفن في عام ١٧٢١، اثنتان منهما عمر الأولى ٢٠ عاما والأخرى ثلاثون عاما. هذا فيما عدا ادميرالية امستردام إذ أنها هي الوحيدة التي سعت لتدبير المال اللازم لبناء ٣٣ سفينة فيما بين عامي ١٧٢٣ و ١٧٤١ من بينها ٢٠ بارجة تحمل ما بين ٥٢ و ٧٤ مدفعا.

وإن السبب الرئيسي لهذه الحالة غير المرضية كان أحد العوامل التي افسدت وجود الجمهورية الهولندية في مجموعة. إذ امتنعت المقاطعات الزراعية عن سداد حصتها كاملة، فيما عدا فترات متقطعة ومحدودة، من أجل صيانة الاسطول ومرافقة الشحنات التجارية لحمايتها. إذ رأى ممثلوها أن هذا امر يخص في جوهره هولندا وزيلاندا واعتقد مسئولو المقاطعات الزراعية

ان هاتين المقاطعتين، وخاصة هولندا، مسئولتان عن تمويل وبناء وصيانة الاسطول خصما من ارباح تجارتيهما البحرية. وإذا حدث وامكن اقناع ممثلي المقاطعات الزراعية في ادارة عموم الولايات بالموافقة على تخصيص مبلغ من المال للاسطول، وهو امر نادر الحدوث فإنهم لا يبذلون جهدا حقيقيا لانجاز وعودهم بعد عودة كل منهم الى مقاطعته. وإزداد هذا الوضع السيء تعقيدا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وبخاصة في السنوات من ١٧٧٠ الى ١٧٨٠ عندما رفضوا جميعا بما في ذلك زيلاندا نفسها الاقتراح على أي مبالغ مالية لصيانة الاسطول. ولم يشأ أمير أورانج والمقاطعات الزراعية الموافقة على مقترحات هولندا بالتصويت على تخصيص ميزانية للاسطول إلا إذا تم اتفاق مبلغ أكبر من المال على الجيش. ورفضت هولندا استمرار بخاصة - هذا الرأي، حتى عندما كان الفائض المقترح إنفاقه على الجيش مبلغا ضئيلا نسبيا. والنتيجة السياسية لهذا المأزق انه لم يحدث شيء فعال من أجل تحسين وضع أي من الجيش أو الاسطول في الوقت الذي اطردت فيه الخصومات بين هولندا وبين بقية المقاطعات حول أيهما أجدر بالاتفاق والدعم، الجيش والدفاعات الأرضية أم الاسطول.

وتجلى تدهور القوة البحرية الهولندية في الجانب التقني والاقتصادي وكذا في المجال البحري الخالص. إذ بينما كانت السفن الهولندية خلال النصف الاول من القرن السابع عشر مجهزة بشريا على نحو اقتصادي افضل من منافسيها تلاشت هذه الميزة بعد مائة عام، ويحكى لنا الرحالة السويسري ك.ب. ثانبرج من واقع خبرته الشخصية ملاحظته التالية: لدى الهولنديين أيضا فرصة لكي يعمل على ظهر سفنهم عدد من الرجال أكبر من عدد العاملين على ظهر سفن منافسيهم من البلدان الأخرى، حيث ان حبال الاشرعة والصواري في سفنهم مصنوعة وفقا للطراز القديم ببكرات خشبية كبيرة وحبال سمكية فضلا عن أنها ثقيلة وفجة من جميع النواحي.

إن هولندا التي احتلت ذات يوم طليعة تقنيات الملاحة في أعالي البحار وفي

انتاج الخرائط توارثت وسقطت بعيداً وراء منافسيها من الانجليز والفرنسيين في كل هذه المجالات حتى قبل أن يخترع جون هاريزون الترونومتر وقال في هذا الصدد القائد البحري ستافورينوس «لنا أن ندب حظنا حقاً إذ نرى جهازاً قويا مثل شركة الهند الشرقية، التي يعتمد رخاؤها أساساً على الرحلات الآمنة الناجحة لسفنها، لم يشأ أن يجشم نفسه عناء العمل من أجل تحسين الملاحة بصورة عامة، وتصحيح خرائطهم بصورة خاصة. أنني لم استطع أن أحكي أمثلة كثيرة لأخطائهم سواء بالنسبة لجزر الهند أو ساحل افريقيا بينما نرى أمما أخرى سعت إلى تحقيق هذا الهدف بدأب لا يعرف الكلل. ويصدق هذا الرأي بوجه خاص على الانجليز الذين تفضل خرائطهم خرائطنا بما لا حدود له».

أرجع ستافورينوس مسئولية تدهور البراعة الملاحية الهولندية أساساً إلى الروتين البيروقراطي لمديري شركة الهند الشرقية، التي أصرت على أن تتبع جميع سفنها مسارا محددا وثابتاً تضمنته تعاليمهم الكتابية. وأشار إلى أن السفن التجارية الضخمة المملوكة للبلدان الأخرى «غير ملزمة باتباع تعاليم أو أوامر بحرية محددة فيما يختص بملاحتها، وتقوم برحلات أقصر كثيراً سواء من أو إلى جزر الهند الشرقية على عكس سفن الشركة. ومن ثم أيضاً عانى قادة السفن الهولندية من القيود التي عاقت تحركاتهم فعجزوا عن إحراز تقدم مثلما فعل نظراؤهم فيما يتعلق بتحسين الملاحة: وفي رأيي أن الانجليز والفرنسيين وغيرهم تجاوزوا كثيراً في مجال التحسينات والاكتشافات الجديدة .. الخ على الرغم مما يمكن أن يقال من أن شركة الهند الشرقية تعتبر معهداً لتخريج بحارة متميزين، ومدرسة لأعظم التحسينات البحرية في ضوء عدد السفن والرجال العاملين فيها، والمسافات التي تقطعها رحلاتها، فضلاً عن تنوع هذه الرحلات.» وإن حديث ستافورينوس عن طريق الملاحة البالية والمضیعة للوقت والتي كانت لا تزال القاعدة المتبعة من جانب سفن التجارة الهولندية في أيامه وعصره، هذا الحديث أكدته بوضوح

تعليقات وليام هيكي بعد رحلته التي عاد بها من رأس الرجاء الصالح إلى أرض الوطن*.

كان الهولنديون يوماً رواد بناء السفن في العالم ولديهم أمهر المتخصصين في صناعة وتجارة وترميم السفن حتى أن كزار بيتر الأكبر ظل يزهو بدراسة فنهم حتى عام ١٦٩٧. ولكن بعد هذا التاريخ بثلاثين عاماً اضطر الهولنديون إلى أن يلجأوا لصنّاع السفن الانجليز ليعلموهم الفن المتقدم. ففي حرب ١٦٧٢-١٦٧٤ كانت السفن الهولندية الحربية تطلق من مدافعها طلقات بمعدل ثلاث طلقات مقابل طلقة واحدة من سفن خصومها الانجليز والفرنسيين وإذا بالوضع يتقلب إلى النقيض تماماً في عام ١٧٤٦ حسب شهادة ضباط الاسطول الهولندي انفسهم: «كذلك فإن سفن صيد الحيتان في القطب الشمالي التي كانت تضم ٢٦٠ سفينة هولندية و١٤ ألف بحار في نهاية القرن السابع عشر أصبحت تستخدم فقط حوالي ٥٠ سفينة بعد مائة عام. ويرجع التدهور جزئياً إلى التزاحم على الصيد كما يرجع إلى منافسة الأمم الأخرى. وشهدت السنوات التي تلت معاهدات أوترخت تدهوراً مطرداً في أعداد البحارة الهولنديين المتاحين للخدمة في الاسطول وفي رحلات المحيطات وأصبح هذا التدهور أكثر وضوحاً بعد عام ١٧٤٠. وعندما قررت إدارة عموم الولايات إصلاح وتجديد اسطول يضم ٢٠ سفينة شراعية اضطر متعهدو توريد البحارة إلى التوجه إلى هامبورج وبريمن وكوبنهاجن وغيرها من الموانئ الأجنبية لتوفير العدد اللازم. ولكنهم اضطروا إلى توفير العاملين اللازمين من بين السجناء الذين اعتادوا الإجراء من سجن أمستردام. وتأثرت شركة الهند الشرقية أيضاً بهذا التدهور على نحو ما يبين من شكوى الحاكم العام البارون فان امهوف في السنة نفسها والتي قال فيها: «أخشى أن أقصح عن الحالة التي آلت إليها أمورنا لأن ذلك أمر مخجل.. كل شيء ناقص، السفن

* C.P. Thunberg; Travels in Europe, Africa, and Asia; 1770-1779 (4 Valo) London, 1795 Val. I; pp. 113.

الصالحة، والرجال وضباط البحرية وهكذا نجد أن واحداً من العمداء الأساسيين لسلطة الأراضي المنخفضة يهتز ويوشك أن ينهار».

ليس هدي أن استنتج من الشكاوى سالفه الذكر التي جاءت على لسان المعاصرين لتلك الفترة أن التجارة الهولندية عبر البحار تدهورت لتغدو شيئاً غير ذي بال، أو أن مجتمعات الصيد والبحر تلاشت مع نهاية القرن الثامن عشر. بل على العكس، فإن حجم التجارة البحرية الهولندية ظل كبيراً حتى عام ١٧٨٠ كما وإن مصايد بحر الشمال وصناعة صيد الحيتان في القطب ظلت كما كانت مهد تفريخ للبحارة الجدد. ولكن إذا نظرنا إلى الأمور نظرة نسبية نلاحظ أن الاسطول الهولندي وصناعة السفن والتجارة البحرية الهولندية أصابتها جميعاً بالفعل حالة من التدهور بمقارنتها بالتقدم الذي أحرزته منافسو هولندا من الانجليز والفرنسيين وبلدان بحر البلطيق. علاوة على هذا فإن تزايد النقص في البحارة الهولنديين لم يكن أمراً نسبياً على ما يبدو، بل حقيقة مطلقة، وربما كان ستافورينوس مبالغاً إلى حد ما عندما ادان في أسى هذا التدهور بعبارة التالية. ولكن المؤكد أنه لم يكن مفرطاً في مبالغته «منذ سنوات طويلة، كان من اليسير الحصول على الأعداد الكافية من البحارة المهرة، دون أن نضطر إلى الاستعانة برجال قليلي الخبرة ليشغلوا الأماكن الشاغرة على ظهر السفينة. ولكن منذ عام ١٧٤٠ كثرت سفن الأساطيل الحربية، وزادت كثيراً التجارة والملاحة، خاصة في بلدان أخرى عديدة، حيث كانت هذه الأعمال في الماضي لا يقبل عليها إلا القليلون. وترتب على هذا أن زاد الطلب زيادة كبيرة ومطرده على البحارة الأكفاء سواء للسفن الحربية أم للسفن التجارية. وأدت هذه الزيادة إلى نقص كبير في أعداد المعروض من البحارة. وهكذا نجد كل سفينة في بلدنا لا تحصل على العدد المناسب لها من البحارة إلا بشق الأنفس وبتكلفة باهظة بعد أن كان بلدنا في السابق مشهوداً له بالوفرة الكبيرة في بحارته.*

* J.S. Stavorus, *Vayages to the East-Indies*. Val. III, pp, 406-7.

وعلى الرغم من توافق آراء معاصري هذه الحقبة بشأن إدانتهم لتدهور القوة البحرية الهولندية، وتدهور معايير فن الملاحة وتقنياته في النصف الثاني من القرن الثامن عشر إلا أنهم لم يجمعوا، في رأيهم بشأن تفسيرهم لأسباب ذلك. كما قال أمير اورانج في ملاحظته عن ندرة البحارة عند نشوب الحرب مع إنجلترا في ديسمبر ١٧٨٠، إذ يقول: «في القرن الماضي كان الأجر الذي يتقاضاه الرجل العادي أقل مما هو الآن بوجه عام، وكان عدد السكان أكبر والفقر أكثر انتشارا مما عليه حالنا اليوم. ولهذا كان يسيرا تدبير العاملين في خدمة البحرية. وهذه المزاем جميعها يمكن مناقشتها والشك فيها بدرجة أو بأخرى. ولكن، وكما أوضح دي بوش كمبار، من الأهمية بمكان بيان أن المجلة الأسبوعية De Post van den Neder-Rijn المناهضة لآل اورانج والتي انتقدت بشدة وعنف الأمير فيما يختص بموضوعات أخرى لم تقدم سوى دفع ضئيل لحججه التي ساقها في عرضه لهذه الحالة تحديداً. وهذا أمر يثير الدهشة نظراً لأن جميع الشكاوى التي عرض لها كُتِبَ العقد الثامن (١٧٧٠-١٧٨٠) تحدثت عن البطالة والفقر في المقاطعات المتحدة وأنهما باتا أخطر وأوسع انتشارا مما كان عليه الحال في أي وقت مضى منذ توقيع معاهدة مونستر.

إن تزايد نفور - أو عجز - أبناء الطبقة العاملة الهولندية عن التماس أسباب معيشتهم ورزقهم في البحر خلال القرن السابع عشر، أيا كانت الأسباب، اقترن بتحول في عقلية ونظرة الأوليغاركية الحاكمة. إذ بعد أن كانوا معنيين مباشرة بالتجارة عبر البحار بصورة أو بأخرى طوال الشطر الأكبر من القرن السابع عشر، نجد بعضهم أصبح من ذوي الأملاك المعتمدين على عائد هذه الأملاك والبعض الآخر لم يقنعوا بهذا فحسب وإنما أصبحوا من ذوي الأملاك ولديهم ميل إلى استثمار الجزء الأكبر من رأسمالهم في استثمارات مالية أجنبية. وأكدت تقارير مجلس العموم البريطاني في عام ١٧٣٧ أن الهولنديين يسيطرون على ما يقرب من ٢٢,٧ بالمائة من الدين

العام لانجلترا، وثبت أيضاً، بتأكيد يكاد يرقى الى مستوى التأكيد الأول، ان المستثمرين الهولنديين سيطروا في عام ١٧٥٨ على ثلث أسهم بنك إنجلترا وشركة الهند الشرقية الانجليزية والبحر الجنوبي. وساد اعتقاد آنذاك، وان لم يكن دقيقاً تماماً، ان الهولنديين يسيطرون على ثلث مجموع الدين الانجليزي. وفي عام ١٧٦٢ أفاد مصرفي حسن الاطلاع من روتردام في حديثه الى زميل له ان الهولنديين يسيطرون على ربع الدين الانجليزي الذي يبلغ مجموعه وقتذاك ١٢١ مليون استرليني. وبعد عشرين عاماً قدر فان دي سبيجلي، أحد رؤساء البلدية، الاستثمار الهولندي الأجنبي بمبلغ ٣٣٥ مليون جلددر منها ٢٨٠ مليون جلددر (أي حوالي ٣٠ مليوناً بالعملة الانجليزية) في إنجلترا و ٥٥ مليوناً في بلدان أخرى.

واختلفت الآراء بشأن دقة هذه التقديرات، وغيرها. وتشير أبحاث حديثة بما يفيد أن عدداً قليلاً نسبياً من الرأسماليين الهولنديين هو الذي ركز استثماراته في الخارج، بل إن هذا الفريق استثمر أكثر من نصف ثروته في الداخل. ولكن سواء أكان استثمار رأس المال الهولندي في داخل البلاد أم خارجها فإنه كان يعطي قرضاً لرجال المصارف وتجار العملة، أو يستثمر في الأراضي أو المراهنات في مستعمرات جزر الهند الغربية بدلاً من استثمارها في تطوير الصناعات الوطنية في الداخل أو في دعم صناعة السفن الهولندية. وكانت أمستردام هي سوق مال العالم الغربي، بيد ان الكثيرين من الاوليجاركية الحاكمة كانوا من أصحاب الأملاك الأثرياء وكبار رجال المال الذين اتخذوا لأنفسهم كيانه متميزاً عن الطبقة التجارية التي انبثقوا منها. ولا ريب في ان نظرتهم الاقتصادية الجديدة أثرت على سياستهم الخارجية. ومن ثم فإن النقص الخطير في البحارة الأكفاء، علاوة على ضعف الاسطول، جعل الحياذ بالنسبة اليهم ضروريا أكثر مما كان الحال بالنسبة لاسلافهم أصحاب المشروعات في عهد جوهان دي ويت وبيتر دي لاكور.

لهذا قد ندهش، عند الوهلة الأولى، ان اضطر الهولنديون الى توريط

انفسهم في حرب مع انجلترا في ديسمبر ١٧٨٠ وهم ليسوا على استعداد لها عسكريا واقتصادياً، إذ اعتادوا ان يقيموا سياستهم الخارجية على أساس من التحالف مع انجلترا والخوف من عدوان فرنسا، خاصة في الأراضي المنخفضة الجنوبية حيث أقاموا حاجزهم الشهير - وغير المجدي في الوقت ذاته - من القلاع البلجيكية وحاميات المدن العسكرية بموجب شروط المعاهدة التي تم توقيعها في أنتويرب عام ١٧١٥. وعلى الرغم من خطورة وضع قواتهم المسلحة وشكواهم العديدة ضد انجلترا بسبب تدخل الاسطول الملكي واعتراضه لسفنهم المحايدة، فإن إدارة عموم الولايات أقدمت باخلاص على مساعدة الحليف في عامي ١٧٤٤-١٧٤٥ وجروا على انفسهم نتيجة لذلك خطر الغزو الفرنسي لهم. والجدير بالذكر ان اعتراض الانجليز للسفن الهولندية المحايدة، وأسر بعض هذه السفن خلال حرب السنوات السبع، أثار سخط واستياء جميع الطبقات في الأراضي المنخفضة الشمالية باعتباره نكراًنا لجميل هولندا وولائها لحليفها الانجليزي على مدى عشرين عاماً سابقاً. ويلاحظ ان المشكلات التي تورطت فيها انجلترا إثر اندلاع الثورة الأمريكية في عام ١٧٧٦ وبخاصة تأسيس الحياد المسلح Armed Neutrality في عام ١٧٨٠، هيا للهولنديين فرصة لزيادة تجارتهم البحرية على حساب الانجليز، وبدت هذه الفرصة في نظر قطاع من المجتمع التجاري اغراء لا يمكن مقاومته.

وعمد فريق من تجار امستردام وطبقة الحكام الى حث ولايات هولندا على التصويت تأييداً لسياسة فرض حماية عسكرية دون حدود للسفن الهولندية في البحار في عام ١٧٧٩. وتولد هذا الاتجاه نتيجة أسباب عديدة أحدها اعتقاد خاطيء بأن انجلترا لن تورط نفسها في حرب مع قوة أوروبية أخرى علاوة على فرنسا وإسبانيا، وثانيها الاعتماد المبالغ فيه على مساندة محتملة من روسيا ومن قوى أخرى محايدة؛ وثالثها، وهو السبب الأساسي، الغضب الشديد وهو أمر طبيعي، من اعتراض الانجليز للسفن الهولندية والاستيلاء على بعضها. ولكن بعض حكام المدن وبعض آل أورانتج الذين اعتادوا النظر

الى الحليف الانجليزي باعتباره الملاذ الأخير ضد أي غزو فرنسي وانصار البابوية استنكروا هذا التحول الذي أدانته أيضا قلة من اصحاب النظر البعيد الذين أدركوا ان انجلترا سوف تفضل الحرب على أن تتنازل عن حقها، المختلف عليه، في تفتيش السفن الهولندية بحثا عن سلع بحرية حربية مهربة. وكانت الحرب الناجمة عن ذلك كارثة مدمرة للهولنديين، وافضت، بصورة غير مباشرة إلى خراب شركة الهند الشرقية الهولندية فضلاً عن انهيار الأوليغاركية الحاكمة. بيد أن هذا لا يغيّر من واقع الأمر شيئاً وهو أن الفريق الذي نادى بالحرب لم يكن فقط فريق تجار امستردام وسياستهم الداعية الى فرض حماية عسكرية مطلقة لسفنهم، بل وايضاً فريق المواطنين، الزائفين أو الطبقة الوسطى المائلة لفرنسا واعتادت ان تنتقد الارستقراطية الحاكمة مثلما انتقدت العامة أو البروليتاريا الموالية لأسرة آل اورانج.

الباب الخامس

الكسب والورع

١- في ارض الوطن

عندما رفضت عموم الولايات بأدب، ولكن بحزم، اقتراح أوليفر كورومويل لعقد حلف هجومي انجليزي - هولندي ضد اسبانيا والبرتغال بهدف تقسيم الامبراطوريتين الاستعماريتين في شبه جزيرة ايبيريا بين الدولتين البروتستانتيتين، أشار الدكتاتور الانجليزي بمرارة إلى أن الهولنديين أثروا الربيع المادي على تقوى الله. وهذا هو عين التائب الذي قيل غالباً بصراحة في حق سكان المقاطعات المتحدة إبان قرنهم الذهبي ولم يخجل منه أكثرهم. وعلى غرار هؤلاء المترحين الساعين إلى الكسب في نهم ودون خجل كان تاجر من امستردام والذي قال في مواجهة حاكم المدينة في عام ١٦٢٨ إنه لن يستمر فقط في تجارته مع مقاطعة انتويرب، العدو اللدود لامستردام، بل انه لو استطاع ان يحقق ربحاً تجارياً من خلال المرور عبر الجحيم فإنه لن يتردد عن المخاطرة بإحراق اشرعة سفنه سعياً لهذا الربح. وتغنى فونديل بأغنية لابناء امستردام وجيل عصره قال فيها «حباً بالكسب نستكشف موانئ العالم الواسعة». ولعل من المناسب ان نعرض في إيجاز في هذا الفصل صورة للطريقة التي واءم بها الهولنديون بين التعاليم الأخلاقية لعقيدة دينية تعزف عن الحياة الدنيا باعتبارها متاع الغرور وبين ممارسات المؤمنين بها سعياً إلى امتلاك امبراطورية تجارية تشمل العالم كله. وأرى أن اتناقش في إيجاز أيضاً إلى حد ما كيف طرأت تحولات بسبب البحر على الكالفنية حين انتقلت من جنيف إلى المنطقة الاستوائية عبر دودرشت.

على الرغم مما يقال ويتردد كثيراً من أن الكالفنية هي دين الرأسمالية وعقيدتها، إلا أن ثمة تبريراً بسيطاً ومهما لهذه النظرة. لقد كانت الاغلبية

العظمى من رجال الدين الهولنديين الكالفنيين في القرن السابع عشر من أبناء الطبقة الوسطى والطبقة العاملة، ولديهم في مجموعهم، انحياز عميق مناهض للاقتصاد أو الاستثمار المريح، وغلب عليهم طابع اللامبالاة حين كانوا عمليا غير معادين لسياسة الحكام التي تسعى الى التفوق التجاري وتحقيق رغبة التجار في تأمين أسواق جديدة مربحة مهما كان الثمن. ونازع هذا الاتجاه قسيس وعالم دين بارز من زيلاندا هو جنود فريد أوديمانز God Fried Udemans وذلك في كتابه «المرشد الروحي لسفينة التاجر» الذي أهداه إلى مديري شركتي الهند الشرقية والغربية وصدرت منه ثلاث طبعات فيما بين عامي ١٦٣٨ و ١٦٥٥. ومن المهم الإشارة الى أن أوديمانز وجد من الضروري في كتابه هذا أن يسوق الحجج المستفيضة ليؤكد على مدى صفحات عديدة، مستنداً إلى الكثير من آيات الكتاب المقدس، أن مهنة التاجر ليست عملاً غير مشروع ولا هي بالعمل الوضيع بل تتسق تماماً مع الممارسة العملية للمسيحية شريطة التزام الأمانة. ودون الحصول على ربح حرام أو فيه مغالاة. ويؤكد أوديمانز كذلك أن التجارة عبر البحار تهييء سبيلاً متميزة لنشر نور الانجيل الحق، ومن ثم يتعين العمل بإخلاص من أجل تعزيزها من قبل جميع المؤمنين أهل التقوى والورع. ويرهق نفسه من أجل تبرير انشاء شركتي الهند الشرقية والغربية وتوسعهما في جزر الهند الشرقية والغربية. ويرتكز في تبريره أحيانا على حجج حق الدفاع عن النفس ضد الملكية الدنيوية الكاثوليكية في ايبيريا، ويرتكز أحيانا أخرى على القول بأنها منفذ لفائض رأس المال والعمالة الهولندية. ويثبت أن غزوات الشركتين عمل شرعي تماماً ولا بد من الحفاظ عليها مهما كان الثمن، وأن العون الالهي يتحقق بفضل زيادة التأييد للبعثات الكالفنية الى بلدان عبدة الأوثان. ولكن أوديمانز استثناء بين رجال الدين. ذلك أن قليلين من رجال الدين في هولندا هم الذين كشفوا بوضوح عن اهتمام بتوسع بلدهم عبر البحار، وكرسوا جهودهم ومواهبهم في فقه الدين والمجادلة من أجل الهجوم على كنيسة روما، أو ضد دعاة العماد الجديد أو موقف الأوليغاركية الحاكمة المناهض لآل أورانج أو

إن كتابا كثيرين في الماضي والحاضر، رأوا في الكالفينية القوة الدافعة الرئيسية للتوسع التجاري الهولندي النشيط، وللازدهار الثقافي في هولندا باعتبارهما قسمين بارزين على مسرح أحداث القرن السابع عشر. أما عن القول بأن الكالفينية أدت دوراً عظيماً، فهذا ما لا خلاف عليه. أما عن مساهمتها فهو أمر بولغ فيه كثيراً. إن العديدين من أعظم شخصيات الفن والأدب في هولندا خلال القرن الذهبي، بما فيهم جروتيوس ورمبرانت وفونديل - اكتفاء بأبرز الأسماء - لم يكونوا أعضاء الكنيسة الكالفينية السائدة. وإن بعض البروتستانت من راسخي الإيمان الذين لا يتطرق شك إلى عقيدتهم، من أمثال جوهان فان أولدن بارنفلت وجوهان دي ويت كانوا كثيراً ما ينتقدون الوعاظ الأورثوذكس ويتلقون منهم بالمثل انتقادهم. وإذا حولنا أنظارنا إلى كبار القادة البحريين في القرن السابع عشر نجد أن ثلاثة منهم، وهم بييت هين ومارتن ترونب، وميشيل دي رويتر كانوا كالفنيين جادين يخشون ربهم يعكفون على قراءة الانجيل كتاباً مفضلاً لديهم، ولكن السؤال كم من زملائهم ورؤسائهم يمكن أن نقول عنهم نفس هذا الكلام؟ ولسنا بحاجة إلى اتهام دو ميني أو ديمانز بأكثر من المبالغة المعتدلة عندما أكد أن كثيرين من البحارة الهولنديين لم يكونوا يعرفون عن الانجيل أكثر مما كانوا يعرفونه عن القرآن. أما عن شركة الهند الشرقية فإن اثنين من أعظم الحكام العاملين في باتافيا، وهما كوين وقان ديمين، كانا من أنصار الكنيسة الإصلاحية الجديدة المخلصين بيد أنهما لم يكفا عن الشكوى من أن الأغلبية الساحقة لأبناء بلدهم الموجودين في آسيا يمكن وصفهم بأي شيء إلا أنهم مؤمنون صادقوا الإيمان. إذن لم تكن الكالفينية هي القوة الدافعة وراء التوسع الهولندي عبر البحار وهناك قوة قوامها «حب الرياح» سادت بين التجار مقترنة بخطر البطالة بل والموت جوعاً الذي هدد الكثيرين من طائفة مجتمع البحارة في أرض الوطن.

«الذهب الهكم الذي تعبدون» هذا ما قاله زنوج غرب أفريقيا للتجار الهولنديين في غينيا في أوائل القرن السابع عشر. وكانوا يقولهم هذا أسبق من شارل العاشر ملك السويد الذي أخرج من جيبه دولاراً وقال لمبعوث هولندي أبدى بعض الملاحظات بشأن حرية العقيدة الدينية «هذا هو دينكم». والجدير بالذكر أنه على مدى قرنين من الزمان هما عمر شركة الهند الشرقية. نجد أن أقل من ١٠٠٠ واعظ غادروا المقاطعات المتحدة للخدمة في الشرق، وعاد أكثرهم إلى الوطن بعد سنوات قليلة. وهذا الرقم الضخم على نقیض عدد أقل كثيراً من رجال الدين ساندتهم شركة الهند الشرقية الانجليزية في الهند. ولكن هذا يشير إلى أن روح التبشير ليست شديدة الوضوح في الكالفنية. على العكس من هذا تماماً، وبصورة لافتة للنظر، الآلاف العديدة من المبشرين الذين أرسلهم ملوك اسبانيا والبرتغال إلى ما وراء البحار. ولهذا لم تكن في الأراضي المنخفضة الشمالية وظائف كثيرة دينية بروتستانتية. إذ لم يكن هناك أكثر من ٢٠٠٠ واعظ تقريباً في جميع المقاطعات السبع في أي وقت من الأوقات على مدى قرنين من الزمان أو أكثر.

ويجب أن نميز أيضاً بين أهمية الكالفنية قبل وبعد مجمع دوردرشت الكنسي في عامي ١٦١٨-١٦١٩، الذي يعد معلماً فاصلاً في التاريخ الديني للمقاطعات المتحدة، أن الكالفنية التقليدية «الارثوذكسية» بتأكيداتها على التدبير الإلهي المسبق بمعناه الدقيق والخاص، وقصر الخلاص على النخبة التي اصطفاها الله، كانت حتماً عقيدة الأقلية من الصغرة. ولكن على الرغم من أن الكالفنيين النشيطين بين الفرق المعروف باسم «شحاذا البحار» قاموا بدور هام في ثورة الأراضي المنخفضة، إلا أنهم لم يكونوا هم أول فريق، ولا الفريق الوحيد الذي كان مقدراً أن يتفصل تماماً عن كنيسة روما. إذ من المؤكد أن اتباع لوثر والمعمدانين وغيرهم ممن لم ينتموا إلى ملة أو نحلة عقائدية محددة بل كانوا فقط غير راضين عن العقيدة في صورتها القديمة لسبب أو آخر، كانوا كثيرين في مجموعهم قبل عام ١٥٨٠. وإن مارنيكس فإن

سانت اليجوند، الكاتب الكالفني ومؤلف الكتاب البذيء «خلية نحل كنيسة روما المقدسة» في عام ١٥٦٩، لم يكن مخطئاً تماماً حين لخص المشاعر البروتستانتيّة الأولى في الكلمات التالية:

«صفوة القول، إن كل قداسة كنيسة روما الكاثوليكية تهاوت في الرماد». ففي هذا المكان ما كنت تسمع شيئاً سواً في داخل المدن أم خارجها غير الانجيل أو القديس بولس. لم يكن الناس ليعبدوا غير الله وحده، وليس لهم أن يتخذوا وسيطاً آخر بينهم وبين يسوع المسيح، ولا أن ياتمنوا أو يتقوا في شيء غير حسناته وأفضاله: لا يفرحون ويتهللون إلا في صلبه وموته وآلامه. التقدير والاكبار فقط للقربان المقدس والعماد والعشاء الرباني، ويفعلون هذا الشيء ذاته في بساطة كبيرة دون احتفالات مهيبه، وفي براءة من وسوسة الشيطان. كفوا عن الذهاب لالتماس الغفران من أبهم الوهمي، بل يلتمسونه من الله في السموات أو أمام محفل الكنيسة جمعاء. كفوا عن سؤال الغفران، وكفوا عن دعاء النفوس الخبيثة الراقدة في المطهر، وإنما كل امرئ يقيم صلاته استناداً إلى الكتاب المقدس. لن يعترفوا بزعيم اسمى للكنيسة غير يسوع المسيح ابن الله. أساقفتهم يدينون اسم قضاة محاكم التفتيش ويستنكرون أن يعظ هؤلاء بالانجيل، وأن عليهم أن يترجلوا عن خيول كبريائهم المظلمة ويسيروا على الأرض وينظروا بتقدير إلى كل أنواع اللحوم الطيبة المشروعة. ويبدأوا الحمد لله والصلاة له بلغة وطنهم. لا يابيهون كثيراً لأكل اللحم في أيام الصيام بل ولا حتى في يوم الجمعة الحزينة. «جماع القول أنهم سلكوا طريقهم نحو صياغة جديدة لعقيدتهم ونظامهم الكنسي وهو ما لا نرى له مثيلاً في كنيسة روما المقدسة ولا عند آبائنا الأولين. لقد عقدوا عزمهم على أن يستعيدوا كل ما كان عليه القديسون والرسل الأوائل».

لا نجد هنا ذكراً للتدبير الألهي المسبق، وإنما التركيز على الكتاب المقدس باعتباره السلطة الوحيدة فضلاً عن نفي أي وساطة لرجال الدين بين الانسان والله. وإن البروتستانتيين على اختلاف مشاربهم متفقون على هذا من حيث

المبدأ وإن اختلفوا، وقد اختلفوا بالفعل، وتباينت آراؤهم كثيراً في قراءتهم وتفسيرهم.

ولم يكن الكالفينيون النشيطون سوى اقلية ضئيلة وقتما كان فريق «شحاذي البحار» يجوبون معظم أنحاء هولندا وزيلاندا في عام ١٥٧٢، واستطاعوا تعزيز سلطانهم بعد استيلائهم على المدن بالقوة أو بالترهيب، وذلك لأنهم كانوا الفريق الوحيد المسلح بين المتمردين والسكان عامة. وراينا انهم عمدوا إلى بذل كل ما بوسعهم إلى طرد القساوسة والمتدينين أتباع كنيسة روما الكاثوليكية، على الرغم من نزوع وليم أورانج شخصياً وآخرين إلى اتباع سياسة تسامح ديني. ولكن ما مضى بعض الوقت إلى حين أن تمكن الكالفينيون من إبدال مراتب السلطة الدينية الكاثوليكية الرومانية بنظام خاص بهم لرجال الدين. وعلى نقيض ما حدث في إنجلترا وفي اسكتلندا وفي بعض أنحاء ألمانيا فإن رجال الدين الهولنديين اتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في سبعينيات القرن السادس عشر لم يغيروا مذهبهم إلى البروتستانتية بعد مقاومة رمزية وبأعداد كبيرة. ويذهب البعض في تقريره لاجمالي عدد من تحولوا إلى البروتستانتية بحوالي من ٥ إلى ١٠ بالمائة وأن الأغلبية العظمى إما لاذوا بالفرار أو طردوا أو لاقوا مصرعهم. وهكذا فإن الكنيسة الكالفينية في الأراضي المنخفضة صاحبة «العقيدة المسيحية الاصلاحية». كان لزاماً عليها أن تبدأ من جديد وتشق طريقها عنوة، إذا جاز هذا التعبير، ولم يكن بمقدورها أن تبني كنيسة فوق أساس سابق من قساوسة مرتدين عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وطبيعي أنه كان هناك عدد غير قليل من القساوسة البروتستانتين الذين تلقوا تدريبهم الفقهي في جنيف وبازل وزيوريخ وغيرها ولكن لم يتحقق هذا في وقت مبكر يكفي لكي يحلوا محل «أبناء الشيطان» الذين طردوهم وتخلصوا من سلطاتهم. وتأسست جامعة ليدن (٢ يونيو ١٥٧٢) أساساً بهدف توفير العدد اللازم من الوعاظ الذين تلقوا قدراً طيباً من التعليم ولكن مضت سنوات قبل أن

تحقق الجامعة الهدف المرجو منها. والملاحظ ان عدداً قليلاً جداً من أبناء أسر الشريحة العليا من الطبقة الوسطى هم الذين استهوتهم وظيفة الوعظ والقيام بدور قسيس. هذا إن كان هناك أصلاً من قبل منهم هذا العمل، الذي يتقاضى عليه راتباً ضئيلاً جداً. وكان سكان المدن من أبناء البرجوازية يكرهون ولا يثقون في الوعاظ من أبناء البروليتاريا الذين يلقون عظات ارتجالية من نصوص مختارة اختياراً سيئاً فضلاً عن ميلهم إلى المطالبة بالعدالة الاجتماعية للطبقات الدنيا. وإن تدفق الكثيرين من الكالفنيين الذين تلقوا تعليماً جيداً في الأراضي المنخفضة الشمالية، في عام ١٥٨٥ وما بعدها، وكذا انتصار الكالفنية النشطة في مجمع دوردرشت الكنسي، كل هذا ساعد على تحسن المكانة الاجتماعية للوعاظ، ومنذ ذلك الحين بدأت السلطات السياسية تبدي نحوهم قدراً كبيراً من الاحترام، ومن ثم احتلوا مكاناً عالياً في ترتيب الأسبقية في مجال الوظائف الرسمية والخاصة. ولكن من المهم أن نلاحظ أنه على الرغم من أن طبقة حكام المدن حرصوا على أن يشغلوا المراتب العليا في قوات المدن العسكرية إلا أنهم أبوا تماماً أن يتلقى أبناءهم تعليماً يؤهلهم لشغل منصب رجل دين ولم يشجعوهم أبداً على العمل وعظاً.

وما أن تخلص الكالفنيون من البابويين وطردوهم حتى شرعوا في تأسيس تنظيمهم الكنسي الخاص بهم، فكل أبرشية لها مجلسها الكنسي الخاص بها الذي يضم قساوسة ورجالاً من العامة البروتستانتين ويتولى الواعظ رئاسة المجلس. وتتجمع الكنائس في مجموعات تمثل هيئة رئاسية أو محفلاً قيادياً. وتؤلف المحافل القيادية لكل من المقاطعات السبع مجعاً كنسياً - وكان هناك مجمع لكل من شمال وجنوب هولندا. وتجتمع هذه المحافل من حين إلى آخر وتميزت بدورها النشط في الضغط على زملائهم سكان المدن وحملهم على الانضمام إلى الكنيسة الرسمية. ومن المفهوم تماماً أن أهم ما كان يشغل بالهم هو تحويل الجيل الجديد من الشباب، وجاهدوا ابتداءً من عام ١٥٧٤ من أجل تحويل أبناء العاملين في الريف والمدن إلى

البروتستانتية عن طريق السيطرة على المدارس الابتدائية في هذه المناطق وتم تحويل معظم الأديرة الكاثوليكية الرومانية السابقة والعديد من البنايات الضخمة الأخرى إلى مدارس لتلقين التعاليم الدينية الأولية. وتولى التعليم في هذه المدارس مدرسون اختبرهم الوعاظ والمجالس الكنسية المحلية للتأكد من حسن عقيدتهم والتزامهم. وسعى الوعاظ جاہدين لحث الأوابجاركية الحاكمة على حظر ممارسة شعائر العقيدة الكاثوليكية الرومانية، وعدم تشجيع جميع أشكال الانشقاق البروتستانتي سواء اكانوا من اتباع مذهب أرمينيوس أم المعمدانين أم اللوثرين. واستغرق هذا وقتا بطبيعة الحال. ففي عام ١٥٨٧ أكدت المحكمة العليا في هولندا لابرل ليشتر ان أغلبية السكان «ما زالوا ميالين بقلوبهم إلى العقيدة الكاثوليكية الرومانية». والجدير بالذكر هنا أن ديريك فولكرتس كورنهرت الكاثوليكي الليبرالي وصف في صراحة نزقة، في إحدى كراساته التي يدعو فيها إلى التسامح الديني، الاصلاحيين بأنهم «أصغر عصابة حتى الآن» وبعد بضع سنوات زعم أولدن بارنفلت أن أفضل العناصر وأكثرها ثراء من بين سكان المدن البرجوازيين لا يزالون مخلصين للعقيدة القديمة. بيد أن هذه الآراء، وأمثالها يجب ألا نأخذها مأخذ الجد. غير أنها لم تكن مهمة يسيرة على الوعاظ المتحمسين والمجامع الكنسية أن يفرضوا على مواطنيهم عشاق المتعة ومدمني الشراب (وربما العمل الشاق) قواعد عقيدة جان كالفن وتيودور بيز بما تحمله من فروض قاسية ومحظورات متزمنة.

ولكن الوعاظ وأنصارهم بين أبناء الطبقة الحاكمة - الذين كانوا أقلية ولكن ذوي نفوذ أحيانا حتى في أمستردام حيث كان الله في المرتبة التالية لشیطان جمع المال - ظلوا ضاغطين في سبيل الهدف المرسوم. وحقق لهم عنادهم تدريجيا النتائج المرجوة. وأعانهم على هذا كونهم أشد الدعاة المتحمسين للحرب ضد أسبانيا التي نظروا إليها باعتبارها حربا صليبية ضد أعداء المسيح. ولم يسمع الحكام من ذوي الفكر المفتوح إلا أن يشددوا

النكير عليهم. واعتبر الكالفينيون المتحمسون توقيع هدنة الاثني عشر عاما في ١٦٠٩ أحد أمرين إما أنه ضعف مزر أو خيانة عظمى. وازداد استيائهم بسبب مساندة أولدن بارنفلت وكثيرين من الحكام لتعليم أرمنيوس وقد كان بارنفلت استاذ فقه الالهيات بجامعة ليدن صاحب آراء عن التدبير الإلهي المسبق أكثر اعتدالا من الكالفنيين المتشددين. وأدت الخلافات السياسية إلى زيادة حد الانقسام بين المعارضين ومناهضي المعارضين، أو أتباع أرمنيوس وأتباع خصمه الرئيسي جومارس كما كانوا يسمون. وأصبح أتباع أرمنيوس هم أولدن بارنفلت والأوليباركية الحاكمة الذين أيدوا سياسة المقاطعات في أشد صورها تزمنا. وأفاد هذا ضمنا تفوق مقاطعة هولندا ورسخ سلطة وجهاء الحضر لتكون سلطة غير قابلة للتحدي، بما في ذلك تفوق سلطتهم على الكنيسة ذاتها. ونادى مناهضو المعارضين بالحرية المطلقة للكنيسة الكالفنية وعدم تدخل أو رقابة السلطة المدنية. وطالبوا كذلك بإطاحة تامة بجميع الكاثوليكين الرومان والمنشقين البروتستانت وطردهم من مواقع السلطة في الكنيسة وفي الدولة.

وحرب الكتيبات التي أشد أوارها بين المعارضين ومناهضي المعارضين تبدت في تلك الممرارة المتزايدة التي اقترنت بغرس روح الخلاف في دماء الجانبين وطبيعي ان كان مناهضو المعارضين هم الأشد قسوة باعتبارهم الطرف الأشد تطرفا. وكانوا كذلك الأكثر عدداً على الرغم من أن المعارضين نجحوا في الاحتفاظ لأنفسهم بوضع الهيمنة داخل الكنيسة حتى عام ١٦١٨ بفضل مساندة أولدن بارنفلت والحكام الذين اتفقوا معه في الرأي. ومن المسلم به ان كراهية رجال اللاهوت Odium Theologicum اثار غضبا أشد شراسة من أي شيء آخر. ولكن المدهش، مع هذا، ان نجد مواطنة محترمة من مناهضي المعارضين في روتردام تعلن أنها على استعداد لأن تعجل بالزواج من خنزير ولا تتزوج من قسيس من المعارضين. ونجد رجلاً من وجهاء امستردام يرفض دعوة قدمت إليه لحضور قداس لأحد رجال الدين

المعترضين موضحاً أنه يفضل الجلوس في بيت للدعارة في حضرة سبع عاهرات على حضور هذا القداس. وحسم هذا الخلاف المذهبي عندما تدخل الأمير موريس إلى جانب مناهض المعترضين، ليس عن اقتناع راسخ بالنقاط الجوهرية فيما يختص بالتدبير الالهي المسبق، بل لاعتبارات سياسية خالصة، إذ أراد أولاً وقبل كل شيء أن يعزز مركزه كحاكم كما يعزز سلطة ادارة عموم الولايات (نظراً لأنه يركن إلى أغلبية أعضائها) على حساب أولدن بارنفلت والاليجاركية الحاكمة لمقاطعة هولندا. وتمكن من تحقيق ذلك نظراً لأن حكام امستردام من مناهضي المعترضين، والذين كانوا يعارضون بشدة أولدن بارنفلت بعد أن وقع هدنة الاثني عشر عاماً وحال دون تشكيل شركة الهند الغربية، تصادف أن كانوا في السلطة خلال هذه الفترة من السنة. واستطاع موريس أن يركن الى تأييد المقاطعات الزراعية وممثليهم في ادارة عموم الولايات والمعروف عنهم أنهم يشعرون دائماً بالغيرة من طغيان نفوذ هولندا.

وتوافق سقوط أولدن بارنفلت مع انعقاد المجمع الكنسي الكالفني في دور درشت والذي أكد صواب مذهب مناهض المعترضين وأنه المذهب الصحيح وأدان مذهب أتباع ارمينيوس واتهمهم بالفسوق أو الهرطقة. ومن ثم تم استبعاد (على الورق) من قيادات الكنيسة والدولة جميع المعترضين ومعهم الكاثوليك الرومان واللوثريين والمعمدانين وكل من لا يناصر قواعد مذهب «الدين المسيحي الاصلاحى الحق» على النحو الذي حدده مجمع دور درشت الكنسي. بيد أن هذه القاعدة لم تطبق دائماً من المقاطعات السبع كلها في صورة قسم شرعي رسمي، شأن قانون الاختبار الانجليزي لعام ١٦٧٣ English Test ACT. وأصبح بإمكان الكثيرين من الحكام المتعاطفين مع المعترضين الحفاظ على مناصبهم لمجرد تأكيدهم أنهم يناصرون القواعد المذهبية التي أقرها مجمع دور درشت. وسرعان ما أعيد تشكيل كنيسة المعترضين المحظورة، بعد أن فصل قسبوسسيتها أو سجنوا أو طردوا وتوقف

اضطهاد المعارضين لبضع سنوات. ونظم المعارضون أنفسهم على نفس الأسس المتبعة في الكنيسة الإصلاحية الرسمية. ومن ثم أعلنوا تسليمهم بالكتاب المقدس للولايات في عام ١٦٣٧ على أنه المصدر الوحيد للمذهب البروتستانتي واختلفوا عن الكالفنيين المتزمطين من حيث أن لهم حرية الحكم لأنفسهم في تقدير قيمة المحررات العقائدية والاعترافات والكتب التعليمية للعقيدة بدلاً من الارتهان بكتب ميدلبرج التعليمية وقواعد «العقيدة المسيحية الإصلاحية الحقّة» على النحو المحدد في دور درشت في عام ١٦١٩. وسمحت السلطات أول الأمر للمعارضين بكنيستهم العامة في امستردام في عام ١٦٣٠. ولكنهم ظلوا كما هم مجموعة من الصفوة المنغلقيين على أنفسهم وإن كان لهم نفوذ نسبي، ولم يزد عددهم خلال القرن السابع عشر على ١٢٠٠٠ عضو.

وكان أحد القرارات التي اتخذها مجمع دور درشت الكنسي هو ضرورة إصدار ترجمة معتمدة للكتاب المقدس تضعها لجنة من ثمانية عشر من فقهاء اللاهيات وعلماء اللغة والمؤرخين حيث أن النسخة الهولندية (المعتمدة على نسخة لوثر الألمانية) غير وافية. وتم انجاز هذا العمل خلال الفترة من ١٦٢٧ - ١٦٣٧ وسمى «الكتاب المقدس للولايات» نظراً لأن إدارة عموم الولايات هي التي تولت تمويل المشروع وصدر بناء على أمر منها. واحتل الكتاب المقدس بصورته الجديدة في حياة الهولنديين وأدبهم مكانة مماثلة تماماً لمكانة النسخة المعتمدة في إنجلترا خلال القرنين ١٧، ١٨. والتماثل قريب جداً بين النسختين نظراً لأنهما اكدا على أن الأدب الجيد يمكن أن تتولاه لجنة. وانتشر الكتاب المقدس الجديد على نطاق واسع في جميع المقاطعات السبع، وأقبل الناس على قراءته بحماس شديد مما عزز دون شك الميل القائم بالاعتماد على اسم الرب العليّ التقدير وعلى عونه في جميع الأوقات في المراسلات الرسمية والشخصية على السواء. وإن هذه الشعبية التي حظيت بها الصياغة اللغوية الجديدة للكتاب المقدس لم تكن قاصرة على الكالفنيين وحدهم، ولكن يبدو أنهم دفعوا بها بعيداً ووسعوا من نطاق استخدامها أكثر مما حدث في أي بلد

آخر في أوروبا فيما عدا اتباع كرومويل في إنجلترا وتضمنت معظم الرسائل المحررة سواء رسائل أعمال أم عادية الكثير من العبارات الدالة على التقوى والورع.

وإذا لم يكن ثمة خلاف في الرأي بشأن انتصار الكالفنيين في عامي ١٦١٨ - ١٦١٩ إلا أنه لم يكن انتصاراً كاملاً. ذلك أن بعض النتائج التي تحققت سرعان ما تضاءلت أو تلاشت بفعل المقاومة السلبية والتوجه غير المتعاون لدى كثير من الحكام. إذ تم تشديد التنظيمات التشريعية القائمة ضد الكاثوليكين الرومان وتطهرت الكنائس الكالفنية من جميع الصور أو الزخارف الداخلية التي كانت لا تزال موجودة، ولكن الحكام منعوا الوعاظ من إزالة آلات الأرغن. وأصبح للقساوسة الكالفنيين كلمة مسموعة أكثر من ذي قبل ولكن لم يكن مسموحاً لهم بعد بالدخول أعضاء في مجال المدن أو في المجالس الحاكمة للمقاطعات، كما وأن السلطة النهائية للكنيسة لم تزال مستقرة إلى حد كبير بين أيدي الأوليغاركية الحاكمة التي لها الهيمنة على الأموال ومستلزمات الانفاق. وكما سبق أن ذكرنا فإن أغلبية الوعاظ طوال الحقبة التي عاشتها الجمهورية الهولندية هم من أبناء الشريحتين المتوسطة والدنيا من الطبقة الوسطى - وينظر الحكام إلى أبناء هاتين الشريحتين نظرة ازدراء - ولم يشكل الوعاظ طائفة مستقلة أو طبقة من بين الطبقات الثلاث المستقلة على نحو ما فعل غرماؤهم من الكاثوليكين الرومان في بلدان أخرى مثل فرنسا وإسبانيا والبرتغال. وعلى الرغم من أن الحكام كان لهم ممثلوهم داخل المجمع الكنسية، على نحو ما سوف نرى فيما بعد، إلا أنهم نادراً ما حملوا أنفسهم مشقة الخدمة في المجالس الكنسية التي خرج فيها كبار الكالفنيين من بين صفوف سكان المدن العاديين على نحو ما كان الكثيرون من الوعاظ.

ولعل خير من يمثل الطابع العام لموقف البرجوازيين الهولنديين البروتستانتين من الكنيسة والدولة هو القائد البحري ميشيل دي رويتر

الذي بدأ حياته يعمل صبيا على ظهر إحدى السفن في فلاشنج وانتهى كواحد من أثرياء البرجوازيين في امستردام. ويحدثنا كاتب سير معاصر له، وهو أيضا واعظ من المعترضين، فيقول عنه إنه كان يجلب القساوسة الكالفنيين ولم يكن ليتسامح مع أي انتقاد غير نزيه لهم، إلا أنه مع هذا يصر على عدم جدارتهم في التدخل في أي شيء خارج المجال الخاص بهم. وكان مؤمناً إيماناً راسخاً بأن تكون للدولة اليد العليا على الكنيسة على نحو ما كان الحكام المعاصرون إذ كان لهم، كما لاحظ وليام كيار، ممثلوهم في جميع اجتماعات المجامع الكنسية للمقاطعات «ليسمعوا ويكونوا على يقين من أن أعضاءها لا يناقشون أموراً تتعلق بالحكم أو الحكام. وإذا حدث المحظور فإن ممثل الولايات يصبح قائلاً (Myn Heeren Predicanten) (أي كفوا عن الحديث في هذا أيها السادة الوعاظ)* ولم يكن الحكام ليتسامحوا مع أي نقد من فوق منبر الوعظ. وقال كار في ملاحظته كذلك إذا ما ألزم الوعاظ أنفسهم بالسلوك الحسن القويم فإنهم يحظون «باحترام العامة كأنهم آلهة على الأرض»، وربما كان هذا هو السائد فعلاً كقاعدة عامة، ولكن ثمة استثناءات كثيرة خاصة بين أوساط طوائف المشتغلين بالصيد والملاحة البحرية وهي طوائف تنسم بالخشونة. ولم يكن القسيس جود فريد أو ديمانز هو القسيس الكالفني الوحيد الذي كشف عن استيائه في معرض المقارنة بين عدم التوقير من جانب العامة الهولنديين إزاء مرشديهم الروحيين وبين ما يبديه الكاثوليكيون الرومان من البرتغاليين والأسبان من توقير واذعان لقساوستهم.

يتبين مما سبق أن الكنيسة الكالفنية «للعقيدة المسيحية الاصلاحية الحق» لم تتحرر تماماً من سيطرة واشراف السلطة المدنية على نحو ما كان يأمل وعاظ التيار المناهض للمعترضين في العامين ١٦١٨-١٦١٩. كذلك لم يتعرض الكاثوليك الرومان والمعتضون المنشقون للاضطهاد كثيراً بالقدر

* W. Carr; An Accurate Description of the United Nether Lands [ed. 1691]

الذي تصوره مجمع دور درشت الكنسي حتى قبل ردة الفعل التي حدثت إثر وفاة الأمير موريس وبعد أن حل محله فريديريك هنري (١٦٢٥) والاطاحة في الوقت نفسه بالحكام من التيار المناهض للمعترضين في امستردام. وراينا كيف سمح علنا بكنيسة المعترضين في امستردام في عام ١٦٢٠. وفي العام التالي لذلك أجاز مجلس المدينة تشييد كنيسة لوثرية ضخمة، وهي ثاني كنيسة تُبنى منذ أربعين عاماً. ولكن ظل الاضطهاد موجوداً، وتحمل عبئه حتماً الكاثوليك الرومان.

إذ على مدى أكثر من مائة وخمسين عاماً بعد الانتصار النسبي للكالفنية النشطة في مجمع دوردرشت الكنسي، لم يستطع الكاثوليك الرومان إقامة شعائرهم الدينية بصورة مشروعة سواء علناً أم في أماكن خاصة للعبادة بل ولم يستطيعوا إقامة طقوس التعميد أو الزواج بطريقة قانونية على يد قسيس كاثوليكي روماني من أي نوع أو بيع وشراء الكتب الدينية الكاثوليكية، والأدب الديني والمطبوعات أو التماثيل الكاثوليكية الرومانية أو تزيين الترنيمات الكاثوليكية الرومانية أو إقامة احتفالات أو ولاء أو القيام بعطلات الأعياد والمناسبات الكاثوليكية الرومانية. لم يكن بإمكان أي كاثوليكي روماني أن يشغل منصباً رسمياً سواء من الجامعة أم المجلس البلدي أو الاسطول أو الجيش. والمرأة الكاثوليكية الرومانية غير المتزوجة غير مسموح لها بأن تكتب وصية. وأي إرث عن وصية لمؤسسة كاثوليكية رومانية يعتبر ملغياً وكان لم يكن تلقائياً بحكم القانون. وقضى القانون في مناطق كثيرة بأن الأبناء من زيجات مشتركة ينشأون على المذهب البروتستانتي. وفرضت عقبات قانونية كثيرة تحول دون ممارسة شعائر العقيدة الكاثوليكية بحيث باتت حرية العقيدة والفكر المسموح بها، على محدوديتها الشديدة، للكاثوليك الرومان أمراً لا قيمة له تلقائياً إذا ما تم تطبيق القوانين العقابية ونفذت كما يجب. وعلاوة على هذه المعوقات المدنية التي عانى منها الكاثوليك الرومان، ظل كثيرون من معاصريهم البروتستانت ينظرون اليهم زمناً طويلاً وكأنهم

خونة حقيقيون أو مشكوك فيهم - منذ عام ١٥٦٨ إلى ١٦٤٨ يعملون
لمصلحة أسبانيا، ومن ١٦٤٨ إلى ١٧٤٨ وكانهم يعملون لمصلحة فرنسا.

والشيء الوحيد الذي جعل الحياة محتملة بالنسبة لمواطني الجمهورية
الهولندية من الكاثوليك الرومان هو أن قوانين العقاب ضد ممارسة
شعائهم الدينية لم تكن تطبق بحذافيرها في جميع الأوقات والأماكن، كما
أصبح من اليسير أكثر فأكثر تجنبها أو اغفالها مع مضي الأيام والسنين
خلال القرن الثامن عشر. ومن حسن حظ الكاثوليك الرومان والمنشقين أن
إدارة عموم الولايات رفضت تماماً خطط الوعاظ الرامية إلى إنفاذ التفوق
الكالفني بصورة كاملة وقامة. إذ أنها لم تصر أبداً على أن يناصر جميع سكان
الجمهورية، العقيدة المسيحية الأصلية الحق، كما لم تشأ أن تجعل
حضور الشعائر في الكنيسة الكالفنية إجبارية. واعتبر الزواج المدني ملزماً
شأنه شأن جميع صور طقوس الزواج الدينية البروتستانتية، وأن من حق
أي إنسان أن يختار بين أي من الشكلين (أو كليهما). والكنيسة الأصلية
الهولندية حسب المعنى الذي حدده مجمع دور درشت الكنسي، وعلى النحو
الذي وضعه لتأسيسها، كانت الشكل الوحيد للعبادة المسيحية الذي حظى
باعتراف كامل من الدولة إلى أن حدثت ثورة ١٧٩٥ وقطعت أواصر العلاقة
بين الكنيسة والدولة. بيد أنها لم تكن كنيسة رسمية للدولة بنفس القدر الذي
كانت عليه، كمثال، الكنيسة الانجيلية في إنجلترا.

وعلى الرغم من أن الكاثوليك الرومان كانوا ممنوعين قانوناً من شغل أي
منصب رسمي أو حكومي، وعلى الرغم من أن أغلبية المهن كانت ظاهرياً مغلقة
دونهم، إلا أنه كان دائماً وأبداً بعض الكاثوليك الرومان (أو المتخفين) دون
الافصاح عن هويتهم) موجودين في هذه الوظائف فيما عدا، على الأرجح
السنوات التالية مباشرة لتاريخ انعقاد مجمع دور درشت الكنسي. ولم تخل
الساحة من عمداء وحكام الكاثوليك الرومان. وقبيل النصف الثاني من القرن
الثامن عشر ظهرت مدن كثيرة تضم أسراً كاثوليكية رومانية لها أبناء عملوا

محامين وموثقين عامين وأطباء لأجيال عديدة. ومنذ حوالي عام ١٦٣٠ وما بعدها عرفت أكثر المدن كنائس وأماكن لعقد الاجتماعات للكاتوليك الرومان وقد تنكرت وراء مسميات أخرى ويعرفها كل واحد منهم بما في ذلك القساوسة الكالفينيون المحيطون. وبالمثل فإن القساوسة الكاثوليك الرومان الذين التزموا جانب الحذر والحيطة، وتجنبوا التباهي بأنفسهم وبملابسهم، كان بإمكانهم أداء الشعائر الدينية لطوائفهم على الرغم من أوامر الحظر المكتوبة التي تحظر نشاطهم.

هذا الاغفال المنظم لقوانين العقوبات ضد الكاثوليك الرومان إنما يرجع من ناحية إلى شيوع الآراء النفعية والمؤمنة بأن للدولة السلطة العليا على شئون الكنيسة بين صفوف الأغلبية من الحكام مما جعلهم على استعداد لتأييد التسامح الديني، كما يرجع من ناحية أخرى إلى «حب كسب المال» وهو النزوع الذي احتفى به فوندل في كتبه عن أهل امستردام والذي لم يكف القساوسة الكالفينيون عن إدانته. أما عن صغار الموظفين المتهمين باتخاذ إجراءات تنفيذ قوانين العقوبات - أمثال من يعملون مندوبين عن مأموري التنفيذ والعمداء والحجاب وغيرهم - فقد اعتادوا قبول الرشاوى في سبيل إغماض عيونهم وصم آذانهم فكانهم لا يرون ولا يسمعون ممارسات الكاثوليك الرومان لشعائهم. واصطلاح على تسمية هذه المدفوعات باسم «مصرفات الخدمة الخاصة». وسرعان ما أصبحت، بعد أن ظلت سارية زمناً طويلاً، شرطاً مسبقاً غير رسمي ولكن معترف به من جانب السلطات المحلية المعنية، دون أي أسرار بشأنه، وتكررت الشكاوى المقدمة من الجامع الكنسية الإصلاحية ضد «شيوع الممارسات الكاثوليكية» وتواطؤ المسؤولين المنوط بهم بتنفيذ القوانين واعتادت إدارة عموم الولايات وإدارات المقاطعات الاستجابة إلى هذه الشكاوى بإصدار مراسيم تحذير أو إعلانات مقيد فيها تأكيد العمل بقوانين العقوبات. بيد أن التهرب منها ظل سائداً بسبب الرشوة. ونظراً لانتظام دفع مصرفات الخدمة الخاصة، فقد انتهى الأمر بالغائها في

عام ١٧٨٧، والذي اقترن بضعف التشدد الكالفني. وجاء هذا نتيجة طبيعية لانتشار الافكار التي غرستها حركة التنوير، وازاء الغاء هذه المصروفات بات لزاما دفع رواتب للموظفين الذين عاشوا عليها.

وإن الاثر المتراكم عن التمييز القانوني والاجتماعي والمالي ضد الكاثوليك الرومان في هولندا اقضى بالضرورة الى تناقص أعدادهم تدريجيا على المدى الطويل. إذ بينما كان للبروتستانت على اختلاف مشاربهم أغلبية ضئيلة (حسب الظن السائد، على فرض ان كانت لهم فعلاً مثل هذه الأغلبية) بالقياس إلى الكاثوليك الرومان في عام ١٦٥٠ فإن هؤلاء على ما يبدو بلغت نسبتهم حوالي ٤٥ بالمائة من إجمالي عدد السكان بعد خمسين عاماً، وحوالي ٤٠ بالمائة في عام ١٧٩٥. ومن ثم فإن ما تزعمه المجمع الكنسي الاصلاحية بأنه كان هناك حوالي ٢٠٠٠٠ بيجوين (امراة علمانية من الكاثوليك الرومان) في المقاطعات في عام ١٦٥٠ إنما هو زعم يتعين علينا ألا نأخذه مأخذ الجد تماماً. هذا على الرغم من أنه لو كان هناك عشر هذا العدد فإنه يكون أمراً لافتاً للنظر إذا ما عرفنا انه كان هناك اقل من ٢٠٠٠ قسيس كالفني. والأمر الأكثر صعوبة هو تقدير توزيع الكاثوليك الرومان داخل البنية الطبقية، على الرغم من وضوح أن الأغلبية العظمى من طبقة الحكام في المدن وأثرياء التجار والمثقفين تحولوا الى البروتستانتية قبل نهاية القرن السابع عشر. كذلك الأغلبية العظمى من البروليتاريا كانوا من البروتستانت. بينما ظل الكثيرون من التجار أبناء الشريحة الدنيا للطبقة المتوسطة والحرفيين على مذهبهم الكاثوليكي الروماني. كذلك فإن سكان المناطق الكاثوليكية الرومانية التابعة لإدارة عموم الولايات ظلوا على ولائهم تماماً مثلما حدث مع الكاثوليك الرومان الايرلنديين الخاضعين للحكم الانجليزي. وكانت هناك جيوب من القرى الكاثوليكية الرومانية المتناثرة هنا وهناك في جميع أنحاء المقاطعات، بما في ذلك معاقل البروتستانت مثل الكامار وليدن. ولا ريب في أن وليم كار إنما كان يعكس اعتقاداً شائعاً وأن لم يُقم دليلاً على صحته، حين أكد في عام

١٦٨٨ أن ثلث سكان امستردام ينتمون إلى الكنيسة الكالفنية الرسمية. والثلث الثاني من الكاثوليك الرومان، (من أتباع لوثر وارمنيوس وبراون ومعمدانيين وكوكرز) ويهود. وإن نسب هذه النحل والمذاهب المتنافسة في امستردام لا تعكس بالضرورة قوة كل منها في بقية أنحاء البلاد، ولكن على الرغم من مظاهر التباين الواضحة، محليا وإقليمياً إلا أننا لا نجانب الدقة كثيراً إذا قلنا أنه من بين مليوني مواطن هم جملة السكان، لم يناصر الكنيسة الهولندية الرسمية الاصلاحية أكثر من ثلث السكان عمليا.

وعلى الرغم من أن قرارات مجمع دور درشت الكنسي لم تنفذ كاملة أو تزايد التهرب منها أو ابطالها على مر الأيام إلا أن الانتصار الكالفني الذي تحقق في عام ١٦١٨-١٦١٩ حقق بالفعل نتائج مؤكدة البقاء. وأن التحالف بين آل اورانج والوعاظ الذي ساق أولدن بارنفلت إلى المقصلة استمر قرابة قرنين من الزمان على الرغم من الشكوك التي ساورت كلا من الجانبين تجاه الآخر. مثال ذلك ان فريديريك هنري كان ارميني الهوى وإن لم يكن كذلك في ممارساته، كذلك فإن ميل ابنه الواضح، وهو خليفته ايضا، الى الخمر والنساء واللهو ربما أوقعه في مشكلات خطيرة نتيجة التعاليم الكالفنية المحرمة لأسباب اللهو والمتعة لم ينقذه منها سوى موته المبكر في عام ١٦٥٠. كذلك فإن رعاية وليم الثالث للمسرح تعارضت هي الاخرى مع الاخلاقيات الكالفنية الصارمة. ولن ندهش إذا وجدنا أن بعض الوعاظ وزوجاتهم الذين حضروا حفلاً اقامه الكونت جون موريس كونت ناسوا عقب عودته من البرازيل «لم يداخلهم السرور على الإطلاق» عند مشاهدة برنامج ترفيهي اداه بعض الهنود الحمر الأمريكيين وهم عراة تماما. ولعل ما هو أخطر من تلك الانحرافات الدنيوية التي شابت سلوك أمراء آل ناسو هو مساندة حكام المدن في أكثر من مناسبة قبل عام ١٦٤٨ للملك فرنسا الكاثوليك ضد رعاياهم المتمردين عليهم من البروتستانت الفرنسيين. بيد أننا إجمالاً لن نقع في تبسيط مغل إذا قلنا إن أغلبية الوعاظ بعد عام ١٦١٨ نظروا إلى أمراء آل

أورانج المتعاقبين باعتبارهم أبطالهم الطبيعيين ضد حكام مقاطعة هولندا عامة وامستردام خاصة الذين قيل عنهم إنهم أصحاب فكر حر أو مناهضون لمذهب المعارضين. وكان القساوسة الكالفينيون نزاعين إلى تأجيج الحماس تأييداً لآل أورانج بين صفوف الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى وبين العامة وهم الطبقات التي تمتد إليها جذورهم. وكان هذا التحالف بين بيت آل أورانج وبين الكنيسة الكالفنية المتشددة أمراً له أهميته خاصة في أوقات الأزمات القومية، مثل الغزوتين الفرنسيتين في عام ١٦٧٢ و١٦٤٨ عندما أمكن حشد فقراء سكان المدن والبروليتاريا للتظاهر في الشوارع من أجل الضغط على الأوليغاركية الحاكمة في دور البلديات.

نتيجة أخرى راسخة من النتائج التي تمخضت عنها أزمة ١٦١٨-١٦١٩ هي أن الناس عامة، والحكام خاصة، أصبحوا أكثر اهتماماً عن ذي قبل بالحفاظ على مظهر التمسك التقليدي بالعقيدة. وعلى الرغم من أن هذا الاتجاه كان ظاهرياً أكثر منه حقيقة واقعة، إلا أنه جعل السلطات المدنية أحياناً أكثر قابلية لضغط الوعاظ. ونلاحظ أن الاتجاه إلى إبعاد الكاثوليك الرومان والمنشقين البروتستانت عن وظائف الحكم، وإن لم ينفذ بحذافيره في كل مكان وفي كل الأوقات، طبق على نحو حفز كثيرين من أبناء الطبقة العليا إلى العودة إلى الكالفنية خلال الفترة التالية التي امتدت قرناً ونصف القرن. وتعرّز كذلك الجانب البيوريتاني من الكالفنية بفضل نتائج مجمع دور درشت الكنسي حيث أدان الوعاظ ميل سكان الأراضي المنخفضة إلى الحرية واللذة. وعلى أثر هذا خضع أعضاء الكنيسة الكالفنية لرقابة صارمة من جانب المجالس الكنسية التي يتبعونها، والتي اعتادت التدخل في أخص أمورهم. واستمر أسلوب استنكار الاحتفال بالاعياد الكاثوليكية مثل عيد الميلاد ورأس السنة الميلادية، كما أعلن أن المسرح والرقص من الكباثر. ولكن الكالفنيين لم ينجحوا أبداً في حظر هذه الانحرافات جملة واحدة، وعجزوا عن إحداث أي تأثير بشأنها في المراكز ذات الطابع العالمي مثلاً لاهاي وامستردام.

ولكن في الريف والمدن الصغرى وفي المقاطعات الأخرى غير مقاطعة هولندا نجح الوعاظ تدريجياً في فرض الفكر والسلوك البيوريتاني على كثيرين من الفلاحين وأبناء الطبقة الوسطى في المدن.

واستطاع فوتيوس الواعظ المتحمس المعمر أن يحظر المسرح لي ليوواردن حيث ساندته في هذا حاكم المقاطعة الكالفيني المخلص. ولكن المسرح صمد في أمستردام أمام جميع مظاهر الاستنكار من جانب الوعاظ على مدى سنوات طويلة. كذلك ازدهرت في أمستردام قاعات الموسيقى وقاعات الرقص على الرغم من استياء الوعاظ. بل إن الفنادق التي اعتادت أن تقدم ضروب التسلية لعملائها من كبار القوم، سمحت لضيوفها باقامة حفلات في غرفهم مع معاقرة الخمر ومشاركة النساء وتقديم الأغاني. ولم تحتفظ هذه الفنادق بفرقة من الموسيقيين لجذب الزبائن، على نحو ما اعتادت أن تفعل بعض الحانات العادية، وإنما فضلت بدلاً من ذلك بأن تُغوي كل من تتوسم فيهام الاستعداد ليكونوا زبائن لها بتقديم خيارات واسعة ومتعددة من الخمر الفرنسية والإسبانية والألمانية بل واليونانية. وكانت بعض قاعات الموسيقى والرقص بشكل أو بآخر مواخير وبيوت دعارة متتكرة، ولكن هذا لا يمنع من وجود غيرها تقدم لعملائها الموسيقى دون أن تتحول إلى بيوت سيئة السمعة. والجدير بالذكر أن حياة الليل ومختلف ضروب الانحرافات في أمستردام لم يكن لها مثيل في المقاطعات السبع حيث النغمة العامة فيها أكثر هدوءاً. وكان هذا هو الحال في زيلاندا وخاصة التي ترسخت فيها أقدام الكالفنية خلال سبعينات القرن السادس عشر، وحيث كان الحكام أيضاً من المؤمنين الأكثر صدقاً وحماساً من نظرائهم في المقاطعات الأخرى. وأكثر استعداداً للتعاون مع الوعاظ. كذلك فإن النزعة الكاثوليكية الرومانية الهولندية تأثرت تأثراً قوياً نتيجة خضوعها قسراً للنزعة البيوريتانية الكالفنية ونزعة التقشف على نحو ما يبين لنا عند مقارنة مظاهرها الخارجية بمظاهر النزاعات الأخرى في الشرق والجنوب. وحدث شيء مماثل لهذا للكاثوليكية الرومانية في إنجلترا

بسبب موقفها في مواجهة النزعة البروتستانتية المهيمنة.

وحاولت الكنيسة الهولندية الاصلاحية جاهدة من أجل توجيه مسار الحياة الفكرية من خلال الجامعات الخمس التي أنشئت في المقاطعات على التوالي فيما بين عامي ١٥٧٥ و١٦٢٦. وتعزز هذا الاتجاه كذلك نتيجة أحداث عامي ١٦١٨ - ١٦١٩، بعد تطهير الجامعات القائمة آنذاك من جميع المدرسين الذين لم يمثلوا لمقررات مجمع دورد درشت الكنسي. ولكن انتصار التيار المناهض للمعترضين لم يكن انتصاراً كاملاً هنا أيضاً. ومن ثم وجب على جميع الوعاظ واساتذة الجامعات ومدرسي المدارس أن يقسموا قسم الولاء المذهبي - أو هكذا كان من المفروض أن يحدث، ولكن غالباً ما كان يتم التوقيع مع تحفظ من جانب الموقع اعتماداً على تأويله الشخصي. ويحدث أحياناً أن يرفضه مدرس من المدرسين ولكنه يظل في مهنته. والملاحظ أن اساتذة الجامعات من أمثال القسيس كاسبار بارليوس الشاعر والباحث الكلاسيكي الشهير، الذي طرد من ليدن في عام ١٦١٩، عادوا لشغل كراسيهم باكاديمية امستردام أو غيرها حيث كانت السلطات أكثر ميلاً إلى استرضائهم. وكانت الجامعات الكالفنية راسخة الجذور فيما يختص بالعقيدة الوضعية والفلسفة الأرسطية شأن الجامعات الكاثوليكية الرومانية في البلدان الأخرى. ولكن رعاية الأبرشيات في هولندا أعوزتهم السلطة - وغالباً الارادة - لخلق الحوار تماماً على نحو ما يبين لنا من الحظر غير الفعال الذي أعلنوه ضد نشر فلسفة ديكارت في جامعة ليدن. بل إنه سمح بانضمام أحد المعترضين إلى الجامعة في عام ١٦٤٩ في أوترشت ذاتها التي أصبحت معقلاً للأصولية الكالفنية مع تولي فوتيوس منصب الاستاذ ورئيس قسم اللاهوت على مدى أربعين عاماً (١٦٣٦-١٦٧٦). وتم تعيينه في هذا المنصب شريطة ألا يعتبر هذا التعيين سابقة لغيره. وأخيراً فإن حفاظ الأوليغاركية الحاكمة للمقاطعات على سيادة مقاطعاتها ضمن عادة إمكانية أن يجد استاذ كفاء مكاناً له إذا ما رفضته إحدى المقاطعات، في مقاطعة أخرى تكون السلطات فيها أقل تزمناً.

وإذا كان الموقف الكالفيني التقليدي من اتباع لوثر واتباع براون والمعمدانيين وغيرهم من المنشقين البروتستانت أقل عداوة من موقفهم من الكاثوليك الرومان، إلا أنه ظل زمناً طويلاً ينطوي على قدر من الضغينة والتسامح غير المضطرب. والمعروف أن حركة دعاة تجديد العماد كشفت في أول عهدها عن تجاوزات جامحة في ألمانيا والأراضي المنخفضة وهي تجاوزات أدانها كل من لوثر وزو ينجلي وغيرهما من الاصلاحيين البروتستانت واستخدموا في أدانتهم لها عبارات شديدة القسوة تعادل عنف الانتقام الذي صبه القساوسة والأمراء المعمدانويون في الأراضي المنخفضة طائفة داعية للسلم ومفرطة في تطهرها وأشهر جماعاتهم طائفة تعرف باسم اتباع منو، وقد سمو أنفسهم بهذا الاسم تبعاً لمؤسسها منو سيمونز Menno Simons الذي رفض الخدمة المدنية وعارض حمل السلاح مهما كانت الظروف والأسباب. وتوقف اضطهاد هذه الطائفة في عام ١٥٨١. ويرجع السبب أساساً إلى الحماية التي فرضها عليهم وليام ذي سايلنت ولكنهم لم يتمتعوا بكامل حقوق المواطنة إلا في عام ١٦٧٢. وربما كان المعمدانويون في بدايتهم أكبر فريق بروتستانتي، غير أن كثيرين منهم حولوا ولاءهم إلى الوعاظ المناضلين في ستينيات وسبعينيات القرن السادس عشر وتخلوا عن وهمهم الداعي إلى السلم وعدم المقاومة في الصراع ضد إسبانيا وروما. وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر شكل المعمدانويون واتباع منو طائفتين ناجحتين ومنفلقتين، حتى أن زيهم المفرط في مظاهره التطهيرية أثار تعليقات ساخرة من الكالفنيين ودعاة حرية الفكر على السواء. وفقدت هاتان الطائفتان أرضهما بتناقص أعدادهما تدريجياً خلال القرن الثامن عشر، ولكن الملاحظ أن أحداً لم يقيم بعد مدى أهمية دورهما في الحياة الاجتماعية والثقافية في الأراضي المنخفضة الشمالية.

وشكل اليهود فريقاً آخر متميزاً استفاد من التسامح النسبي الذي أبدته الطبقة الحاكمة للجمهورية الهولندية تجاه جميع العقائد فيما عدا العقيدة

الكاثوليكية الرومانية. ويقدر عدد طائفة امستردام من اليهود البرتغاليين والأسباب الذين هربوا من شبه جزيرة أيبيريا لتجنب محاكم التفتيش حوالي ٨٠٠ نسمة في عام ١٦٢٦ و ١٢٠٠ في عام ١٦٥٥ وسمحت لهم السلطات ببناء أول معبد لهم في عام ١٥٩٧ ثم آخر أكثر جمالاً في عام ١٦٢٩. هؤلاء هم من اليهود المعروفين باسم السيفارديم الذين تعززت شوكتهم عندما وفد اليهم المهاجرون اليهود الاشكنازيم من ألمانيا وبولندا واستقروا في المقاطعات الشرقية وكذلك في امستردام. والجدير بالذكر ان الاشكنازيم في أغلبهم دون مستوى أسلافهم ثقافياً واقتصادياً وكانوا عرضة لازدراء غير اليهود واليهود السيفارديم على السواء. ولكن الظروف لم ترغبهم على الحياة في جيتو أي حي خاص بهم. وفي عام ١٦٥٧ اعترفت ادارة عموم الولايات صراحة بجميع اليهود المقيمين كرعايا هولنديين وإن لم يتمتعوا بكامل حقوق المواطنة حتى عام ١٧٩٦.

وحظي اليهود السيفارديم بقدر من الاعتبار بين معاصريهم من المثقفين الكالفنيين، فإن رجالاً من أمثال جروتويس وبارليوس وفوسيسوس اعتادوا استشارة علماء الحاخامات مثل منسه ابن اسرائيل بشأن نقاط خاصة بشروح وتعليقات على نصوص العهد القديم أو اللغة العبرية. ولكن على الرغم من أن الوعاظ الكالفنيين ألفوا دائماً الاستشهاد بأحداث وقصص التاريخ اليهودي كما رواها الكتاب المقدس في حججهم، وتمجيد موسى وأنبياء العبرانيين كقدوة ومثل أعلى إلا أن وصمة العار الاجتماعية التي لحقت بالشعب اليهودي في المسيحية ظلت غالبية في الأراضي المنخفضة الشمالية وفي غيرها من بلدان أوروبا. ولقد كشف وليم أوسيلنكس الكاتب المتشدد في مناهضته لتيار المعارضين عن نزعة معادية للسامية في كتاباته. وثمة واعظ كالفني أسره الأسباب في باهيا عام ١٦٢٥، أكد لقادة جوقة الترتيل أن اليهود وإن كانوا يلقون في امستردام معاملة تتسم بالتسامح بحكم القانون، إلا أن شعب امستردام ينظر إليهم شزراً وينفر منهم وأن الولاء الذي أبداه اليهود في

برازيل الاراضي المنخفضة أثناء التمرد البرتغالي (١٦٤٥-١٦٥٤) ساعد ولا شك على تحسين وضع المعابد اليهودية الثلاثة في امستردام حيث قام حاكم المدينة وزوجته بزيارة رسمية لآخر محفل يهودي اقيم في عام ١٦٤٢.

ونشط التجار اليهود المقيمون في امستردام منذ فترة باكورة في تجارة السكر والعبيد، ولكن عصرهم الذهبي جاء في القرن الثامن عشر، بعد أن أصبحوا مستثمرين كبارا في كل من الشركتين الهندية الشرقية والهندية الغربية، وفي مزارع سورينام. وحقق المقاولون اليهود المتخصصون في العمل والمتعهدون لجيوش الحكام ثروات كبيرة أيضاً، مثلما اثنى يهود آخرون يقومون باعمال التمويل وحققوا ثرواتهم عن طريق المضاربة في سوق أسهم امستردام واستخدموا في هذا الأساليب التي وصفها جوزيف بنسودي لافيغا في كتابه *Confusion de la Confusiones* (١٦٨٨). وفي القرن الثامن عشر اقتدى المولون اليهود في هولندا بمواطنيهم المسيحيين إذ ركزوا قدرا كبيراً من استثماراتهم في المصارف الانجليزية. والملاحظ انه حتى خلال الحرب الانجليزية في الأعوام ١٧٨٠-١٧٨٤ ضم المشترون الهولنديون للسنوات البريطانية جماعة «برناس أو الزعماء الروحيين لجماعة الاخوة الليتامى من أبناء الامة اليهودية البرتغالية المعروفة باسم ابي تيتونيان *Abi Tetonian* في امستردام، مثلما كان من بينهم المجلس الكنسي لكنيسة واللون في امستردام. * وطبيعي أن اليهود في المقاطعات السبع لم يكونوا جميعا ممولين كبارا ولا برجوازيين موسرين أيضاً، وانما على العكس كانت أغلبية الجماعات اليهودية فقيرة ومتخلفة ويمثلون الوجه النقيض لليهود من طائفة السيفارديم الاثرياء والمتقنين في امستردام. والملاحظ أن البنية المتزمتة والمنغلقة على نفسها لهذه الجماعات اليهودية حالت دون تطورهم ليصبحوا طبقة عمالية قوية أو طائفة حرفية، كما كان زعمائهم الروحيون ينفرون من

* C. Wilson, *Anglo - Dutch Commerce and Finance in the 18th Century* (Cambridge, 1941); pp. 192.

أي تغيير أو أفكار جديدة قد تؤثر على سلطتهم. وقبل نهاية القرن الثامن عشر كان أكثر من نصف اليهود السفارديم أعضاء المحفل الرئيسي في امستردام، وعددهم ٢٨٠٠ يهودي، يتلقون اعانات اجتماعية للفقراء، كما وأن حوالي ١٧٥٠٠ يهودي من الاشكنازيم المقدر عددهم ٢٠٣٠٤ يهود والمقيمين في البلد نفسه كانوا مصنفيين اجتماعيا ضمن الشحاذين.

ونذكر هنا هذه العبارات التي كثيرا ما يستشهد بها الناس وهي من كلمات أندرو مارقل في ديوانه «شخصية هولندا»:

في امستردام التركي والمسيحي والوثني واليهودي
مدينة الملل ومصنع الانقسامات المذهبية
انها بنك الفكر حيث لا تجد رأياً غريباً
إلا وله رصيد وسوق للتعامل

وتعكس لنا هذه الأبيات بدقة نجاح الطبقة العاملة في الحيلولة دون الكالفنيين المتحمسين والتضحية بالكسب المادي لحساب التقوى والورع على الرغم من الانتصار الجزئي الذي حققه التيار المناهض للمعترضين في مجمع دور درشت الكنسي. فلقد كانت دعوة الى التسامح الديني. نسبيا هي في جوهرها دعوة نفعية تستهدف مصلحة ذاتية بيد أنها كانت أيضا دعوة أصيلة وهيأت ظروفها كشفت عن تباين مفيد مع الأوضاع في بلدان أوروبا الأخرى، وعبر بيتر دي لاكور، وإن لم يكن هو نفسه من طبقة الحكام، عن مشاعر كثيرين من الحكام عندما قال في كتابه «مصلحة هولندا: الحرية أو التسامح في خدمة الرب وفي كل ما يتعلق بعبادته وسيلة قوية للإبقاء على كثيرين من سكان هولندا وإغراء الأجانب من أجل الإقامة فيها». والحقيقة أن الأوليغاركية الحاكمة عجزت عن أن تصل إلى المدى نفسه الذي دعا اليه دي لاكور ولم تستطع أن تمنح الكاثوليك الرومان والمنشقين البروتستانت حرية عبادة كاملة. إذ كان التعصب الكالفني ونفوذهم لا يزالان قوين للغاية وظلوا

على تعصبهم هذا لأكثر من قرن آخر. ولكن الحكام ذهبوا إلى أقصى مدى يستطيعونه في ضوء الظروف السائدة. وإذا كانوا قد استلهموا موقفهم من المصالح التجارية وليس عن اقتناع ديني إلا أنهم جديرون بالثناء إذ جعلوا المقاطعات المتحدة للأراضي المنخفضة الحرة أقل بلدان أوروبا تعصبا على مدى مائتي عام.

ومن الانصاف أن نضيف إلى هذا أن الاقتناع الديني بين جميع طبقات المجتمع الهولندي اتجه أحيانا إلى جانب التسامح، ففي عام ١٦٦٢، وتحت ضغط من الوعاظ أصدرت ولايات فرزيلاند مرسوما يحظر على بعض الطوائف البغيضة مثل أتباع سوسينوس Socinus والكويكرز دخول هذه المقاطعة وممارسة شعائهم الدينية فيها. ونص القانون على معاقبة المخالفين بالقيام بأعمال السخرة لخمس سنوات ثم الطرد من المقاطعة. كذلك حظر القانون طبع ونشر مطبوعاتهم وفرض عقوبات قاسية على المخالفين. وإثار هذا القانون عاصفة من النقد مما اضطر ولايات المقاطعة إلى الإسراع بسحبه. وأشار الناقدون في تقديمهم إلى أنه علاوة على ما ينطوي عليه هذا الإجراء المماثل لمحاكم التفتيش من تعصب أصيل، فإن من السخرية أن تحظر الطوائف البروتستانتية، أيما كان وجه الغرابة في معتقداتهم في بلد يمنح الحرية الدينية لليهود والأتراك بل وحرية العبادة الجماعية في المعابد اليهودية.

وفي معرض حديث دي لاكور عن ضرورة الحرية الدينية غير المقيدة استشهد بعبارات وردت في كتاب صدر وقت اعلانه لدعوته هذه مشيراً إلى موافقته على مضمونها. والكتاب المقصود عنوانه De Jure Ecclesiasticum لمؤلفه ل. م. كونستانس. فقد أكد كونستانس أن «السلطة القاهرة مخولة فقط للحكام المدنيين. وأن جميع السلطات والحقوق التي يدعيها رجال الدين لأنفسهم، إن كانت لهم مثل هذه السلطات والحقوق أصلاً، لا بد وأن تنتزع منهم. والقول بتبعية الكنيسة للدولة، على نحو ما تشير هذه الملاحظات، وهو

الرأي الذي زاد وضوحاً في النصف الثاني من القرن السابع عشر، تاکد بوضوح أكثر نتيجة موقف الكنيسة الكالفنية فيما يتعلق بشركتي الهند الشرقية والغربية وهذا هو موضوعنا الذي يتعين أن نلتفت إليه الآن.

ب- في الخارج

يبدو أن كلا من لوثر وكالفن وزوينجلي وغيرهم من زعماء الإصلاح البروتستانتيين، لم يولوا اهتماماً كبيراً، وربما لم يفكروا قط في امكانية انتشار البروتستانتية خارج أوروبا، وإنما شغلهم، كما هو الواقع، النزاعات الدينية القاسية على أرضهم. ولم يكن من المبرر عقلاً أن نتوقع من مديري الشركتين الهندية الشرقية والهندية الغربية أن يشغلوا بالهم ويبدوا اهتماماً كبيراً بمشكلة التبشير بالانجيل التي اغفلها الآباء المؤسسون للبروتستانتية. ولكن سرعان ما اضطر المديرون إلى مواجهتها بطريقتين. أولاً كان عليهم أن يقدموا شيئاً يشبع حاجات مستخدميهم، حتى ولو على سبيل المساعدة للحفاظ على الانضباط والاخلاق في رحلاتهم البحرية الطويلة أو أثناء اقامتهم في البلدان الاستوائية، ثانياً، كان عليهم أن يضعوا في حساباتهم وجود النزعة الكاثوليكية الرومانية النشطة في المناطق التي استقر فيها قبلهم البرتغاليون، وزاد الأمر بالنسبة لشركة الهند الشرقية إذ بات لزاماً أن تضع في الحساب المذاهب الدينية والاجتماعية ذات الجذور العميقة مثل الاسلام والهندوسية والبوذية.

وعلى الرغم من أن صكوك انشاء الشركتين لم تتضمن أي نص بشأن الابقاء على رجال الدين الكالفنيين في مجالاتهم الخاصة أو أي التزام بالعمل على نشر نور العقيدة المسيحية الاصلاحية الحقبة بين الكاثوليك الجهلة وعبداء الاوثان الذين عميت بصائرهم، إلا أن كلتا الشركتين سرعان ما اعترفتا بأنهما تتحملان عبء هذا الالتزام. ونجد كتاباتهما الرسمية تشتمل على العديد من الاشارات الى هذه الامور. ولم يكن أداء الشركتين دون انجاز هذه

القواعد كما يزعم البعض كثيراً. ذلك أنه على مدى قرنين هما عمر شركة الهند الشرقية الهولندية أرسل المديرون إلى الشرق وأبقوا على نفقتهم الخاصة ما مجموعه حوالي ١٠٠٠ واعط كالقني وعدة آلاف من الوعاظ الذين لا يعملون رجال دين والمدرسين. ووفر مجلس ادارة الـ ١٧ الاموال اللازمة لبناء وصيانة الكنائس والمدارس، كما أسس العديد من الحلقات الدراسية لتدريب الطلاب المرشحين للعمل كهنة، وإن لم تعمر هذ المؤسسات طويلاً. وتحمل المجلس أيضاً تكاليف طبع وتوزيع الكتاب المقدس وآداب الوعظ الديني على نطاق واسع، سواء باللغة الهولندية أو باللغات الهولندية أم باللغات العامية الدارجة. وإذا كانت جهود مجلس ادارة الشركة الهولندية في مجال الوعظ الديني لم تكن مؤثرة وفعالة قياساً بجهود كنيسة روما، إلا أنها يقينا كانت اكبر كثيراً من جهود مديري شركة الهند الشرقية الانجليزية خلال الفترة ذاتها.

وإذا كان مجلس ادارة الـ ١٧ تأثر حقاً، وبصورة كافية، بالخلفية الكالفنية وبضغوط رجال الدين داخل الوطن، من أجل عمل شيء تأييداً «للعقيدة المسيحية الاصلاحية الحقّة». في الشرق، فإن أعضاء المجلس قرروا بحسم كذلك أن يفرضوا تبعية الكنيسة فيما وراء البحار لسلطانهم هناك. إذا أصرروا على أن يكون الأمر بين الحكام هناك، فيحددون لرجال الدين والوعاظ مكان مباشرتهم لمهامهم ومدة العمل بدلاً من أن يتركوا الأمر لمجالس الكنائس تديره حسب مشيئتها. ومارس الحاكم العام ومجلسه في باتافيا حقهما في المراقبة والاطلاع على جميع المراسلات التي يبعث بها الوعاظ ومجالس الكنائس في الشرق إلى سلطات الكنيسة في الأراضي المنخفضة. كذلك أصر مجلس ادارة الـ ١٧ على أن يحضر الموظفون العلمانيون العاملون بالشركة جميع اجتماعات مجالس الكنائس، وألا تكون قرارات هذه المجالس سارية المفعول إلا بعد موافقة موظفي الشركة وتعاونهم مع المجالس في تنفيذها. وكان الوعاظ يتقاضون أجورهم من الشركة لا الكنيسة، ومن ثم نظر إليهم

المديرون باعتبارهم موظفين لديهم ومأجورين لهم، وأن وضعه في سلم المراتب الوظيفية للشركة عند قاع السلم الاجتماعي. أخيراً فلأنه على الرغم من اعتراف مجلس الـ ١٧ بضرورة أن يتولى مهام التبشير قساوسة مؤهلون واكفاء، إلا أنهم اغلقوا المدرسة المخصصة للتدريب على التبشير التي سبق أن أقاموها في ليدن عام ١٦٢٢ بعد أن استمرت في العمل عشر سنوات فقط. وبعد ذلك رفضوا المطالب التي تقدم بها وألح من أجلها مراراً أبناء الطبقات وأعضاء المجامع الكنسية في الأراضي المنخفضة من أجل إعادة فتح هذه المدارس أو إقامة غيرها. واستند المسؤولون عن الشركة في رفضهم إلى حجج تتعلق بالوضع الاقتصادي، زاعمين أن بالإمكان تدبير القساوسة اللازمين دون حاجة إلى هذه المؤسسة، ولعل السبب المرجح لهذا هو ما أوضحته الخبرة العملية لهم من أن خريجي مدرسة تدريب الوعاظ كانوا أقل طواعية وامتثالاً لموظفي الشركة من الوعاظ الذين اختارهم مديرو الغرف الإقليمية وتوسموا فيهم سهولة الانقياد.

وإزاء هذه التبعية الصارمة التي تخضع فيها الكنيسة للدولة - تبعية الرب لشيطان المال - ليس لنا أن ندهش حين كشفت خبرة شركة الهند الشرقية الهولندية عن معاناة كبيرة في سبيل الحصول على العدد اللازم والملائم من الوعاظ للخدمة في الشرق. وتعذر على الشركة أيضاً الإبقاء عليهم هناك مدداً طويلة في ظل ظروف مثيرة للإحباط بل ومذلة أحياناً. ويصدق نفس الشيء، مع إجراء التغييرات الضرورية، بالنسبة لرجال الدين والوعاظ الذين عملوا فيما وراء البحار في خدمة شركة الهند الغربية، وللأسباب نفسها. وبغض النظر عن أي شيء آخر فقد انقضى وقت طويل إلى حين توفر العدد الكافي من القساوسة الكالفنيين في المقاطعات السبع لاشباع الحاجات الروحية لأبناء مجتمعاتهم وتثبيت أقدامهم حتى لا يضعفوا أمام الكاثوليك الرومان أو المنشقين البروتستانت. وثمة عامل آخر جعل من العسير تعبئة القساوسة والوعاظ الملائمين للخدمة في جزر الهند وهو نوع المعاملة التي يتلقونها إذ

كانوا يعاملون باحترام أقل كثيراً مما اعتادوا في أرض الوطن. إذ كان مستخدمو الشركتين الهندية الشرقية والهندية الغربية يتصفون بالصفافة والغلظة - ونجد أنهم كانوا يوصفون بعبارات مثل «حثة المجتمع الهولندي» و«الاجلاف الذين اتوا مع حضيض المجتمع الألماني» الخ - ولا غرابة ان تشتعل الخلافات مرارا بينهم وبين نظرائهم من رجال الدين العاملين في الشركة. واعتاد مجلس إدارة الـ ١٧ أن يصدر بين الحين والآخر أوامر إلى رؤسائه لمعاملة رجال الدين والوعاظ بما يليق بهم من احترام حسب ما تقضي به التعليمات. بيد أن المراسلات الرسمية وحكايات الرحالة زاخرة بمزاعم عن عجرفة رجال الدين وقصورهم من ناحية وعن الكبرياء الدنيوي ومشاعر العداء لرجال الدين على الجانب الآخر. تلك كانت، على أقل تقدير، هي الظروف السائدة خلال القرن السابع عشر. وخلال القرن الثامن عشر تحسنت كثيراً المكانة الاجتماعية للوعاظ في شركتي الهند الشرقية والهند الغربية.

ومن المشكلات الأساسية التي واجهت الوعاظ في عملهم في الشرق ليس أنهم «استدعوا» للعمل في خدمة أبرشية أو جماعة لمدة سنوات طويلة - كما هو الحال في الأراضي المنخفضة - بل كانوا عرضة للنقل بعد فترة قصيرة من مكان إلى آخر حسب نزوة الحاكم العام ومجلسه في باتافيا. وبغض النظر عن المتاعب الشخصية التي تسببها هذه التنقلات المتكررة، خاصة بالنسبة للقساوسة المتزوجين، فإن هذا يعني انه لم يتوفر لأي منهم الوقت الكافي لتعلم اللغة المحلية إذا كانت مهمته هي التبشير. وبالمقابل إذا ما بقوا، لنفرض أربع أو خمس سنوات، في مكان واحد وتعلموا لغة هذه المنطقة، فإنهم قد يجدون أنفسهم معينين للعمل في إقليم آخر حيث لا تنفعهم لغتهم ومعارفهم التي اكتسبوها بشق الأنفس. وهذه هي واحدة من أهم المشكلات التي اعتادت مجالس الكنائس في المستعمرات ان تشكو منها مر الشكوى والتي تحقق منها بعض كبار المسؤولين في الشركة. لذلك نجد نيقولا فيربورج حاكم فورموزا الهولندية من ١٦٥٠ الى ١٦٥٣ الذي انتقد بحدة الارساليات

الكالفنية المحلية. يقترح أن يتعهد جميع من يأتون للعمل في الجزيرة بالبقاء مدة عشر سنوات حتى وإن كلف هذا الأسلوب الشركة أجورا أعلى. ولم يأخذ أحد بنصيحته، ومن ثم فإن التغيرات المتكررة التي طرأت على مدة ولاية العاملين أدت دون شك إلى إعاقة استمرارية المهام التبشيرية.

وعلى الرغم من تكرار الشكوى من سوء مستوى الوعاظ، إلا أن النقد الأشد قسوة انصب على صفار مساعدى الوعاظ الذين كانوا يسمون عادة «المعززون للنفوس التعبية» و«زوار المرضى». ويجرى تجميع هؤلاء من بين أبناء الطبقة العاملة وحدها على وجه التقريب ونجد من بينهم جنود جيش سابقين وخياطين واساكفة ونساجين وخبازين .. الخ. والقليلون جدا منهم من توفرت لديهم المبادئ الأولية من التدريب على تعليم الفقه الديني، ولم يكن مسموحا لهم بتقديم العظات ارتجالا أو الصلاة عفو الخاطر بل عليهم قراءة النص مكتوبا. ويصف أحد الرحالة مهامهم على ظهر السفن في عام ١٧٠٣ بقوله: «تلاوة صلاة الصبح وصلاة المساء من كتيب صغير، وترتيل بعض آيات المزامير. ويتعين عليهم في أيام الأحاد قراءة إصحاح أو عظة كاملة وترتيل مزمور أو ترنيمة في البداية وفي النهاية. وإذا كان هناك مريض حضره الموت فإن معزى الروح التعبية يقوم بتشجيعه ويرتل أمامه بعض الصلوات ويساعده على استجماع إرادته، ويشد أزره. وهؤلاء المقرئون كانوا يعملون في خارج البلاد معلمي ابتدائي وزوارا لمرضى المستشفيات أو مهام أخرى مماثلة يؤدونها تحت إشراف الوعاظ.

وبدأت الشكاوى من قصور وعدم صلاحية هؤلاء المقرئين منذ العقد الثاني من تاريخ انشاء شركة الهند الشرقية الهولندية، واستمرت طالما استمرت الشركة. والملاحظ أن البحارة كانوا مستائين أشد الاستياء منهم خاصة بسبب أصولهم الاجتماعية إذ أنهم من أبناء الطبقة العاملة، فضلا عن أنهم شغلوا مرتبة تعادل مرتبة ضباط السفينة دون القيام بأي عمل يدوي أو ملاحى. وبدلا من تسميتهم «زوار المرضى» أطلقوا عليهم أسم «زوار

الشراب، بسبب اتهامهم بالانغماس في أعمال تجارية خاصة وحياة متحلة. وثمة حادثة تكشف عن نوع المعاملة الساخرة التي كانوا يتعرضون لها. ذلك أن الحاكم المحلي لبلدة تامسوي في فورموزا عام ١٦٥٠ طلب أحد «زوار المرضى» الحضور لزيارة مريض وعندما سأل عنه وعن مكانه، قدموا له برميلاً من العرق وطلبوا منه الصلاة لشفائه. وطبيعي أن هذا لم يكن قاصراً على الهولنديين وحدهم. والملاحظ أن الوعاظ لم يكونوا ليقدموا أي مساندة أو دعم لهؤلاء المقرئين وأن كانوا أكفاء، إذ كانوا يزدرئونهم وينظرون إليهم بعين الحسد لأنهم يشغلون مكانتهم. وقليلون منهم من أصبحوا قساوسة. ولا غرابة في هذا نظراً لأن القليلين جداً منهم هم الذين يعرفون مبادئ اللاتينية التي تعتبر شرطاً من شروط العمل قسيساً. وإذا كانت كل الشواهد تشير إلى انخفاض مستوى هؤلاء المقرئين، إلا أن هذا لم يمنع ظهور استثناءات قليلة ولم يحل دون قيام بعضهم بالعمل كمدرسين أكفاء في فورموزا وسيلان.

أما إلى أي مدى كانت تبعية الكنيسة الإصلاحية الهولندية في آسيا إلى السلطة المدنية فهذا ما تأكد بصورة مثيرة في عام ١٦٥٢. ففي أكتوبر من العام نفسه أصدر الحاكم العام والمجلس أمراً بإقامة صلاة شكر وصوم يوم بمناسبة ذكرى انتصارات هولندا على «المتمردين» في ملوفا، والصلاة من أجل انتصارات جديدة للجيش الهولندي. وخاطر مجلس كنيسة باتافيا بانتقاد هذا القرار على أساس أن الحرب في أمبويينا لم تكن حرباً عادلة، وإنما دفع إليها السلوك الاستبدادي السيء من جانب الهولنديين أنفسهم - كما كان بالفعل وأقضى هذا الاعتراض إلى أن وجه الحاكم العام إلى المجلس توبيخاً قاسياً، واتهم أعضاء مجلس الكنيسة بعدم الوطنية وأنهم أعطوا انطباعاً سيئاً عن تجارة الشركة التي تجرى بدافع أخلاقي قويم. وكان رد فعل المديرين في أمستردام أشد عنفاً وأصدروا أوامراً بأن أي واعظ يتجرأ على تقديم مثل هذا الانتقاد في المستقبل يفصل فوراً من الخدمة ويسرل إلى الأراضي المنخفضة على ظهر أول سفينة مسافرة. وقبل أن تصل هذه البرقية إلى باتافيا

أتى مجلس الكنيسة المحلية خاضعاً ذليلاً لينفذ تعليمات الحاكم العام. وتخلص الوعاظ الذين تفوهوا بالنقد من ترحيلهم بأن قدموا اعتذاراً مهيناً وتراجعوا عما قالوه. وفي حدود علمي فإن الشركة لم تتلق أي نقد آخر بعد ذلك من الكنيسة الاصلاحية الهولندية بشأن الحروب سواء أكانت حرباً عادلة أو غير عادلة.

وقعت هذه الحادثة وقتما كان جوهان ما يتسوكر حاكماً عاماً لفترة طويلة (١٦٥٣-١٦٧٨) وهو الذي تعلم في جامعة لوفان الكاثوليكية الرومانية وكانت الشكوك تحيط بالتزامه البروتستانتي. والملاحظ أنه حتى الكالفينيون المتزمتون من أمثال جان بيترزون كوين، وانطوني فان ديمين وريجكوف فان جوينز الأكبر لم يترددوا في اتخاذ موقف متشدد إذا ما ساورهم شك في أن الوعاظ يتدخلون في أمور خارجة عن نطاق تخصصهم الديني. علاوة على هذا فقد لوحظ أنه كلما وقع نزاع بين السلطة المدنية والسلطة الدينية كان الحاكم العام ومجلسه في باتافيا والمديرون في أرض الوطن يأخذون دائماً جانب الطرف العلماني. وقد يحدث أحياناً أن يطلب مجلس إدارة الـ ١٧ مشورة المجمع الكنسية فيما يتعلق بنقاط محددة تخص العقيدة أو نظام الكنيسة. بيد أنهم أوضحوا بما لا مزيد عليه أن القرار النهائي قرارهم هم. وإذا تعارضت مصالح الشركة مع مصالح الكنيسة فإن الغلبة دائماً للأولى. وفي هذا كتب المديرون إلى ما يستوكر ومجلسه في ١٢ إبريل ١٦٥٦ «طبيعة الحكم لا تحتل سلطتين متساويتين القدر من حيث المراقبة، تماماً مثلما لا يوجد جسد له رأسان، ولهذا يتعين أن تكون للسلطة المدنية الهيمنة الكاملة المطلقة على السلطة الدينية».

ومن هنا يتعين علينا النظر إلى النشاط التبشيري الكالفيني في جزر الهند الشرقية والغربية في ضوء هذه التبعية الصارمة التي تخضع فيها الكنيسة للدولة. لقد كانت الكالفنية التقليدية في أرض الآباء من القوة بحيث تضمن إصدار تعاليم محددة من شركة الهند الشرقية إلى الحاكم العام ومجلسه في

عام ١٦٥٠ وتنص على ضرورة التزام حكومته في جزر الهند الشرقية بالعقيدة المسيحية الاصلاحية الحقبة حسب المعنى الذي حدده المجمع الكنسي في دوردرشت في عامي ١٦١٨-١٦١٩ وعلى ألا يسمح للعامة بممارسة أي عقيدة أخرى، وإن لا تسامح على الاطلاق مع الكاثوليكية. ولكن عمليا لم يكن موظفو الشركة في آسيا عادة شديدي التزم كما توحى هذه التعليمات، وإن تباين موقفهم باختلاف الاوقات والأماكن والظروف. وعلى أية حال نادرا ما كان المديرون يصرون على التزم الحرفي في تطبيق السياسة الرسمية. ولم يكن بالإمكان فرضها قسرا إلا في الأماكن التي تتمتع فيها الشركة بولاية مطلقة وحيث يمكنها أن تغفل - كما هو الحال في باتافيا الحصينة - حساسيات ملوك وشعوب البلدان المجاورة. ولقد لزمّت الشركة الحذر دائما وفي كل مكان مثال ذلك أنه في عام ١٦٢٧ صدرت الأوامر إلى البعثات التبشيرية في فورموزا بالعمل على نشر المسيحية ولكن دون تطفل أو اقحام تجنبا لاثارة غضب حكام الصين واليابان الأقوياء والمجاورين لغورموزا.

ولقد كان الموقف الكالفني التقليدي من المنشقين البروتستانت في بلدان ما وراء البحار أكثر إمعانا في عدم التسامح عنه في أوروبا. إذ لم يسمح لاتباع لوثر بتشكيل محفلهم الأول المعترف به وإقامة كنيستهم الأولى في باتافيا في عام ١٧٤٣-١٧٤٩. وامتد هذا لأكثر من قرن حين نالوا هذه الامتيازات في امستردام، ولكنهم تلقوا في الوقت ذاته تقريرا أعترافا متاخرا عن مواعده في كوراتشاو Curacao في جزر الهند الغربية. وجاءهم عصر التسامح متاخرا أكثر من ذلك في جنوب أفريقيا على الرغم من ارتفاع نسبة اتباع لوثر الذين هم من أصل الماني بين الجنود المستوطنين في منطقة الكاب. ولم يسمح لهم بأن يكون لهم قسيس خاص بهم في مدينة الكاب إلا في عام ١٧٨٠. ولكن لم يحدث أي تدخل في شئون العبادة الخاصة للمنشقين البروتستانت. وعني القساوسة الكالفنيون منذ البداية إلى النهاية في الشرق بالحرب على جبهتين، ضد عقيدتين نشيطتين نشاطا: عقيدتهم آلا وهما الكاثوليكية الرومانية

ومנית الدعوة الكالفنية في الشرق بعوايق ثلاثة. أولاً: رسوخ الكاثوليكية الرومانية في مناطق كثيرة. ثانياً: استهوت الكنيسة الكاثوليكية بالوانها الزاهية المصاحبة للمعبادة وبهاء احتفالاتها ذات الجمال الأخاذ أغلبية الأسويين على عكس الكلمات الجافة التي يرددوها الكالفنيون وكنائسهم الخالية من أي مسحة جمال. ثالثاً: البعثات التبشيرية الكاثوليكية الرومانية أكثر عدداً ونشاطاً من البعثات البروتستانتية المنافسة لها. ولنبدأ بالحديث عن النقطة الأخيرة. ففي عام ١٦٤٧ لم يكن هناك سوى ثمانية وعشرين قسيساً كالفنياً على طوال المنطقة الممتدة من سيلان وكوروماندل إلى مولقا وفورموزا. وفي باتافيا التي قدر عدد سكانها في عام ١٦٧٠ بحوالي ٢٠٠٠٠ نسمة وفي عام ١٧٦٨ بحوالي ١٦٠٠٠ نسمة لم يكن بها سوى ستة وعاظ في عام ١٦٦٩، وثمانية وعاظ في عام ١٦٨٠، وسبعة وعشرين وعاظاً في عام ١٧٢٥ واثنى عشر وعاظاً في عام ١٧٤٩. وبحلول نهاية القرن الثامن عشر لم يبق منهم سوى واحد أو اثنين فقط. وهذه أعداد غير ذات بال إذا ما قورنت بأعداد القساوسة البرتغاليين والأسبان والفرنسيين والإيطاليين الذين عملوا في مجال التبشير لحساب الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في آسيا. مثال ذلك أن الجماعات الكاثوليكية الرومانية التي كانت تعيش في سيلان خلال القرن الثامن عشر كان لديهم عادة قساوسة - على الرغم من وجودهم غير القانوني في الأراضي الهولندية - أكثر بكثير من الوعاظ العاملين في المحافل البروتستانتية علاوة على هذا، وكما أشرنا سابقاً، غالباً ما كان الوعاظ البروتستانت رجالاً متزوجين تنقلوا كثيراً من موقع وظيفي إلى آخر، بينما الوعاظ الكاثوليكي أعزب ومستقر في عمله لا ينتقل منه إلا بعد سنوات طويلة - وغالباً ما يبقى فيه مدى الحياة.

أما عن جاذبية الدعوة الكاثوليكية الرومانية فهذا ما يبين لنا بوضوح من سؤال وجهه أنطونيو كارديم، الجيزويتي البرتغالي، وقتما كان سجيناً في ملقا

في عام ١٦٥٢. إذ سأل واعظا هولنديا هناك لماذا يتسامح الهولنديون إزاء المساجد الاسلامية ومعابد الوثنيين دون الكنائس الكاثوليكية الرومانية. وأجاب الواعظ الهولندي بصراحة قائلاً. إذا سمحت السلطات بكنيسة كاثوليكية رومانية فإن شعبه سيتركه ليذهب اليها. وهذه هي الحقيقة في أبسط صورها. إذ على مدى عمر شركة الهند الشرقية الهولندية عجز الواعظ الكالفني عن أن يكون ندا للواعظ الكاثوليكي الروماني. أن المجتمعات الأوروبية الآسيوية في باتافيا وملقا وكوروماندل وسيلان وملبار كانت، كلما اتاحت لهما الفرصة تترك الواعظ البروتستانتي يعظ داخل مقصورة فارغة بينما يقبلون على سماع قداس أو تعمد أطفالهم أو إقامة مراسم زواجهم على يد قسيس كاثوليكي روماني متكرر. وحسب وجهة النظر البروتستانتية فإن دورة العقيدتين دورة دينية تعادل قانون جريشام، حيث «الوثنية البابوية» تكسب أرضاً دائماً على حساب «العقيدة المسيحية الإصلاحية الحق».

كذلك تأكد وبنفس القدر تفوق العاملين في مجال التبشير الكاثوليكي واسلوبهم على مناهضتهم. ونذكر هنا كلا من كوين وفان ديمين وهما اثنان من بين كثيرين من الكالفنيين العلمانيين ذوي المناصب الرفيعة واشتدوا من نجاح البابويين، كما كانوا يسمون القساوسة الكاثوليكين الرومانيين. وفي هذا الصدد كتب فان ديمين الى مجلس ادارة الـ ١٧ في عام ١٦٢١ فقال: «الاسبانيون في هذا المجال أقوى منا بكثير، وييدي قساوستهم حماساً ومهارة أفضل من وعاظنا». وقيل نفس الرأي عن الوضع التبشيري في فورموزا في الوقت الذي بدأ فيه أن الوضع مواتٍ تماماً أمام الهولنديين الساعين إلى غرس بذور الانجيل هناك وتكررت القصة ذاتها في سيلان. إذ بعد توقيع الهدنة مع البرتغاليين في عام ١٦٤٤، لاحظ مجلس كنيسة باتافيا أن البابويين أقدر على «تشكيل جنينهم الشائه المبترس» في ظل أسوار القلاع التي يسيطر عليها الهولنديون. وتوارت شكاوى مماثلة ولا نهاية لها من سولو وملقا ومن كل منطقة تلاقت فيها العقيدتان. وأكثر من هذا أنه بعد طرد

جميع القساوسة البرتغاليين من سيلان عام ١٦٥٨ بقيت الكاثوليكية الرومانية وانتعشت من جديد بفضل جهود القساوسة التبشيريين في جوان الذين عملوا سرا بين التاميل والسنهاليين.

وكان لهذا الوضع أصدأؤه الواسعة في أوروبا حيث حاول القسيس البروتستانتي الفرنسي بيير جوريو أن يفند وهو في منفاه الاعتقاد الشائع بأن البروتستانتين، على عكس الكاثوليك الرومان، أبدوا حماسا ضئيلاً ولم يكونوا متحمسين على الإطلاق لنشر المسيحية فيما وراء البحار. وكم هو غريب حقاً أنه لم يذكر القصة الموفقة نسبياً (وإن كانت قصيرة الأجل) والتي تحكي نجاح التبشير الهولندي في فورموزا. ولكنه حكى عمليات التحول الجماعية التي تولاها كل من جون كوتون وجون البيوت بين صفوف الهنود الحمر في نيوانجلاند. ولم يكن هذا مثالا مقنعا تماما، حيث انه لم يكن يدرك، على ما يبدو، أن الحروب الهندية التي اشتعلت عام ١٦٧٥ دمرت كل آثار هذا النجاح العابر. وكان جوريو في وضع أكثر أمنا حين سلم بأن أحد أسباب ضآلة عدد البعثات التبشيرية البروتستانتية في الشرق هو عدم توفر العدد الكافي من القساوسة الكالفنيين في المقاطعات المتحدة والذين هم أهل ليكونوا أندادا للكاثوليك الرومان وللمنشقين البروتستانت داخل البلاد.

ومثلما اعتادت الجامعات الكنسية في الأراضي المنخفضة الاحتجاج، لكن دون جدوى في غالب الأحيان، على السلطات المدنية لعدم التزامها بتطبيق قوانين العقوبات الصادرة ضد ممارسة الشعائر الكاثوليكية الرومانية، كذلك فعل الوعاظ في باتافيا. إذ دأب هؤلاء، ودون جدوى أيضا، على الاحتجاج بسبب «الحرية والتكريم والمحابة التي يحظى بها، على حد زعمهم، القساوسة الكاثوليك الرومان» هناك. ولم تلق هذه الاحتجاجات تأييدا ملحوظا من جانب مجلس إدارة الـ ١٧. فقد أكد هؤلاء، على الرغم من تسليمهم بضرورة تعزيز الجهود المناهضة للتنظيمات الكاثوليكية الرومانية، أن من المستحيل منع القساوسة الكاثوليك الرومان من التوجه الى الشرق وهم

متنكرون. ولم يكن الحكام العامون في باتافيا اكثر عوناً، خاصة وأن الشكوك تحيط بمدى التزام بعضهم من أمثال مايتسوكر وفان دير ليجن. ومن المسلم به أن أحداثاً وقعت، مثل تمرد المستوطنين البرتغاليين في برنامجكو الخاضعة لسلطان الهولنديين في عام ١٦٤٥، وافضت الى تشديد القيود المفروضة ضد الكاثوليك الرومان فور وصول أخبار هذه الاحداث إلى باتافيا. بيد أن ردود الافعال هذه استمرت فترة قصيرة وسرعان ما عادت الاوضاع إلى حالة التراخي السابقة. وفي عام ١٧٥٤ سمحت سلطات باتافيا لاسقف كاثوليكي روماني متكرر نسبياً، وأن كانت السلطان بطقوس التعميد ومراسم القداس دون تباد - رغم من الاحتجاجات الشديدة التي قدمها مجلس الكنيسة الك. سي. ومع نهاية سلطان الشركة أضحت اللوائح المناهضة للكاثوليك الرومان حبراً على ورق، على الرغم من أول كنيسة كاثوليكية رومانية أقيمت في باتافيا كانت في عام ١٨٠٩ وليس قبل ذلك.

لقد كان شعار فريق «شحاذا البحار» البروتستانتي في عام ١٥٧٤ «الأتراك خير من البابا». ولكن الكالفنيين الرواد في جزر الهند الشرقية لم يكن أمامهم فارق كبير للاختيار بين هاتين الصورتين المناهضتين للمسيحية. وإن صفات الازدراء التي كالتها بحرية وسخاء المراسلات الهولندية الرسمية والخاصة ضد الكاثوليك الرومان صبوا مثلها على انصار الاسلام - حتى بلغ الامر حداً جعلهم يصفون فقهاء الإسلام، وبخاصة الحجاج، بنعوت لا تتفق مع عقيدتهم كأن يسمونهم «البابوين المسلمون». وتحالف الهولنديون في البداية مع المسلمين في ملقا ضد البرتغاليين. ولكن ما أن تم طرد الكاثوليك الرومانيين من جزر التوابل حتى شرع الكالفنيون في مناصبة المسلمين العداء. وانحاز كثيرون من البروتستانت انحيازاً كاملاً ضد المسلمين على نحو ما قيل في جابارا عام ١٦١٨. ودخل الهولنديون في مناقشة مع خصومهم المسلمين أو منافسيهم التجار في جاوا وسومطرة، وملقا وسليبيس. واثرت

هذه المنافسة تأثيراً قوياً على موقفهم من المسلمين في أماكن أخرى ومن ثم سنوا القوانين التي تحظر أداء الشعائر الإسلامية تماماً مثلما فعلوا مع اتباع كنيسة روما، وحينما رأوا أن بالإمكان فرض هذه التشريعات. وسرعان ما أدركوا، مثلما أدرك من قبلهم البرتغاليون. أن لا مجال لتحويل المسلمين إلى المسيحية في أعداد لها قيمتها ووزنها. ولهذا ركزوا جهودهم لهداية الناس على «الوثنيين الضالين» وعلى الطوائف الكاثوليكية الرومانية في المجتمعات التي استولوا عليها من البرتغاليين.

وبعد أن تم أحد - نهائياً في عام ١٦٦٩، أصبحت السلطات الهولندية تدريجياً أكثر فأكثر - امحا مع الإسلام، وتراخى تزمقتها رويدا رويدا ازاء المسلمين في الأراضي الأندونيسية، وظلت القوانين المناهضة للإسلام ضمن مجموعة قوانين باتافيا. ولكن كلما حاول القساوسة الكالفينيون فرض هذه الأحكام، صادفوا تعاوناً ضئيلاً من جانب الحكومة. وأعلن مجلس إدارة الـ ١٧ موقفه الرسمي من هذا إذ قرر عدم ممارسة أي ضغوط ضد الأندونيسيين لحثهم على تغيير دينهم. وبعد سبع سنوات رفض كامفيوس الحاكم العام (وهو كالفاني صادق العقيدة) احتجاجاً من كنيسة باتافيا بسبب المعابد الصينية والمساجد الإسلامية المحلية «التي كثر عددها، ويتعين إزالتها». وأبلغ كامفيوس رجال الدين الكالفنيين أن الخير في دعوة المسلمين والوثنيين إلى المسيحية بالكلمة الطيبة والقُدوة الحسنة. أما حكومة باتافيا التي كانت في البداية تأبى السماح للمسلمين الراغبين في السفر إلى مكة للحج بالسفر على متن سفنها التجارية إلى البحر الأحمر، فقد غيرت اتجاهها إلى العكس تماماً ودخلت في منافسة من أجل نقل الحجاج. وخلال القرن الثامن عشر أصبح التسامح مع ممارسات الشعائر الدينية غير المسيحية قاعدة عامة، على الرغم من أن هذا استغرق قرناً كاملاً ليصل إلى غايته في سيلان حيث التجار المسلمون كانوا بأعداد غفيرة يعملون تجار تجزئة أو تجاراً جائلين. واتخذ الهولنديون هنا، مثلما اتخذوا في أماكن أخرى، إجراءات

وتدابير قاسية ضد أنصار الإسلام، بل كانت أشد قسوة من إجراءاتهم ضد الهندوس والبوذيين. وامتدت التفرقة التشريعية واقتصاديا ضد المسلمين زمنا طويلاً، إذ أكرهوا على دفع رسوم وضرائب أعلى من غيرهم.

ولم تحقق البعثات التبشيرية الكالفنية سوى نجاح متواضع في أماكن ثلاثة فقط، ويتأيد من شركة الهند الشرقية، وهي فورموزا وأمبويانا وسيلان. ولم يدم هذا النجاح بعد انتهاء الشركة إلا في أمبويانا ولفترة محدودة. ولقد كان جورجيس كانديديوس، أول واعظ في فورموزا (١٦٢٧-١٦٣١)، على صواب إذ تنبأ بوجود فرصة طيبة لغرس المسيحية في هذه الجزيرة نظراً لأن سكانها الأصليين لم يخضعوا لأي مؤثرات دينية خارجية، ثم إن ديانتهم هي العقيدة الإحيائية البدائية التي تقوم عليها قسيسات أو ساحرات يسمين انيبس Inips. وفيما بين عامي ١٦٢٧-١٦٦٢ عمل اثنان وثلاثون واعظاً في المناطق الساحلية الخاضعة لسلطان الهولنديين وساعدهم عدد كبير من المقرئين العلمانيين ومعلمي القرية. وأحرزوا في البداية تقدماً بطيئاً على الرغم مما أبداه كانديديوس من تفاؤل حين أعرب عن اعتقاده بأن أطفال مدارس فورموزا يمكنهم أن يتعلموا خلال ثمانية أيام ما يتعلمه صبية هولندا أو جاوة في أسبوعين. واعتمدت الرسائل الكالفنية على مساندة السلطات العلمانية لرفض مستوى من تحولوا إلى عقيدتهم على أيديهم وذلك بجعل الالتحاق بالمدارس الزامياً وتغريم من يتغيب منهم وحظر ممارسة شعائرتهم. وفي أوائل العقد الخامس من القرن السابع عشر أبعدت السلطات المثات من الأينبس إلى خارج المناطق الخاضعة لسلطان هولندا وبذلك خلقت فراغاً روحياً بين السكان الأصليين مما سهل عمل الوعاظ.

ومتلماً اكتشاف الرواد من أعضاء الرسائل التبشيرية البرتغالية في أماكن أخرى، تبين أن الفرصة مهيأة أكثر لتحويل الأطفال عن عقيدتهم، ذلك أن تحويلهم أسير من تحويل آبائهم. ولهذا ركز القساوسة الكالفنيون جهودهم على الجيل الصاعد. وكانت أداة التعليم في مدارس القرية اللهجات

المحلية السائدة في هذه القرية أو تلك ثم بدأت الجهود الرامية الى استخدام الهولندية في النجاح منذ عام ١٦٥٠. وأصبح بعض الوعاظ خبراء متميزين في اللغات والفوا كتابا في الصلاة بخمس لغات محلية على الأقل. ولم يكن الحكام الهولنديون في كاستل زيلانديا على ثقة من استمرار العديد من عمليات التحول العقائدي التي ادعاهم الوعاظ. مثال ذلك ان الحاكم نيقولا فيربرج أعلن في عام ١٦٥٤ أن الأطفال يتعلمون العقيدة كالبغاوات دون أي فهم لما يرددونه. وقال أيضاً أنه إذا ما أفرزت الآلاف المؤلفات واحدا فقط تحول عن فهم وأصالة، فإنني وبفرحة مسيحية صادقة ساهدي الكنيسة ومدارس فورموزا ألف جلد. ونعرف أن فيربرج كان مناهضا لرجال الدين ومن ثم فإن نقده لهم غير منزه عن الهوى. وأنه لصحيح انه حينما غزا الصينيون بقيادة كوشينجا (شن شن كونج) الجزيرة في عام ١٦٦١ تضامنت الاغلبية الساحقة من سكان الجزيرة الاصليين مع الغزاة ضد سادتهم الاوروبيين، ولكن من الصحيح أيضا أنهم أسفوا لإبدال الملك لوج بالملك ستورك. وجدير بالذكر أن المبشر الجيزويتى دي ميلا الذي زار الجزيرة عام ١٧١٥ وجد آثاراً واضحة للمسيحية البروتستانتية التي غرسها الهولنديون. ولا يزال كثيرون من السكان الاصليين يحتفظون بكتب هولندية يستطيعون قراءتها كما وأن بعض الأحرف الرومانية التي يستخدمها الهولنديون في كتابة اللهجات المحلية ظلت باقية حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ولكن الطبيعة الثلاثية لمهام القساوسة الكالفنيين في الجزيرة عاقت جهودهم هناك. إذ علاوة على مهمتهم التبشيرية كان عليهم الوفاء بالمتطلبات الروحية للمقيمين الهولنديين ورجال الحاميات الهولندية، ثم مهام التفسير (حتى عام ١٦٥١) وجباة ضرائب ومنح تراخيص للتجار في جلد الغزال الذي كان أحد اقتصاديات الجزيرة الأساسية. وباستثناء هذا المزيج من الأعمال الدينية والدنيوية فإن جهود الوعاظ عاقتها واقع أنهم لا يبقون في مكانهم بالجزيرة لأكثر من إحدى عشرة سنة، وأكثرهم لا يبقى سوى عامين

أو ثلاثة. وإذا تصادف أن كان بعض الحكام المحليين عوناً للمهام التبشيرية فإن بعضهم الآخر وجهوا سهام نقدهم لجهود الوعاظ. والحق يقال، إنه على الرغم من كل شيء، فإن النجاح الذي تحقق في هذا المجال يرجع الفضل فيه إلى الوعاظ ومعلمي القرى ومساعدى الوعاظ. وأن الوعاظ الذي زعم أنه وحده ضم إلى عضوية الكنيسة الأصلحية أكثر من خمسة آلاف شخص من كبار السن في فورموزا، كان يستهين بسامعيه أو أنه على أحسن الفروض مبالغاً في تفاؤله. بيد أن الشواهد التي حكاها الجيزويتى دي ميلا عام ١٧١٥ تبين أن جميع سكان البلاد الأصليين الذين ارتضوا المسيحية ديناً إنما فعلوا ذلك لمغانم فردية.

وعندما حل الهولنديون محل البرتغاليين في أمبويينا في عام ١٦٠٥ اكتشفوا أن الرسائل التبشيرية للجيزويت حوت ما يقرب من ١٦٠٠٠ من سكان الجزيرة والجماعات المجاورة لها، على الرغم من أن معظم الناس كانوا لا يزالون على دينهم إما مسلمون أو مؤمنون بالعقيدة الإحيائية. وبعد أن طرد الهولنديون الرسائل التبشيرية الكاثوليكية الرومانية، أصبحوا على ثقة من أنهم قادرون على منعهم من العودة ثانية إلى هذه المنطقة سواء عادوا علانية أم متكررين - وهو ما لم يتحقق لهم في سيلان أو ملقا أو باتافيا. وبعد أن انقطعت صلة الكاثوليك الرومان بزعمائهم الروحيين بدأوا في التحول تدريجياً إلى الكالفينية - أو إلى الإسلام - على الرغم من مضي عقود كثيرة قبل الارتباط بهذه العقيدة الجديدة. ويقدم لنا دو ميني فالنتين الذي خدم في هذه الجزيرة فيما بين عامي ١٦٨٦ و ١٧١٢، شهادة بأنه لم يحدث سوى تقدم ضئيل جداً في نهاية القرن السابع عشر وأن أهالي جزيرة أمبويينا لا يعرفون شيئاً عن قواعد ديننا. ووجه اللوم في هذا الشأن إلى سلطات باتافيا وإلى التنقلات المستمرة بين الوعاظ قبل أن تتاح فرصة التعرف على اللغة أو على الناس. وهناك أيضاً ستافورينوس الذي زار جزيرة أمبويينا بعد ذلك بثلاثة أرباع القرن وتحدث عن الوضع بلغة أكثر ازدياء. ولام في هذا

الشان الوعاظ المحليين «لاهمالهم وعدم حماسهم». علاوة على أن النتيجة السيئة للتحويلات المتعاقبة التي طرأت على عقيدة سكان الجزيرة سببها أنهم بعد أن كانوا وثنيين ضالين تحولوا أول الأمر إلى الكاثوليكية الرومانية ثم إلى البروتستانتية ولكن في صورة سيئة. وواضح أن هذه الانتقادات غير منصفة ولا عادلة أو لنقل إنها تنطوي على مبالغة. ذلك أن أهالي جزيرة امبوينا الذين تنصروا خلال فترة سيطرة الشركة إنما ارتبطوا بالكالفنية ارتباطاً وثيقاً. وهذه عملية بلغت أوجها في القرن التاسع عشر وادت إلى اتساع الهوة الفاصلة بينهم وبين زملائهم المسلمين من سكان الجزيرة. وأن تزايد ولائهم لديانة حكامهم البيض خلق تدريجياً أواصر قوية وتعاطفاً بين سكان الجزيرة المسيحيين وبين الهولنديين. وامتدت هذه الرابطة الى وقتنا هذا وهو ما تؤكدُه الآلاف من أهالي جزيرة امبوينا الذين لجأوا إلى الأراضي المنخفضة بعد استقلال أندونيسيا.

وبدا حين من الوقت أن وضع الكنيسة الكالفنية في سيلان مبشر في فورموزا على نحو أفضل مما هو في امبوينا. ولكن العائد كان مخيباً للأمال. إذ عندما استطاع الهولنديون أخيراً طرد البرتغاليين من سيلان عام ١٦٥٨ وجدوا حوالي ربع مليون من أبناء سيلان الأصليين يدينون بالمذهب الكاثوليكي الروماني، وأغلبهم في مملكة التاميل. وبينما كان عدد من هؤلاء هم من المنتصرين ابتغاء منفعة، أي قبلوا الكالفنية وفاء لمصلحة وتركوا عقيدتهم في سهولة ويسر بقي عدد كبير جداً، وهو الأمر المثير للدهشة على ولائه لإيمانه الجديد على الرغم من طرد جميع القساوسة البرتغاليين فضلاً عن العوائق القانونية التي فرضتها السلطات الجديدة وحالت دون الاعتراف العلني بديانتهم. وتعززت قوة هذه النواة الصلبة من المؤمنين وزاد عددهم. وأن أسباب بقاء الكاثوليكية الرومانية وصمودها في وجه المعوقات المدنية والقانونية. التي تعرض لها رعاياها - وأن خفت حدتها تدريجياً مع مرور الأيام خلال القرن الثامن عشر - إنما هي أسباب واضحة لا تخفى على

الباحث. فإن المظاهر الخارجية للطقوس والاحتفالات الدينية للكنيسة الكاثوليكية الرومانية تشبه كثيراً، وبصورة لافتة للنظر، مظاهر الطقوس والاحتفالات في العقيدتين البوذية والهندوسية التي سعت الكنيسة لتحل محلها. مثال ذلك استخدام الايقونات والمسابع وتقديس القديسين.. الخ. وإن أجلال وتوقير البرهمنيين أو رجال الدين الهندوس وكذلك رجال الدين البوذيين يماثل توقير المسيحيين الكاثوليك الرومان لقساوستهم. ويختلف هذا اختلافاً بيناً بالنسبة إلى الوعاظ الكالفنيين ومن ثم فإن العناصر التقديسية - السحرية في الديانات الثلاث أوجت للمؤمنين من أبناء هذه الديانات بشعور من الأمن الروحي الذي عجز الكالفنيون عن أن يهيئوا مثله لأبناء مذهبهم بل ولم يكونوا راغبين فيه.

كان نشاط التبشير الهولندي موجهاً كله ضد الطائفة الكاثوليكية الرومانية ذلك لقلة عدد الوعاظ الهولنديين وجهلهم إلى حد ما بأسلوب العمل الملائم والمثمر بين الهندوس أو البوذيين أو المسلمين. واستطيع أن أقول في حدود معلوماتي المؤكدة أنه لم يكن في أي وقت من الأوقات ما جملته عشرون واعظاً في سيلان. ونادراً ما نجد من بينهم من لديه القدرة أو الرغبة في دراسة لغات وديانات السكان الأصليين. نعم كانت هناك بعض الاستثناءات، مثل القسيس نيليبوس بالا ديوس الذي تعلم لغة التاميل، والقسيس جوهانز روويل الذي تعلم اللغة السنهالية. ولكن جهودهم المبعثرة لم تكن لتؤثر على عقائد راسخة وبعيدة الجذور تاريخية مثل البوذية والهندوسية. علاوة على هذا، فإن موظفي الشركة وعلى الرغم مما أبدوه من رغبة شديدة في تحول الكاثوليك الرومان عن مذهبهم إذ كانوا يرون فيهم طابوراً خامساً محتملاً، إلا أنهم كانوا عادة شديدي الحذر بالنسبة للتدخل في الشعائر الدينية والممارسات الاجتماعية للهندوس والبوذيين طالما وأن هذه الشعائر وتلك الممارسات لا تشتمل على مواكب ومظاهر احتفالية ضخمة أو غير ذلك من الطقوس «الوثنية» تقارب الكنائس المسيحية.

ونظراً لندرة الوعاظ الأكفاء الذين هم على دراية بلغة التاميل أو اللغة السنهالية، فضلاً عن صعوبة الاحتفاظ بهم لفترة طويلة في الجزيرة، لذا أقيمت حلقتان دراسيتان لتدريب رجال الدين المحليين. وانعقدت أول حلقة في تالور قرب جافينا باتام من ١٦٩٠ إلى ١٧٢٢، بهدف توفير الأعداد اللازمة للمنطقة التي تتحدث لغة التاميل. وانعقدت الثانية على فترات متقطعة في كولومبو وامتدت قرناً كاملاً (١٦٩٦-١٧٩٦) واستهدفت توفير الأعداد اللازمة في المنطقة التي يتحدث أهلها السنهالية في الجزيرة. وواضح أن هاتين الحلقتين لم يكن الهدف منهما تدريب وتخريج وعاظ مبشرين دينيين فحسب بل وإيضاً معلمين للمدارس ومفسرين للكتاب المقدس وكتابة العمل في دواوين الحكومة. واشتملت المقررات الدراسية على تعليم اللغات الهولندية واللاتينية واليونانية بل والعبرية. والجدير بالذكر أن البارون جوستاف فان يمهوف ساند بقوة حلقة كولامبو الدراسية وقتما كان حاكماً لسيلان (١٧٢٦-١٧٤٠) ثم أقام حلقة أخرى في باتافيا ولكنها دامت لفترة قصيرة (١٧٤٥-١٧٥٥). وأبدى سروره واغبطاه للسهولة التي يثرثر بها الزملاء السود حين يتحدثون اللاتينية أو يحاولون صياغة عبارات يونانية. ولكن على الرغم من أن بعض خريجي هذه الحلقات الدراسية عملوا وعاظوا وسافر أكثرهم بعد ذلك إلى الأراضي المنخفضة للحصول على درجة علمية في فقه الالهيات، إلا أنهم لم يكونوا بالكثرة التي عقد عليها أصحاب المشروع آمالهم. مثال ذلك أن حلقة باتافيا الدراسية تخرج منها واحد فقط على مدى السنوات العشر التي هي عمرها. وكانت حلقتا سيلان الدراسيتان أفضل انتاجاً ولكن في مجال التعليم الديني الشفهي وتخريج معلمين للقرى وكتابة حكوميين. وتخرج منها عدد من الوعاظ لا يكاد يفي باحتياجات الهولنديين والبرجوازيين من سكان المدن هناك. ولم يتخرج منها أي واحد للعمل في مجال التبشير. والملاحظ أن أبناء التاميل والسنهاليين الذين اعتنقوا الكالفنية، إنما فعلوا ذلك أساساً لعلمهم أن هذا سبيلهم لشغل وظائف رسمية أثناء فترة سيطرة الشركة. ولهذا فإن بضعة آلاف من التاميل والسنهاليين المؤمنين اسما

بالكالفنية سرعان ما تخلوا عن مذهبهم اثر غزو الانجليز للجزيرة وبعد ان تخلت الدولة عن مساندة هذا المذهب وبدا واضحا ان الكالفنية لم تحدث اي اثر حقيقي أو راسخ على الديانات التي تنافست معها. وأن الطوائف البروتستانتية الموجودة الآن في الجزيرة هي من غرس الارساليات التبشيرية الأمريكية والأوروبية خلال القرن التاسع عشر. ولن نجد غير حفنة من أفرادهم نتاج العقيدة المسيحية الاصلاحية الحقبة التي سيطرت على سيلان في ظل الحكم الهولندي على مدى قرن ونصف القرن.

وإذا لم يكن دور الكالفنية كقوة مساعدة لشركة تجارية كبرى في الشرق دوراً مهماً، فإن الشيء نفسه يمكن أن يصدق أيضاً على منطقة المحيط الاطلسي حيث كان نشاط شركة الهند الغربية الذي امتد من غرب افريقيا الى الأمريكتين. ففي هولندا الجديدة أو الأراضي المنخفضة بالبرازيل التي عاشت فترة محفوفة بالأخطار من ١٦٣٠ إلى ١٦٥٤ اضطر الوعاظ الى الدخول في منافسة حادة ليس فقط مع المستوطنين البرتغاليين من الكاثوليك الرومان بل وايضاً ضد اليهود الذين هاجروا الى هناك بأعداد غفيرة من أوروبا. وغالبا ما كان كبار موظفي الشركة في رسيف مثلما كانوا في باتافيا يتصفون بالفتور والتراخي ازاء فرض قوانين التمييز ضد الكاثوليك وضد اليهود (ولكن بدرجة أقل حدة). ونخص بالذكر هنا الكونت جون موريس الذي حكم برنامبكو وحقق نجاحاً كبيراً خلال الفترة من ١٦٣٧ الى ١٦٤٤. ذلك أنه عمد الى اغفال، أو اغماض عينه عن طلبات الجامع الكنسية المحلية المتكررة التي طالبت به ضرورة الحزم في منع الممارسات العامة العلنية للخرافات والوثنية البابوية. ووجد مساندة لموقفه من جانب أغلبية مديري الشركة في أرض الوطن الذين يفضلون «الكسب المادي على التقوى والسورع»، على الرغم من وجود بعض الكالفنيين المتزمطين بينهم. ووجد الوعاظ في امريكا الجنوبية، مثلما هو الحال في آسيا، أنهم عاجزون عن الدخول في منافسة متكافئة مع «القساوسة الكاثوليك» طالما وأن هؤلاء يحظون بقدر من التسامح من جانب السلطات

المحلية. ومن هنا فإن البرازيل الهولندية لم تشهد على مدى عمرها الذي امتد أربعة وعشرين عاماً سوى تحولات نادرة جداً من الكاثوليكية الى الكالفنية. وزاد الطين بلة حسب وجهة نظر الوعاظ ان الكثيرين من الرجال الهولنديين الذين تزوجوا بنساء برتغاليات محليات تخلوا عن مذهبهم واعتنقوا مذهب زوجاتهم. وحدث الشيء نفسه اثناء فترة احتلال هولندا لكل من لواندا وبنجويلا من ١٦٤١ إلى ١٦٤٨.

وأحرز الوعاظ نجاحاً أكثر بفضل جهودهم من أجل إنشاء مجتمعات كالفنية بين الهنود الحمر الأمريكيين الذين هم على معتقداتهم القديمة سواء بين القبائل المتحدة بلغة التوبي Tupi أو (وهم أقل عدداً) قبائل تابويا Ta-puya اكلة لحوم البشر. والسبب هنا هو نفس السبب بالنسبة لصيادي رؤوس الأعداء من أبناء فورموزا - ألا وهو عدم وجود عقيدة دينية منافسة «أرقى». إذ تم ارسال بعض هؤلاء الفتيان البرابرة إلى الأراضي المنخفضة لتعليمهم. ومن عام ١٦٤١ طبع كتاب ديني من نوع السؤال والجواب بلغة توبي ووزع في انخويزين بين المهتدين من الهنود الأمريكيين في البرازيل. ولسوء الحظ أننا لا نملك نسخاً من هذا الكتاب. ويبدو أن مشروعاً بشأن ترجمة الكتاب المقدس الى لغة توبي لم يكتمل، وارتد عديدون من أبناء قبيلة تابويا الذين تعلموا في هولندا الى الحياة البربرية ثانية بعد عودتهم الى البرازيل وان احتفظوا في ذاكرتهم بقدر كبير مما تعلموا مع قدر من الحب له. وحدث أن زارت ارسالية جيزويتية برتغالية بعض قرى الهنود الحمر الأمريكيين بعد طرد الهولنديين وروعها ان وجدت «الكثيرين من السكان كالفنيين ولوثريين كأنهم ولدوا في انجلترا أو المانيا». وسرعان ما عمد بادر انطونيو فييرا ورفاقه الى استئصال آثار البروتستانتية والذي كان بالامكان ان تبقى، لولا ذلك في شمال شرق البرازيل أسوة بما حدث في فورموزا.

ولقد كشف تطور الكنيسة الاصلاحية الهولندية في نيوينذرلاند (١٦٢٤-١٦٦٤) عن العديد من القسمات التي ميزت نشاطها في جزر الهند

الشرقية والغربية. إذ كان من العسير الحصول على وعاظ للتبشير عن طريق التطوع في تلك الأماكن النائية وغير الملائمة أحياناً. وحافظ مجلس الـ ١٩ على أن تظل الكنيسة في شمال أفريقيا تابعة وبطريقة صارمة للسلطة المدنية وأن كان هذا في النهاية حقق نتائج ايجابية. فلم تكن البابوية تمثل تهديداً في هذه المنطقة ذلك لأن الاتصالات بارساليات الجيزويت التبشيرية في كندا الفرنسية انما كانت اتصالات عابرة. وقضى القساوسة الكالفينيون وقتاً طويلاً وطاقة كبيرة في الصراع ضد وجود المنشقين البروتستانت وكذا بعض اليهود (بعد عام ١٦٥٤). وكتب واعظان من رجال الدعوة والتبشير في نيوينذرلاند في عام ١٦٥٧ وليس لدينا ما نقوله سوى كلمات قليلة عن هداية الوثنيين أو الهنود الحمر هنا، ولا نرى من سبيل لانجاز ذلك ما لم يتم اخضاعهم بقوة شعبنا وكثرة عدده. ونسبغ عليهم قدراً من الحضارة، وكذا ما لم يقدم لهم شعبنا قدوة حسنة خيراً مما فعلوا قبل ذلك. ولقد كان بيتر ستوى فيسانت، آخر حاكم هولندي للمستعمرة كاليفنيا غيورا، واعتاد مساندة جهود القساوسة المحليين من أجل إبعاد أو قمع جميع أشكال الانشقاق الديني، غير أن المديرين تحلوا بأفق فكري أرحب. وأبلغوه في ابريل ١٦٦٣ بأن عليه ان يتجنب الصرامة الشديدة من البروتستانت المنشقين نظراً لما قد يترتب على هذا من مضار تترد آثارها إلى المستعمرة وتعوق الهجرة وتحفز الموجودين بالفعل الى ترك المكان. والزموه بالتغاضي عن غير الكالفنيين الذين يقيمون مراسم الاحتفال بعباداتهم شريطة ان يفعلوا هذا بصورة متحفظة للغاية ودون اثاره حفيظة جيرانهم التقليديين. وذكر مجلس الـ ١٩ حاكمهم بأن التسامح الديني اسهم كثيراً في رخاء امستردام، وقالوا له ايضاً انه لا بد وان يكون مفيداً بنفس القدر ايضاً لنيوينذرلاند ولم يكن هذا درساً في التسامح منعزلاً وخاصة بالحاكم ذلك ان مجلس الـ ١٩ والمستولين في امستردام تدخلوا مرات عديدة لحماية اللوثرين واتباع منوس والكويكرز واليهود من غلواء بعض القساوسة الكالفنيين في المستعمرة ومؤيديهم من أعضاء الجامع الكنسية وزعماء الطوائف في هولندا ذاتها.

أما عن تقدم الكالفنية، أو إن شئت الدقة عدم احرازها للتقدم، في سورينام وفي المستعمرات الهولندية في جزر الهند الغربية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، فإن قلة الكلام قد تكون أفضل وأبلغ. إذ لا مراء في أن سورينام هي النقطة السوداء في الامبراطورية الهولندية الاستوائية من الزاوية الانسانية، وازاء القسوة السادية والانانية الحمقاء، والجشع الأعمى للأجيال المتعاقبة من أصحاب المزارع ونظار المزارع مما جعل انتشار أي شكل من أشكال المسيحية أمراً شديداً الصعوبة للغاية. ويشهد على هذا ما قاله واحد من حكام سورينام في القرن الثامن عشر، إذ قال: «هنا، كما هو الحال في أماكن أخرى قلة قليلة من وعاظ الدعوة والتبشير الذين يؤيدون واجبههم والمنشقون البروتستانت معروفون بأسماء «اللاباديين» Labadist الذين اعتادوا ممارسة نوع من المشاعية المسيحية و«الهزنتز» Hermhut ters وهم فرع من كنيسة مورافيا أو الأخوة المتحددين الذين عملوا على فترات متباعدة في المستعمرة. غير أن أمراض المنطقة الاستوائية فضلاً عن العداء الصريح من جانب أصحاب المزارع منعهم من احراز نتائج تتناسب مع جهودهم المضنية. كذلك وللأسباب نفسها لم تحرز الرسائل الكاثوليكية الرومانية التي عملت في سورينام لبضع سنوات (١٦٨٤-١٦٨٦) أي نتائج راسخة قبل أن يلقوا حتفهم بسبب الحمى. ولم تقم لهذه الرسائل قائمة إلا في عام ١٧٨٦. ولكن مما هو جدير بالذكر أن سورينام كانت ملاذاً لطائفة هامة من اليهود السفارديم الذين استقروا فيها خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر وأصابوا نجاحاً ورخاء خلال القرن التالي.

كذلك يمكن الاجتزاء بأسطر قليلة عن دور الكالفنية في ممتلكات شركة الهند الغربية في أفريقيا. أوعدت الشركة عديداً من وعاظ الدعوة والتبشير الى الحصون والمراكز التجارية الهولندية في ساحل الذهب في مطلع القرن السابع عشر، والتست هدفين اثنين: الوفاء بالحاجات الروحية للتجار الهولنديين وتبشير الزنوج الوثنيين. ولم تحقق جهودهم نتائج ذات بال، وعادوا الى

الأراضي المنخفضة بأسرع ما يمكن محيطين بسبب المناخ القاتل وظروف الحياة القاسية. ومنذ عام ١٦٤٥ تقريباً وما بعده بات من العسير أن نجد واعظاً ارتضى التطوع للخدمة في غرب أفريقيا، ولم يعد يمثل الكنيسة الإصلاحية الهولندية بعد ذلك سوى تاجر أو تاجرين علمانيين في القلاع الأساسية الثلاث في المينا وناسو واكسيم. وتولى هذان الرجلان مسئولية إمامة الناس في صلاة الصباح والمساء وتلاوة الكتاب المقدس أو بعض العظات على مسامع المقيمين الهولنديين مرتين كل أسبوع، وكان هذا غاية المرام من أداء مهامهم ولم يحاول أي منهما القيام بعمل تبشيري.

وثمة استثناء لهذه القاعدة العامة جدير بأن نشير إليه، ويمثله الداهية المبشر الزنجي القح القسيس جاكوب اليزا جوان كابيتين. إنه عبد المولد وأصبح هناك حراً تلقائياً. ودفع سيده الأسبق وبعض أصدقائه من ذوي النفوذ نفقات تعليمه الذي اشتمل على قدر لا بأس به من التدريب في مجال اللاهيات في جامعة ليدن. وتخرج في عام ١٧٤٢ بعد أن أعد رسالة باللغة اللاتينية يثبت فيها مشروعية الرق وفقاً لنصوص الكتاب المقدس. وصدرت من الرسالة طبعات عديدة باللغتين اللاتينية والهولندية وأصبحت مرجعاً يقتبس منه جميع المدافعين عن الرق وتجارته. وفي العام نفسه بعث مديرو شركة الهند الغربية كابيتين إلى مستعمرة المينا بعد أن تلقى في أمستردام تدريباً كافياً للعمل داعية وواعظاً. واستقبله استقبالاً حسناً هناك كل من المقيمين الهولنديين وبناء بلدته في بداية الأمر، ولكن سرعان ما واجه مشكلات كثيرة. وأفاد في كتاباته أن القليلين جداً من الأوروبيين هم الذين اعتادوا حضور دروسه الدينية «نظراً لأن أغليبيتهم هنا من الكاثوليك الرومان أو اللوثرين، كما وإن اتباع الكنيسة الإصلاحية فهم دائماً مشغولون بأعمالهم اليومية». وهذه ملاحظة يمكن أن تفسر لنا اخفاق الكالفنية في مناطق أخرى من العالم الاستوائي. وأنشأ كذلك مدرسة للزواج والأطفال المولدين، وترجم صلوات المسيح التي علمها لتلاميذه والوصايا باللغة المحلية لبلاده. وأبدى

بعض الأوروبيين تعصبا بسبب اللون في تعاملهم معه. ولكن الحاكم ساندته واستطاع التزوج بفتاة هولندية من أوترشت بعد فشل قصة حب له مع فتاة أفريقية غير مسيحية وكادت تتحول الى فضيحة كبرى. وخابت آماله بسبب النتائج الهزيلة التي جناها ثمرة لجهده الكبير في حديقة الرب سواء بين السود ام البيض. وازاء ذلك أهمل العمل في مجال خدمة الرب واتجه إلى خدمة إله المال. ولكنه مات مفلساً في الأول من فبراير عام ١٧٤٧ بعد مغامرات تجارية متعثرة. ولم تتكرر محاولة تدريب واعظ زنجي آخر.

يبدو واضحاً مما سلف ان الكالفنية اثرت تأثيراً ضئيلاً، أو لم تؤثر أبداً على سكان البلدان الاستوائية حيث بشر بها هناك دعائها على مدى القرنين السابع عشر والثامن عشر. فحينما وجدت عقيدة دينية مؤثرة مثل الاسلام في أندونيسيا، والهندوسية في الهند، والبوذية في سيلان، أو الكاثوليكية الرومانية في المناطق التي اقام فيها البرتغاليون، عجزت الكالفنية عن إحداث تأثير باق ودائم إلى ما بعد سقوط مساندة الدولة لها. وواقع الامر ان مكانة الكالفنية في الشرق كانت سلبية. إذ لو كان ثمة اثر للكالفنية، فهو شأن الكاثوليكية الرومانية السابقة عليها التي صمدت لتحديها في جنوب شرق آسيا، أنها عززت أساساً قبضة الإسلام وبسطت نفوذه في المناطق التي تلاقي فيها الهلال مع الصليب.

لقد تزايدت سرعة تغلغل الإسلام في الأرخبيل الأندونيسي خلال القرن السادس عشر كرد فعل للكاثوليكية الرومانية النشطة التي روج لها البرتغاليون من مواقعهم في ملقا وملوقاس. ولم يحقق الغزاة الأوروبيون أي نجاح يذكر إلا في امبوينا وسولور. إذ نظر الأندونيسيون المسلمون إلى الهولنديين الكالفنيين باعتبارهم كفارا، ولم يكونوا في هذا أقل شأنا من البرتغاليين الكاثوليك. والملاحظ أن اطراد نمو السلطة الهولندية بعد تأسيس باتافيا والغزوات المتعاقبة لكل من مولوقاس وماكاسار وبانتام ثم أخيراً ما تارام، كل هذا اثار انزعاج حكام أندونيسيا والكثيرين من رعاياهم أكثر مما

أثارهم تقدم البرتغاليين المحدود نسبياً. وحفزهم هذا الخوف إلى تعزيز روابطهم مع الحكام المسلمين في الهند وفي مكة المكرمة، وأيضاً مع حاكم بانناتام قبل أن يفزوها الهولنديون ويطيحون بحاكمها في عام ١٦٨٤. تماماً مثلما فعل المرابطون في مراكش إذ ألهموا ونظموا وقادوا المسلمين ضد البرتغاليين الغزاة خلال القرن السادس عشر. كذلك كان القادة والمفكرون المسلمون في أندونيسيا هم القوة المحركة لكل جهود المقاومة ضد توسع سلطة الشركة الهولندية، وأسبغوا على هذه المقاومة صفة الجهاد المقدس. وإن أغلبية هؤلاء المفكرين والقادة كانوا من أصل عربي وهندي وفارسي ولكن معهم آخرون أندونيسيون حجوا إلى الكعبة أو تلقوا تدريباً متميزاً في مملكة أشين Achin المسلمة، وقد كانت مركزاً مزدهراً للدراسات الإسلامية. وعلى الرغم من أن القوة البحرية والعسكرية لشركة الهند الشرقية الهولندية وجدت عوناً قوياً لها في الانقسامات التي وقعت بين صفوف القادة الأندونيسيين مما يسر لها الغلبة على القادة المسلمين الأساسيين - باستثناء مملكة أشين دائماً - إلا أن الإسلام وأصل زحفه وتعززت قوته بين العامة والخاصة من الأندونيسيين.

الباب السادس

إله الحكمة وإله التجارة

في أغسطس ١٧٨٥ انتهت مدة رئاسة اسحق تيسنغ رئيس الوكالة الهولندية. وقبل أن يغادر منصبه نصح بأن يتم اختيار خلفائه من بين رجال «يجمعون بين الكفاءة التجارية والدراية بالفنون والعلوم». ولكن الحاكم العام ومجلسه في باتافا عقبوا على هذه النصيحة بالقول «كم هو جميل أن نسلم تسليمًا مطلقًا بجدوى هذا الاقتراح، إلا أن الوفاء به أمنية تقصر دونها الامكانيات، نظراً لأن القاعدة العامة هنا في هذه البلدان هي التقرب إلى إله التجارة دون إله الحكمة». ويمثل هذا تبايناً مثيراً، إن لم نقل غير متوقع، مع الموقف في المقاطعات السبع خلال القرن الذهبي من حياتها، وقتما وقف مبعوث برتغالي في لاهاي ليقارن جهل أبناء بلده بثقافة الهولنديين وقال: «لا تجد اسكافيا هنا في هذه البلاد لا يعرف الفرنسية واللاتينية بالإضافة إلى لغته الأم». لا ريب في أن فرنسيسكو دي سوسا كوتينو كان مبالغاً في حديثه، وإن لم يخل قوله من إشارة إلى ارتفاع نسبة المتعلمين في الأراضي المنخفضة قياساً إلى أي بلد آخر في أوروبا، وأن أغلبية الهولنديين على حظ ما من التعليم. وكما لاحظ سير جورج كلارك مؤخراً «إن الهولنديين على حظ وافر من التعليم بكل المقاييس إذ أن مستوى تعلم القراءة والكتابة مرتفع نسبياً هنا، كما يبدو أن المعارف العامة شائعة على نطاق واسع». وثمة ملاحظة قالها أرازموسى منذ عام ١٥٢٥: «لن تجد في أي مكان آخر من العالم عدداً أكبر من عدد الذين حصلوا على تعليم متوسط هنا».

وتحتل مدارس القرية قاعدة سلم التعليم. وكانت جميع هذه المدارس تقريباً ملحقة بالكنيسة الكالفنية المحلية حيث يعمل المدرس عادة كاتباً وقائداً لجوقة المرتلين. واقتصر التعليم على تعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب

ودروس من الكتاب المقدس. وضمت بعض القرى وأكثر المدن مدارس ابتدائية خاصة تعلم الفرنسية علاوة على القراءة والكتابة والحساب. وحرصت السلطات البلدية والكنيسة على مراقبة هذه المدارس لضمان انها تعمل بإذن منها وأن جميع المعلمين العاملين بها من اتباع «الديانة المسيحية الاصلاحية الحقّة». وتلي هذه المدارس الابتدائية صغوداً، سواء اكانت خاصة ام تابعة للكنيسة أو البلدية، المدارس اللاتينية. وتوجد واحدة من هذه المدارس في جميع مدن المقاطعات المتحدة تقريباً. وهي في اغلبيتها امتداد للمؤسسات الكاثوليكية الرومانية التي صودرت في السنوات الاولى للثورة في الاراضي المنخفضة. ويجري الانفاق على صيانتها من عوائد الكنائس الكاثوليكية الرومانية سابقا والتي خصصت لمصلحة مجالس المدن أو مجالس الكنائس الكالفنية للانفاق منها على اغراض التعليم. وركزت المدارس اللاتينية، كما توحى اسمائها، على تعليم اللغة اللاتينية، ولكنها استهدفت ايضا تلقين تلامذتها المعارف العامة عن الاساسيات الكلاسيكية للعصور القديمة. ولم يكن مسموحاً بالتحاق الفتيات بهذه المدارس، أما الاولاد فيلتحقون بها ابتداء من سن التاسعة أو العاشرة وحتى السادسة عشرة أو السابعة عشرة. وصدر من ولايات هولندا مرسوم في عام ١٦٢٥ ينظم هذه المدارس اللاتينية ويحدد طبيعة مقرراتها الدراسية. وعلى إثر سريان هذا المرسوم أصبح تعلم اللغة اللاتينية ممكناً إلى ما بين عشرين وثلاثين ساعة خلال السنوات الثلاث الاولى، وما بين عشر وثمانين ساعة خلال السنوات الثلاث الاخيرة. ويتعلم تلاميذ الصفوف النهائية اللغة اليونانية ومبادئ الخطابة والمنطق. ولكن لم يكن التعليم الديني يحتل مثل هذه المكانة البارزة كما كان متوقعا عند بداية تأسيس هذه المدارس خلال الاعوام ١٥٨٨-١٦٢٥ وبناء على الحاج مجالس الكنائس الكالفنية. إذ خصصت هذه المدارس ٦ بالمئة فقط من مجموع ساعات الدراسة لتعليم الدين وفق نظام السؤال والجواب، وتاريخ الكتاب المقدس .. الخ هذا على الرغم من انه بعد عام ١٦١٩ كان من المفترض أن يوقع جميع المدرسين الجدد على شهادة تؤكد قبولهم لقواعد ونظم المجتمع

الكنسي المقدس في دور درشت. واشترطت بعض هذه المدارس اللاتينية ان
الابناء لآباء ليسوا اعضاء في الكنيسة الاصلاحية الهولندية ليسوا بحاجة
لحضور حصص تعلم الدين. وساد مثل هذا التسامح في كثير من المدارس
الاولية. وزعم القسيس جود فريد اوديمانز (١٦٢٠-١٦٥٥) ان بعض نظار
المدارس الخاصة اعتادوا تملق الآباء الكاثوليكين الرومانيين وغير الكالفنيين
واسترضاءهم عن طريق إغفال التعليم الديني التقليدي «الارثوذكسي» والذي
يكاد يكون إغفالاً تاماً. وطبيعي ان تتباين ساعات الدراسة من مدرسة إلى
أخرى، ولكن حيث كان التلاميذ يخرجون لتناول غذائهم بالبيت فقد كانت
دروس الصباح تبدأ من الساعة السابعة أو الثامنة إلى الحادية عشرة،
ودروس المساء من الواحدة إلى الرابعة أو من الثانية إلى الخامسة مساء.

ولا غرابة في أن مستوى المدارس اللاتينية خلال القرن السابع عشر كان
في متوسطه أعلى كثيراً من مستوى المدارس الابتدائية. ولعل ديرك أدريا
نسون مؤلف كتاب Regel der Duytsche School Meesters (١٩٩١)
كان مبالغاً حين قال: «إن من يستطيع بصعوبة أن يكتب أحرف اسمه، ومن
يستطيع فقط أن يرتل مزموراً بصوت نشاز يعمل فوراً معلماً بالمدرسة
ويطمح في أن يكون في وضع استاذ كبير». وكثرت الشكاوى بشأن سوء
الإسكان والازدحام، إذ كانت بعض المدارس عبارة عن غرف نوم معتمة رطبة،
وأرضيتها من الحجر. ويتقاضى معلم الابتدائي أجراً زهيداً، خاصة معلم
الآرياف، وأي زيادة تطرا على راتبه تنتقص من المصروفات المدرسية التي
يدفعها أولياء الأمور. ويحدد مجلس الكنيسة المحلية في المقاطعة الأجر الثابت
للمعلم. ونظراً لانخفاض المرتبات اضطر أكثر المدرسين الى أداء أعمال أخرى
إضافية، لذا نرى منهم من يعمل جندياً أو حلاقاً، أو اسكافياً أو حفار قبور ..
الخ. ولعل هذه المهن الإضافية التي كان يحترفها المدرسون هي التي دعت
فرانسيسكو دي سوسا الى الظن بأن كل الناس، بما في ذلك الاسكافي في
هولندا يتحدثون الفارسية واللاتينية.

وكان التعليم العالي في الجمهورية الهولندية متاحاً في جامعات خمس مقاطعات، جامعة ليدن (١٥٧٥) وجامعة فرانيكر (١٥٨٥) وجامعة هاردرويك (١٦٤٨) وجامعة جروننجن (١٦١٤) وجامعة أوترشت ١٦٣٦، وأهمها الأولى والأخيرة. وكان علاوة على هذا مدارس تسمى «المدارس اللامعة» التي يتمتع بعضها بمكانة الجامعة. وأشهرها مدرسة «أثينا امستردام» Athenaeum of Amsterdam التي أسسها عام ١٦٣٢ بعض قادة تيار المعارضين وأنصارهم، وهي السلف المباشر لجامعة امستردام الحالية. والفرق الرئيسي بين الجامعات الرسمية والمدارس اللامعة ان هذه المدارس لا تقدم سوى الآداب والقانون والطب بينما تقدم الجامعات علاوة على هذا فقه الالهيات وتمنح درجة الدكتوراه وهو ما تفعله المدارس أيضاً. ولا يقتصر عمل هذه المدارس على اعداد الشباب للالتحاق بالجامعات في مقاطعاتهم وهم في سن ما بين السادسة عشرة والعشرين، بل تهيء لهم أيضاً الفرصة لتحصيل تعليم مكافئ لتعليم الجامعة إذا لم يرغبوا في ترك بلدتهم. وتميز مستوى التعليم في أغلب الجامعات والمدارس خلال القرن السابع عشر بارتفاع كبير، غير ان المدارس أخذت في الضعف والتضاؤل إلى أن أصبحت على حافة الانقراض خلال القرن الثامن عشر. هذا على الرغم من شهادة مقيم انجليزي كان يقيم في هولندا عام ١٧٤٠ قال إنها تعمل بديلاً يثير الإعجاب لجامعة رسمية.

ولم تكن جامعة ليدن فقط هي أقدم جامعات المقاطعات الخمس وأفضلها وأشهرها بل وأشدّها ارتباطاً بمشروعات هولندا فيما وراء البحار حتى وان كان الرباط غير واضح ومتقطعاً. ولقد اشترك رؤساء المدن ومندوبو ولايات مقاطعات هولندا في هيئة أمناء تصبح الجامعة في الأساس مؤسسة لتخريج قساوسة كالفنيين وهو الهدف الرئيسي الذي تصوره مؤسسو الجامعة. وسرعان ما تم تعزيز كليات اللاهوت والفلسفة والقانون والطب في ليدن، وهي كليات تقليدية موروثة عن العصر الوسيط، بمدارس تعلم الهندسة والزراعة

علاوة على مرصد فلكي ومطبعة فاخرة للجامعة. واعتمدت اللغة اللاتينية لغة تعليم وان لم تدرس في مدرسة الهندسة. واستطاع مجلس الأمناء بفضل الرواتب السخية ان يجتذب اساتذة وباحثين متميزين اتوا اليه من المقاطعات المتحدة ومن غيرها للعمل في هذه الكلية. واجتذبت شهرة هؤلاء الاساتذة بدورها طلابا من جميع انحاء أوروبا، من الكاثوليك الرومان ومن البروتستانتين على حد سواء وان كانت الغلبة لهؤلاء. وبلغ عدد الطلاب المسجلين بجامعة ليدن ٢٧٢٥ على مدى الأعوام الـ ٢٦ الأولى من عمر الجامعة، وكان ٤١ بالمائة منهم من خارج المقاطعات. وبلغت نسبة الاجانب المقيدين خلال الفترة من ١٦٠١-١٦٢٥ أكثر قليلاً من ٤٢ بالمائة، وزادت خلال الربع التالي من هذا القرن بحيث أن أكثر من ٥٢ بالمائة من جملة الطلاب البالغ عددهم ١١٠٧٦ كانوا وافدين من الخارج.

وفي السنوات التالية فقدت ليدن بعض بهائها وجاذبيتها، ولكن وليم كار يشير في عام ١٦٨٨ إلى أنه كان بها حوالي ألف طالب أجنبي «من جميع البلدان، مثل المجر وبولندا والمانيا بل ومن الامبراطورية العثمانية ذاتها الذين يدعون انهم يونانيون، علاوة على الطلاب الانجليز الاسكتلنديين والاييرلنديين الذين بلغ عددهم في ذاك العام أكثر من ثمانين. ويحكي لنا القنصل الانجليزي انه سال أحد أعضاء مجلس الأمناء لماذا مقاطعة ثرية مثل مقاطعة هولندا لم تشيد بيوتاً للطلاب في ليدن اسوة بما تفعله اكسفورد وكيمبريدج». واجاب عضو الامانة: «لو أننا شيدنا مثل هذه البيوت للمأوى رؤساء المدن والحكام بابنائهم وابناء اصدقائهم الذين يعيشون حياة كسل وفراغ وجدة ولن يكونوا قادرين على خدمة الأمة». ويمكن النظر إلى هذه الاجابة وكأنها صدى لمرارة في النفس ولكن ليس ثمة ما يبرر الشك في دعوى الأمين من أن الاساتذة وفقاً للنظام القائم يحرصون على متابعة الطلاب ويشددون على التزامهم بالحضور والاستماع الى المحاضرات العامة منها والخاصة.

والجدير بالذكر ان الدراسات عن الكتاب المقدس حفزت جامعة ليدن

أكثر من أي جامعة أخرى إلى استحداث الدراسات الاستشرافية. وما هو جوزيف جوستوس سكاليجر، الفرنسي المولد والملقب «أعظم باحثي العصر الحديث»، وعمل استاذاً غير متفرغ في جامعة ليدن من عام ١٥٩٣ إلى أن وافته المنية في عام ١٦١٩، يشدد على الحاجة إلى أن نقصد المصادر الكلدانية والعربية وغيرها من مصادر الشرق الأدنى للحصول على المعلومات الأساسية اللازمة والتي تمثل عوناً لفقهاء المذهب الكالفني في جدالهم ومناظراتهم مع الكاثوليك الرومان. ولعل نفوذ سكاليجر الأدبي في ذروته فاق كثيراً نفوذ إيرازموس، فضلاً عن أنه بلغ بالدراسات اللغوية والاستشرافية شأواً بعيداً في جامعة ليدن مما جعلها منهلاً يقصده الباحثون على مدى قرن من الزمان. وأصبح تلميذه وخليفته جوليوس مرجعاً رسمياً في الدراسات الاستشرافية ومسئولاً عن تفسير ما يتعلق بها لإدارة عموم الولايات ويقال إن رسائله التي كتبها بالعربية إلى الحكام والولاة المسلمين أثارت إعجابهم. وأنشأت جامعة ليدن في عام ١٦٢٥ مطبعة مشرقية تشتمل على الأحرف والقوالب السريانية والكلدانية والآثيوبية والعربية والعبرية. وظلت تعمل كأحد أقسام مطبعة الجامعة إلى أن بيعت لصاحب مطبعة خاصة في عام ١٧١٢.

والتزمت المدارس الابتدائية في مناطق نفوذ شركتي الهند الشرقية والغربية بنفس النظام المتبع في الوطن الأم من حيث أنها خضعت لإدارة مشتركة علمانية ودينية. وكانت ساعات الدراسة في مدارس المستعمرات من ١-١١ ص ومن ٢-٥ م عدا يومي الأربعاء والسبت إذ تعمل المدارس خلالها في الفترة الصباحية فقط. ويقتصر المقرر الدراسي بوجه عام على التعليم الديني الأول فيما يختص بقواعد المذهب الكالفني، والقراءة والكتابة ومبادئ الحساب. وكان من حق من شاء أن يفتح مدرسة أولية أو رياض أطفال علاوة على مدارس شركتي الهند الشرقية والغربية، شريطة اقتناع مجلس الكنيسة المحلية بالتزامه بالعقيدة الكالفنية ومن ثم يحصل على موافقة مجلس

الكنيسة وكبار موظفي الكنيسة أيضاً. وجدير بالذكر أن مدارس المستعمرات كانت في الغالب مدارس مشتركة من حيث الجنس والعرق، حيث كانت تجمع بين أبناء العبيد والملونين جنباً إلى جنب مع أبناء البيض والأوروبيين الآسيويين وتذكر على سبيل المثال أن حوالي ٢٠٠ من أبناء العبيد كانوا يتلقون تعليمهم في مدرسة شركة الهند الغربية في كولومبو. وينتهي الصبية تعليمهم بالمدرسة عادة في سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة. ولكن مدارس سيلان كانت تفصل البنات خلال القرن السابع عشر حين يبلغن العاشرة من العمر تجنباً لأسباب الفتنة والغواية نتيجة السلوك الفاضح للصبية أو غيرهم.

وافتحت في باتافيا عام ١٦٤٢ مدرسة لاتينية بهدف تقديم تعليم أرقى مستوى لأطفال كبار موظفي الشركة بدلاً من إرسالهم إلى الأراضي المنخفضة. وعلى الرغم من دعم مجلس إدارة الـ ١٧، تضاعف شأن هذه المؤسسة حتى ألغتها السلطات المحلية عام ١٦٥٦. وأعيد فتحها بعد عشر سنوات لتغلق أبوابها ثانية بعد أربع سنوات. وتكررت المحاولة للمرة الثالثة في القرن التالي لتبقى فترة أطول (١٧٤٣-٥٦) ولكنها حين أغلقت أبوابها هذه المرة أغلقتها بغير رجعة. ولم تحدث محاولة مماثلة في المستعمرات الخاضعة لسلطان شركة الهند الغربية وذلك لأسباب شرحها منتزل حين حاول أن يفسر أسباب عدم وجود مدرسة لاتينية في الكاب حيث عمل من عام ١٧١٤ إلى عام ١٧٣٠. إذ قال «مثل هذه المؤسسات لا لزوم لها، إذ ما جدوى التعليم الذي يحصل عليه أي امرئ يعمل في بلاد لا تزال الحياة فيها بدائية، والقانون هو شريعة الشركة، ويشهد على صدق هذا الرأي أنه كان في جنوب أفريقيا آنذاك في القرن الثامن عشر بعض هواة جمع الكتب، وعن لأحدهم (وهو فون ديسين) أن يجعل من مقتنيات مكتبة عامة لسكان مدينة الكاب عام ١٧٦١ غير أنه لا أحد عملياً من المقيمين في المدينة استخدم هذه المكتبة على مدى خمسين عاماً. ومن ثم فإن موظفي الشركة الراغبين في تعليم أبنائهم، عن مقدرة، تعليماً رفيع

المستوى، دأبوا على ارسالهم إلى أوروبا، على الرغم من النفقات الباهظة وحرمانهم من أبنائهم فترة طويلة. كذلك كان التعليم الراقى متاحاً للراغبين في الالتحاق بالكنيسة وذلك عن طريق المشاركة في إحدى الحلقات الدراسية الثلاث التي أسلفنا وصفها، هذا على الرغم من أن هذه الدراسات أخفقت في تخريج دعاة ومبشرين اكفاء. ولكن تظل هناك حقيقة واقعة وهي أنه في الوقت الذي ترك حكام جمهورية هولندا مسئولية التعليم الابتدائي كلية في أيدي مجالس الكنيسة الكالفنية أو لأفراد يعملون لحسابهم الخاص، فإن مديري شركة الهند الشرقية عمدوا، بصورة مباشرة أو غير مباشرة الى دعم واعانة العديد من المدارس الأولية والتي حققت، في بعض الاماكن على الأقل، نتائج طيبة. وفي عام ١٧٧٩ بلغ اجمالي عدد الاطفال المقيدين بهذه المدارس في منطقة شرق رأس الرجاء الصالح ٢٠٩٣٦ تلميذاً وأغلب هؤلاء ١٩١٧٤ من أبناء سيلان بينما كان هناك ٦٣٩ تلميذاً في باتافيا. والمثير للدهشة أن أغليبيتهم ٥٩٢ تلميذاً من تيمور.

وكان الوضع مماثلاً لذلك في الاساسيات في الاقاليم الخاضعة لسيطرة شركة الهند الغربية وخلفائها. مثال ذلك أن ناظر المدرسة المعين لإدارة مدرسة في جزيرة مانهااتان في نيو امستردام، وذلك في نوفمبر ١٦٦١، تلقى تعليمات تطالبه بالتأكد من أن التلاميذ يواظبون على حضور دروسهم من الثامنة صباحاً إلى الواحدة مساءً. وتطالب التعليمات أيضاً بتلقين الاطفال الصلوات وكتاب تعليم الدين عن طريق السؤال والجواب. ويحصل ناظر المدرسة علاوة على راتبه السنوي منحة كل ثلاثة اشهر يجري تقديرها وفقاً لعدد التلاميذ الذين يتعلمون الأبجدية والقراءة والكتابة والحساب. أما التلاميذ الخارجون الذين يحضرون لتلقي مزيد من التعليم خلال ساعات خارجة عن مواعيد الدراسة الرسمية فإن أغليبيتهم يتحملون نفقة هذا التعليم ويعفى الفقراء منهم من دفع المصروفات وقبل انصراف التلاميذ من المدرسة عقب انتهاء اليوم الدراسي يصطفون ليرتلوا بعض آيات أحد المزامير. وعلى الجانب الآخر

من المحيط الاطلسي كان الواعظ الزنجي جاكوب اليزا كابتين يدير روضة اطفال للزنوج والمولدين والبيض في بلدة المينا في عامي ١٧٤٢-١٧٤٤، حيث يتعلم الاطفال مبادئ العقيدة المسيحية الاصلاحية الحق.

وان الارتفاع النسبي لعدد المتعلمين في شمال الاراضي المنخفضة يفيد في تفسير اسباب ازدهار الطباعة وتجارة الكتب في جمهورية هولندا، خاصة خلال القرن الذهبي من حياتها. إذ طبعت هنا، مثلما طبعت في أنحاء مختلفة من غرب أوروبا، العظات الدينية بكميات ضخمة، وأقبل العامة على قراءتها بنهم شديد، مثلما أقبلوا على استيعاب كميات مثيرة من الكتابات الدينية المتعمقة في شئون الالهيات وكتابات دينية تناقش قضايا خلافية صريحة. وتبدي التوسع التجاري والبحري لهولندا في شيوع ادب الاسفار والرحلات، الذي سرعان ما ازدهر خلال الفترة من ١٥٩٥-١٦٠٥ وهي فترة اتسمت بدينامية واضحة. وما انفك هذا الفن الادبي يمثل آنذاك قسمة بارزة للنشر الهولندي على مدى القرن التالي. وطبيعي ان الهولنديين لم يكونوا هم أول من غرس البذرة الأولى لهذا الفن الادبي. ذلك ان البرتغاليين والاسبان الذين سبقوهم الى المنطقة الاستوائية ابدعوا شعراً ملحمياً ونثراً تاريخياً وحكايات اسفار وقصص استكشاف وهي اعمال استوحاها اصحابها من الغزاة والملاحين والبعثات التبشيرية من ابناء شبه جزيرة ايبيريا وكانوا روادا لعمليات التوسع الاوروبي. وبالمثل حقق الانجليز والفرنسيون امجادا في مجال الادب اسوة بمنافسيهم الهولنديين. ويشهد على هذا المجموعات المثيرة للإعجاب لكل من ريتشارد هاكوتتي وصمويل يوركاس ومليكاندك تيفينوت، ولا يسعنا أن نغفل أيضاً دور الايطاليين في هذا المجال ذلك لانهم اعظم من ارتاد ادب الرحلات متمثلاً في ماركو بولو وراموسيو. وكانت هذه الاعمال اساسا لاسهامات رائعة قدمها الناشران واصحاب المطابع الالمان. ونذكر من بين هذه الاسهامات السلسلة الموسوعية من اعداد دي بري بعنوان «الرحلات العظمى والصغرى» التي صدرت في فرانكفورت فيما بين عامي ١٥٩٠ -

١٦٣٤. ولكن مع تقديرنا الحقيقي لكل ما صدر من كتيبات وكتب وخرائط التي طبعت في البلدان الأخرى، سوف تظل الحقيقة الواقعة وهي أن ما صدر في المقاطعات المتحدة للأراضي المنخفضة الحرة كان له قصب السبق والريادة نوعا وكما على مدى القرن السابع عشر كله.

ولعل أشهر أدب الرحلات الهولندي هو قصة مغامرات ومآسي سكيبر اسبرانت بونتكوي في بحار الشرق (١٦١٨-١٦٢٥) التي صدرت خلال هذه الفترة وصدرت منها خمسون طبعة على الأقل فيما بين عامي ١٦٤٠-١٧٥٦. كذلك صحف السفن التي كانت مع طاقم السفن التجارية الضخمة وركابها وجدت سبيلها إلى الطباعة قبل ١٦٥٠، وتم تجميع أشهرها في مجموعة من مجلدين صدرت في امستردام عام ١٦٤٥. وهذه الصحف ليست مجرد سجلات لحالة السفينة بل تسجيل للموانئ والأماكن التي تمر عليها أو ترسو عندها السفينة وطرق التجارة المنبعة هناك، وأخلاق وعادات سكانها. وأفاضت هذه الصحف في الوصف والتصوير - على نقيض أدب الرحلات الأسباني البرتغالي إذ نادرا ما تناول هذه الجوانب - ومن ثم أفادت هدفين معا بأن قدمت معلومات علمية للتجار والبحارة مثلما اتحت أصحاب الفضول الشغوفين بإمتاع خيالهم بالرحلات وهم قعود في بيوتهم. ومن أوضح النقاط التي تبرزها هذه الصحف قدرة البحارة الهولنديين على الارتجال في أحلك الظروف عند انقاذهم من الفرق أو بين الواح الجليد الطافية أو وسط أعاصير المحيط الهندي. وثمة طراز آخر حقق شهرة وذبوعا استنادا إلى حكايات الرحالة وذكرياتهم وهو ما تجسد في أعمال فنية منقوشة على ألواح من النحاس أو محفورة في نحت خشبي.

ونظراً لأن قلة من الناس من خارج الأراضي المنخفضة كانوا يعرفون الهولندية لذا صدرت أكثر هذه الكتب كذلك باللغات اللاتينية أو الألمانية أو الفرنسية أو أحيانا قليلة بالانجليزية وذلك بهدف كسب السوق الأجنبية. ونذكر هنا اسم اثنين من أبرز المؤلفين لمثل هذه الأعمال واستهدفا تحقيق

رواج في السوق الأوروبية وهما جوهان دي لايت والفيرت دابار. والاول مولود في مقاطعة انتويرب، وعمل مديراً لشركة الهند الغربية وأصدر عدداً من الكتب الوصفية عن أوروبا وآسيا وأمريكا. وعلى الرغم من انه لم يغادر الاراضي المنخفضة، بذل جهوداً مضنية في سبيل تسجيل وقائع صادقة، وأفاد من مكتبته الخاصة الرائعة فضلاً عن مكتبة جامعة ليدين ووثائق ومحفوظات شركة الهند الغربية. وتتحدث اشهر أعماله عن أمريكا غير أن دقة وصفه لامبراطورية المغول العظمى De Imperio Magni Magolis الصادر في عام ١٦٣١ صادفت ثناء من كتاب القرن العشرين المتخصصين في علوم الهند. أما دابار فلم يكن ندا لجوهان دي لايت ككاتب نقاده. غير أن كتاباته عن أفريقيا وبعض بلدان آسيا والشرق الاوسط ظلت طويلاً أفضل ما كتب عن هذه المناطق ولا تزال مرجعاً يوثق به بالنسبة لبعض النقاط على نحو ما يرى المؤرخون المعاصرون لغرب أفريقيا. واشتملت هذه الكتابات على خرائط عديدة وصور كثيرة، منها ما هو خيالي ومنها ما هو تسجيل دقيق للواقع. ويفض النظر عن نوعية هذه النقوش الفنية إلا أن وجودها بكمية كبيرة كان عاملاً أساسياً في دعم شعبيتها سواء داخل الوطن أم خارجه.

وأفضل أمثلة على انتاج الكتاب الهولندي في هذا المجال نجدها في عملين لاثنيين من رجال الدين الكالفنيين. الاول وهو مجلد من القطع الكبير بعنوان *Rerum Per Octennium in Brasilia* وأشرف على تحريره القس كاسبار بارلايوس ونشره بلايو في امستردام عام ١٦٤٧. وبارلايوس واعظ من المعارضين وواحد من الباحثين والمفكرين الكلاسيكيين الرواد في عصره واستاذ بجامعة اثينا يوم في امستردام. وصدر هذا الكتاب اللاتيني تحت رعاية جون موريس، كونت ناسا وسبيجين. ويحكي الكتاب عن عهده حين كان حاكماً للأراضي المنخفضة في البرازيل «١٦٣٧-٤٤» ويمتدح هذه الفترة بأسلوب غير ممجوج. ويعتمد النص هنا على الأوراق الرسمية للكونت ورسائله. ويشتمل الكتاب على لوحات وخرائط قيمة رسمها الفنان

فرانز بوسست. وإذا كان هذا الكتاب يعبر عن الذروة التي بلغتها شركة الهند الغربية فإن ذروة شقيقتها الشرقية تتبدى في كتاب القس فرانسوا فالنتين بعنوان: الجديد والقديم في جزر الهند الشرقية - Oud en Nieuw Dost- Indien الصادر في دوردرشت في ثمانية مجلدات تقع في ٨٠٠ صفحة علاوة على مئات الرسوم والخرائط، هذا على الرغم مما نسب إليه من انتحال بعض فصول هذا الكتاب القيم حقا. إذ أن هذا الاتهام إنما يؤثر فقط على قيمة الكتاب في مواضع قليلة أخطأ فيها الكاتب قراءة أو فهم مصادره الأصلية. نعم أن فالنتين لم يركن تماما إلى خبرته الخاصة عن جزر الهند الشرقية، حيث عاش سنوات طويلة، خاصة في جزر التوابل وجاوة، بل ولم يعتمد بشكل أساسي على اختلاس بعض نصوص كتب منشورة لكتاب سابقين عليه على أساس من المحاباة والانحياز (وان لم يعترف بذلك أحيانا). كذلك أفاد على نحو جيد بالكثير من المواد غير المنشورة التي وفرها له كبار المسئولين في الشركة، بما في ذلك يوميات وكلاء ديشيما في نجازاكي. وبغض النظر عن أي شيء آخر فإن نشر هذا السفر الموسوعي الضخم يكذب الزعم الشائع بأن مديري شركة الهند الشرقية عمدوا جميعاً وبشكل دائم إلى الحيلولة دون نشر أي معلومات عن ممتلكاتهم في الشرق. حقا إن مجلس إدارة الـ ١٧ ومجلس إدارة الـ ١٩ أعاقوا أو عطلوا نشر المعلومات الغنية التي ظنوا أنها قد تفيد خصومهم ومنافسيهم ولكنهم في غير هذا الصدد، لم يحاولوا التدخل ضد موظفيهم، الحاليين والسابقين، الذين نشروا دراسات تصف جزر الهند الشرقية والغربية.

وبغض النظر عن أدب الرحلات، ثمة فرع آخر للنشر حقق فيه الهولنديون تفوقا سريعا استمر قرابة قرن كامل. ونعني به إنتاج أطالس وكتيبات الملاحة البحرية. ففي عامي ١٥٨٤-١٥٨٥ نشر لوكاس جانسون فاجنر أطلساً من مجلدين تحت عنوان Spleghel der Zeevaerdt ويضم مجموعة من الخرائط المحفورة على لوحات من النحاس تصور الساحل

الغربي لقارة أوروبا مع التعليمات البحرية الوثيقة الصلة. وترجم هذا العمل الى الانجليزية ضمن الكتاب السنوي للأسطول تحت عنوان «مرآة البحار» ويمثل الكتاب تطوراً رائعاً فيما يختص بالتعليمات الملاحية المحدودة التي سبق إصدارها وظلت زمناً طويلاً نموذجاً تحتذي به جميع الإصدارات المماثلة له التي صدرت في إنجلترا بعد ذلك تحت اسم «الفاجنوريات» -Waggoners حتى نهاية القرن الثامن عشر. ويعتبر كتاب فاجنر أول كتاب يطبع الرموز المعيارية المتعارف عليها لعوامات الارشاد الملاحية والمنارات البحرية والمرافئ الآمنة والصخور المغمورة الخطرة. وعلى الرغم من أن الأسبان كانوا قد شرعوا في حفر ونشر خرائط ملاحية قبل كتاب فاجنر بسنوات قلائل، إلا أن خرائط هذا الكتاب تعتبر أول خرائط شاع استعمالها في البحار. ويتحدث عنها القائد البحري د. و. ووترز فيقول: «تتبع قيمتها من أنها أسقطت الأخطاء التقليدية وتتمثل ميزتها في أنها قننت المعارف الخاصة بجغرافيا البحار واشتملت فقط على الوقائع المؤكدة للملاحة البحرية الجيدة. ويتحدد إنجازها في أنها أرست الملاحة البحرية على قاعدة راسخة تفوق كل ما سبقها».

وواصل عمل فاجنر العديد من دور النشر الهولندية التي تخصصت في إنتاج الخرائط المحفورة حفرًا دقيقًا وكتب الملاحة التي تصدر بلغات أوروبية عديدة. وأشهر هذه المؤسسات دار بلايو للنشر في أمستردام التي ازدهرت فيما بين عام ١٦٢٠ وعام ١٦٧٢. وأشهر إصداراتها الأطلس العالمي الفاخر الذي صدر في أحد عشر مجلداً من الخرائط في عام ١٦٦٢. واحتفظ الهولنديون لأنفسهم بالريادة في هذا المجال الذي أسسوه حتى عام ١٦٧٥ تقريباً. والجدير بالملاحظة أن الأطلس البحري الانجليزي الذي وضعه جون سيلار، الصادر في لندن في هذا العام واعتبره البعض أفضل عمل من نوعه،

* D. W. Waters, the Art of Navigation in England in Elizabethan and Early Stuart Times; London, 1958; pp. 168-175.

إنما كان اختلاصاً مخزياً من أطلس آخر عنوانه «أطلس البحار أو أطلس العالم» Zeeatlas ofte Water-Wereld الذي وضعه بيتر جوز. ولكن بعد وفاة جوهان بلايو في عام ١٦٧٢ انحسر نشاط صانعي وناشري الخرائط الهولنديين وقنعوا باستتساخ أصول أعمال القرن السابع عشر. ونلاحظ أن جوهانس فان كولي الذي ورث عن جوهان بلايو رصيده الضخم من الكتب الملاحية والجغرافية، والذي أسس أيضاً مؤسسة تخصصت في إنتاج الخرائط والنماذج الجغرافية للكرة الأرضية على مدى قرنين تقريباً، أصدر في عام ١٦٨٢ نموذجاً للكرة الأرضية لم يشر فيه إلى اكتشافات فاسمان التي تحققت قبل ذلك بأربعين عاماً على الرغم من أنها وردت في كتابات كثيرة سابقة نذكر منها على سبيل المثال كتاب «الرحلات» تأليف ثيغينوت. واعادت بيوت برجوازية كثيرة أن تستخدم الخرائط والرسوم الجغرافية، كما اقتنت دور كثيرة الخرائط الكبيرة التي تعلق على الجدران وكذلك النماذج الجغرافية للكرة الأرضية. وأنفق هواة جمع الخرائط من الهولنديين أموالاً باهظة في سبيل اقتناء أطالس فاخرة الإخراج والطباعة والتجليد. وكان الناس يكدون بحثاً عن منتجات مؤسسة باليو ويلتمسون أغلاها ثمناً التي قل ظهورها في صالات البيع. واستطاع الانجليز والفرنسيون خلال القرن الثامن عشر أن يكونوا نداً للهولنديين في هذا المجال ثم تفوقوا عليهم بعد ذلك في إنتاج النماذج الجغرافية الدقيقة للكرة الأرضية والخرائط والرسوم. واحتفظوا لأنفسهم بالريادة في هذا المجال على الرغم من أن ديرك فان هوجندروب كان مبالغاً شيئاً ما حين قال في عام ١٧٩٢: «لا نجد خريطة هولندية واحدة مقبولة عن جزر الهند، بينما نجد لدى الفرنسيين والانجليز خرائط متميزة».

أما عن الكتيبات الفنية المتعلقة بعلم الملاحة في أعالي البحار فقد اعتمد الهولنديون بشأنها، ولزمن طويل، على ترجمات الكتاب الاسباني الكلاسيكي «فن الملاحة» Arte de Naregar لمؤلفه بدور دي مدينا الصادر عام ١٥٤٥. وقد صدرت نسخة منه باللغة الفلمنكية في مقاطعة أنتويرب عام ١٥٨٠.

وقبل أن يحين عام ١٦٤٢ كانوا قد أصدروا كتاباً خاصاً بهم يضارع كتاب
 مدينا من حيث شهرته وشيوعه وهو كتاب «وصف صناعة الملاح» - Beschrij-
 ving Van de Runst der Stuerlieden تأليف س. ١. لاستمان. وثلت هذا
 الكتاب مؤلفات أخرى كثيرة مماثلة. ونجد في جميع الموانئ الكبرى،
 وبخاصة أمستردام عدداً من قدامى البحارة ذوي كفاءات متباينة يدرسون
 علم الملاحة في بيوتهم للشباب من البحارة المتطلعين للالتحاق بهذا العمل.
 وتكثر هذه الدروس في الشتاء خاصة حيث ترسو أغلبية سفن التجار
 وتتوقف بلا عمل. وعلاوة على هؤلاء الرجال ذوي الخبرة العملية بالملاحة
 البحرية نجد آخرين ممن لم يركبوا البحر ساعة من الزمن في حياتهم ولكنهم
 يرون في أنفسهم كفاءة تؤهلهم للعمل معلمين لفن الملاحة طالما وأنهم قد
 درسوا الرياضيات والملاحة البحرية النظرية. ويقف موقف النظير لهؤلاء، أو
 لنقل الند لهم في إنجلترا وليم بورن، وهو صاحب حانة وعلم نفسه
 الرياضيات وتخصص فيها. وقد ألف وليم بورن كتابه «رهنط الملاحين
 البحريين: يشتمل على أكثر قواعد الملاحة فائدة، والخبرات الرياضية
 والمعارف الكاملة عن الملاحة البحرية إلى جميع السواحل والأقطار». (لندن
 ١٥٧٤) وحقق الكتاب نجاحاً عظيماً يستحقه عن جدارة داخل إنجلترا
 وخارجها. وصدرت منه ثلاث طبعات باللغة الهولندية فيما بين عامي ١٥٩٤
 و١٦٠٩.

واحتدمت المنافسة بين الهولنديين القاشمين بمهمة تعليم الملاحة البحرية
 وكثيراً ما تبادل هؤلاء الاتهام بالانتحال والتزييف والعجز. وعمد هؤلاء
 المعلمون، رغبة منهم في اجتذاب الزبائن، إلى الإعلان عن مهارتهم وذلك بلمصق
 إعلانات من الورق فوق أبواب بيوتهم. واشتملت هذه الاعلانات عادة على
 ألفاظ رياضية معقدة مع حلول لها. وأشهر كتابين من بين كتب كثيرة
 أصدرها هؤلاء المعلمون كتاب «الضوء الذهبي للملاحة البحرية Vergulde
 Licht der Zeevcart تأليف كلايس هندريكس جيتير ماكر، وكتاب «الكنز

أو فن ملاحاة البحارة Schatkamer ofte Konst der Stuerluyeden تأليف كلايس دي فرايس. وصدرت من الكتاب الاول أربع عشرة طبعة فيما بين ١٦٦٠ و ١٧٧٤. وصدرت من الثاني احدى عشرة طبعة فيما بين ١٧٠٢ و ١٨١١، هذا علاوة على الطبعات التي صدرت بلغات أخرى. وعلى الرغم مما حققه هذان الكتابان من شهرة وشيوع على مدى أجيال كثيرة من الملاحين والبحارة الهولنديين والألمان والاسكندنافيين إلا أنه كان يعوزهما قدر كبير من الوضوح والتفصيل والتبويب. ذلك أن مادة الكتابين اتسمت بسوء التبويب والعرض فضلاً عن الاسهاب المفرط والغموض والتكرار والحشو واشتمالها على قواعد معقدة ومرهقة. ونعرف أن حساب المثلثات الكروى كان لا يزال لغزاً غامضاً بالنسبة للملاح الهولندي المتوسط في عام ١٧٤٠. بيد أن هذه الكتيبات العتيقة ظلت مستخدمة على نطاق واسع في الوقت الذي تيسرت فيه كتب أخرى أفضل وأحدث مثل مؤلفات عالم الرياضيات في بحرية امستردام كورنيليس دوويس (١٧١٢-١٧٧٢).

وثمة مجال كان الخبراء الفنيون الهولنديون سادته دون منازع وباعتراف الجميع خلال القرن السابع عشر وهو الهندسة الهيدروليكية واصلاح الاراضي. وكان هذا المجال المفضل لاستثمار رأس المال الهولندي والافادة بالخبرة الهولندية في الصرف وبناء السدود وتشبيد القنوات وهي الخبرة التي توفرت للهولنديين من خلال استصلاح المستنقعات وترويض مصبات الأنهار، منذ بدايات العصر الوسيط وحققوا من خلالها مهارات فنية فائقة لا ينافسهم فيها أحد. وأبرز المهندسين الهولنديين في هذا الفن هو جان ادريانسون ليجووتر (١٥٧٥-١٦٥٠) الذي استحدث طريقة الضخ بواسطة طواحين الهواء. ونجح في تصريف مياه مساحات واسعة في مقاطعة هولندا، هذا على الرغم من أن خطته الطموحة لاستصلاح بحيرة هارليم في عام ١٦٤١ كان لا بد وأن تنتظر لأكثر من قرن إلى أن تيسر تنفيذها. ودعا جيڪس الاول ملك انجلترا كورنيليس فير ميودين من أبناء مقاطعة زيلاند

لزيرة انجلترا حيث حقق وخسر ثروة نتيجة مشروعات الصرف التي اضطلع بها في منطقة هاتفيلد شيز. وعمل مهندسون هولنديون آخرون متخصصون في الهيدروليكا في كل من ألمانيا وفرنسا وبولندا وروسيا وإيطاليا. وظل الهولنديون حتى نهاية القرن الثامن عشر الخبراء المشهود لهم والمعترف بهم في العالم الغربي في مجال تشييد وتشغيل طواحين جميع أنواع طواحين الهواء. وعندما قرر جون الخامس ملك البرتغال إقامة مؤسسة لنشر الأخشاب في غابة الصنوبر في ليريا لنشر الواح من الخشب لاستخدامها في بناء السفن الحربية أرسل إلى هولندا في طلب بعض الفنانين الهولنديين لإقامة وتشغيل هذه المؤسسة التي استمرت تعمل إلى أن دمرها حريق هائل في عام ١٧٧٤. ولقد تولى الهولنديون حينما ذهبوا من جزيرة مانهاتن إلى فورموزا مهام حفر القنوات وبناء السدود. كذلك فإن أعمال المساحة التي هي نتيجة لازمة عن كل الأعمال الهندسية من هذا النوع شجعت استحداث وظهور أعداد كبيرة من المتخصصين في فن خرائط المساحة. وحققوا درجة عالية من التميز في عملهم هذا سواء من حيث فن الرسم ودقته مما يذكرنا بما حققه الهولنديون من مهارة وحذق في مجال الخرائط والرسوم الملاحية.

وحيث أن هولندا هي أول أمة ارتادت البحار في القرن السابع عشر. فلا غرابة في أن تكون لها الريادة في مجال إنتاج الخرائط والرسوم والكتيبات عن الملاحة البحرية وأدب الرحلات. ولكن، وكما ذكرت آنفا لم تكن هذه الكتب هي الأكثر شيوعا في السوق المحلي. وباستثناء فوندل نجد أن اعلام الادب في هولندا لم يبدوا اهتماما بجهود أبناء جلدتهم في أعالي البحار أكثر مما أبدى غيرهم من أمثال سير فانتس أو ملتون أو مولير بالنسبة لنشاط مواطني كل منهم. فكما كان الحال في جميع أنحاء أوروبا خلال النصف الأول من القرن السابع عشر كان الدين وفقه اللاهيات هما أفضل الموضوعات التي يقبل الناس على قراءتها ويليهما القانون والسياسة والكلاسيكيات. واشتملت مكتبة بلدية امستردام في عام ١٦١٢ على سبعة كتب فقط باللغة الهولندية،

وأغلبية الكتب الوارد ذكرها في قائمة كتب مكتبة أوترشت في عام ١٦٠٨، وعددها ٢٠٠٠ كتاب هي كتب في فقه الدين. وبدأت تشيع خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر المسرحيات والأدب الفرنسي بين أوساط الطبقة الحاكمة والبرجوازيين. وبدأ واضحاً حتى بين أوساط المتعلمين أن الكتب الهولندية والفرنسية تتزايد على حساب الكتب اللاتينية. ونعرف أن مؤسسة ايلزفر التي تخصصت في نشر الكتب للباحثين والمفكرين والمحامين ورجال الدين، وذاع صيتها في أوروبا وغزت أسواقها أصدرت أكثر من ٩٦ بالمئة من منشوراتها باللغة اللاتينية فيما بين عام ١٥٩٤ وعام ١٦١٧. ولكن مؤسسة ايلزفير التي تطبع أيضاً كتب جامعة ليدن لم تنشر خلال الفترة من ١٦٢٦ إلى ١٦٥٢ سوى واحد بالمائة من منشوراتها (في هذا الإطار) بالفرنسية خلال السنوات الخمس الأولى من تعاقدتها مع الجامعة، وأكثر قليلاً من خمسين بالمائة خلال السنوات الخمس الأخيرة من هذه الفترة. وفي عام ١٦٨٥ كتب الفيلسوف والناقد البروتستانتي الفرنسي بيير بايل من ملاذه في روتردام عن الأراضي المنخفضة الشمالية فقال: «اللغة الفرنسية شائعة في هذا البلد حتى أن حجم مبيعات الكتب الفرنسية هنا أكثر منه في أي بلد آخر».

ومنذ عام ١٦٥٠ تقريباً زادت أيضاً بدرجة ملحوظة أعداد الكتب الصادرة باللغة الهولندية، إذ بلغت خلال النصف الثاني من القرن حوالي ثلاثة أمثال ما كانت عليه في النصف الأول منه. ولكن أيا كانت درجة شيوع قصص الرحلات والأسفار البحرية إلا أنها لم تنافس في شيوعها الكتاب المقدس والشعر الهزلي للشاعر جاكوب كاتس. وليس من قبيل المبالغة في شيء إذا قلنا إن أي مكتبة في منازل الهولنديين المتعلمين لم تكن تخلو من عدة نسخ من هذه الأعمال. وطبيعي أن الكتاب المقدس هو أكثرها شيوعاً، ولكن نلاحظ أيضاً أن ثمة طبعة مصورة لاشعار كاتس، وهي طبعة باهظة الثمن نسبياً، بيع منها ٥٠٠٠٠ نسخة حتى عام ١٦٥٥ مما جعلها بحق واحدة من أكثر الكتب رواجاً في القرن. ونجد أن أهم صناعات التصدير في هولندا آنذاك

تصدير الكتاب المقدس باللغتين الانجليزية والالمانية. وها هو ناشر كبير في امستردام يفخر قائلاً: «إنني وعلى مدى سنوات عديدة طبعت أكثر من مليون نسخة من الكتاب المقدس لانجلترا وسكوتلندا. إنك لا تجد صبيًا وراء المحراث أو خادمة صغيرة إلا ومع أي منهما نسخة من الكتاب المقدس». وقد ينطوي هذا الكلام على قدر من المبالغة، ولكن الناشرين الذين كانوا يعملون لحساب الملك شارل الثاني في عام ١٦٧٢ اشتكوا من أنه «بسبب ما يصبه الهولنديون دائماً من أعداد كبيرة من الكتاب المقدس أصبحوا هم أنفسهم لا يبيعون سوى عشر ما كانوا يبيعونه قبل ذلك». وتؤكد جميع الشواهد أن عدد الكتب التي تطبع في جمهورية هولندا إلى ما قبل نهاية القرن كانت أكثر منها في جميع بلدان أوروبا الأخرى، وأن أغلبية هذه الكتب المطبوعة في هولندا مخصصة للسوق الدولية.

ويمكن القول بمعنى من المعاني أن الأدب الهولندي الذي ساد خلال القرن الذهبي لا يزال مثلما كان حتى الآن: كتاب مغلق على الجميع دون الهولنديين والفلمنك والهولنديين من سكان جنوب أفريقيا. وبالمقارنة بالكتب الهولندية عن الأسفار والرحلات والجغرافية والملاحة البحرية التي سرعان ما كانت تترجم إلى اللغات الأوروبية لأسباب عملية، نجد أن الأدب الهولندي، نثراً ونظماً، لم يثر اهتماماً خارج الأراضي المنخفضة سوى اهتمام ضئيل في ألمانيا. وإن جوست فان دن فوندل الذي أجمعت الآراء على أنه أعظم أدباء هولندا وحظى بالتكريم فيها شأنه شأن شكسبير في إنجلترا، وسرفانتيس في إسبانيا، وكامويس في البرتغال، لم يجد من تطوع لترجمته ولم يجد رواجاً في الخارج مثلما حدث للآخرين، وليس يسيرا فهم سبب ذلك وتفسيره، ومن المسلم به أن الفرنسيين والانجليز جيران في هولندا، اعتادوا النظر باستعلاء مفرط إلى اللغة الهولندية، وانتقاد ما سموه مخارجها الصوتية الخشنة. ونذكر في هذا الصدد أن كاتباً وأديباً من كتاب هولندا خلال القرن الذهبي هو بيتر سكريفير (١٥٧٦-١٦٦٠) نظم قصيدة امتدح فيها لغته التي وصفها

بقوله: «لسان تفوق حلاوته الوصف، وسيدة اللغات جميعها» بينما وصفها كاتب انجليزي معاصر بقوله: «الصفدع النفاق عندليب هولندي». وإن الجهل باللغة الاسكندنافية أو الروسية على سبيل المثال لم يحل دون شيوع ترجمة أعمال كير كجورد وابسن وتولستوى ودستويفسكي، والنظر بعين التقدير والاكبار لترجمة اعمالهم. ولقد كان فوندل عضواً في حلقة تحمل اسم Muid-en-Kring التي تضم مثقفين من الجنسين وهواة نشر وشعر وموسيقى، واعتادوا اللقاء بصفة دورية فيما بين عامي ١٦٠٩ و١٦٤٧ في قلعة مويدين حيث كان امينها هو الشاعر والموسيقي والمؤرخ ب. ك هوفت. وضمت هذه الجماعة هوجو جروتويس الذي وضع مع سلفه الاسباني فرنسيسكو في فكتوريا أسس القانون الدولي، ولورنس رايل الحاكم العام السابق لجزر الهند الشرقية والذي تبادل الرسائل مع جاليليو بشأن قضايا علمية؛ وحـبـ سويلنك عازف الاورغن الشهير، وكوستانتين هوجنز الذي عمل سكرتيراً لاثنتين من امراء آل اورانج فضلاً عن انه شاعر عرف بغزارة انتاجه للشعر باللغات الهولندية واللاتينية والفرنسية، وشقيقتان حسناوان فنانتان هما أنا وماريا رويمرز. وترجم كوستانتين هوجنز بعض اشعار جون دون الى الهولندية، ولكن لم يرد الجميل اي انجليزي من معاصريه.

وان الثروة التي حققتها طبقتا الحكام والتجار بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن طريق التجارة عبر البحار لم تخلق فقط سوقاً رائجة للمطولات الشعرية الدافقة للشاعر كاتس والمجلدات والخرائط المصورة التي نشرتها دور نشر بلانتين وايلزفير وبلايو، بل ساهمت ايضاً في ازدهار الفنون بصورة عامة وفن الرسم بصورة خاصة، ولم يقبل الهولنديون الاثرياء وحدهم على الاعمال الفنية لتزيين منازلهم، بل أضحت اللوحات ممتلكات ثمينة يحرص على امتلاكها الجميع فيما خلت بيوت الفقراء. ونكاد نقول ان جميع البلدان، باستثناء اليابان، اقتنت أعمال رمبرانت - ان لم نقل دعوا الفنان نفسه لزيارتهم - وأضحى فن رامبرانت أكثر شيوعاً فيها مما هو في

بلده. وتحدث الرحالة الخبير بيتر موندي عن فن الرسم وحُب الناس للوحات في هولندا وذلك عقب زيارته لها في عام ١٦٤٠ فقال: «لا أحسب أن هناك في العالم كله فنانين يبرزون فناني هولندا براعة وموهبة خاصة مبررانت الآن. والناس جميعاً يتهافتون على تزيين بيوتهم، خاصة غرف الاستقبال بأعمال نفيسة غالية الثمن: الجميع بمن فيهم الجزارون والخبازون وغيرهم حريصون على اقتناء بعض الصور. هذه هي الفكرة العامة التي تولدت عندي عن مواطني هذا البلد: حب اللوحات والابتهاج بها.

وزار جون ايفلين هولندا بعد عام واحد من زيارة بيتر موندي وأعجب مثله بما شاهده. أعجبه إلى درجة الذهول السوق السنوية في روتردام التي ازدانت بأعداد كبيرة من اللوحات والرسوم خاصة مشاهد الطبيعة. وقال إن سبب هذا الكم الهائل من الرسوم وسبب رخصها، نابع من الحاجة إلى مساحة واسعة من الأراضي للإفادة بها واستخدامها. لذا فإن من المألوف أن نجد الفلاح البسيط يخطط لانفاق ثلاثة أو أربعة آلاف جنيه في هذه السلعة. وترى بيوتهم زاخرة بها ثم يبيعونها في أسواقهم بما يعود عليهم بأرباح طائلة. ويبدو واضحاً أن التفسير الذي يقدمه ايفلين لشيوع هواية جمع اللوحات تفسير غير مقنع طالما وأن هناك مجالات استثمار تعود بأرباح أضخم كثيراً مثل سندات الحكومة والبلديات. والأرجح عقلاً أن الناس أقبلوا على شراء اللوحات لأنهم يحبونها على نحو ما لاحظ بيتر موندي. ونادراً ما أخطأ الزوار الأجانب للمقاطعات السبع ملاحظة حب الهولنديين للوحات والرسوم، حتى أن وليم كار قال في عام ١٦٨٨ أن جميع البيوت، بما في ذلك بيوت الخير لرعاية الفقراء، تزdan بالعديد من اللوحات.

وحظي الرسامون الهولنديون بتقدير كبير خارج حدود الجمهورية ونشأت تجارة تصدير واسعة ورائجة في أعمالهم. وتخلت أنتروب عن الصدارة في مجال الفنون لاسترداد بعد وفاة روبنز متعماً فقدت مكان الصدارة لها أيضاً في مجال التجارة والبنوك. وأضحت المراكز الرئيسية

لرعاية - ومن ثم انتاج - الفنّون هي المدن الهامة مثل امستردام وليدن وأوترخت وهارلم ودلفت. وكانت لكل مدينة في الأراضي المنخفضة الشمالية فنانوها من الرسامين. وربما اتخذت الكنيسة الكالفنية موقف اللامبالاة من الفن حيث لم يكن له منها موقف معاد واضح. غير أن غياب الرعاية الكنسية للأعمال الفنية وأذنته أو عوّضت عنه بأكثّر منه رغبة العامة من سكان المدن في اقتناء بعض اللوحات. وسافر كثيرون من الرسامين الهولنديين الى الخارج للعمل، علاوة على غيرهم ممن قصدوا ايطاليا في شبابههم للدراسة هناك. وهاجر بعضهم هجرة نهائية ومن هؤلاء الفنانان البحريان الشهيران فان دي فيلدس اللذان استقرا في انجلترا أثناء الحرب الانجليزية الهولندية الثالثة. ونذكر بهذه المناسبة أن هذين الفنانين وغيرهما من الفنانين الهولنديين الذين برعوا في رسم السفن لم يحققوا نفس القدر من النجاح في رسم البحر.

وعلى الرغم من ميل الاثرياء من أبناء الطبقة الحاكمة والتجار والبرجوازيين في هولندا إلى اقتناء اللوحات الفنية إلا أنهم نظروا نظرة احتقار إلى الفنانين كفريق اجتماعي. ذلك أن جميع الرسامين الهولنديين تقريباً انحدروا من أسر برجوازية متواضعة أو أبناء عمال. ولم يرتفعوا عن منشئهم الاجتماعي المتواضع ليحتلوا مكانة سامية مثل مكانة كل من برونز وفان ديك وفيلاسكيز. ولقد كان الاثرياء الذين تعهدوا رمبرانت بالرعاية يحتقرونه لإفلاسه بقدر ما يعجبون به كفنان من الطراز الأول. واعتاد المجتمع النظر الى الرسامين باعتبارهم صغاليك يقضون أكثر وقتهم في الحانات حيث يرسم تلامذتهم عملات على الأرض لإضحاك الناس على حساب استاذهم المخمور حين يحاول التقاط العملات من على الأرض.

ولم تكن السوق الأوروبية هي السوق الوحيدة أمام الفن الهولندي، إذ جرى تصدير الصور الى آسيا حتى من قبل تأسيس شركة الهند الشرقية. وأبدى الاندونيسيون والصينيون اهتماماً ضئيلاً بالفن الغربي، غير أن الولاة والحكام في بلاد الهند والفرس ألحوا في سؤالهم عن الفنانين الهولنديين

لكي يزوروا بلاطهم واستجاب المسئولون في الشركة لهذه الطلبات كلما تيسر لهم ذلك. وعلاوة على الفنانين العاملين بالشركة، جاء آخرون غيرهم للعمل لحسابهم الخاص. وفي عام ١٦٠٢ أهدى الهولنديون ملك كاندي لوحة كبيرة عن معركة نيوبروت (٢ يوليو ١٦٠٠) وتصور اللوحة الأمير موريس بحجمه الطبيعي وهو فوق صهوة جواده يتصدر جيشه في المعركة. واحتفظ قصر الحاكم السنهالي بهذه اللوحة الضخمة في قاعة العرش سنوات طويلة. وأهديت لوحة تصور ميناء امستردام إلى سلطان باليمبانج في عام ١٦٢٩، ولوحات لصور شخصيات من الحكام الهولنديين إلى أمير هندي وإلى ملك بيجو. ومن ناحية أخرى فإن شوجان اليابان لم تستهوه بعض اللوحات الزيتية التي أهديت إليه في عام ١٦٤٠. وخلال العام ذاته أخفقت الشركة في اقناع شاه بلاد الفرس بشراء لوحة تصور انتصار اسطول هيمنسكيرك أمام جبل طارق في عام (١٦٠٧).

ويبدو أن الهولنديين كانوا في بلاد الشرق يعشقون اللوحات شأنهم شأن مواطنيهم على ساحل بحر الشمال، ذلك أن جرد محتويات بيت الحاكم في قلعة زيلانديا، في فورموزا، في عام ١٦١٤ كشف عن وجود اثنتين وعشرين لوحة منها أربع عشرة لوحة رسوم لوجوه أمراء بيت ناسو، وثمان لموضوعات من الكتاب المقدس. وخلف قائد حامية باتافيا تسعا وثمانين لوحة ما بين صغيرة وكبيرة بعد وفاته عام ١٦٩٦ علاوة على لوحة شخصية له. وكان من الشائع أن يقتني أثرياء باتافيا فيما بين ثلاثين أو أربعين لوحة. وكذلك اعتاد موظفو الشركة اقتناء أعمال من الفن الشرقي مثال ذلك أن الحاكم العام كامفيوس خلف لصديقه بيتر فان دام محامي الشركة في امستردام أربعة من كتب مزدانة بمئات الرسوم الصينية واليابانية والإسلامية وغيرها. وبعد قرن من الزمان أحضر اسحق تيتسنج من نجازاكي بعض المطبوعات اليابانية ومجلدين بهما رسوم نباتات رسمتها زوجة رئيس أطباء الشوجان. وحدث أن رأى هذه اللوحات كاتب فرنسي، فلم يتمالك نفسه وقال: «لا أظن أن

هناك ما هو أكثر كمالات هذه الرسوم. ونحن نعرف أن رمبرانت اقتنى ونسخ منمنمات مغولية مما دعا البعض إلى الظن بأنه تأثر قليلاً بالرسوم اليابانية والصينية.

وعلى الرغم من أن عشرات من الرسامين الهولنديين عملوا في الشرق خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر إلا أن القليل جداً من أعمالهم قدر لها البقاء. وإن الفنانين المحترفين الوحيديين الذين عملا في المنطقة الاستوائية وبقيت أعمالهما موضع تقدير بعد وفاتهما هما فرانزبوست والبرت ايخوت. انهما لم يعملوا في منطقة آسيا الموسمية فقط، بل عملا أيضاً في الأراضي المنخفضة البرازيلية أيام ولاية الكونت جون موريس (١٦٣٢-١٦٤٤). وعنى مؤرخو الفن في السنوات القليلة الماضية بدراسة رسومهما دراسة مدققة وتفضيلية. وسواء أكانت القيمة الفنية لأعمالهما جديرة بالاهتمام الذي تحظى به الآن من الدارسين أو تستحق الائتمان الفلكية التي يدفعها ثمناً لها هواة الفن، فإن هذا امر متباين بشأنه الآراء. ولكن الشيء المؤكد أن أعمالهما حظيت في حياتهما بقدر متواضع من الرواج. والجدير بالملاحظة أن الموضوعات والأفكار الرئيسية المستمدة من المنطقة الاستوائية والتي تخللت أكثر أعمالهما بعد عودتهما من البرازيل لم تكن محصورة في موضوعات وأفكار من أمريكا الجنوبية وغرب أفريقيا، بل وامتزجت بأفكار وموضوعات من شرق آسيا على نحو ما نرى بوجه خاص في رسوم ايخوت.

ونجد هذا المزيج بين الشرق والغرب تمثله بعض اللوحات الجدارية التي رسمها هذا الاستاذ المتوسط القدر على جدران القلاع الألمانية. ولكننا نشهد أفضل مثال لها في تصميمات سجاد جوبلن الذي تحمل اسم «رسوم الهند». وقد أعدها بتكليف من لويس الرابع عشر - بعد محاولات تشجيعية مكثفة من جانب الكونت جون موريس - وصادفت رواجاً في أوساط البلاط حتى أنها تكررت على المنوال نفسه على مدى فترات متقطعة خلال المائة والعشرين عاماً التالية.

وإذا قلنا إن المنمنمات المغولية والرسوم الصينية والمطبوعات اليابانية لم تقتنهما سوى قلة مميزة من موظفي شركة الهند الشرقية، وإذا قلنا كذلك إن التأثير الجمالي لهذه الأعمال من الفن الشرقي بعد أن عرفت طريقها إلى أوروبا كان تأثيراً لا يستحق الذكر إلى حد ما، فإن الأمر على غير هذا النحو بالنسبة لآثر فن الخزف الوارد من الشرق الأقصى. إذ وردت بعض منتجات هذا الفن إلى أوروبا عن طريق البرتغاليين (عبر جوا) والاسبانيين (عبر المكسيك) خلال القرن السادس عشر. بيد أن جميع هذه المقتنيات جرى تسويقها في شبه جزيرة ايبيريا أو في المستعمرة الأمريكية. والهولنديون هم أول من استورد الخزف الصيني والياباني بكميات كبيرة إلى شمال أوروبا والمنطقة المحيطة بجبال البرانس. وتولد الحافز إلى هذا العمل إثر أسرهم سفينتين شرعيتين برتغاليتين من النوع المسمى الكراك، الأولى سنة ١٦١٢ والثانية بعدها بعام واحد. واشتملت حمولتهما على كميات هائلة من الخزف الصيني الذي بيع في مزاد علني في امستردام بأسعار عالية جداً. ومن هنا جرت على الألسن عبارة «خزف الكراك» ويشار بها إلى خزف منج الذي يجمع بين اللونين الأبيض والأزرق. وكشف الإقبال الشديد على شراء هذا الخزف عن حاجة السوق الأوروبي إليه ومن ثم سارعت شركة الهند الشرقية إلى تلبية هذا الطلب. ونجد كتاباً صدر في عام ١٦١٤ يصف امستردام آنذاك ويؤكد من خلال الوصف أن الخزف «بات له استعمال يومي بين العامة». وبعد ستة وعشرين عاماً أكد بيتر موندي «أن أي بيت مهما كان قدره ومستواه يقتني الخزف الصيني».

ولكن هذا المطلب الحيوي للبلاد تجاوزته تلك الكميات الضخمة التي كان يعاد تصديرها من أرض الوطن إلى البلدان الأخرى. ولهذا زادت سريعاً قوافل الشحن الوافدة من الشرق الأقصى إلى شمال الأراضي المنخفضة. وحملت السفن الشراعية الضخمة لشركة الهند الشرقية الهولندية فيما بين عامي ١٦٠٢ و١٦٥٧ شحنات تربو على ثلاثة ملايين قطعة من الخزف الصيني، وتبعثها شحنات تصل إلى ١٩٠٠٠٠ قطعة من الخزف الياباني فيما بين

عامي ١٦٥٩ و ١٦٨٢ وهي الفترة التي وقعت خلالها اضطرابات وصراعات أهلية في الصين. وعلاوة على هذه الصادرات المتجهة الى أوروبا كانت مئات الملايين من القطع (الخزف الصيني أساسا) يجرى تحميلها على سفن أخرى في باتافيا لعرضها في أسواق أندونيسيا والملايو والهند وفارس وغيرها. ويحدثنا المؤرخ لهذه التجارة من الصادرات عن ملاحظاته فيقول: «إن تمييز الخزف الصيني من حيث الجودة وعدم نفاذيته ونقاؤه وجماله العملي ثم رخص ثمنه نسبياً عناصر كافية تفسر لنا أسباب شيوعه على نطاق واسع بصورة مطردة. وكان كل الخزف المستورد من الشرق الأقصى خلال القرن السابع عشر هو تقريباً من النوع الذي يجمع بين اللونين الأبيض والأزرق، سواء أكان وارداً من الصين أم من اليابان. ولكن خلال القرن الثامن عشر بدأت الأسواق الأوروبية يزداد أقبالها باطراد على الخزف المتعدد الألوان ووحيد اللون والمغطى بطبقة من المينا. وإن كان هذا لا يعني في الوقت ذاته تراجع الخزف ذي اللونين الأبيض والأزرق عن مكانته الكبيرة في الحياة داخل هولندا نفسها.

ومنذ عام ١٦١٤ بدأ الهولنديون يقلدون صناعة السيراميك ذي اللونين الأبيض والأزرق المعروف باسم سيراميك منج. وخلال خمسين عاماً أصبحت الأواني الخزفية المعروفة باسم دلفت تحاكي تماماً الأواني الخزفية الصينية واليابانية واستمر الهولنديون في إنتاج هذا النوع الذي اشتهر باسم خزف دلفت على مدى مائة وخمسين عاماً على الرغم من أن أول خزف حقيقي تم تصنيعه في أوروبا هو الخزف المصنع في ميسين عام ١٧٠٩. ولم تكن جميع المنتجات من خزف دلفت تقليداً أعمى للمنتجات الأصلية المصنعة في الشرق الأقصى، ذلك لأن بعض رسامي الخزف في دلفت أدخلوا في رسومهم عناصر يابانية وصينية وهندية في زخارفهم. ومنذ عام ١٦٦٠ وما بعده أنتج الهولنديون تصميمات تحمل طابع الزخارف الصينية والأسلوب الصيني الذي شاع للغاية في القرن الثامن عشر. وقد يبدو غريباً أن نعرف أن

الهولنديين في عام ١٦٣٤ عقدوا الأعمال على خلق سوق لتسويق منتجاتهم الخزفية في اليابان. ولم تكن ثمة فرصة كبيرة لتحقيق الأمل نظراً لأن المشتريين اليابانيين أرادوا أواني تلائم الغرض في حفلات الشاي الخاصة بهم وهو ذوق فني له تراثه الجمالي الشعبي الذي يتعذر على المنتج أو المورد الأوروبي أن يطمح في ادراكه وفهمه. وعلى أية حال فقد تلاشى هذا الأمل بعد التوسع الكبير في صناعة الخزف الياباني بعد عام ١٦٦٠ وإن استمر بعض المعجبين بحفلات الشاي الياباني في اقتناء القطع الغربية من خزف دلفت وكولونيا. وحدث أن قلد صناع الأواني اليابانية بدورهم، في بعض الأحيان، تصميمات خزف دلفت التي هي في الأصل محاكاة أو استلهام لخزف مستورد من الشرق الأقصى، وهكذا نجد عجلة التذوق الفني دارت دورة كاملة.

وثمة خاصيتان تميز بهما خزف الشرق الأقصى، إلا وهما رخص الثمن وقابليته للغسيل، يفسران لنا الطلب الكبير والمتزايد لأوروبا على أجود أنواع المنسوجات والاقمشة القطنية الهندية خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر. واستوردت شركتا الهند الشرقية الهولندية والانجليزية خام الحرير وخيوط الحرير من الصين مباشرة أو بطريقة غير مباشرة ثم بعد ذلك من بلاد فارس والبنغال. وقبل عام ١٦٦٠ كان الهولنديون والانجليز يستوردون المنسوجات الهندية لأسواق أوروبا غير أنها كانت خامات رديئة المستوى، وإنما كانوا يستوردونها بقصد إعادة تصديرها ثانية إلى أمريكا وغرب أفريقيا. أما الألياف الجيدة المتميزة كانت تستخدم لصناعة الملابس الداخلية بدلاً من الملابس الخارجية. وتميزت العقود الأخيرة من القرن السابع عشر بما يسمى «الهوس الهندي» وهو النظير والنذير بما عرف باسم «الهوس الصيني» في القرن الثامن عشر. وكتب مديرو شركة الهند الشرقية الانجليزية إلى وسطائهم التجاريين في البنغال في عام ١٦٩٢ ما يلي: «لكم أن ترسلوا إلينا كل ما هب ودب طالما وإن كل ما هو هندي بات مطلوباً بالحاح». وهو قول آمن عليه منافسوه الهولنديون في امستردام. ولكن دعاء الأخلاق

في المقاطعات المتحدة وانجلترا استهجنوا واستأوا لما تلقاه هذه المصنوعات الهندية من حفاوة وتكريم ابتداء من أرقى سادة المجتمع الى أبسط الناس وياتوا جميعاً لا يرون شيئاً ملائماً للتزيين به سوى النسيج الهندي. ولم تكن التصميمات والرسومات المطبوعة على هذه المنسوجات هندية الروح بالضرورة بل غالباً ما كانت طرزاً أرسلها الأوروبيون الى الهند ليحاكيها او يواظمها الصانع الهنود. ووصل الأمر الى الحد الذي نجد فيه رسوماً يابانية في بعض منسوجات كوروموندل التي تصنع خصيصاً للسوق الهولندية.

وفي عام ١٦٩٧ استوردت شركة الهند الشرقية الهولندية منسوجات آسيوية وسلعاً بالقطعة تزيد قيمتها على خمسة ملايين فلورين، ثلثها فقط منسوجات وسلع من البنغال. ومن هذه الفترة كانت الريادة لا تزال للشركة الهولندية قياساً الى الشركة الانجليزية المنافسة لها. ولكن انعقد لواء السوق للشركة الانجليزية في اوائل القرن الثامن عشر. وقبيل عام ١٧٢١-١٧٢٥ أصبحت شركة الهند الانجليزية تحصل على ضعف كميات الحرير التي تشتريها الشركة الهولندية المنافسة لها. وإن نجاح الشركة الانجليزية هو الأمر المثير للانتباه أكثر نظراً لأن استيراد السلع والمنسوجات الهندية لم يواجه مقاومة قوية أو فعالة من عمال ورجال صناعة النسيج في المقاطعات المتحدة مثلاً واجه في انجلترا. إذ بينما تصاعدت القيود القانونية التي فرضتها انجلترا على مثل هذه الواردات حتى بلغت ذروتها في صورة حظر كامل لخام الأقمشة القطنية الهندية في عام ١٧٢٠ نجد بعد ثلاثين عاماً أن سلع التجزئة الهندية التي جرى استيرادها على متن سفن شركة الهند الشرقية لا تزال تعامل على قدم المساواة مع «الخيوط والمصنوعات والمنتجات الوطنية» من حيث التعريف الجمركي في هولندا. ونلاحظ في كلا البلدين أن قيمة السلع الآسيوية التي يعاد تصديرها تجاوزت كثيراً قيمة السلع التي تستهلكها سوق كل منهما. ولكن بينما كانت شركة الهند الانجليزية واقعة تحت ضغط ثابت ومستمر من منتجي الصوف وتجار الأقمشة ورجال

السياسة من أجل العمل على بيع الأقمشة الانجليزية في أسواق آسيا لم يبدل مديرو شركة الهند الشرقية أي مجهود من أجل معاملة السلع الهولندية الطريقة نفسها.

وثمة وسيلة أخرى ساهمت من خلالها شركتا الهند الشرقية الهولندية والانجليزية المتنافستان في إحداث تحولات عميقة وراسخة في العادات الاجتماعية الأوروبية ابتداء من عام ١٦٦٠ فصاعداً ألا وهي توسيع نطاق مبيعات الشاي والبن وتشجيع استهلاكهما. مثال ذلك أن طبيب امستردام الشهير دكتور نيكولاس تولب نصح باستخدام الشاي باعتباره العلاج الأول والأفضل لجميع الأدوية. ولكن حماسه للفضائل الطبية المزعومة لهذا الشراب تجاوزه حماس زميله دكتور ديكار. واشتهر باسمه المستعار بونتيكوي، إذ حث مرضاه التمسك على أن يتجرعوا ما بين ٥٠ إلى ٢٠٠ كوب شاي يومياً. وأصدر دكتور بونتيكوي أيضاً كتاباً بعنوان «رسالة من عشب الشاي الرائع» في عام ١٦٧٥ والذي قيل أن مجلس إدارة الـ ١٧ دعم إصداره بقوة. وظل الشاي لعدة سنوات المشروب المفضل لدى الأغنياء ورمزاً للتميز طاملاً وأنه قدم اليهم محل بأجود أنواع السكر وفي كوب من الخزف الياباني على مناضد مزينة بنقوش محفورة، وملاعق ذهبية. ولكن ما أن قارب القرن السابع عشر على الانتهاء حتى بات الشاي يباع ممزوجاً بالحليب على قارعة الطرقات. ولكن على الرغم من المنافسة الشديدة من جانب شركات الهند الشرقية الانجليزية والفرنسية والاسكندنافية استمر الهولنديون في استيراد الشاي بمعدلات متزايدة باطراد وفاء لاحتياجاتهم الخاصة واحتياجات أوروبا العامة. وشهدت تجارة الشاي الهولندية أعظم انتعاش لها فيما بين عامي ١٧٣٤ و ١٧٨٥ وذلك عندما ارتفع إجمالي الواردات إلى ٣٥٠٠٠٠٠ رطل في السنة بزيادة تبلغ أربعة أمثال، وحيث أصبح الشاي أثمن سلعة ضمن الشحنات التي تعود بها من الهند سفن شركة الهند الشرقية الهولندية منذ عام ١٧٣٩.

وجاء البن بديلاً متأخراً عن الشاي في السوق الأوروبية، ولكن الدكتور الفاضح برونتيكيو وصفه كذلك بأنه الدواء الذي لا منافس له لعلاج كل الأمراض. ووصفه لمرضاه لاستخدامه كعلاج لا يخيب لشفاء أمراض «الاسقربوط واحتقان الزور والقولون والنقرس والصفراء، وخلوف الفم والتهاب العينين». والله وحده يعلم أي أعراض أخرى أضافها. وسرعان ما شاع استخدام هذا المشروب على الرغم من أن أطباء كثيرين في الأراضي المنخفضة، وفي بلدان أخرى عديدة استنكروا الشاي والبن وحذروا منها باعتبارهما عقارين ضارين. وخير ما يعبر عن درجة شيوعهما والكلف بهما تلك الشكوى التي يقول فيها دوميني فرانسوا فالتين في عام ١٧٢٤ «لقد شاع استخدام القهوة والشاي في بلدنا إلى الحد الذي نرى فيه الخدمات والخياطات يعجزن عن ادخال الخيط في ثقب الإبرة ما لم يتناولن يوميا قهوة الصباح». والجدير بالملاحظة أنه انحنى باللائمة على الانجليز لأنهم السبب في اقحام تلك العادة الضارة. وأدى تزايد الاقبال على القهوة والشاي إلى الإقلال من إدمان الكحوليات إلى حد ما في المقاطعات المتحدة. وبعد قرن من أحاديث تولب وبونتيكيو عن تضائل الشاي والقهوة كتب طبيب آخر من امستردام يقول: يشرب كل فرد من العامة قدراً كبيراً من البراندي ويظن أنه بذلك يصلح معدته ولكنه يخطيء الظن، إذ لن يتحمل هذا طويلاً ما لم يضاف إليه الشاي».

وقد لا يكون من الانصاف في شيء أن نجتمع بين الدكتور تولب والدكتور بونتيكيو، ذلك لأن الأول كان يقينا طبيا أكثر جدية واقتدارا. ولكن دفاعهما المطلق عن الشاي باعتباره البلسم الشافي لجميع الأمراض يذكرنا بأن الطب كان لا يزال بعيدا تماما عن بلوغ مرحلة العلم المضبوط أثناء القرن الذهبي لجمهورية هولندا - أو أنه كان لا يزال في فترة عدم النضج. ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر لم تكن نظرية الجراثيم المسببة للأمراض والبناء الخلوي للجسم معروفة بعد. وعلى الرغم من أهمية هذه المعالم العلمية

الاساسية مثل اكتشاف وليم هارفي للدورة الدموية واكتشاف عالم المجهرات الهولندي انطوني فان لوفنهوك لكرات الدم الحمراء والحيوانات المنوية كان تشخيص الامراض وعلاجها طبيا لا يزال خاضعا وإلى حد كبير للآراء اليونانية الرومانية التقليدية عن الأمزجة والتي تعتبر المرض اختلالا في التوازن أو عدم نقاء الأمزجة الأربعة للجسم. واستهدف العلاج إعادة التوازن. والوسيلة الأساسية لذلك هي الحقنة الشرجية وتفريغ الأمعاء بالمسهلات والفصد أو الاستدعاء والتغذية علاوة على النبهات والمقويات والعقاقير. ونستطيع أن نقول عن يقين أن البيولوجيا العلمية لم تكن ممكنة إلا بعد التطور العظيم في مجال المجهرات في القرن التاسع عشر، ولم تبدأ صناعة العقاقير الفعالة إلا منذ ١٨٨٠ تقريباً. ومن المسلم به أن الآراء الدينية المعادية لتشريع جسم الإنسان للأغراض الطبيعية ولتعلم فن التشريع لم تكن ذات سطوة في هولندا مثلما كان الحال في أكثر البلدان الأخرى مما ساعد على تقدم كل من الطب والجراحة. وشاع تلقين دروس التشريع في حلقات دراسية عامة ولم يكن مبررات هو الفنان الوحيد من بين أعلام الفن الذي سجل هذا في لوحاته. ومع هذا اشتملت الوصفات الطبية على كثير من المركبات عديمة الجدوى بل والضارة، كما كانت الجراحة لا تزال علما في مراحلها البدائية مما يجعلنا نرد حالات الشفاء المذهلة التي تحققت على أيدي الأطباء والجراحين إلى ثقة المرضى في الأطباء أكثر منها إلى أي شيء آخر. وهذا هو الحال يقينا بالنسبة للطبيب ذائع الصيت هرمان بويرهاف (١٦٦٠-١٧٣٨) الذي ترأس كرسي الطب وعلم النبات والكيمياء في جامعة ليدن وطبقت شهرته الآفاق حتى وصلت إلى الصين.

ويمكن الإشارة هنا إلى أنه باستثناء بويرهاف لم يعمل بالتدريس في الجامعات أيام الجمهورية الهولندية أي من أعلام العلوم الطبيعية أو الفلسفة. فإن سيمون ستيفن عالم الرياضيات والمهندس الذي دعا إلى تطبيق النظام العشري، ورينيه ديكرات الفيلسوف الفرنسي المولد والنشأة والذي

قضى القسط الأكبر من حياته العملية المنتجة في المقاطعات المتحدة، وباروخ سبينوزا صانع العدسات في أمستردام والفيلسوف الرياضي وكريستيان هيجنز مبتكر بندول الساعة ومستحدث نظرية الموجات في الضوء، وجان سوامر دام رائد علم الحشرات من خلال استخدام العدسات المكبرة، وأنطوني فان ليفنهوك رائد علم المجهرات الذي أسلفنا ذكره، جميع هؤلاء وآخرون غيرهم يمكن أن نأتي على ذكرهم انجزوا انتاجهم العلمي خارج النطاق الأكاديمي وإن كانت لهم به ارتباطات بطبيعة الحال.

وإن جلال شأن كل من ديكارت وسبينوزا في ما يختص بالانجازات الفكرية لفلسفة القرن السابع عشر أمر شائع معروف يغني عن الإفاضة في الحديث عنهما هنا. إذ علاوة على كل شيء، ساعدت كتاباتهما تدريجياً على تفويض الاعتقاد الأعمى بالعقيدة الدينية التقليدية المتزمتة، مثلما ساعدت على ترسيخ روح الحوار النقدي وإن لم يحدث هذا، على الأرجح داخل المقاطعات المتحدة التي هي مهد كتاباتهما بنفس القدر الذي حدث خارجها. ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن كتابات هجنوت اللاجيء في روتردام وبيير بايل صاحب «القاموس التاريخي النقدي» (١٦٩٥) الذي ذاع صيته وشاعت فيه روح النقد الشكي اللاذع التي هزت بالضرورة دعائم العقائد الدينية المحتجزة لدى الكثيرين ممن اطلعوا عليه سواء من البروتستانت أو الكاثوليك الرومان. وكان بايل كذلك داعية متميزاً للتسامح وقارن باقتدار بين تعصب لويس الرابع عشر في إبطال مرسوم نانث (وهو مرسوم أصدره هنري الرابع في عام ١٥٩٨ ويمنح بمقتضاه حريات دينية ومدنية محدودة للبروتستانت في فرنسا - مترجم) وبين رسوم كانج هسي الذي سمح بتقديم عظام مسيحية داخل الامبراطورية الصينية. وعاش بيير بايل ومات مسيحياً كاثوليكياً وإن كانت أعماله مسئولة مسئولية كبيرة عن تزايد ونمو النزعة الشكية والنزعة العقلانية في القرن الثامن عشر.

ولقد كان كريستيان هيجنز في مجال العلم أعظم عبقرية دون منازع

أنجبتها الجمهورية الهولندية. ولخص إنجازاته بطريقة فذة المؤرخ وكاتب التراجم الانجليزي 1.1 بل Bell حين قال: رجل حول التلسكوب من لعبة إلى أداة بحث علمي جبارة ومن ثم أداة بحوث عميقة في علم البصريات؛ وهو مكتشف الهالة المحيطة بكوكب زحل والقمر تيتان ولفت الانتظار إلى المجرة في أوربيون ودرس مشكلة الجاذبية على نحو كمي ووصل إلى أفكار صحيحة عن آثار قوة الطرد المركزية وشكل الأرض، ووضع في كتابه العظيم «رقاص الساعة» Horologium Oscilatorum أسس ديناميكا الانساق وأوضح كل عناصر موضوع البندول، وحل المشكلات العويصة المتعلقة بتصادم الأجسام المرنة واستحدث بفضل جهد كبير متشابك ومعقد الفكرة العامة عن الطاقة والعمل. وهو الذي يعتبره العالم عن حق مؤسس النظرية الموجية عن الضوء ومن ثم البصريات الطبيعية - وإن رجلاً كهذا جدير بأن يقرن اسمه في التاريخ بأسماء جاليليو ونيوتن».

وبدا هيجنز حياته العلمية كواحد من المعجبين في حماس بالفيلسوف رينييه ديكارت وقد تأثر بعمق في شبابه بكتابه «أسس الفلسفة» (١٦٤٤). وكتب عن هذا بعد سنوات طويلة فقال: «بدأ لي حين قرأت هذا الكتاب للمرة الأولى أن كل شيء في العالم بات واضحاً، وتملكني يقين بأن أي صعوبة فيه تصادفني فإنها تعني أن الخطأ خطأي إذ لم أفهم فكره. لم أكن قد تجاوزت آنذاك الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمري. وبدأت اكتشاف من حين إلى آخر بعض الأمور واضحة الزيف وأموراً أخرى بعيدة الاحتمال تماماً، ومن ثم عدت بحماس وقوة إلى ما كان يشغل بالي ويهمني في جميع دراسات الفيزيكا والمتافيزيكا والظواهر الجوية. ولكنه لم يكف عن الاعتراف بالحافز القوي بصورة خيالية الذي تلقاه هو وآخرون بفضل ديكارت. وأشار إلى هذا في عام ١٦٩١ حين قال: «نحن مدينون بالكثير لديكارت لأنه كشف لنا سبلا جديدة في دراسة الفيزياء وصاحب الفكرة القائلة أن كل شيء لا بد من رده إلى القوانين الميكانيكية». ومع هذا وكما يوضح بل، اقتنع هيجنز بأن ديكارت

كرر اخطاء النزعة المدرسية للقرون الوسطى حين حاول وضع أسس نسق برهاني استدلاي بديلاً عنها، ومن ثم عاد هو نفسه إلى نظرية جاليليو. وفي واقع الامر يمكن القول انه من خلال هيجنز حاد التيار الرئيسي للفكر العلمي عن اتباع ديكارت وسار بدلا من ذلك في القناة التي عمقها نيوتن بجهوده العلمية وأحالها إلى نهر».

ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن القسط الأكبر من افضل أعمال هيجنز تم اتجازه في باريس خلال الفترة ما بين ١٦٦٦ و ١٦٨١ مشمولاً برعاية لويس الرابع عشر، وأنه بعد عودته نهائيا إلى هولندا أسف أسفاً شديداً إذ لم يجد فيها أي انسان يمكن له أن يناقش معه موضوعات علمية. ربما كان ينظر دون حق نظرة استعلاء إلى معاصريه، ذلك لأننا نعرف في النهاية انه كان في غرب أوروبا عدد غير قليل علاوة على نيوتن وليبننتس ممن يمكنه أن يتحاور معهم على قدم المساواة في مثل هذه القضايا. ولكن من الاهمية بمكان أن نشير إلى أن أباه كونستانتين الشاعر والأديب تمتع في المقاطعات المتحدة بشهرة فاقت شهرة ابنه على الرغم من الانجازات العلمية المبرزة للابن والتي جلبت له شهرة دولية دائمة.

وأشهر عالم عرفته المستعمرات الاستوائية للجمهورية الهولندية هو جورج رومفيوس «عراف أمبويينا الأعمى» وهو الماني انخرط كجندي في خدمة شركة الهند الشرقية الهولندية وعمل كمستول ومدير في أمبويينا من أعمال مولوفا من عام ١٦٥٣ إلى أن وافته المنية في عام ١٧٠٢. لقد أسرته بجمالها حيوانات ونباتات هذه الجزيرة ونذر حياته لجمع كل ما يستطيع جمعه منها وعنها ثم أثبت نتائج خبرته وإبحاثه في مخطوط ضخمة يضم عدة مجلدات غنية بالرسوم والصور. ثم كف بصره وفقد زوجته وصغرى بناته اثر زلزال. وشب حريق دمر جميع رسوم مؤلفه الضخم بعد أن كاد يفرغ منه، غير أن هذه الكوارث جميعها على قسوتها لم تثبط همته. ومن حسن الحظ ان كانت لديه رسوم أخرى بديلة عن تلك التي أتى عليها الحريق،

وأكمل مخطوطه وأرسل ستة مجلدات إلى هولندا في عام ١٦٩٢ تحت عنوان «كتاب في أعشاب جزيرة أمبويينا». وأغرق الفرنسيون السفينة ولكن لحسن الحظ ان راعيه جوهانز كامفيوس حاكم عام باتافيا كان قد استنسخ نسخة من الكتاب وهي النسخة التي وصلت بعد ذلك بأربع سنوات إلى هولندا. وصدر الكتاب بعد وفاته وقبل هذا الكتاب كتاب آخر عن «أصداف البحر والرخويات والقشريات في مولوكا» في عام ١٧٠٥. واختفى مخطوط رمفيوس عن حيوانات جزيرة أمبويينا غير ان كتاباته المتعلقة بعلم النبات وعلم الحيوان وكتاباته عن معادن مولوكا وجيولوجيتها وحفرياتها لا تزال تحتفظ بقيمتها العلمية ويرجع اليها المتخصصون في هذه المجالات.

وعنوان الدراسة التي كتبها رمفيوس «خزانة تحف جزيرة أمبويينا» في عام ١٧٠٥ يعكس اسلوباً في تجميع عينات التاريخ الطبيعي وغير ذلك من «نوادير» في «خزائن التحف» او المتاحف الخاصة التي حرص الكثيرون من اثرياء الحكام والتجار على انشائها في مدنها او في بيوتهم الريفية. والملاحظ ان المعادن وأصداف البحر والطيور والوحوش والأسماك المحنطة والعملات المعدنية والميداليات والطرف الغريبة بشتى أنواعها وجدت هواة متحمسين لاقتنائها من بين من يملكون مالا لإنفاقه. وبعد صدور كتاب رمفيوس، ونتيجة له إلى حد ما، لاقت أصداف البحر في مولوكا إقبلاً شديداً عليها خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر. وأسس دوميني فالنتيني إثر عودته إلى هولندا نادياً لعلماء الرخويات في دور درشت حيث اعتاد هو وكثيرون من العائدين إلى أرض الوطن من مسؤولي الشركة الشرقية أن يقضوا أمسيات شتوية ممتعة يناقش بعضهم بعضاً حول مقتنيات كل منهم وتأملها. وجد كثيرون بحثاً عن النباتات والأعشاب النادرة كذلك. ولعل أشهر مثال على ذلك الهوس بجمع نباتات التيوليب والذي بلغ ذروته في تلك الاندفاعة الكبرى في عام ١٦٣٧.

وكتاب رمفيوس عن نباتات مولوكا يضاهيه كتاب البارون فار ريد توت

دراكستين عن الساحل الغربي للهند. ولقد كان هذا النبيل واحدا من قلة نادرة من بين وجهاء المجتمع الذين استبدت بهم هواية دراسة النباتات. وسبق ان خرج من بلاده وهو يعمل ملازما في الجيش إلى الشرق في عام ١٦٥٧. وقضى معظم وقته من عام ١٦٦١ الى عام ١٦٧٦ في ملبار التي عمل حاكما لها لمدة سبع سنوات. واستطاع رمقيوس بفضل حماسه ونشاطه وسلطته الرسمية ومكانته الاجتماعية ان يقنع راجا كوتشين وغيره من الولاة في جنوب الهند لمساعدته على الحصول على عينات نباتية. وشكل ايضا لجنة استشارية تضم ما بين خمسة عشر أو ستة عشر براهميا متعلما، ونظم رحلات استكشافية للبحث عن النباتات في الاقاليم المحيطة ومعها مئات الحمالين. ونشر على نفقته نتائج هذه البحوث الميدانية ضمن كتاب زاخر بالصور والرسوم تحت عنوان «بساتين ملبار Hortus Malabaricus» والذي اكتمل في اثني عشر مجلدا ضخما خلال الفترة من ١٦٧٨ و ١٧٠٣.

وعلى الجانب الآخر من العالم الكونت جون موريس حاكم عام الاراضي المنخفضة البرازيلية من عام ١٦٣٧ إلى ١٦٤٤، رعى واعان أعمال اثنين من خريجي جامعة ليدن، هما الالمانى جورج ماكجراف والهولندي فيليم بيزو. وتجسدت أعمالهما وأبحاثهما الطبية والنباتية والحيوانية والفلكية في سفرين كبيرين بعنوان Historia Naturalis Brasiliae (طبعة ليدن ١٦٤٨) و De Indiae Utrisque re Naturaliet Medica (طبعة ليدن ١٦٥٨). واشتمل هذان الكتابان، من بين أمور أخرى، على أول دراسة علمية حقة عن نباتات وحيوانات البرازيل. ووصفا لجغرافية برنامبوكو وظواهرها الطبيعية، بما في ذلك الرياح اليومية وسجلات سقوط الامطار، والملاحظات الفلكية في نصف الكرة الجنوبي ومسحا اثنيا للأعراق المحلية للهنود الأمريكيين. واشتملت الرسوم والصور على ٢٠٠ عينة من قطع خشبية للنباتات و ٢٢٢ عينة رسوم للحيوانات والطيور والحشرات والاسماك وكثير غيرها مما لم يسبق وصفه. وظل هذان الكتابان أهم دراستين معتمدتين عن التاريخ الطبيعي للبرازيل إلى

ان حلت محلها المنشورات العلمية التي اصدرها ماكسميليان امير فيد - نيوفيد في السنوات ١٨٢٠-١٨٥٠. وسبق أن اشرنا إلى كتب عن أمريكا صنفها جوهاتس دي لايت الباحث ومدير غرفة ليدن لشركة الهند الغربية فيما بين عامي ١٦٢٥ و ١٦٤٤. وقام دي لايت بدور مشرف على التحرير والتصنيف أكثر منه مؤلف أصيل. بيد أن ثمة عملاً آخر علمي أصيل يضارع أعمال رمفيوس في أمبويانا، وهو كتاب الفقه امرأة متقفة هولندية تحمل اسما مستعاراً هو ماريا سيببلا مريان. ويعتبر كتابها المحلي بصور ورسوم جميلة تحت عنوان Metamorphosis Insectorum Surinamensium (١٧٠٥) واحداً من أجمل الكتب التي اصدرتها المطابع.

ويمكن أن نقدم شواهد أخرى كثيرة على أن حاكم عام باتافيا وأعضاء مجلسها في عام ١٧٨٥ كانوا يبالغون عندما كتبوا أن مواطنيهم في الرق كانوا يفضلون دون استثناء التضحية لحساب إله التجارة على حساب إله الحكمة. والذي لا شك فيه أن أغليبتهم فعلوا هذا صدقا على نحو ما هو متوقع من جميع موظفي أي شركة تجارية لها ذات الظروف، وهو ما يصدق بالمثل على موظفي الشركات الأخرى المنافسة الفرنسية والانجليزية. ولكن ثمة استثناءات دائماً. فمثلاً نجد المؤرخ أورم، وعالم اللغة مارزدن وعالم اللغة السنسكريتية سير وليام جونز بين معاقري الخمر في الشركة، كذلك نجد رمفيوس وفالنتين واسحق تيسنغ ينذرون حياتهم وفاء وفداء لإله الحكمة دون أن ينسوا إله التجارة - أو لنقل في هذا المجال إله الخمر. وإنه لصحيح أن نيكولاس وتسين، العلامة وعمدة امستردام ومدير شركة الهند الشرقية الهولندية الذي ألف كتاباً رائعاً عن بناء السفن وكتاباً آخر عن سيبيريا، كثيراً ما اشتكى في مراسلاته من أن أبناء جلدته في آسيا لا يعينهم سوى جمع المال دون أي شيء آخر. ومع هذا كتب وتسين هذه الشكاوى في وقت كان فيه كثير من موظفي الشركة (أو موظفيها السابقين) قد شغلتهم اهتمامات فكرية تتعلق بالمرح الثقافي الآسيوي أكثر من أي وقت آخر. وأصدر دانييل

هافارت رؤيته عن «نهوض وسقوط كوروماندل» (١٦٩٣) وترجمته النثرية (١٦٨٨) للحمة شعرية فارسية بعنوان «البستان» للشيخ سعدي. واكتشف آنذاك هربرن دي جاجر العلاقة بين سكان جاوة القديمة وبين السنسكريتيين والتاميل. وصنف انجلبرت كايمفر دراسته الكلاسيكية عن اليابان التي ظلت أفضل وصف أوروبي للامبراطورية الجزيرة الى أن أصدر فون سيبولد كتابه «اليابان» (١٨٣٢-١٨٥٢). وعني آنذاك كل من رمفيوس وفان ريد بكتابيه أو إصدار أعمالهما سالفه الذكر عن حيوانات ونباتات المنطقة. وعكف فالنتين على تصنيف كتابه الموسوعي «الهند الشرقية قديما وحديثاً». وتشكلت جمعية أدبية صغيرة عاشت لسنوات قليلة في باتافيا (١٧٠٦-١٧١٢).

وإذا وجهنا الأنظار إلى أولئك الذين أثروا البقاء في الأراضي المنخفضة على بحر الشمال خلال القرن الذهبي سنجد أننا إزاء قصة مماثلة. وخير من يمثل الأجانب الذين شجبوا الهولنديين باعتبارهم مجرد عشاق لجمع الدولار، رينيه ديكارث المشهود له بالمعرفة الواسعة وكتب من أمستردام يقول: «في هذه المدينة العظيمة حيث الجميع، فيما عداي، لا يشغلهم شاغل غير التجارة، نجد كل إنسان ساعياً يلتمس مصلحته الخاصة حتى أن بإمكانني أن أقضي حياتي كلها هنا دون أن التقى بشخص واحد». واضح هنا بطبيعة الحال مدى بطلان هذا الحكم المطلق عندما نتذكر أنه كان هناك من بين معاصري ديكارث في أمستردام رمبرانت الرسام وفوندل الشاعر، والعلامة في الدراسات القديمة كاسبار بارلايوس. وأما جين باريفال البروتستانتية ومعاصر ديكارث والذي عاش ستة وثلاثين عاماً في المقاطعات المتحدة، فقد كان أكثر تلميحاً وأكثر دقة في كتابه *Le Delices de la Hollande* (طبعة ليدن ١٦٦٢) عندما استشهد بهذا الشاعر العظيم بارلايوس ومكتبات أمستردام العامرة كدليل على أن أثرياء التجار والبرجوازيين في هذه المدينة لم يغفلوا عن الاهتمام بالتعليم وتشجيع الآداب وهم في سعيهم المحموم من أجل التجارة. وإن

التعاطف والحماس والاستقبال الحار الذي لقيه جون لوك في الدوائر العلمية وقتما كان لاجئاً سياسياً في امستردام (١٦٨٣-١٦٨٨) شجعه على أن ينشر بعض أعماله هناك. ومع هذا دأب كثير من الزوار والأجانب على وصف أبناء الطبقة الحاكمة في هولندا بأنهم تجار لا يشغلهم في حياتهم غير السعي التماساً للربح في الوقت الذي كان أكثرهم وكما أكد سير وليم تمبل، سادة نجباء على حظ وافر من التعليم، وتدريبوا منذ شبابهم على شغل الوظائف العامة ولم يكونوا مجرد رجال أعمال تجارية متواضعة أو آلية، «وعلى نحو ما تصور بعض الأجانب». إن بلاد رمبرانت وفوندل وهوجنز أبعد ما تكون عن وصفها بأنها بلاد منافقين أدياء وإنما ضمت من أخلصوا في عبادتهم لإله الحكمة مثلاً ضمت من أخلصوا في عبادتهم لإله المال. وإذا كان من نذروا حياتهم لإله الحكمة أقلية ضئيلة فإن هذا صحيح أيضاً بالنسبة لكل العصور وجميع الأمم.

وثمة انتقاد أكثر ملاءمة للاوليجاركية الحاكمة التي شكلت الطبقة الحاكمة. وينصب النقد على أن أبناء هذه الطبقة تحولوا إلى فئة منعزلة - أو لنقل أصبحوا أشبه بالطائفة من نواح معينة - وتشبعوا بالثقافة الفرنسية إلى حد إهمال ثقافتهم الخاصة. لقد كانت المؤثرات الثقافية الفرنسية قوية دائماً، مثلما غلب الطابع الفرنسي على محكمة لاهاي في عهد الأمير فريدريك هنري، ومع هذا، نقول إن ثقافة وحضارة أرض رمبرانت كانت ثقافة وحضارة هولندية الجوهري. ونجد الرسم والأدب والموسيقى والعمارة تحمل جميعها الشواهد المؤكدة لذلك حتى الربع الأخير من القرن السابع عشر. وبعد هذا بدأت المؤثرات الأجنبية وبخاصة الفرنسية تجد سبيلها بين أبناء الاوليجاركية الحاكمة وأثرياء البرجوازية على حساب الثقافة الهولندية، وقبيل النصف الثاني من القرن الثامن عشر اكتملت فرنسة «الأقلية الحاكمة» ومعهم أولئك الذين عمدوا إلى محاكاة أسلوب حياتهم. وتجاوب الأبناء مع أبنائهم في ميولهم الفرنسية وكف كثيرون عن قراءة الأدب الهولندي. وما هي

اليزابيث فان تول المرأة المثقفة من بنات أوترشت كتب عنها بل دي زولن يقول: إنها لا تحمل شيئاً يربطها بهولندا غير اسمها. ويتناقض هذا تماماً مع حال أنا وماريا رويمر فيشر من حلقة مودن وهما من النساء المثقفات ولكنهما لم يكونا على دراية باللغة الفرنسية.

وخلال القرن الثامن عشر أصبحت الأراضي المنخفضة الشمالية مركز النشر الرئيسي «للتنوير» الأوروبي. وصدرت طبعات عديدة من كتب بايل ولوك وهيوم ومونتسكيو وفولتير وروسو وراينال في المقاطعات المتحدة وذلك تفاعداً للرقابة الفرنسية - هذا على الرغم من أن جميع الكتب التي تحمل عبارة «طبع في هولندا» لم تطبع فيها، نظراً لأن بعضها طبع سرّاً في فرنسا. ولكن إذا كانت أعمال الفلاسفة العقلانيين وجدت سوقاً رائجة وقراء كثيرين في الجمهورية الهولندية فإن هذا لا يعني أن افكارهم صادفت ترحيباً من أبناء الأوليغاركية الحاكمة «الأحرار»، وكانت أقل قبولاً لدى الأصوليين من رجال الدعوة والوعظ. وكان كتاب روسو «العقد الاجتماعي» وكتاب فولتير «مقال عن التسامح» محظورين رسمياً بناء على طلب الكنيسة الإصلاحية الهولندية، وإن كان حظراً غير فعال. ولاقت الأفكار الجديدة حماساً بين أبناء الشريحة العليا من الطبقة الوسطى الذين استاءوا لاستبعادهم من الوظائف القيادية في الإدارات البلدية، وكذلك بين أبناء الطبقات الوسطى الذين قرأوا الدوريات الهولندية المماثلة لمجلة سيكتاتور. والجدير بالذكر أن أكثر هذه المجلات صدرت في فرنسا وإن استهدفت فقط القارئ الهولندي. ومع هذا لم تجد هذه الأفكار رواجاً كافياً لتصبح تياراً فكرياً ومن ثم عاملاً مهماً في خلق الموقف المتعاطف مع أمريكا لدى كثيرين من الهولنديين في عام ١٧٨٠ والذي يرجع في الأساس إلى تنافسهم الشديد مع إنجلترا. وتزايدت بعد هذا وبسرعة عملية الاختمار الفكري. وجاء هذا جزئياً كنتيجة لصدمة تلك الحرب المدمرة (١٧٨٠-١٧٨٤) مثلما حدث بعد ذلك بقرن من الزمان بين المثقفين الأسبان

من جيل ٩٨ عقب الحرب الاسبانية الأمريكية. وربما ساعدت الفرنسية الثقافية لأبناء الأوليغاركية الحاكمة على توسيع الهوية بينهم وبين أبناء الطبقات الأدنى الذين كانوا يحتقرونهم من أعماق قلوبهم، الأمر الذي أسهم في انهيار الطبقة الحاكمة في عام ١٧٩٥.

وراجت كذلك الكتابات والأفكار الانجليزية في مجالات الفلسفة واللاهوت والطبيعات بين أوساط المتعلمين في جمهورية هولندا. ووجدت هذه الكتابات والأفكار سبيلها اليهم أساسا عن طريق الترجمات الفرنسية التي طبعت هناك، ومن خلال عمليات العرض المطولة والإشارات المسهبة للكتب الانجليزية التي نشرتها الصحافة الدورية. ومن أبرز الشخصيات التي قامت بدور مهم في نشر الثقافة الانجليزية جوستوس فان ايغين (١٦٨٤-١٧٣٥) الذي كان شديد الإعجاب بكل من أديسون وستيل وأصدر مجلة Hollands- che Spectator (١٧٣١-١٧٣٥) على نمط نظيرتها الانجليزية السابقة عليها. وشاعت في هولندا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر أعمال صمويل ريتشاردسون ولورنس شتيرن، حتى أنه ظهرت في وقت واحد «نوادي شتيرن» حيث أطلق أعضاءها على بعضهم البعض أسماء مأخوذة من شخصيات كتابات شتيرن. غير أن نفوذ الأدب الانجليزي ظل أبدا ثانويا بالنسبة لنفوذ الأدب الفرنسي. وإن كاتباً عاشقاً للفكر الانجليزي مثل جوستوس فان ايغين نشر القسط الأكبر من أعماله في الدوريات التي تصدر باللغة الفرنسية، وليس بلغة بلاده هو، على الرغم من أنه أعلن عن عزمه على أن يفطم مواطنيه المتعلمين عن إغراقهم في الفرنسية، والعمل على تعزيز الجهد لاستحداث أسلوب نثري هولندي خالص.

الباب السابع

القلاع والمحطات التجارية

في مقال كتبه و. هـ. مورلاند منذ أربعين سنة مؤكدا على أهمية المصادر الهولندية بالنسبة لتاريخ الهند في القرن السابع عشر، قال: «تبين لنا أن وقائع السابع عشر تقودنا من مجال التجارة الى مجال السياسة. لقد تمثلت المراحل الباكرة من هذه الرحلة المسيرة التجارية والمحطة التجارية والقلعة وبدايات كسب الاراضي. ولكي نفهم أيا من هذه المراحل يتعين علينا أن نفهم المراحل التي سبقتها. والذي حدث هو أن كلا من القلعة والمحطة التجارية جاءتا كمبادرة هولندية. ولكي نفهم تاريخ نشوء وتطور المحطات التجارية يلزم أن ندرس الرحلات الهولندية الباكرة و... أن القلعة، شأنها شأن المحطة التجارية، هي تحديدا هولندية النشأة».

وهذه الملاحظة مثال مذهل لهفوات العلماء، ذلك لأن القلعة والمحطة التجارية اللتين أنشأهما الأوروبيون في آسيا هما من أصل برتغالي. إذ أن البرتغاليين هم أول من أنشأهما في آسيا وفي إفريقيا. وسبق أن أفاض الحاكم البرتغالي في بيان الغرض منهما، حين أخطر ملكه كيلون في عام ١٥١٩ أن ملك البرتغال لم يبن القلاع في الهند بغية الغزو والاستيلاء على الأرض وإنما استهدف فقط حماية تجارته عند السواحل. وإن المحطات التجارية الهولندية وكذا الانجليزية، سواء كانت محصنة أم لا، إنما تنحدر مباشرة من الوكالات التجارية البرتغالية Feitorias التي تنشرت على طول شواطئ آسيا وإفريقيا. وكانت البداية مع تشييد قلعة في أرجويم على الساحل المراكشي (١٤٤٥) وانتهت بالمحطة التجارية التي أقيمت في ناجازاكي (١٥٧٠).

* W. H. Moreland; "Dutch Sources for Indian History from 1590 to 1650".
Journal of Indian Hist., Vol III, Part 2, May, 1923.

وترجع جذور هذه المحطات التجارية البرتغالية بدورها الى المراكز التجارية Fondachi للعصور الوسطى وتشترك معها في سمات عديدة، وهي الأحياء السكنية لتجار جنوة والبندقية وغيرهم من التجار الايطاليين الذين يفدون إلى موانئ البلدان الإسلامية في شمال افريقيا وموانئ الامبراطورية العثمانية.

وهكذا فإن «المحطة التجارية» الأوروبية غير المحصنة والمقامة في آسيا سواء اكانت محطة برتغالية أم هولندية أم انجليزية - لم تكن بطبيعة الحال بدعة أو ابتكاراً بالنسبة للحكام والولاة في البلدان الآسيوية. فم منذ تاريخ سحيق موغل في القدم، اعتاد التجار الأجانب الذين يفدون الى الموانئ التجارية الشرقية، ابتداء من الخليج الفارسي إلى جنوب بحر الصين، العيش في أحياء سكنية منفصلة، كل منها خاضع لإدارة رئيس خاص به، خاضع أيضاً إلى حد ما لولاية هذا الرئيس باعتباره السلطة القانونية. وكان كل حي يتمتع بدرجة صغيرة أو كبيرة مما نسميه اليوم الحصانة أو عدم الخضوع لتشريعات بلد الإقامة. كان هذا، على سبيل المثال، هو حال الطوائف التجارية العربية في كانتون وزيتون في أيام ماركو بولو. وكذلك بالنسبة للتاميل وتجار كوجيرات وجاوة في ملقا في العصر الوسيط، وإيضاً مع التجار الهنود والعرب والصينيين في باننام عندما وصل الهولنديون الى هناك لأول مرة. ومع ذلك، وعلى الرغم من أن التجار والمستولين في هذه الأحياء السكنية ذات الاستقلال الذاتي بدرجة أو بأخرى، حققوا في الغالب الأعم ثروات طائلة ونفوذاً محلياً، إلا أنهم كانوا يعيشون بالكامل تحت رحمة الحاكم الذي له سلطة سبي بناتهم ليكنّ حريماً له والاستيلاء على الأملاك العقارية للتاجر عند وفاته وكانوا يتعرضون أحياناً لابتزاز لا مبرر له من قبل كبار المسؤولين المحليين ولأذى منافسيهم من التجار المحليين بل ولأذى العامة أيضاً. وعلى الرغم من أن هذا النظام سار سيراً حسناً في أغلب البلدان على مدى القرون، وعلى الرغم من أن الأوروبيين لاموا أنفسهم مع هذا النظام داخل الامبراطوريات القوية مثل الصين واليابان حيث لم يكن ثمة بديل آخر أمامهم، إلا أن البرتغاليين

قدموا في بلدان أخرى سوابق للمحطات التجارية ذات القلاع والمدن الحصينة ضمانا لتوفير أكبر قدر من الأمن لانفسهم ولتجارتهم في بيئة تشكل خطراً حقيقياً أو محتملاً ضدهم.

واقتنى الهولنديون بسرعة كبيرة أثر البرتغاليين وحاكوا سوابقهم وللأسباب ذاتها. ولم يكن السبب فقط شعورهم بعدم الأمان في بيئة آسيوية غريبة عليهم لا يفهمونها ووجودهم بين شعوب لا يفهمون لغتهم، وقلة منهم تستطيع التحدث بلسانهم، فضلاً عن أنهم ينظرون إلى ديانتهم نظرة خوف وهلع أو ازدراء، بل ولأنهم أيضاً كانوا بحاجة - أو ظنوا أنهم بحاجة - إلى بعض الموانئ لا يكون فيها أشخاصهم ولا سلعهم عرضة للاستيلاء عليها بشكل تعسفي، وحيث يمكنهم تزويد سفنهم بالمؤن وأصلاحيها وهم في أمان تام. ومن ثم عقدوا العزم منذ عام ١٦٠٥ تقريباً وما بعده على فرض سياسة احتكار تجارة التوابل في مولوكا - وبعد ذلك احتكار الغلغل الأسود في البلدان الأخرى - واستلزم هذا وحده امتلاك قواعد بحرية للأسطول وقواعد عسكرية. علاوة على هذا فإنهم سرعان ما شعروا بالحاجة إلى «ملتقى عام» حيث يمكن لسفنهم المتجهة من وإلى أرض الوطن أن تحفل وتفرغ حمولاتها، وحيث يمكن تجميع السلع الواردة من داخل آسيا، ويمكن كذلك تخزينها أو تحميلها فوق سفن أخرى. ولوحظ أن القلاع التي استولوا عليها من البرتغاليين في جزر التوابل كانت بعيدة جداً بحيث لا تفي بهذا الغرض، وأدركوا أن «الملتقى العام» المنشود لا بد من تأسيسه في مكان ما داخل منطقة مضائق ملقا أو مضائق سوندا حيث تتلاقى فيها طرق التجارة والرياح الموسمية. وبعد أن أخفقوا في انتزاع ملقا من أيدي البرتغاليين في عام ١٦٠٦، رنوا ببصرهم إلى ميناء جاكارتا الصغير في جزيرة جاوة. واستولى جان بيترسون كوين على هذا الميناء بالقوة في ٢٠ مايو ١٩١٩ في تحد مباشر لكل من سلطان بانتام الذي كان يعتبر المكان إقطاعية خاصة به، ولجلس إدارة الـ ١٧ في أرض الوطن، الذي أكد على أن «الملتقى العام» المنشود

يتعين أن يكون آمناً من خلال مفاوضات سلمية وليس عن طريق القوة المسلحة.

وتحدث كوين عن غزوته بعبارات طنانة تفيض حماسة، مما يذكرنا بكلمات استخدمها أفونسودي البوكيرك قبله بحوالي قرن من الزمان على أثر غزوه كلا من جوا وملقا. إذ قال «جميع ملوك هذه الأراضي يعرفون جيداً ما معنى أن نزرع مستعمرتنا هنا في جاكرتا، وما الذي يمكن أن يترتب على هذا، شأنهم في هذا شأن أكثر سياسيين أوروبا ذكاء وأبعدهم نظراً». وهذا صحيح. ولهذا السبب تحديداً أطلق حاكم شريييون القديم اسم «ملقا الجديدة» على القلعة والمدينة الحصينة باتافيا التي بناها الهولنديون على أطلال جاكرتا. ولم يكن سلطان بانتام وحده بل جميع حكام جاوة الآخرين قد رفضوا بعد ذلك السماح للهولنديين بأن يبنوا قلعة حجرية أو محطة تجارية في أي من موانئهم خشية أن يحذو الهولنديون حذو البرتغاليين في استيعاب الأراضي تدريجياً التي تحيط بمدنهم الحصينة. وكانت مخاوفهم لها ما يبررها تماماً. إذ خلال عام من تاريخ الاستيلاء على جاكرتا ادعى كوين ملكية «المملكة» التي تحمل هذا الاسم والتي حدد حدودها على الرغم من تعارض هذا مع الحقيقة التاريخية والواقع العقلي: بانتام غرباً، شريييون شرقاً، الجزر المحيطة بالساحل شمالاً والمحيط الهندي جنوباً. وظل هذا الزعم ادعاءً على الورق زمناً طويلاً، نظراً لأن الأحياء القائمة فوق نجاد مرتفعة في برينجر هي وحدها التي تخضع لإدارته خلال القرن الثامن عشر. غير أن احتلال جاكرتا في نظر الحكام والشعوب الآسيويين المعاصرين منح الهولنديين في اندونيسيا وضعاً مماثلاً لوضع البرتغاليين في جوا. وفي هذا كتب البوكيرك إلى ملكه بعد غزو جوا والاستيلاء عليها: «تدرك شعوب الهند الآن أننا ما جئنا إلا لنقيم إلى الأبد في هذه الأراضي، ذلك لأنهم يروننا نغرس الأشجار ونشيد المباني من الحجر والجير ونسهر على رعاية وتنشئة أبنائنا وبناتنا».

ومن المسلم به أن كوين كان واعياً بعزمه على إقامة امبراطورية، شأنه في هذا شأن البوكيرك ودوبلكس وكليف. ولم يكن سادته، أعضاء مجلس إدارة الـ ١٧ - وأن أعطوه فيما بعد موافقتهم على غزو جاكارتا - ولا كثيرون من خلفائه راودتهم النية في تحويل شركة الهند الشرقية الهولندية من شركة تجارية خالصة إلى سلطة اقليمية كبيرة. ولكن هذا التحول بات حتمياً إن أجلاً أم عاجلاً. وتدخل الهولنديون في شئون السلطة السياسية في جاوا في وقت كانت فيه مملكة مانرام تناضل من أجل ضمان سيطرتها ليس فقط على جاوة بل والاعتراف بهيمنتها على خليج أندونيسيا كله، تماماً مثلما زعمت مملكة ماجايهايت الهندوسية قبلها بعدة قرون. زيادة على هذا فقد سبق أن رأينا كيف أن أعضاء مجلس إدارة الـ ١٧ في امستردام وميدلبرج لم يوافقوا إلا بعد تردد في وقت متأخر على أن تدخل في شئون جاوة الخاصة من جانب ممثلهم الحاكم العام لباتافيا. ولكن كوين على الرغم من هذا (مثل ريجكوف فان جوينتز وسيلمان من بعده) كان متهيئاً تماماً ليفرض على المديرين سياسة الأمر الواقع.

وإن أحد الأسباب التي دعت الهولنديين إلى الكف زمناً طويلاً عن بذل أي مجهود لمتابعة مذكرة كوين بشأن ضم كل «مملكة» جاكارتا وتوسيع نطاق سلطاتهم إلى داخل الأراضي هو أنهم بالغوا كثيراً في تقدير القوة والتلاحم داخل امبراطورية ماتارام. والملاحظ أن هذه المملكة الزراعية التي هيمنت على شرق ووسط جاوة منذ عام ١٦٤٥، كانت لها أهميتها وشأنها بالنسبة للشركة كمصدر رئيسي لمدادها بالأرز اللازم لاستهلاكها في باتافيا ومولوكا. ويمكن تقسيم المجتمع في ماتارام، مثلما هو الحال في سلطنات جاوة الأخرى، إلى أربع فئات رئيسية. الأغلبية العظمى من الفلاحين ذوي البشرة السمراء الداكنة الذين يفلحون الأرض، ويعاملهم الموظفون وأبناء الارستقراطية ذوو اللون الافتح باستعلاء كبير والذين يعيشون على ثمرة كدهم. وهذه الارستقراطية كبيرة العدد، ويتدرج أبناؤها من صغار الموظفين إلى أبناء

الامراء بحكم النسب والدم، ويشيع بينهم نظام تعدد الزوجات كما هي القاعدة العامة. وهناك الى جانب الفلاحين والارستقراطية، الزعماء الروحيون والمسلمون والكتبة والفقهاء ورجال الدين الذين كان يصفهم الهولنديون بأنهم «البابويون والحثالة الأخرى» وكان هؤلاء منتشرين في أنحاء الجزيرة ويعملون على تقوية قبضة الإسلام على جماهير الناس الذين يؤمنون بالإسلام ايماناً سطحياً. والفئة الرابعة من أبناء مجتمع جاوة هم التجار والحرفيون والصناع، وهؤلاء لا نعرف عنهم غير القليل من المعلومات. ولكن لا بد وأنهم كانوا كثيري العدد في المدن المطلة على البحار حيث الموانئ، وقلة قليلة في القرى الداخلية حيث يعمل أهلها بالزراعة.

لقد كانت امبراطورية ماتارام نظاماً استبدادياً من النوع التقليدي في الشرق، حيث السلطان أو السوسوهونان (كما كان يسمى عادة) ملك مطلق السلطة نظرياً وعملياً، لم يكن يعنيه شيء من أمور التجارة ولا الرفاهية الاقتصادية لرعاياه، وإنما كل ما يعنيه هو مكانه ومكانته في الداخل وضمان التسليم بهيمنته على أقاليم أندونيسيا. واعتاد الفلاحون العيش على نتاج الأرض، والارستقراطية على الضرائب العينية التي يفرضونها على الفلاحين مثلما كانوا يعتمدون على سخرة رعاياهم، كذلك كان دخل الملك هو بعض الضرائب العينية ومن خدمة العمل، علاوة على ما يتلقاه من مراكز المكوس المقامة عند معابر الطرق والأنهار، ثم الجزية التي يدفعها ويقدمها أعضاء الوفود الأجنبية. ولم تكن هناك دار لسك النقود حيث لا تعامل بها وإنما اعتمد الاقتصاد فيها أساساً على نظام المقايضة. أما العملة المتداولة (وهي أساساً العملة النحاسية الصينية والريالات الإسبانية) فقد كانت مستخدمة لشراء الأسلحة والجواهر والسلع الأجنبية الثمينة مثل المنسوجات الهندية الممتازة والخزف الصيني. وحدث أن ريجكوف فان جوينز، الذي عمل مبعوثاً خمس مرات لدى بلاط سوسوهونان فيما بين عامي ١٦٤٨ و١٦٥٤، اقترح ذات يوم على جلالته تشجيع رعاياه على التجارة عبر البحار على طول المناطق

الساحلية حتى يحققوا ثروات كبيرة مما يمكنهم من دفع ضرائب أكثر. ولكن امانجكورات اجاب عليه قائلاً: «شعبي على خلافكم لا يملكون ما يمكنهم ان يقولوا إنه حق لهم وملكية خاصة بهم، وإنما كل شيء في حوزتهم هو ملكي أنا، وإذا لم أقس في حكمي يوماً فلن أكون ملكاً في اليوم التالي».

والأمر المالكوف أن يمارس الملك المطلق، أو السوسو هونان سلطانه من خلال عدد محدود من كبار موظفيه الذين يتمتعون بنفوذ مختلف. ويأتي إلى الصدارة فريق ليحل محل فريق آخر، والأمر رهن بشخصيات الفريق ونزوات الحاكم التعسفية. وتخضع أهم المناطق وأعظمها شأنًا لسلطة أقرب الأقرباء من أبناء الأسرة المالكة. غير أن امانجكورات الأول أصبح في السنوات الأخيرة من حكمه طاغية نصف مجنون مثل ايفان الرهيب، وعمد تدريجياً إلى استئصال أغلبية كبار النبلاء، وابدلهم بموظفين يغير ويبدل في مناصبهم مراراً وتكراراً حتى يحول دون التآمر ضده. واعتاد أن يعقد لقاء عاماً في ساحة قصره مرتين اسبوعياً. حيث يقيم العدالة في احتفال مهيب ويصدر كلمته أو حكمه بإعدام أي إنسان يثير غضبه. وكان نظام الخدمة العسكرية في امبراطورية ماتارام يقوم على أساس نظام الخدمة الإلزامية للقادرين من الرعايا وتشكل الجيوش من أبناء القرى الأصحاء الأقوياء إذ يدعوهم السلطان إلى حمل السلاح للقيام بأي حملة عسكرية. ولكن هناك أيضاً حرس ملكي خاص دائم لحراسة القصر «الكراتون». وزعم ريجكوف فان جوينز في عام ١٦٥٦ أن السوسوهونان يملك حوالي مليون محارب مقيدين في سجلات الأقاليم وهذه مبالغ كبيرة يقينا، هذا على الرغم من أن جيش امبراطورية ماتارام في القرن السابع عشر كان أكبر عدداً من أي جيش أوروبي خاض حرب الثلاثين عاماً. وكانت أسلحة جيش الامبراطورية رماحاً وسهاماً وسيوفاً وإن كان أهل جاوة يملكون بعض المدافع والأسلحة النارية إلا أنهم لم يكونوا مهرة في استخدامها.

ومد السلطان أجونج من هيمنة امبراطورية ماتارام لتشمل جميع أنحاء

جاوة قبيل وفاته في عام ١٦٤٥، باستثناء الجزء الداخلي المباشر من باتافيا وسلطنة بانتام في الركن الغربي من الجزيرة. وطبيعي أثرت قوة ماترام نسبيا في الوفود الهولندية القليلة التي زارت القصر «الكراتون» الملكي، أو الهولنديين الذين احتجزتهم السلطات هناك كسجناء فيما بين عام ١٦٣٢ و١٦٥١. غير أن جذور التحلل كانت كامنة في شخصية هذه الامبراطورية الاسلامية مثلما كانت كامنة في سابقتها الامبراطورية الهندوسية ماجا باهيت. إذ كان نظام الاتصالات سيئاً للغاية، والطرق قليلة جداً وغير صالحة في موسم الأمطار، ونعرف أن الأنهار في وسط ماتارام تتجه جميعها جنوبا لتصب في المحيط الهندي حيث لا مرأىء هناك وتتوقف المراكب المحلية الصغيرة «براس» هناك عن الإبحار، وكانت هناك حركة نقل نهري نشطة على طول أنهار جاوة التي تتدفق شمالا لتصب في بحر جاوة، ولكن أكثرها لا يستخدم إلا في مواسم محددة من السنة. وحتى في هذه المواسم فقد تضي أسابيع طويلة لتأخذ المراكب طريقها صاعدة، ثم أياما لتعود، وكانت الاقاليم الرئيسية معزولة عن بعضها جغرافيا بسبب سلاسل الجبال، وظل الوضع على حاله حتى القرن التاسع عشر دون استحداث أي وسائل تكنولوجية للتغلب على هذه العقبات الطبيعية. وتم خلال عملية التوسع اجتياح السلطنات الساحلية في الشمال، والشرق وقد ألحقت بها ماتارام الهزيمة فيما بين ١٦١٣ و١٦٤٥، وكانت شعوب هذه السلطنات رافضة لهذا الاجتياح ومن ثم مستاءة أو ساخطة. أخيراً فإنه على الرغم من استعداد السلطان أو السوسوهانان لقتل أو طرد أو نفي أي حاكم من حكام الاقاليم يشك في ولائه له، إلا أن حكام المقاطعات البعيدة عند الأطراف حاولوا يقينا استعادة استقلالهم على نحو ما أوضح ريجكوف فان جوينز في عام ١٦٨٠ حين قال: يبدو أن حكام جاوة وخاصة حكام المناطق النائية يرغبون في الاستقلال ويزعم كل منهم إن بإمكانه أن يمضي في طريقه هذا وأن يحمي نفسه».

وحاول اما نجكورات الاول أن يحول دون عملية التحلل وذلك باتباع

سياسية الترويع التي طبقها دون تمييز على الأمراء والنبلاء وكبار المسؤولين. بيد أن كل ما فعلته هذه السياسة هي زيادة حدة السخط ضد حكمه. وحدث أن أحد أمراء مدراس ويدعى تروناجايا رفع من حدة التمرد ضد السوسوهونان ووجد مساندة كبيرة وتأييدا واسعا. واضطر أما نجكورات الأول إلى الهرب من قصره ومات وهو في طريقه إلى الساحل بعد أن طلب من شركة الهند الشرقية الهولندية التدخل لمصلحته في عام ١٦٧٧. واستطاع الهولنديون بفضل تدخل سبيلمان وفان جوينز بالقوة المسلحة، أن يعيدوا وريث السلطان الراحل إلى عرش ماترام، بعد قتال طويل وعلى الرغم من المعارضة القوية. ولكنهم حصلوا مقابل ذلك على تنازلات اقليمية وامتيازات تجارية ثمنا لدعمهم السلاح للسلطان الجديد، ومن ثم اتخذت العلاقات بين هولندا وماتارام مساراً ومستوى جديدين تماما. إذ بينما اعترف الهولنديون خلال الفترة من ١٦٤٦-١٦٧٧ بدعوى السوسوهونان بسيادته على جاوة إلى الحد الذي جعلهم يرسلون إليه بصفة دورية السفراء والرسول يحملون الهدايا الثمينة إلى قصره - ومثلما كانوا يفعلون مع شوجان اليابان في عصر طوكو جاوا في العاصمة يدو - بدأ السلطان أو السوسوهونان منذ عام ١٦٧٧ فصاعدا يخاطب الحاكم العام لباتافيا بلقب «الحامي» أو «الأب» وبعد ذلك «الجد». علاوة على هذا فإن تدخل الهولنديين في عام ١٦٧٧ أدى فقط إلى إرجاء عملية التحلل الحتمية لامبراطورية ماتارام. ولكن الحقد المتبادل بين مدعي الحق في العرض على اختلافهم وتمرد الاقطاعيات ضد السلطة المركزية الضعيفة في القرن الثامن عشر أديا إلى تجدد النزاعات على وراثة العرش والتي انتهت بتقسيم المملكة وقيام دولتين هما سوراكارتا وجوجوكارتا في عام ١٧٥٥، وإلى أن حان هذا الوقت كانت الشركة قد وسعت من نطاق هيمنتها على جميع أنحاء الجزيرة وهبطت بجميع سلطنات جاوة لتصبح في مستوى العميل أو الاقطاعيات التابعة.

ويجب أن نؤكد هنا أنه على الرغم من أن شركة الهند الشرقية الهولندية

أصبحت سلطة اقليمية في جاوة وسيلان ومولوكا، إلا انها ظلت دائماً جسماً غريباً على هامش المجتمع الآسيوي، حتى في الاقاليم التي خضعت لادارتها المباشرة. وطبيعي ان هذا كان أكثر وضوحاً في بلدان أخرى مثل الصين واليابان حيث لم يكن للهولنديين هناك سوى وكالات تجارية بسيطة، بل وكان الوضع كذلك في جنوب الهند حيث كان للهولنديين ذات يوم الولاية على بعض المقاطعات والشعوب في المناطق الملاصقة لقلاعهم ومراكزهم التجارية. والجدير بالذكر ان المجتمع الآسيوي سواء اكان اندونيسيا أم صينيا أم يابانيا أم هنديا أم فارسيا أم مالاويا، لا يرغب أو لا ترغب جميعها أبداً في أن تتحول عن طريق علاقاتها بأوروبا على نحو ما بدا واضحاً خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وإنما رغبت فقط في الاحتفاظ بأشكالها التقليدية الثابتة «الاستاتيكية». نعم حدثت بعض التحولات بطبيعة الحال، بسبب الضغط والتفوذ الأوروبيين، مثل تحول أغلبية سكان الفلبين إلى المسيحية نتيجة الغزو الأسباني لتلك الجزر، بيد أن العوامل الاجتماعية والاقتصادية والدينية الأساسية التي تحدد بنية المجتمع الآسيوي ظلت كما هي دون أي تغيير حتى القرن التاسع عشر، بل وبقيت كما هي في أكثر مظاهرها حتى القرن العشرين، بعد أن وصلت قوية إلى هذه المجتمعات أصداء الثورة الصناعية والثورتين الفرنسية والروسية.

وإذا كانت بنية المجتمع الآسيوي لم تتأثر في أساسها بأنشطة شركة الهند الشرقية الهولندية والشركات المعاصرة والمنافسة لها، فإن أثر الرأسمالية التجارية الأوروبية والملاحة البحرية في أعالي البحار خلال القرن السابع عشر غير بالفعل من أنماط التجارة والصناعة في آسيا من بعض نواحيها. لقد اكتشف البرتغاليون واستغلوا الطريق البحري من أوروبا إلى آسيا عن طريق رأس الرجاء الصالح، ولكنهم حين وصلوا إلى جنوب شرق أفريقيا اتبعوا الطرق البحرية والموسمية القديمة التي سبقهم إليها المسلمون والممتدة من سوفيالا إلى كانتون. أما الطريق البحري المالكوف عبر المحيط

الهادي لمانبلا جاليون الاسبانية الذي يصل ما بين المكسيك والفلبين والذي افتتح في عام ١٥٦٤-١٥٦٥ فقد كان طريقاً جديداً إلى حد ما. واستخدم هذا الطريق على مدى ثلاثة قرون تقريباً في مجال تبادل الفضة الأمريكية بالحرير الصيني. وإن فرض الهولنديين بالقوة لنظام احتكار التوابل في مولوقا بحيث بات أمراً واقعاً قبيل نهاية القرن السابع عشر كان عملاً جديداً له أثره المعاكس على سكان تلك الجزر والمجتمعات البحرية في أندونيسيا بشكل عام. كذلك فإن ازدهار دول جاوة الساحلية تقوض بفعل غزو ماتارام لها، وهي سلطنة زراعية لا تحمل أي رغبة في تعزيز التجارة عبر البحار، بعد سقوط حليفها ملقا البرتغالية في أيدي الهولنديين في عام ١٦٤١.

وقبيل عام ١٧٠٠ تحولت القوة البحرية لجاوة إلى ذكرى من ذكريات الماضي بعد أن جاء عليها حين من الدهر كانت سفنها تخر عباب البحر حتى مدغشقر والتي احتلت جاوة أجزاء منها في العصور الوسطى، وبعد أن كان اسطولها يمثل تهديداً خطيراً ضد ملقا على فترات متباعدة خلال القرن السادس عشر، وسبق أن أشار سبيلمان في ١٦٧٧ إلى أن «أهل ماتارام في شرق جاوة أصبحوا، علاوة على جهلهم بشئون البحر لا يملكون الآن سفناً على الإطلاق خاصة بهم حتى للاستعمالات الضرورية». وحاولت بانتقام بنجاح كبير خلال هذه الفترة إنشاء تجارة بحرية وطنية قادرة على الإبحار في المحيطات، غير أن غزو الهولنديين لهذه السلطنة في ١٦٨٢-١٦٨٤ وضع نهاية لهذا المشروع.

ولم يستطع الهولنديون إقامة احتكار للتجارة البحرية في أي إقليم خارج المياه الأندونيسية، بل ولم يحاولوا ذلك بشكل جدي بعد فشل سياسة كوين القائمة على «الترويع» ضد مراكب الينك الصينية التي تتاجر مع مانبلا الاسبانية وحاولوا بالفعل من حين إلى آخر الضغط على الحكام الهنود، نظراً للنزاعات التجارية القائمة بينهم، وذلك بالاستيلاء على سفنهم بحمولاتها أو بالتدخل في شئون تجارتهم البحرية مثلما فعل البرتغاليون في القرن

السادس عشر. ولم تحقق جهودهم أي نجاح له قدرة على الاستمرار نظراً لأن الهولنديين لم تكن لهم قاعدة قوية في الهند مثلما كان للبرتغاليين في جوا. إذ كانت المحطات التجارية الهولندية المقامة على سواحل ملبار وكوروماندل، سواء أكانت محصنة أم لا، عرضة لآخطار العمليات الانتقامية من جانب حكام الهنود الأقوياء، خاصة وأن عواصمهم الواقعة في داخل البلاد غير معرضة للآخطار من جانب القوة البحرية الهولندية على عكس مدن السلطنات الساحلية في اندونيسيا. ولم تحقق سياسة الهولنديين في إعاقه وحصار الساحل نجاحاً مذكوراً إلا في سيلان، حيث أنهم هنا قادرون على قطع الطريق الموصل بين مملكة كاندي وبين البحر. ونلاحظ أن تدفق رأس المال الهولندي إلى كوروماندل لشراء المنسوجات التي تحتاج إليها اندونيسيا، قد حفز بالفعل بعض أثرياء تجار الهند (وكبار الموظفين العاملين بالتجارة) للمشاركة بأنفسهم في تجارة ما وراء البحار. وإذا بالتجارة البحرية الهندية التي ظلت حتى عام ١٦٠٠ تقريباً قاصرة على منطقة خليج البنغال وشبه جزيرة الملايو تمتد ويتسع نطاق عملياتها حتى تصل إلى جاوة ويونيو وسليبيس والفلبين قبل نهاية القرن السابع عشر. كذلك فإن الهولنديين من خلال منافستهم مع الانجليز، هياؤا الحافز من أجل تحقيق زيادة كبيرة في صناعة وإنتاج المنسوجات الهندية التي وجدت الآن سوقاً رائجة لها ليس فقط في آسيا وشرق أفريقيا وإنما أيضاً في غرب أفريقيا وأوروبا، بل وفي أمريكا. بيد أن زيادة حجم الإنتاج لم تقترن بأي تحولات مهمة في تقنية الصناعة.

وأن أحد التجديدات التي أدخلها الهولنديون على الملاحة في المحيط الهندي هي استخدام سفنهم الشراعية المتجهة إلى الهند الطريق البحري المسمى طريق «الأربعينيات الهدارة» Roaring Forties وهذا الطريق البحري اكتشفه هندي برووير عام ١٦١١، واعتمده مجلس إدارة الـ ١٧ رسمياً بعد ذلك بست سنوات. وبعد أن تغادر السفينة أو بعد أن تمر عبر رأس الرجاء الصالح تتجه شرقاً بين خطي ٣٦° و ٤٢° جنوباً إلى أن تصل إلى

منطقة الرياح التجارية الجنوبية الشرقية حيث يتبحر شمالا نحو مضائق
سوندا. وما أن تدعم وضع الهولنديين في الشرق بعد استيلائهم على جاكارتا
وتحويلها إلى مركز تجاري بحري ومركز عام للقيادة باسم باتافيا بدأت
أساطيل السفن الشراعية التجارية الضخمة المتجهة إلى الشرق تغادر موانئ
الوطن في ثلاثة أسراب أو أساطيل متعاقبة: أسطول كرميس (سوق موسم
المرح) الذي يبحر في شهر سبتمبر، وأسطول عيد الميلاد الذي يغادر البلاد في
ديسمبر أو يناير، ثم أسطول عيد القيامة الذي يبحر في إبريل أو مايو. ومن
بين هذه الأساطيل الثلاثة يعتبر أسطول سوق موسم المرح أهمها جميعا،
ذلك لأنه يصل إلى باتافيا في مارس أو إبريل وهو وقت نقل حمولات السفن إلى
سفن أخرى لتنقلها إلى أفضل أسواق آسيا وأقيمتها - وهي أسواق اليابان
والصين وخليج البنغال والخليج الفارسي - دون حاجة إلى الانتظار حتى
موعد الرياح الموسمية الجنوبية الغربية في السنة التالية، واعتادت السفن
التجارية العائدة إلى أرض الوطن أن تغادر باتافيا في أسطولين. الأول يغادر
مضائق سوندا عند نهاية السنة تماما على وجه التقريب، ويتبعه الثاني بعد
شهر أو شهرين، حين وصول الحمولات من خليج البنغال والصين واليابان
مع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية. وبعد عام ١٦٥٢ اعتادت السفن،
المتجهة من وإلى أرض الوطن أن تعرج على ميناء الكاب. وتستغرق الرحلة في
أي الاتجاهين ما بين خمسة أشهر ونصف وسبعة أشهر، ولم يكن من
المالوف القيام برحلات أطول وإنما الشائع الرحلات القصيرة.

ويكتب نيكولاس دي جراف وقتما بلغت شركة الهند الشرقية الهولندية
أوج سلطتها وازدهارها فيقول أن الرحلات من باتافيا إلى اليابان والصين
والبنغال وكوروماندل وسورات كانت أكثر الرحلات ربحا وشعبية بين
التجار والبحارة على السواء. إذ ينفقون أقل الأموال في هذه الأقاليم الأثيرة
لديهم حيث كل شيء وفير وزهيد الثمن كما ازدهرت بصورة مفرطة تجارة
السلع المهربة أو التجارة «الخاصة». هذا على نقيض الوضع في مولوقا حيث

أرباح تجارة التوابل قاصرة تماما على الشركة والمؤن قليلة عزيزة. وكانت نسبة الوفيات مرتفعة في القلاع والمحطات التجارية في مولوقا ومن ثم كانت الخدمة هناك غير مرغوب فيها. وضاعف من هذا الوضع أن السلطات فضلت أن تترك هناك وإلى أمد غير محددة أولئك الذين تأقلموا على الوضع بدلا من أن تعفيهم وتخفف عنهم وتأتي بوافدين جدد ربما يلغون حقهم.

ورأينا أن الشركة لم يكن بإمكانها أن تفرض احتكار التوابل في جزر مولوقا وفي سيلان إلا بشق الأنفس، وإنما بالنسبة للأقاليم الأخرى يتعين عليها أن تضع في الحسبان المنافسة النشطة الأوروبية و/أو الآسيوية. مثال ذلك أنه بعد الاستيلاء على مناطق إنتاج الفلفل الأسود في ملبار وانتزاعها من أيدي البرتغاليين في ١٦٦١-١٦٦٣، وبعد إخضاع سلطنة بانتام التي تعمل بتجارة الفلفل الأسود في عام ١٦٨٤، لم يفتأ الهولنديون يعانون من المنافسة الإنجليزية الحادة بشأن ساحل الهند الغربي وسومطرة. ولم يكن بالإمكان أبدا تنفيذ الخط الذي اعتاد مجلس إدارة الـ ١٧ وضعها بصورة دورية لاحتكار سوق الفلفل الأسود في أوروبا. وكانت شركة الهند الشرقية الإنجليزية تستورد في عام ١٧٢٦ كميات من الفلفل الأسود لتسويقها في لندن تعادل الكميات التي كانت تتلقاها شركة الهند الشرقية الهولندية في باتافيا من كل من منطقة أرخبيل الملايو وأندونيسيا. وتميز التجار الصينيون أيضا بفعالية كبيرة في تجارة الفلفل الأسود في سومطرة طوال القرن السابع عشر. وإن أقحام الصينيين لأنفسهم وتدخلهم هو الذي حال دون احتكار الهولنديين لتجارة الفلفل الأسود في بورنيو في ثلاثينيات القرن الثامن عشر.

وعلى الرغم من أن مجلس إدارة الـ ١٧ حاول يقينا أن يشترى رخيصة ويبيع غاليا حينما ووقتما استطاع، إلا أن هذا لم يكن ميسورا أو مرغوبا فيه دائما حتى مع احتكار توابل مولوقا. وكما كتب مجلس المديرين إلى باتافيا عام ١٦٧٣ أن «الشركة استخدمت القرنفل (في السابق) مقابل أقساط سنوية بدلا من النقود، ولهذا انخفض سعره ولكن الاستهلاك زاد وانتشر استعماله

في جميع أنحاء أوروبا». وبعد أربع سنوات استطاع مجلس إدارة الـ ١٧ أن يحدد سعر بيع القرنفل في أوروبا بـ ٧٥ ستويغر للرتل الواحد، وتحدد سعر جوزة الطيب بنفس المستوى منذ بداية القرن الثامن عشر. واستطاع المديرون الحفاظ على هذه الأسعار حتى عام ١٧٤٤. ونجحت الشركة على الرغم من تذبذب الأسعار قليلاً، في الإبقاء على احتكارها الفعال لتوابل جزر مولوكا إلى أن حلت. ويذكر أن مخازن الشركة في الأراضي المنخفضة امتلأت عن آخرها حيث كان بها ١٢٥٠٠٠ رطل فائض من جوزة الطيب وتم تدميرها في عام ١٧٢٥ تماماً مثلما أحرقت البرازيل الفائض عندها من البن بعد ذلك بقرنين.

لقد تأسست شركة الهند الشرقية الهولندية، شأن منافستها الانجليزية للتجارة أساساً في الفلفل الأسود والتوابل. وظلت هاتان السلعتان تمثلان أقيم حمولاتها إلى أرض الوطن طوال النصف الأول من القرن السابع عشر. بيد أن الطلب الأوروبي على المنسوجات الهندية والسلع القطنية وكذلك الحرير الصيني والبنغالي والفارسي، أدى إلى أن أصبحت لهذه السلع الأولوية على الفلفل الأسود والتوابل، شراء وبيعاً ابتداءً منذ مطلع القرن السابع عشر. وشهد القرن الثامن عشر نمواً هائلاً في تجارة الشاي والبن. وأضحت هذه المنبهات أهم كثيراً من المنسوجات على اختلافها بينما تزايد انخفاض القيمة النسبية لكل من الفلفل الأسود والتوابل. ودخل مجلس إدارة الـ ١٧ مجال تجارة الشاي الصيني في وقت متأخر. وبذل المجلس محاولة للهيمنة على هذه التجارة عن طريق إنشاء خطوط بحرية مباشرة بين الأراضي المنخفضة وبين كانتون خلال السنوات ١٧٢٩-١٧٢٤ غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل ولم تحقق الهدف المقصود منها. ومن ثم عادت الشركة إلى أسلوبها القديم بشحن الشاي عبر باتافيا، غير أنهم ظلوا زمناً طويلاً في وضع من يحاول اللحاق بالانجليز. واتسع نطاق زراعة البن والسكر في جاوة، وتزايدت أهمية هذا التوسع كثيراً خلال القرن الثامن عشر. وفي عام ١٧٢١ كان ٩٠ بالمائة من البن الوارد إلى أوروبا لا يزال شركة الهند الشرقية الهولندية تجلبه من

موتشا، بينما ١٠ بالمائة فقط تجلبه من جاوة. ولكن بعد خمس سنوات تحولت النسبة إلى عكسها تماما. وما أن حل عام ١٧٨٠ حتى أصبح السكر والبن اللذان تنتجهما جاوة لهما بالنسبة لشركة الهند الشرقية الهولندية نفس الأهمية التي أصبحت لهذه المنتجات بالنسبة لمملكة الأراضي المنخفضة في القرن التالي.

وكان لا بد من موازنة متطلبات السوق الأوروبية مع متطلبات التجارة بين الموانئ في آسيا. وطبيعي أن أدى هذا إلى قدر كبير من التذبذب في العرض والطلب. ويفيد الحساب الإجمالي من خلال نظرة عامة أن حوالي ثلثي انتاج التوابل تشحنه السفن إلى أوروبا ويجرى تسويق الثلث شرق السويس حيث ظلت سورات لزمن طويل أهم محطة تجارية لنقل القرنفل. ولم يتحقق حلم كوين بشأن تمويل كل تجارة الصادرات للشركة إلى أوروبا من الأرباح الناجمة عن مشروعه لاحتكار التجارة بين موانئ آسيا. ولكن مجلس إدارة الـ ١٧ حاول دائماً تأمين الحصول على أكبر قدر من سبائك الذهب والفضة من بلدان آسيا بغية خفض شحنات المعادن النفيسة من أوروبا. وهيا الطلب من الفضة من اليابان للهولنديين حتى عام ١٦٦٨ ميزة كبيرة على منافسيهم الانجليز نظراً لأنهم لم يكونوا مثل الانجليز معتمدين على الواردات من الفضة الأوروبية والاسبانية الأمريكية. وعندما حظرت حكومة اليابان تصدير الفضة في تلك السنة، وجهت شركة الهند الشرقية الهولندية اهتمامها إلى الذهب الياباني الذي يمكن بيعه بأسعار مربحة عند ساحل كورومانديل. ولكن مرحلة انتعاش الذهب الياباني لم تدم طويلاً، وحلت محلها مرحلة النحاس منذ سبعينيات القرن السابع عشر، وأصبح النحاس أشبه «بالعروس التي نرقص لها» ، حسب التعبير المجازي الذي قاله في عام ١٧٤٥ فان اجهوف الحاكم العام. وظل النحاس الياباني أهم عنصر في التجارة بين باتافيا وناجازاكي على مدى قرن كامل تقريباً إلى أن بدأ النحاس السويدي يغزو السوق الآسيوية بعد عام ١٧٧٠.

وناور مجلس ادارة الـ ١٧ بعيد من الخطط غير العملية لضمان احتكار الحرير الصيني والفارسي بيد أنها أخفقت تماما في السيطرة على السوق في أي من البلدين وفي عام ١٦٣٦ ظهرت في الصورة ثالث المناطق المنتجة للحرير وهي البنغال. ومع نهاية القرن فاقَت تجارة الحرير البرتغالي تجارة الحرير في كل من الصين وفارس. وتزايد باطراد خطر المنافسة الانجليزية في المنطقة للشركة الشرقية الهولندية. وما أن حل عام ١٧٤٠ حتى تفوق الانجليز تماما على منافسيهم في البنغال وتكررت القصة ذاتها مع تجارة المنسوجات الهندية في كوروماندل. وهناك من تحدث في عام ١٦١٢ عن المنسوجات القطنية التي تنتجها هذه المنطقة هي ومنطقة جوجيرات ووصفها صادقاً بأنها «الذراع اليسرى» لتجارة الشركة الهولندية في مولوفا حيث تمثل التوابل الذراع اليمنى للشركة. إذ علاوة على بيع المنسوجات في السوق الأوروبية كانت هناك أنواع مختلفة من المنسوجات الهندية ابتداء من ثياب خشنة لاستعمالات العبيد والزنوج إلى أرق وأجمل الخيوط للملابس النساء الداخلية نجد سوقاً رائجة على طول منطقة آسيا الموسمية والساحل الاستوائي لأفريقيا. وهكذا أصبحت هذه السلعة لها أهمية الذهب والفضة في تنمية التجارة بين موانئ آسيا. وحرص الانجليز والهولنديون على تأمين هذه الموانئ أسوة بما فعله أسلافهم البرتغاليون. وبدأت الشركة الشرقية الهولندية بداية طيبة أعطتها ميزة السبق على الشركة الانجليزية في ساحل كوروماندل ولكن سلطانها اهتز بشدة بسبب الحروب الشرسة الضروس التي دارت رحاها في وحول جولوكوندا طوال الربع الأخير من القرن السابع عشر في فترة تفوق فيها الانجليز على الهولنديين من حيث رؤوس الأموال المستثمرة وسقطت الذراع اليسرى للشركة الشرقية الهولندية. وهنا ومثلما حدث في أماكن أخرى من الهند، انتقلت السيادة التجارية التي كانت تتمتع بها الشركة الهولندية إلى الشركة الانجليزية قبيل عام ١٧٤٠ء.

وطبيعي انه كانت هناك سلع أسيوية أخرى كثيرة تاجرت فيها الشركة

الشرقية الهولندية علاوة على الفلفل الأسود والتوابل والمنسوجات والشاي والبن والخزف. إذ هناك أيضاً النيلة والملح الصخري أو نترات البوتاسيوم من الهند والسلع المحلية بورنيش اللك من اليابان، والفيلة من سلان، والعبيد من أراكان وبوتون وبالي، وهذا قليل من كثير. والمكان هنا لا يسمح لنا بذكر جميع فروع النشاط التجاري للشركة، غير أن ثمة جانباً واحداً يأتي ذكره عابراً في أغلب الأحيان - ونعني به شيوع ما يعرف باسم «التجارة الخاصة» جنباً إلى جنب مع الأعمال المشروعة للشركة. إذ كان مديرو الشركة أما عاجزين أو عازفين عن دفع رواتب الأغلبية العظمى من العاملين في الشركة. زد على هذا أن الشركة كانت تحتفظ بجزء كبير من الرواتب في مكاتبها في هولندا إلى حين انتهاء فترة عملهم في المنطقة الاستوائية، ومن أسباب ذلك الخوف من أن يتركوا العمل. وبدأت الشركة منذ عام ١٦٥٨ فصاعداً تتلاعب في سعر الصرف على نحو يتعارض مع مصالح العاملين بها. وتحسب الدولار المعروف باسم ركس دولار (ويساوي ٦٠ ستويفر في الأراضي المنخفضة) بـ ٦٤ ستويفر في دفتر حساب العامل الدائن. وهكذا باتت الحياة عسيرة على أي إنسان اعتماداً على راتبه الرسمي، ناهيك عن ادخار أي مبلغ من أجل المستقبل عند الاحالة إلى التقاعد ولم تكن الشركة تمنع معاشاً إلا في ظروف استثنائية جداً قبل عام ١٧٥٣. والنتيجة أن كل إنسان ابتداء من الحاكم العام إلى الصبي شرع يعمل بالتجارة لحسابه الخاص سرا والكل يعرف ذلك.

واقترع أعضاء مجلس الـ ١٧ بأسلافهم البرتغاليين وسمحوا لكل فرد بأن يحمل معه عند عودته كمية صغيرة من السلع الشرقية زهيدة القيمة، وإن اعتادت الشركة بسهولة انتهاك هذا الامتياز. وبدأت الشكوى من غلبة التجارة الخاصة في أغسطس ١٦٠٣ ولم تكن الشركة قد تجاوزت العام الواحد من عمرها إلا بأشهر قليلة. وبعد ست سنوات لاحظ المديرون بمرارة أن التجار كبارهم وصغارهم والملاحين والموظفين والمساعدين وجميع من يعمل في خدمة الشركة يشترون مشترياتهم أو يرسلونها إلى أرض الوطن والتي تضم

«أرقى وأفخر أنواع الخزف والمشغولات الخشبية وغيرها من التحف الهندية النادرة وهو ما يتناقض مع قسم العمل الذي أقسموا به عند تعيينهم». ونجد هذه الشكوى سائدة في المراسلات الرسمية للشركة حتى آخر أيامها. ودأب المديرون من حين إلى آخر على مراجعة وتعديل نوع وكم السلع التي يمكن أن يعود بها الموظف دون دفع أي جمارك عنها (أو دفع مبلغ محدود)، ولكنهم اعتادوا أن يحتجوا أقيم وأثمن السلع للشركة وحدها. ويحدثنا دافيد هاتاي عن قوانين مماثلة طبقتها الشركة الشرقية الانجليزية فيقول: «إن النتائج المترتبة عن مثل هذا التنظيم السيء للغاية يمكن أن يقتبأ بها عقل ساذج ضعيف». إن من خاطروا بحياتهم للخدمة مقابل أجر رمزي في المناطق الاستوائية لم يمنوا أنفسهم بأن يقنعوا بصيد الذباب أو أكل القش، بل عقدوا العزم على أن يثروا بأسرع وقت ممكن، ولم يكن لدى المسؤولين عن الشركة أي ميل لفضح أمر مستخدميهم حيث أنهم جميعاً كانوا متورطين في ذلك.

ولقد كانت امكانات الخداع والاختلاس لانهاية لها. فهناك علاوة على الرشوة السافرة والابتزاز المالي، وكأنا شائعين تماماً، فإن حسابات الشركة في المحطات التجارية النائية كان من اليسير «طبخها». إذ يتم ادخال المشتريات بأسعار عالية بصورة خيالية في دفاتر الأستاذ. وكذلك البضائع المسروقة أو الهالكة يجري تقييمها بأسعار مبالغ فيها، فضلاً عن المبالغة الكبيرة في نفقات الحياة والسفر. ثم المبالغة أيضاً في أسعار مواد البناء وأجور العمال وتسجيلها بأعلى من قيمتها الفعلية. وعمد بعض موظفي الشركة الشرقية الهولندية إلى اقراض الصينيين وغيرهم من التجار الآسيويين مقابل قائمة حتى وإن أدى هذا إلى رفع أسعار الفلفل الأسود (كمثال) عن طريق المزايدة ومن ثم يتعين على الشركة أن تدفع مبالغ أكبر مقابل ذلك في السوق المفتوحة. وتاجر بعض الموظفين باسم تجار آسيويين، أو بالاشتراك معهم، على الرغم من خطر هذين الأسلوبين، وسبق أن منعت الشركة الشرقية الهولندية، ابتداء من عام ١٦٥٢، موظفيها من تحويل أموالهم الخاصة إلى أوروبا عن طريق

حوالات من خلال الشركة الشرقية الانجليزية، غير أن موظفي كل من الشركتين دأبوا على استثمار خدمات الشركة الأخرى لتحويل أموالهم الخاصة إلى أوروبا عن طريق حوالات من خلال الشركة الشرقية الانجليزية، غير أن موظفي كل من الشركتين دأبوا على استثمار خدمات الشركة الأخرى لتحويل مكاسبهم غير المشروعة، وتحول هذا السلوك إلى فضيحة كبرى خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وها هو جوهان روس وكيل الشركة الهولندية في البنغال، يحقق مكسبا لا يقل عن نصف مليون روبية من عمولات حصل عليها مقابل أرصدة أرسلها موظفو الشركة الانجليزية سرا إلى إنجلترا عن طريق بيوت المال في امستردام وجان كومباني.

وكانت السرية محدودة للغاية بشأن التجارة الخاصة التي شاعت وازدهرت بين الأوروبيين في الشرق منذ أيام فاسكو دي جاما وحتى مطلع القرن التاسع عشر. وأن العديدين من موظفي الشركة الهولندية الذين نشروا مذكراتهم بعد عودتهم إلى أوروبا يوضحون لنا كيف ومتى خدعوا أو رشوا خزانة مالية الشركة في باتافيا - أو كيف هربوا السلع المحرمة في أمتعتهم من خلال إدارات أقاليم الهند في الأراضي المنخفضة أمام بصر وسمع المديرين المسؤولين عن التفتيش، ويجب أن نسلم. على سبيل التبرير، بأن مجلس إدارة الـ ١٧ وأن أدان ممارسة التجارة الخاصة بأشد الالفاظ مع اصدار الأوامر من حين إلى آخر ليؤكد حظرها، إلا أنه كثيراً ما عمد إلى اغماض عينه أزاء ما يجري. واختلف موقف المسؤولين عن التفتيش أيضاً اختلافاً كبيراً حسب الطبيعة الشخصية لكل منهم وحالته المزاجية. «إذ يكون أحيانا أشد حزماً، وتزمتاً، وأحيانا أخرى متساهلاً»، على نحو ما صرح به بيتر فان دام محامي الشركة في كتاباته السرية. ويحكى لنا أيضاً إن مديري الشركة اعتادوا بشكل دوري بحث داء التجارة الشخصية، وإذا كان بالامكان القضاء عليها عن طريق دفع رواتب مجزية للعاملين في الشركة والحزم في الالتزام بالأوامر. بيد أنه يضيف قائلاً أنهم انتهوا دائماً إلى نتيجة محددة وهي أنه حتى وإن دفعت

الشركة رواتب عالية فإن هذا الإجراء لن يقلل من جشع مستخدمي الشركة ولن يحفزهم في أداء مهامهم على نحو أفضل وأكثر التزاماً..

وحدث أحياناً أن مجلس إدارة الـ (١٧) في أرض الوطن، أو السلطات المسئولة عن الشركة في باتافيا فرضوا عقوبات بالفعل ضد الانتهاكات الشديدة للقواعد المفروضة بشأن التجارة الخاصة. ولكن ثبت أن هذا حماس مؤقت لا يدوم طويلاً وكانت اليابان والبنغال المنطقتين اللتين تشكلان مسرحاً لجني أكثر الأرباح غير المشروعة، ولا ارتكاب أشنع الفضائح. ونظرا لأن هذين البلدين لم يكونا خاضعين لإدارة الشركة، لذا كان من العسير تماما مراقبة وكبح عمليات التهريب والاختلاس من جانب موظفي الشركة الشرقية الهولندية، خاصة وأن هذه الأعمال يتم التورط فيها عادة، بالتواطؤ أو التعاون من قبل الموظفين والتجار المحليين، ووصل الأمر إلى حد اقحام السلع الخاصة على السفن المحملة بالبضائع من باتافيا ومتجهة إلى اليابان بحيث يتعذر تحميل جميع شحنات بضائع الشركة على متن السفينة لهذه الأسباب. وها هو هندريك كانسيوس رئيس محطة دشيمي التجارية في ١٦٨١-١٦٨٢ يزهو عند عودته إلى باتافيا أنه أمكن تهريب بضائع للتجارة الخاصة إلى اليابان تربو على تجارة الشركة. وبعد بضع سنوات وقعت فضيحة مدوية على أثر الإجراءات الصارمة التي اتخذتها السلطات اليابانية ضد التجارة المهربة في ناجازاكي، أفضت إلى اعدام ثمانية وثلاثين من اليابانيين وابعاد المسئول عن الميناء أندرياس كليجر إلى باتافيا مع أوامر تقضي بعدم عودته ثانية إلى اليابان وإلا نفذت فيه عقوبة الإعدام، وحدثت فضيحة مماثلة في البنغال خلال العام ذاته. وكان الأفيون السلعة المفضلة في التجارة الخاصة في البنغال حيث يمكن شراؤه بأسعار تتراوح ما بين ٧٠ و٧٥ روبية، ويبيع بأسعار تتراوح ما بين ٢٢٠ و٢٢٥ روبية في باتافيا. وفي عام ١٧٢٢ كان لدى زوار دكرون الحاكم العام ستة وعشرون شخصاً من بينهم أحد عشر أوروبياً يعملون أمناء مخازن، نفذت ضدهم جميعاً أحكام بالإعدام في

باتافيا بسبب التجارة المهرية. وفي عام ١٧٢١ استدعت ادارة الـ ١٧ الحاكم العام وعددا من كبار الموظفين وادانتهم بالتورط في أعمال عصابة للتهريب. بيد أن هذه الفضائح والاعلان عنها وعن عقوباتها لم تكن لتدوم غير وقت قصير لتعود تجارة التهريب الى الازدهار من جديد بين صفوف العاملين من مستخدمي الشركة سواء في القلاع أم في المحطات التجارية.

وان نيقولاس دي جراف، وآخرين ممن لهم أن يتكلموا عن ثقة ومسئولية في هذه النقطة، يزعمون أن رجال الدعوة والوعظ البروتستانت خدعوا الشركة كثيراً من هذه الناحية. وقد تكون بعض المزاعم جدية بالاهمال على سبيل انها من اساليب مناهضة رجال الدين، ولكننا إذا اسقطنا كل ثرثرة خبيثة سيبدو واضحاً للعيان ان التجارة الخاصة ازدهرت بين صفوف رجال الدين العاملين في الشركة على اختلاف مستوياتهم مثلما ازدهرت بين غيرهم، والملاحظ أن أخط الأثمين بارتكابها هم الموظفون أنفسهم المسئولون عن القضاء عليها ابتداء من رجال الجمارك الأوروبيين في باتافيا وفي غيرها الى العمال الأسبانيين العاملين في قوارب الحراسة التي ترافق تحميل وتفريغ السفن. لقد كان بالإمكان رشوة هؤلاء جميعاً على وجه التقريب دون التعرض لأي عقوبة على نحو ما وصف نيقولاس دي جراف كيف كان الراشي يلقي بالعملات الذهبية اليابانية في أيدي رجال الجمارك في باتافيا لا كرشوة بل كهدية على نحو يشبه كثيراً أسلوب الرشوة في هولندا الذي وصفه فرنسيكو دي سوسا كوتينو حين قال: «معدرة سيدي إذا كنت قد عكرت مزاجك. اعرف جيداً أن فخامتكم لستم من النوع الذي يقبل أي هدية. وهذا ليس إلا شيئاً بسيطاً للذكرى من أجل زوجتك المصونة وأطفالك الاعزاء».

ان التجارة الخاصة وما اقترن بها بالحثم من سوء استغلال للوظيفة كانت من الأسباب الرئيسية في انهيار الشركة الشرقية الهولندية في نهاية القرن الثامن عشر. وهو أمر من المسلم به وعبر عنه الساخرون بالكلمات التالية Vergaan Onder Corruptie أي: «انهارت بسبب الفساد». وليس

من المعروف عن يقين كم حجم الخسائر الفعلية التي خسرتها الشركة لهذا السبب. ويميل أحد المؤرخين لقصة هذه الشركة الى القول بأن عمليات إبدال متطلبات السوق الأوروبية وتغير الظروف في آسيا وزيادة عدد الشركات الأجنبية المنافسة هي المسئولة عن تقويض الوضع التجاري للشركة الشرقية الهولندية أكثر من مسئولية الرشوة والفساد بين موظفيها المتهمين بالغش والكسل وعدم الكفاءة. ويتعين أن ننظر بحذر وتحفظ إلى القول بأن السلع المهربة في السفن التجارية الهولندية المتجهة إلى أرض الوطن كانت في الغالب تربو من حيث قيمتها على الحمولات المنتظمة للشركة. ولكننا نعرف أن مجلس إدارة الـ ١٧ بدأ منذ عام ١٦٢٩ يشكو من أن الحال في المقاطعات المتحدة تزخر بالسلع المهربة عن طريق سفن شركة الهند الشرقية الهولندية حتى باتت تمثل عقبة أمام الغرف الإقليمية .. وحالت دونها والوفاء بالحصص الرسمية المطلوبة منها. وفي أواخر القرن الثامن عشر زعم نقاد الشركة الشرقية الهولندية أن التجارة الخاصة والفساد المستشري بين مستخدمي الشركة في الشرق كانا أشد تدميراً من الممارسات المماثلة في إطار الشركة الشرقية الانجليزية. ولكننا نعود لنقول أن مثل هذا الزعم يعوزة الدليل مع عدم وجود تقديرات دقيقة وموثوق بها عن حجم التجارة الخاصة في كل من الشركتين. والجدير بالذكر أيضاً كما أكد الاستاذ الجامعي كولهااس أن الفساد داخل الشركة الشرقية الانجليزية ربما بلغ اقصاه خلال الفترة التي شهدت فيها هذه الشركة أوج ازدهارها (واقعيًا او ظاهريًا) وذلك خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

ومن نافلة القول أن التجارة الخاصة راجت وازدهرت بين مستخدمي شركة الهند الغربية الهولندية تماما مثلما حدث بين مستخدمي شركة الهند الشرقية وللاسباب الرئيسية نفسها بقصور الرواتب الشهرية، وخطر الحياة في المناطق الاستوائية، وإغراء الفرص السهلة بالثراء السريع بالوسائل غير الشريفة، والافتتاع العام بأن الوصايا العشر لا تصدق على جنوب خط

الاستواء». وأصدر مديرو الشركة الغربية، مثل نظرائهم في الشرق، القواعد واللوائح التي تحظر الاتجار في السلع المهربة، وهددوا المخالفين بالوقوع تحت طائلة أقصى العقوبات إذا ما ضبطوا. ولكن ثبت أن هذه العقوبات غير رادعة ولا جدوى منها على امتداد شواطئ المحيط الاطلسي تماما مثلما كانت غير رادعة على امتداد شواطئ المحيط الهندي وبحر الصين. وهنا أيضا ومثلما حدث في الشركة الشرقية الشقيقة ثبت أن موظفي الجمارك المسؤولين عن تنفيذ لوائح وقوانين حظر التهريب في شركة الهند الغربية الهولندية هم تحديدا أسهل العناصر قابلية للرشوة وجعلوا من انفسهم مطية للفساد والرشوة على يد كل انسان وبكل الوسائل».

وطبيعي أن تقسيم مهام العمل بين العاملين في أي مؤسسة يختلف حسب حجم هيئة العاملين وأهمية المكان المنوط به أداء المهمة. مثال ذلك أن بعض الوكالات الصغرى في مولوفا لا يعمل بها غير واحد أو اثنين من الأوروبيين، بينما يبلغ عدد العاملين المئات في ميناء حصين أو مدينة بها حامية عسكرية. ويمكن أن نأخذ كنموذج لهذا: الخصائص التي أشار إليها دانييل هافارت في حديثه عن المحطات التجارية الهولندية الواقعة على ساحل كورو ماندل في عام ١٦٨٠ تقريبا والتي نلخصها فيما يلي: التاجر أو العميل الرئيسي هو الذي يتعامل مع التجار الهنود، يحدد الطلبات من المنسوجات، ويحتفظ بخزينة النقود ويتسلم الوارد من النقد المدفوع ويأذن للمستول عن الصندوق بدفع المبالغ المطلوبة. يأتي بعد ذلك في المرتبة ما يعرف باسم تويد Tweede أو النائب والذي يحتفظ بدفاتر الأستاذ للأعمال التجارية، ويراقب المخازن، ويساعد في التفتيش على جودة المنسوجات ويحرر كشوف التصدير. ويتعين أن يوقع الاثنان، التاجر الرئيسي ونائبه، على جميع الرسائل الصادرة. والتاجر الثالث، إن كان هناك ثالث، يضطلع بأي مهام أخرى ضرورية، وغالبا ما يتولى شراء السلع من المدن الداخلية. أما المساعدون والكتبة فيعملون تحت إشراف رؤسائهم. وكان مبدأ الرقابة المدنية هو حجر

الزاوية في الخدمة في كل من الشركتين، الهندية الشرقية والهندية الغربية. ويتولى المنصب الرئاسي دائماً وأبداً تاجر يحمل عادة رتبة «كبير التجار» Op-perkoopman حتى في المستوطنات التي تحرسها قلاع كبيرة وحاميات عسكرية قوية مثل قلعة زييلاندا في فورموزا، وقلعة بلجيكا في جزر باندا، وقلعة بوليكاك على ساحل كورومانдал وقلعة المينا في غينيا.

ولم يكن الهولنديون في الشرق، إجمالاً، معنيين ببناء القلاع والحصون أو ممن اشتهروا بها على نحو ما كان البرتغاليون قبلهم، إذ عمدوا إلى خفض حجم تحصيناتهم فور الاستيلاء عليها بهدف الاقتصاد في عدد أفراد الحامية ومدافعها ولا يبقى إلا ما هو ضروري فقط للدفاع عن أسوارها. وهذا هو ما فعلوه على سبيل المثال في كوتشين وكولومبو على الرغم من أنهم أقاموا بعض التحصينات المثيرة في فورموزا وفي جزر الباندا التي ظلت أطلالها موضع إعجاب حتى ستين أو سبعين سنة مضت. وأكثر قلاعهم تكلفة - وأقلها نفعاً في الملمات - قلعة نادرن في نيجاباتام (كوروماندل) التي كلفت الشركة حوالي مليون ونصف المليون جيلدر واشتهرت باسم «القلعة ذات الأسوار الذهبية». ولعل الشيء الأكثر أصالة من قلاعهم وحصونهم هو التأثير المعماري للأراضي المنخفضة عبر بحر الشمال والذي خلفوه في أماكن كثيرة استوطنوها في المنطقة الاستوائية. وخير مثالين على هذا باتافيا ورسيف. ولكنهم شقوا القنوات ومهدوا الطرقات التي تحف بها الأشجار. ويحدثنا دانييل هافارت عن المحطة التجارية المقامة في بوليكاك في عام ١٦٩٣ فيقول: «المدينة ذاتها ليست بالشيء الذي تعزف عنه النفس وهناك طرقات كثيرة لا يسكنها غير الهولنديين، حيث البيوت المبنية وفق الطراز الهولندي، وأمامها صفوف ثلاثة من الأشجار. ويستطيع المرء أن يتمتع نفسه بالسير الهويني نهاراً أو مساءً».

والتجارة بطبيعتها في المناطق الاستوائية تجارة موسمية في الأساس خاصة في آسيا حيث تسير السفن عبر الطرق الملاحية القديمة خاضعة

لتقلبات الرياح الموسمية. معنى هذا أن أغلبية المحطات التجارية تشتد بها كثافة العمل خلال الموسم التجاري. ولكن ما أن يتم تحميل وإبحار السفن حتى لا يبقى شيء هناك لعمله إلى أن يحين الموسم التالي. وطبيعي ألا يبقى التجار عاطلين بغير عمل خلال الفترة المسماة بالفترة الميتة أو خارج الموسم، وإنما يعملون في تجهيز وترتيب السلع غير المباعة حسب ما تسمح بذلك الفرصة، ويحاولون تجميع السلع وإعدادها للتصدير قبل أن تصل السفن مع حلول الموسم التالي. وكانت ساعات العمل في موانئ الترانزيت مثل باتافيا تبدأ من السادسة وحتى الحادية عشرة صباحاً، ثم من الواحدة حتى السادسة بعد الظهر وذلك منذ عام ١٦٢٠ إلى عام ١٧٤٠. وفي هذا العام تحددت ساعات عمل كبار المسئولين من السابعة وحتى الحادية عشرة صباحاً ومن الثانية وحتى الخامسة مساءً. وإن كان كثيرون منهم اتصفوا بالتراخي في الالتزام بالحضور على الرغم من التحذيرات المتوالية التي أصدرتها اليهم الحكومة. ولكن الحياة في بعض المراكز التجارية النائية وفي خارجها، لم تكن تربطها بالعالم الخارجي سوى روابط واهية بعد انتهاء الموسم التجاري، ومن ثم يمكن وصفها في عبارة واحدة اختصاراً بأنها أكثر مظاهر الحياة بلادة ووحشة. وسبق أن وصف ثنبرج وحشة الحياة اليومية في دشيما بعد إبحار السفن الهولندية من باتافيا في نوفمبر ١٧٧٥ وهو الوصف الذي ينطبق، مع وضع التغييرات اللازمة في الاعتبار، على الحياة في الوكالات الصغرى التي لا يقيم فيها ما لا يزيد على عشرة أوروبيين وفيما يلي وصفه لهذه الحياة.

الأوروبي الذي يبقى هنا، هو بصورة من الصور ميت ومدفون في ركن مظلم من أركان المعمورة، لا يسمع أي أخبار من أي نوع، لا شيء عن الحرب أو الكوارث والشروخ التي ابتليت بها البشرية وتعاني منها، ولا شيء من شائعات الداخل أو هموم الخارج تبهجه أو تؤذي سمعه. النفس هنا لا تملك غير ملكة واحدة هي ملكة التمييز (إن كانت تملك شيئاً على الإطلاق).

واسلوب الأوروبي في الحياة هو من نواح أخرى نفس اسلوب الحياة في انحاء الهند (أو آسيا) المختلفة، اسلوب يتسم بالبذخ وعدم الانتظام. وهنا مثلاً يحدث في باتافيا، تقوم كل مساء بزيارة الرئيس بعد أن تقطع الطريقين الرئيسيين مشياً على الأقدام جيئةً وذهاباً عدة مرات. وتمتد هذه الزيارات المسائية عادة من الساعة السادسة وحتى العاشرة، وأحياناً إلى الحادية عشرة أو منتصف الليل. وتمثل هذه الزيارات اسلوباً معاً جداً في الحياة وإنما يفعله الناس لا شيء إلا لأنهم لا يملكون وسيلة أخرى لقضاء وقت فراغهم غير استخدام تدخين البايب في تراخ وكسل.

وبعد عشرين عاماً كتب الكابتن روبرت بيرسيغال عن حياة الهولنديين في سيلان فقال إنهم يستهلون يومهم بشراب الجن والتبغ، ويختتمونه بالتبغ وشراب الجن. وفيما بين ذلك يأكلون بنهم، ويتسكعون هنا وهناك، ويستسلمون لغفوة القيلولة، ويتبادلون بعض الصفقات المحدودة. ولم يكن أسلوب حياتهم ليختلف اختلافاً بيناً في القلاع المقامة على ساحل الذهب وفي بيوت نظار المزارع في سورينام خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر.

لقد كان غليون التبغ والزجاجة رفيقين لا ينفصلان عن الهولندي فيما وراء البحار مثلاً هو في المقاطعات المتحدة. وفي هذا كتب جان بيرتسون كوين في عام ١٦٢٠، ولم يكن يشير فيما كتب إلى الماء حين قال: «أمتنا إما أن تشرب أو تموت». وردد كلماته ريجكوف فان جوينز حاكم سيلان الهولندية الذي لاحظ أسفاً في عام ١٦٦١: «تبين لنا، وليساعدنا الرب في هذا، أن رجالنا يستحيل عليهم تجنب الشراب». وفي عام ١٦٧٤ تكشف أن ثلاثة وخمسين من بين ثلاثمائة وأربعين من أصحاب الدخول العالية من سكان باتافيا

* C. P. Thunberg; Travels in Europe, Africa and Asia; 1770-1799; Val. III, PP. 63-4.

يعملون أصحاب حانات أو تجار خمر، أي بعبارة أخرى أن واحدا من بين كل ستة أو سبعة من سكان المدن الذكور الذين لا يعملون في وظائف تابعة مباشرة للشركة يحترفون مهنة بيع الكحوليات. وأرسل مجلس إدارة الـ ١٧ رسالة الى حاكم عام ومجلس باتافيا في عام ١٦٤٧ يقول فيها أنه يتعين على الهولندي العادي أن ينفق آخر درهم يملكه لشراء قدح من البيرة. وعلم المجلس ان الانجليز كانوا يبيعون البيرة بأسعار باهظة للغاية في باتافيا وإن لم يكن بالامكان تصديق هذه المعلومات. وقيل إذا صح هذا فإنه يعني فقط أن رجالنا لا يسعهم أن ينسوا جو أرض الآباء». وفي عام ١٦٤٨ وصف البعض الكالفنيين أعضاء كنيسة نيو امستردام والبالغ عددهم ١٧٠ عضوا بأنهم «يكادون يجهلون تماما أمور الدين ونزاعون الى الافراط في الشراب، وهو نزوع تيسره له تماما الحانات الموجودة هناك والتي يبلغ عددها سبع عشرة حانة». وفي عام ١٦٣١ قدم زائر انجليزي لزيارة جان كلايزون فان كامين ووصف الزائر الانجليزي مضيفه بأنه «الهولندي الوحيد المقتصد في شرب الخمر، دون جميع من قابلهم». وهذا لا ينفي الشواهد الكثيرة المعاصرة التي تؤكد أيضا ان الانجليز كانوا من عشاق باخوس إله الخمر شأنهم في هذا شأن الهولنديين. ولكن دانييل هافارت الذي خدم ثلاثة عشر عاما في المحطات التجارية الهولندية المقامة في كوروماندل (١٦٧٢-١٦٨٥) ينكر ساخطا ان مواطنيه كانوا مدمنين على الخمر أكثر من الانجليز في الهند. وها هو وليام بوسمان، صديق هافارت والذي كان يعمل في غرب أفريقيا سببها الرئيس «إسرافهم في معاورة الخمر» وبخاصة شراب لعين شيطاني يعرف باسم بانتش. ولكن بوسمان يعترف بأن الافراط في الشراب بين الهولنديين المقيمين في المحطات التجارية في غينيا «رائج للغاية وكلما زاد راتب المرء كلما زاد ظمأه للشراب».

ولا شيء أيسر علينا من أن نورد الكثير والكثير من هذه الاخبار التي تضمنتها رسائل رسمية وخاصة كما تضمنتها كتب تعالج حياة الأوروبيين

في المنطقة الاستوائية، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، ناهيك عن الإحصائيات التي تكشف بوضوح ضخامة استهلاك النبيذ والبراندي والعرقى والجن. ولا أحسب أننا نبالغ إذا قلنا إن أغلبية الرجال من الهولنديين والانجليز الذين ماتوا في المنطقة الاستوائية إنما لقوا حتفهم بسبب إدمان الشراب حتى وإن هبأوا بإدمانهم الفرصة للخسارة الفادحة في الأرواح نتيجة الإصابة بالمalaria والديزنتاريا. واليك سطران منقوشان على شاهد قبر منذ القرن السابع عشر في كورومانديل، يشيران إلى هذا الواقع الاليم، ولا يميزان بين الانجليز والهولنديين من حيث إفراطهم القاتل في شرب الخمر.

الانجليز والهولنديون أقاموا هنا
وعبوا شراب التودي بسبب نقص البيرة

صفة أخرى اتصفت بها حياة الهولنديين في القلاع والمحطات التجارية في المناطق الاستوائية التابعة للشركتين الهندية الشرقية والهندية الغربية الا وهي الاهتمام المفرط من جانب كبار موظفي الشركتين بالوضع الوظيفي الرسمي وبالمكانة الاجتماعية. لقد كان الوعي الطبقي متطوراً جداً بين الهولنديين في بلددهم، ومن عهد قريب كانت المرأة المتزوجة تخاطب بأحدى العبارات التالية ميغرو Mevrouw أو جيفرو Jufrouw أو فراو Vrouw وذلك حسب وضع زوجها إذا كان مثلاً طبيباً أو بقالاً أو عاملاً. ولكن فيمتلكات الشركتين فيما وراء البحار عامة، وفي باتافيا خاصة، كان التمييز الطبقي والراتب الاجتماعية مبالغاً في تطبيقها والالتزام بها على نحو غريب، خاصة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. والملاحظ أن السلم الهرمي الوظيفي في شركة الهند الشرقية الهولندية كان متدرجاً بطريقة صارمة مع الالتزام به بدقة شديدة كما كان متبعاً في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وكان التمييز على أساس المنزلة والأسبقية في حياة الأوروبيين في باتافيا. ويشير إلى هذا ستافورينوس في عام ١٧٦٨ فيقول «كل فرد رسمي وشكلي بصورة جامدة ويشعر أنه يحيا دفاعاً ضد أي انتهاك لامتيازاته،

وكان سعادته ويؤسه رهن الالتزام بها. ونجد ملاحظات أخرى كثيرة مطابقة لهذه جاءت على السنة زائرين آخرين زاروا باتافيا خلال القرن الثامن عشر. لقد كانت كل صغيرة وكبيرة في الحياة يجرى حسابها بدقة وفقا للمستوى الوظيفي والمنزلة الاجتماعية هناك ابتداء من لباس مستخدمي الشركة (وكذلك لباس زوجاتهم) وعدد المركبات التي يحق لكل منهم أن يستخدمها ودرجة الزينة المسموح بها وغيرها من مئات الأمور الشخصية. وتحدد كذلك بدقة متناهية أوضاع الأسبقية عند الاستقبال، وفي حفلات الغداء والجنائز. وأدت هذه المسائل إلى إثارة مشكلات ومشاحنات شخصية بالغة القسوة كلما حدث انتهاك لأي من هذه الترتيبات.

وإذا كان لنا أن نثق في شهادة الكثيرين من النقاد القساة الذين لا يرحمون فإننا نستشهد بالسيدات اللائي كن نزاعات إلى تأكيد أي امتياز والتشبهت بأي منصب أو ميزة للأزواج. ويحكى لنا ستافورينوس فيقول «يحدث كثيراً أن تلتقي سيدتان متكافئتان من حيث المنزلة، وتقابل كل منهما الأخرى وهي في عربتها وإذا بكل منهما ترفض التنازل وإفساح طريق للأخرى حتى وإن اضطررتا إلى البقاء في الطريق على هذا النحو ساعات. وحدث قبل أن أغادر باتافيا بوقت غير طويل أن التقت في الطريق سيدتان هما زوجتان لاثنين من رجال الدين وتقابلت عربتهما صدفة وجها لوجه في طريق ضيق. ولم تشأ أي منهما أن تفسح الطريق للأخرى. بل عطلتا المرور ربع ساعة كاملة. وتبادلتا خلالها أقذع الصفات وأقسى النعوت مثال ذلك «العاهرة» و«ابنة العبد». واتسم السباب بينهما بالحدة والقسوة دون رحمة. ويبدو أن أم إحدى هاتين السيدتين كانت عبدة فعلاً، والثانية، حسب ما قيل لي، لم تكن بعيدة عن الشبهات بحيث تستحق الصفة الأولى: وأخيراً سارتا جنباً إلى جنب وكل منهما تكيل للأخرى السباب إلى أن غابتا عن الأنظار. بيد أن هذا الحدث كان مناسبة لاتخاذ إجراء بعد عرض الأمر على المجلس، وجرى تنفيذ الإجراء بكل قسوة والالتزام.

قسمة أخرى من قسّمات الحياة في باتافيا، بل ومن القسّمات المميّزة للمستوطنات الأوروبية في المناطق الاستوائية بدرجة أو بأخرى. وتعني بها أهمية الكشف عن مظاهر الأبهة والاحتفال، بهدف التأثير أساساً على السكان الوطنيين المحليين لتأكيد ثروة الرجل الأبيض وسطوته. وسبق أن استن الهولنديون هذه السّنة في «جوا الذهبية»، حيث كان نائب الملك يعقد البلاط في مظاهر أبهة يحسده عليها ملوك أوروبا. وهذا هو النهج الذي اقتدى به الهولنديون في باتافيا، والانجليز في كلكتا. وسرعان ما ذوت وتلاشت كل مظاهر البساطة الكالفنية في هذه الأجواء. ونجد حاكماً عاماً يتظاهر بالتقوى مثل بطرس البرتوس فان دير بارا (١٧٦١-١٧٧٥) ويعيش في مظاهر ثراء وتفاخر مثيرة. إذ كلما خرج الحاكم العام في مركبته أحاط به وتبعه ركب طويل من رجال تزينوا بلباس فاخر، وعديد من الحراس. ويتعين على كل من يمر به الحاكم في الطريق أن يترجل تاركاً مركبته لينحني إلى درجة الركوع أو تطاطيء رأسها إن كانت سيدة) وقد حسر رأسه، إلى أن يمضي الركب. وكذلك الحال بالنسبة إلى رؤساء المراكز التجارية، بل والمراكز التجارية الثانوية، إذ يظهر الرؤساء في الطريق العام وهم في أزهى لباس مع قارعي الطبول وأكثر من اثني عشر حارساً من الجنود الهولنديين.

ولا شك أن حياة الأبهة والترّف التي أسلفنا وصفها كانت قاصرة على بضع مئات من التجار وكبار موظفي الشركة. ولم يكن يشارك فيها صفار الكتبة والجنود والبحارة ممن تحدثنا قبلاً عن بعض مصاعب حياتهم. ويمكن أن نضيف هنا أن العقوبات المفروضة على الجنود العاملين في خدمة الشركة اتصفت بالقسوة والغلظة شأن العقوبات المطبقة أيضاً على البحارة. وشاعت إلى حد ما معاقبة رجل مدى الحياة بآلة تعرف باسم «الحصان الخشبي» أو غير ذلك من عقوبات وجشية قاسية. وفي عام ١٧٠٦ قرر الحاكم العام والمجلس الأقلّال من استخدام أسلوب «الحصان الخشبي» والاكتفاء بالجلد مستقبلاً. ثم صدر قرار بعد ذلك بالآلا توقع عقوبات مخزية

وشافئة على الجنود أمام المواطنين «حفاظا على هيبة الأوربيين»، ولكن أغلبية الجنود المرتزقة العاملين في خدمة شركة الهند الشرقية الهولندية وكذلك في خدمة شركة الهند الغربية الهولندية ظلوا يلقون معاملة قاسية شأن العبيد الزنوج. ولعل خير ما يوضح لنا ذلك تلك الشهادة التي أفضى بها ثنبرج إذ قال: «أدركت الآن أيضا السبب في تلك المعاملة القاسية التي يعامل بها الأوروبيون جنودا وبحارة، بحيث انها أشد. قسوة من المعاملة التي يلقاها العبيد أنفسهم. فبالنسبة للعبيد نجد مالكم لا يحرص فقط على التأكد بأنهم يلبسون ويطعمون جيدا بل والتأكد إذا ما مرضوا بأنهم يلقون رعاية طبية ملائمة، أما الجنود والبحارة فليحدث لهم ما يحدث، عراة أم يرتدون ملابس ممزقة أو غير ملائمة. وإذا مات أحدهم تسمع عادة عبارة ان الشركة تأتي بغيره مقابل تسعة جلدرات».*

وإذا كان هناك عدد غير قليل من جنود الشركة قد نشروا مذكراتهم عن الحياة العسكرية في الشرق، فضلاً عما توفر لدينا من معلومات جيدة عن حياة التجار والموظفين والبحارة بفضل أدب الرحلات آنذاك ومن المراسلات الخاصة والرسمية، إلا أننا لا نعرف غير النزر اليسير عن فريق آخر من مستخدمي الشركة، ألا وهم من يعرفون باسم Ambachtslieden أو الحرفيين المهرة والعمال اليدويين. ويبدو أن الهولنديين استخدموا على نطاق واسع الحرفيين الأوروبيين المهرة في جزيرة الهند الشرقية أكثر مما فعل البرتغاليون أو الانجليز. وأغلب هؤلاء الناس هم في الأصل نجارو سفن أو مختصون بسد حوز المراكب أو صناعة وتركيب الأشرعة وما يمكن ان نسميهم اليوم عمال اصلاح وترميم السفن. وكان لكل حرفة صناعية من يمثلها بين مئات الحرفيين الأوروبيين العاملين في باتافيا منذ عام ١٦٨٢ وما بعده. إذ كان هناك نجارون ومشتغلون بحفر وتشكيل الخشب، وصناع اثاث

* C. P. Thunberg; Travels Val. I; p. 277.

وحدادون وصناع أقفال وصناع أسلحة وسباكون ونحاتون وعمال بناء وعمال تلميع ونقاشون وأساكفة وخياطون وصباغون وجوهريون وغير ذلك من حرف ويعيش أبناء كل حرفة ويعملون ويتجمعون معا تحت رئاسة عريف أو رئيس طائفة يتولى مسئولية الاشراف على العمال الأوروبيين ومراقبة عبيد الشركة الذين يتدربون على أيدي العمال الأوروبيين ويعيشون بجوارهم. وأصبح أكثر هؤلاء حرفيين ذوي مهارة عالية جداً. وجدير بالذكر ان الاثاث المصنوع من خشب الأبنوس حسب الطراز الباروكي إنما نحته عبيد من عبيد شركة الهنود والاندونيسيون وتميز بمستوى فني وتقني رفيع جداً. ومثل هؤلاء الحرفيين المتميزين من العبيد كانوا ينعمون بلباس وطعام وسكن أفضل من غيرهم من العمال العبيد، وازداد عددهم بمضي الأيام حتى أصبحوا أكثر عددا من الأوروبيين. وبلغ عددهم في باتافيا وحدها عام ١٧٩٥ حوالي ٤٠٠ حرفي ماهر. وضمت العديد من المستوطنات الهولندية الكبرى، خاصة المحطات التجارية في كوروماندل وسيلان وعمالها الحرفيين الخاصين بها حيث يعمل الحرفيون الأوروبيون الآسيويون معا تحت إشراف رئيس العمال الهولندي. وكان هناك كذلك عمال وحرفيون أوروبيون في القلاع والمحطات التجارية في المناطق الاستوائية التابعة لشركة الهند الغربية الهولندية. ولكنهم لم يكونوا بالكثرة الواضحة في الشرق، فضلاً عن أن مهارتهم الفنية لم تكن بنفس القدر من الاتساع والتباين.

وبالإضافة الى الحرفيين الذين تستخدمهم شركة الهند الشرقية الهولندية كان هناك عدد من الحرفيين الذين يعملون لحسابهم الخاص. وهؤلاء هم عمال أوروبيون أتوا الى الشرق للعمل في خدمة الشركة، ولكنهم بعد أن انتهت مدة خدمتهم المتعاقد عليها افتتح كل منهم لنفسه «دكاناً»، ملكاً شخصياً له. واستخدموا بدورهم العمال المهرة من العبيد، واتسع نطاق هذه المشروعات الخاصة على مدى القرن الثامن عشر. وسانده الكثيرون من كبار موظفي الشركة في تحد لرغبات مجلس ادارة الـ ١٧. وشيئاً فشيئاً أصبحت هذه

المشروعات الخاصة منافساً ناجحاً للحرفيين العاملين لدى الشركة. ونشط أيضاً الحرفيون الصينيون خاصة في باتافيا، حيث ذاع صيتهم واشتهروا بالصناعات الخشبية الجميلة. ولكن أفضل الأعمال من هذا النوع كان يصنعها عمال سنها ليون أحرار وحرفيون من التاميل في سيلان على ساحل كورومانديل. وشهدت هذه المنطقة أجمل نحت خشبي للأثاث الهندي الهولندي حسب الطراز الباروكي حتى أنه تفوق كثيراً على أفضل ما يصنعه العمال العبيد التابعون للشركة. ولقد كانت مشكلة التجار البيض الأحرار والعمال المهرة المنافسين للنظام الصناعي والتجاري الخاص بالشركة مشكلة دائمة ومستعصية. ولعل من الأفضل أن نتناولها في ارتباط بمخططات أجهزة الاستعمار الأبيض في المناطق الاستوائية، وهو ما سوف نناقشه في الباب التالي..

الباب الثامن

الاستيعاب والفصل العنصري

يحدثنا دافيد هاناي في اشارة مثيرة إلى رواية De Stille Kracht للروائي الهولندي كوبيروس Couperus فيصف الرواية قائلاً: «إنها دراسة مقنعة عن تلك القوة الخفية للشرق التي تنفذ إلى داخل الاوروبي وتحله، ذلك الاوروبي الذي لا يستطيع او لن يقف بمعزل عن أعراق الجنس البشري ويسمو عليها، والتي أيا كانت ميزاتها الطبيعية، لن تتألف مع ميزاته بل تقسدها وتدمرها. إن هذا التعريف لمعنى الفصل العنصري، والدفاع عنه، جاء قبل تطبيقه الرسمي في جنوب أفريقيا بزمن طويل، ويعكس مدرسة فكرية يمكن تتبع تاريخها إلى الأيام الأولى للاستيطان الاوروبي في المنطقة الاستوائية. ولكنه يبدو قويا عميقا بين الهولنديين والانجليز أكثر منه عند البرتغاليين والاسبان الذين سبقوهم إلى هذه المنطقة. والاعتقاد بأن الرجل الأبيض، سواء اكان تاجراً أم بحاراً أم مستوطناً، يتعين عليه أن «يسمو بنفسه ويقف بمعزل» عن الأعراق الملونة التي يعيش بين ظهرانيها ويتحرك بين أبنائها، وأن يكون له كيانه الخاص المميز إنما هو اعتقاد يفيد ضمناً، بحكم طبيعته، أن النساء البيضات عليهن أن يهاجرن بأعداد كافية إلى المناطق الاستوائية في صحبة بعولتهن. بيد أن هذا كان أمراً تحجم عنه أكثرهن. كما وأن الشركات الكبرى سواء الهولندية أو الانجليزية أو الفرنسية لم تضع تنظيماً يشجع هجرة النساء زد على هذا انه كان هناك دائماً كثيرون ممن يؤكدون أن المرأة البيضاء نادراً ما تستطيع التأقلم مع المناطق الاستوائية. ولهذا اعتقد هؤلاء أن الأمل الوحيد في إقامة وتأسيس مجتمعات مستقرة ومضمون ولاؤها في تلك المناطق هو تشجيع التزاوج المتبادل أي الزواج بنساء مواطنات من بنات تلك المناطق، وهو ما يفضي إلى اعتناقهن

المسيحية -أي، بعبارة أخرى، إنها سياسة للاستيعاب بدلاً من الفصل العنصري.

وعلى الرغم من أن المديرين الأوائل للشركتين الهولنديتين الشرقية والغربية كانت لديهم خبرة قرن كامل هي حصاد تجربة شبه جزيرة أيبيريا والتي يمكن الاسترشاد بها في هذا الصدد، إلا أنهم فيما يبدو لم يولوا الأمر أي اهتمام وقت صياغة الاطار العام للاتحة كل من الشركتين. وظل موقف المديرين من مسألة الهجرة مذبذباً حتى علمتهم الخبرة أن لا أمل في أن تهاجر نساء هولنديات محترمات بأعداد كافية إلى البلدان الاستوائية التي يظن انها بلدان تقصر عمر من نشأوا في مناخ المناطق الشمالية. كذلك فإن المشاق الحادة للحياة على متن البواخر في الرحلات الطويلة كانت عائقاً كبيراً. وقد تفاقم الوضع أكثر بعد ان طالت مسافة الرحلات البحرية بالمرور حول رأس الرجاء الصالح. وأخيراً فإن من الواضح أن الظروف التي منعت كثيرين من الهولنديين من أبناء الطبقتين العليا والمتوسطة من المشاركة في الخدمة في الشركتين الهولنديتين الشرقية والغربية، كانت لا تزال تمثل أكبر عقبة في سبيل هجرة نسائهم. وكما ان أغلبية الرجال العاملين في الشركتين كانوا ممن لا مورد رزق آخر لهم، كذلك فإن معظم النساء اللاتي ذهبن إلى المناطق الاستوائية إنما ذهبن استجابة لنوازع المغامرة بحثاً عن الرزق بأي وسيلة أكثر مما هو استجابة لنوازع اخلاقية.

ومنذ عام ١٦١٢ نصح بيتر بوث، أول حاكم عام لجزر الهند الشرقية، مجلس ادارة الـ ١٧ بالكف تماماً عن السماح لمزيد من «النساء المستهترات» بالهجرة من ارض الآباء «خاصة وأن أعدادا كبيرة جداً منهن موجودات هنا بالفعل». وان هؤلاء النسوة يعشن حياة شائنة غير مهذبة مما. يشكل عارا خطيراً على امتناء. ودعا بوث الى الزواج بمواطنات أسوة بما فعل من قبل الرومان والبرتغاليون كبديل أفضل. وأضاف قائلاً، موضحاً اقتراحه، ان النساء المسلمات لن يكنَّ عرائس ملائعات، لانهن يعمدن إلى إجهاض أنفسهن

والتخلص من أي طفل يحملنه عن طريق زواجهن من رجال مسيحيين. ولكنه
حث على الزواج بنساء «وثنيات» أو نساء من بنات أمبويانا اللاتي تحولن إلى
المسيحية. ونجد اقتراحات أخرى مماثلة على لسان عديد من موظفي شركة
الهند الشرقية الهولندية. وفي عام ١٦١٢-١٦١٣ خول مجلس الـ ١٧ للحاكم
العام ومجلسه السماح ببقاء المتزوجين من الرجال الذين انهموا مدة تعاقدهم
للعمل في الشرق. وسمحت لهم السلطات المسئولة بالاتجار في بعض السلع
المحددة مثل الأرز والساغو والماشى وهي السلع التي لا تؤثر على احتكار
الشركة للتجارة المربحة في سلع بعينها مثل التوابل. وكان الأمل معقوداً على أن
يؤدي هذا إلى خلق طبقة برجوازية حرة مماثلة لفئة الكاسادو Casados (أي
الرجال المتزوجون) أو المورادور (أي المستوطنون) في مستعمرات
الامبراطورية البرتغالية ويشكلون اضافة للحاميات التابعة للشركة في وقت
الحرب. وكان المقرر أن يبقى هؤلاء البرجوازيون الأحرار تابعين تبعية كاملة
لموظفي الشركة وخاضعين لقواعدها ولوائحها. ويقتصر وجودهم في مولوقا
قط. وسمح بعد ذلك بوجودهم في باتافيا وفي أماكن أخرى، خاصة في ملقا
وسيلان.

وفي عام ١٦١٧ أصدر مجلس ادارة الـ ١٧ قرارا يحظر على سكان المدن
البرجوازيين الزواج دون موافقة السلطات المحلية للشركة. وإن ليس لهم أن
يتزوجوا إلا بنساء آسيويات أو مولدات «آسيويات أوروبيات» شريطة أن يكن
قد تم تعميدهن مسيحيات أو تحولن إلى العقيدة المسيحية، وأن يكون
أطفالهن «وكذا عبيدهن حسب الامكان» قد نشأوا على العقيدة المسيحية.
وصدر بعد ذلك قرار ينص على ضرورة أن تكون هذه الزوجات على دراية
جيدة باللغة الهولندية دون الاقتصار على اللغة البرتغالية وحدها التي كانت
اللسان الأوروبي السائد في سواحل آسيا على مدى ثلاثة قرون. وفرضت
الشركة قيوداً صارمة على حصولهم على الذهب أو الأحجار الكريمة، وعلى
تحويل رؤوس أموالهم إلى أوروبا. ولم يكن مسموحاً لسكان المدن الأحرار

المتزوجين بأسىويات بالعودة إلى أوروبا، بل وإن أولئك الذين تزوجوا بنساء بيض ليس لهم أن يحملوا أكثر من حقبة واحدة فيها ملابسهم وشئونهم الخاصة عند السفر على متن سفينة متجهة إلى أرض الوطن. وفي عام ١٦٥٠ تجدد الحظر عند السفر على متن سفينة متجهة إلى أرض الوطن. وفي عام ١٦٥٠ تجدد الحظر المفروض على النساء الملونات والذي يمنعهن من السفر إلى أوروبا ثم أعيد تجديده في عام ١٧١٢. ولكن على الرغم من تجديده مرتين إلا أنه حدث تراخ في تنفيذه بالنسبة لبعض الحالات الفردية. وفرضت السلطات أيضاً قيوداً كثيرة على الإقامة ووسائل العيش والارتزاق وسلوك سكان المدن الأحرار، حتى أن صفة «أحرار» ظلت صفة على غير موصوف طوال الفترة التي سادت فيها سلطة الشركة. إذ كان سكان المدن هؤلاء دون موظفي الشركة من حيث الظروف المواتية المحيطة بهم في جميع المجالات حتى في مجالات التهريب والتجارة الخاصة.

ومعظم سكان المدن الأحرار هم من التجار والكتبة والجنود والبجارة الذين انتهت مدد تعاقدهم مع الشركة، ولم يطرأ أي تحسن ملحوظ على مسار حياتهم غير المنتظم بعد الزواج، هذا إذا أخذنا بما ذهب إلى الشكاوى المتكررة على لسان الحكام المتعاقبين. فقد زعم الحاكم العام رينست في عام ١٦١٥ أن «حالة المجتمع في بلادنا «يتزوجون» بحالة المجتمع في جزر الهند الشرقية». وبعده بقليل زعم كل من لورنس رايل وستيفن فان دير هاجن أن الأغلبية العظمى من سكان المدن الأحرار (بغير زوجاتهم) هم سكيرون غارقون في ملذاتهم حتى الآن، بحيث لا يقبل أي أب آسيوي محترم أن يزوج ابنته بأحدهم - أسوة بما فعلوا في مولوكا مع البرتغاليين الوقورين الذين أتوا قبل الهولنديين. وسكان المدن غير المتزوجين متهمون أيضاً بالتورط في أعمال القرصنة والاتجار مع الانجليز ومع غيرهم من منافسي الشركة، فضلاً عن تهريب التوابل وغير ذلك من السلع المحظور الاتجار فيها.

وإن مواطن الضعف الحقيقية أو المزعومة التي كان يعاني منها سكان

المدن العزاب حفزت الكثيرين من كبار المسئولين على تشجيع هجرة الزوجين معا أو الأسرة جميعها من الأراضي المنخفضة، باعتبار ان هذه هي السبيل الوحيدة، لبناء مجتمع هولندي مستقر ويمكن الاعتماد عليه في الشرق. وتحمس كوين لهذه السياسة في عام ١٦٢٢ ودعا إلى تنفيذها. وظن ان من اليسير نسبياً تنظيم هجرة واسعة إلى جزر الهند الشرقية والغربية. وأعلن في حماس وتفاؤل قائلاً: «إن هناك مكاناً في جاوة الغربية يسع مئات الآلاف». وأضاف إلى ذلك قوله: «وإن التربة خصبة على نحو فريد، والمياه عذبة طيبة، والهواء صحي والمناخ معتدل والبحر غني بالأسماك، والأراضي الزراعية ملائمة لرعي كل أنواع الماشية». وشارك كوين الحكام السابقين عزوفهم وازدراءهم لحالة الضعة التي يتصف بها سكان المدن الأحرار أو غير المتزوجين المعاصرين له، وأكد على الحاجة إلى تشجيع الأسر من سكان المدن المشهود لهم بحسن الخلق على الهجرة من الأراضي المنخفضة بممتلكاتهم. وانتقل حماسه مؤقتاً إلى مجلس إدارة الـ ١٧ الذي حاول تشجيع وحشد الأسر الملائمة وحثها على الهجرة إلى الشرق، غير أنه لم يجد استجابة جديرة بالذكر.

ولكن حصار سوسوهانان أو سلطان ماتارام لباناتافيا في عام ١٦٢٨ وارتفاع نسبة الوفيات بين الهولنديين بسبب الملاريا والديزنتاريا وغيرها من أمراض المنطقة الاستوائية اقنعت بالضرورة كوين بأن تفاؤله بشأن جاوة الغربية كمكان ملائم لاقامة الأوروبيين لم يكن في محله على الإطلاق. علاوة على هذا فقد بدا واضحاً أن الأوروبيين من سكان المدن الأحرار لم يكونوا أنداداً لمنافسيهم من التجار الصينيين. ثم إن عمداء الأسر الثرية أو الميسورة في المقاطعات المتحدة لم يكن لديهم أي حافز للهجرة إلى المناطق الاستوائية إذ كان بالإمكان أن يجنوا أرباحاً ويدخروا مالا من التجارة الشرقية عن طريق الاستثمار في شركة الهند الشرقية الهولندية (بل وشركات الهند الشرقية الأجنبية) وهم على أرض الوطن دون حاجة إلى السفر. أما الفقراء

الكادحون» وأغلبهم ممن لا يجد عملاً داخل أرض الوطن، فقد أثروا البحث عن الرزق أو الثروة في بلدان أقرب إلى أرض الوطن بدلاً من أن يجشموا أنفسهم عناء السفر في رحلات قاسية إلى الشرق الأقصى. وهكذا فإن العناصر التي كان من المتوقع لها أن تهاجر اقتصرت على أولئك الذين قبلوا الخدمة في الشركة والعمل بها تجاراً أو جنوداً أو بحارة. ولم تكن في نية معظم هؤلاء أن يقضوا بقية حياتهم في جزر الهند ولكنهم عقدوا العزم على العودة إلى أرض الوطن بأسرع ما يمكن. وفي هذا الصدد نجد أن الهولنديين على النقيض تماماً من أسلافهم البرتغاليين، وكذا على النقيض من معاصريهم، إذ عمد هؤلاء وهؤلاء إلى أن يضربوا بجذورهم عميقة كبناة لمستعمراتهم، والبقاء فيها. وما هو جوهان سار. وهو عريف بالجيش، يكتب بعد سنوات من الخدمة ضد البرتغاليين في سيلان فيقول عنهم في عام ١٦٦٢: «حيثما حلوا نجدهم عاقدين العزم على البقاء بقية حياتهم، ولا يفكر أي منهم أبداً في العودة ثانية إلى البرتغال. ولكن الهولندي ما إن يصل إلى آسيا حتى يقول في نفسه: بعد أن تنتهي سنوات خدمتي سأعود فوراً إلى أوروبا. وأخيراً وليس آخراً فإن مجلس إدارة الـ ١٧ كان عازفاً عن ترك التجارة بين موانئ آسيا مفتوحة على مصراعها على أي مستوى كان لسكان المدن الأحرار وفقاً لمشورة بعض مؤيدي بناء المستعمرات. وإن القيود المعوقة التي فرضها المجلس على النشاط التجاري لسكان المدن كانت كامنّة للحيلولة دون نشوء مجتمع مزدهر.

وثبت فشل الخطط التي استهدفت تشجيع الاستيطان وتنمية مجتمعات زراعية هولندية في المناطق الاستوائية. إذ أحجمت أسر المزارعين، لأسباب مفهومة، عن الهجرة من الأراضي المنخفضة إلى هذه الأنحاء غير المألوفة وغير الصحية. ثم إن الجنود والبحارة والكتبة الذين انهموا مدد تعاقدهم لا يصلحون لفلاحة التربة الاستوائية. وليس بإمكانهم مناقشة الصينيين الذين يجيدون زراعة الخضراوات للسوق وعرفوا كيف يستقرون سريعاً في باتافيا

وفي غيرها، تماماً مثلما عجزوا عن المنافسة الفعالة مع العمال الآسيويين المهرة، سواء منهم الأحرار أم العبيد، وقد كانوا كثيرين في مجال التجارة والحرف الفنية. والحقيقة أن أكثر الدعاة المتحمسين من أجل إنشاء مزارع أوروبية في المناطق الاستوائية لم يدر بخلداهم أن الفلاح الأوروبي المهاجر سوف يقلح التربة بنفسه، وإنما سيكتفي بإعطاء تعليماته ويشرف على العمال من الصينيين أو العبيد الذين يتعين عليهم العمل حسب توجيهاته. بيد أن جميع الخطط التي استهدفت تنفيذ هذا الاقتراح لم تجد سبيلاً إلى التطبيق العملي في المناطق الواقعة شرق رأس الرجاء الصالح، وواقع الأمر أن المهنة الوحيدة التي اضطلع بها سكان المدن الأحرار وأبدوا إزاءها حماساً ملحوظاً هي العمل أصحاب حانات. وهذا هو ما بدا واضحاً من الشكاوى المستمرة على لسان كبار المسؤولين في الشركتين الشرقية والغربية لقد كانت حانات بيع وتقديم الخمر هي السمة البارزة لحياة الهولنديين في المستعمرات ابتداءً من مانهاتان وحتى مولوكا.

وعلى الرغم من إخفاق مخططات كوين الطموحة، إلا أن فكرة الاستيطان الهولندي على نطاق واسع كانت تلوح من حين إلى آخر، سواء في الأراضي المنخفضة أم في جزر الهند. ولكن هذه الاقتراحات لم تجد سبيلها إلى التنفيذ. وفي عام ١٦٦٢ صرح بيتر دي لاكور في كتاب له بأن الهولنديين، وأهم فضائلهم أنهم عباقرة دؤوبون ومقتصدون، هم أقدر الشعوب على بناء مستعمرات والحياة فيها إذا ما توفرت لهم الحرية التي تهيأت لهم لاكتساب رزقهم. وفندَّ الرأي الشائع الذي يقول إن «أمتنا تعادي بطبيعتها الزراعة وأنها لا تصلح البتة لزراعة المستعمرات وإنما تصلح فقط في أعمال التجارة». وأكد أن ليس هناك فقط فائض من القوة العاملة من السكان، سواء من المهاجرين الهولنديين أم الأجانب (والألمان أساساً) ويسعددهم أن يهاجروا إذا ما وجدوا مساعدة في سبيل ذلك، بل إن كثيرين من أبناء الطبقة الحاكمة الذين حرّموا من المساهمة بنصيب في حكومة الأقلية الغنية سوف يهاجرون

طواعية وعن طيب خاطر ومعهم رؤوس أموالهم إلى المستعمرات حيث يمكنهم استثمارها وفق رغباتهم. وإن ما منع الهولنديين المحترمين، سواء أكانوا من البرجوازيين أم الحرفيين أم المزارعين، من الهجرة إلى المناطق الخاضعة لسلطة الشركتين الشرقية والغربية إنما هي القيود التي تفرضها السياسة التي يتبعها المديرون*. حقا إن مديري (حكام؟) هاتين الشركتين وبحارتها وجنودها وغير هؤلاء من المستخدمين إنما استأجرتهم الشركتان وفق قواعد صارمة وشروط قاسية، وتطالبانهم بأن يقسموا أيماناً كثيرة على نحو يحملهم عبء خسارة الشركتين من أجور وديون وأعباء مالية. ومثل هذا الوضع العبودي القاسي لا يرتضيه أحد سوى قلة قليلة من أبناء هولندا، بدافع الحاجة والضرورة أو بعض الفقراء الجهلاء ذوي العقول الساذجة والأجانب الفسقة. وزعم أن كبار موظفي الشركتين هم فقط من تسنح لهم فرصة تكوين ثروات كبيرة عن طريق التواطؤ المشترك من خلال صفقات مالية غير مشروعة أو تجارة خاصة.*

ولم يكن مجلس إدارة الـ ١٧ رافضاً دائماً وأبداً فكرة تعزيز بناء المستعمرات على نحو ما زعم دي لاكور. وإذا كانت مساندة المجلس لمخططات كوين في عام ١٦٢٣ قصيرة الأمد، إلا أن المجلس أبدى عناية وتعاطفاً (ثم تأييداً فعالاً) لخطة أكثر تواضعاً هي خطة جوهان مايتسوكر التي استهدفت إقامة مستعمرات هولندية في كل من باتافيا وسيلان. ولقد اعترف مايتسوكر صراحة في مرحلة باكراً من حياته العملية في المستعمرات، بأنه معجب بالنظام البرتغالي الذي استهدف تعزيز بناء المستعمرات عن طريق تشجيع الرجال البيض على التزوج بنساء آسيويات أو مولّدات من العنصرين الآسيوي والأوروبي والاستيطان في الشرق. وأكد أن الأطفال الذين يأتون عن طريق هذا الزواج المختلط سيكونون أقدر على التأقلم المناخي من الأطفال أبناء آباء

* The Interest of Holland; 1702, pp. 139-55.

وإمهات أوروبيين خُصص. وأضاف إنه بعد الجيل الثاني أو الثالث سوف تختلف بشرتهم قليلاً، أو كثيراً عن بشرة الأوروبيين. وقال كذلك إن الكثيرين من السلالة المولدة الآن دون المستوى المأمول. لكنه عزا ما يتصفون به من فساد الى التراخي في تنشئتهم داخل البيوت حيث العبيد، كقاعدة عامة، هم المسؤولون عن تربيتهم، وليس السبب عيوباً أصيلة في العرق أو العنصر البشري الذي انحدروا عنه. وأوضح أن علاج هذا الوضع يكمن في توفير مدارس جيدة والإشراف الملائم على الأبوين. وأكد مايتسوكر أنه إذا قدمت الشركة التشجيع الملائم عن طريق كبار موظفيها - الذي لا يزال قاصراً للغاية حتى الآن - فإن سكان المدن الأحرار أو غير المتزوجين سيفكرون جدياً في البقاء والاستقرار والعمل اساكفة أو خياطين أو حدادين أو صنّاع أسلحة، أو جوهريين أو نجارين أو بنائين أو جراحين. ووصل به الأمر إلى حد الزعم أن بإمكانهم منافسة الصينيين في مجال الزراعة. وزعم أكثر من ذلك أن كبار موظفي الشركة هم أسوأ أعداء سكان المدن الأحرار نظراً لأنهم أثروا منافسيهم الصينيين والآسيويين ابتغاء الرشي التي يحصلون عليها من هؤلاء.

وسعى مايتسوكر جاهداً لكي يضع نظريته عن الاستعمار موضع التنفيذ خلال ولايته حاكماً على سيلان (١٦٤٦-١٦٥٠). ولكنه اكتشف أن سكان المدن الأحرار عاجزون تماماً عن المنافسة في أي شيء على مستوى التجار المسلمين المحليين والجدير بالذكر أن دعوته إلى إقامة المستوطنات الاستعمارية عن طريق الزواج المختلط صادقت تأييداً نشيطاً من مجلس الـ ١٧ في تلك الفترة. ولكن على الرغم من هذا لم يتزوج في الجزيرة غير ثمانية وستين من البرجوازيين الأحرار طوال فترة ولايته التي انتهت في عام ١٦٥٠. وجاء خليفته فان كيتينستايين الذي ينتمي إلى مدرسة فكرية مناوئة ولها مؤيدوها على نطاق واسع. وتؤكد هذه المدرسة أن المستوطنين الهولنديين ليس عليهم أن يؤدوا أي عمل شاق في آسيا، وأن زوجاتهم من المواطنات أو

المولدات هن في الأصل نساء فاسدات بلا أخلاق. وبعد انتزاع كولومبو وجافنا من أيدي البرتغاليين في ١٦٥٦-١٦٥٨ تزوج حوالي مائتي هولندي بنساء هجينات من الجنسيتين الهندي والبرتغالي وعاشوا (سواء برغبتهم أم غير ذلك) في الجزيرة. ولكن ريجكوف فان جوينز غزا جافنا وفتحها، وتولى بعد ذلك حاكما عاما على ساحل سيلان لسنوات طويلة كان داعية آخر متحمساً لاقامة مستعمرات هولندية. ونظراً لعدم وجود زوجات أوروبيات لكي يتزوج بهن البرجوازيون الأحرار فإنه كان مستعداً للسماح بالزواج المختلط بنساء سنهاليات أو تاميل أو مولدات من العنصرين الأوروبي والآسيوي. ولكنه اشترط أن تتزوج بنات هذه الزوجات المختلطة من رجال هولنديين «حتى لا يتدهور عنصرنا إلا بأقل قدر ممكن».

وعلى الرغم من جهود شخصيات من ذوي القوة والسلطان من أمثال مايتسوكر وريجكوف فان جوينز، بل وعلى الرغم من مساندة مجلس إدارة الـ ١٧ وقراره بصرف «منحة» تساوى راتب شهرين أو ثلاثة لكل جندي أو بحار هولندي يتزوج «امراة مواطنة» من سيلان، إلا أن النتائج حتى نهاية القرن السابع عشر كانت مخيبة للآمال. وبدا واضحاً تماماً أن إقامة مستعمرات استيطانية هولندية على النمط البرتغالي كان نصيبها الفشل واخفقت الأغلبية من البرجوازيين الأحرار في بناء حياة تقي بالمراد، أو أن يتحولوا إلى طبقة وسطى نشطة لها دور وذات رخاء. وها هنا في سيلان مثل أي مكان آخر كانت مهنة إدارة الحانات هي المهنة الوحيدة التي أبدوا إزاءها حماساً كبيراً على نحو ما أشار أسفا ريجكوف جوينز. وثبت أنهم في جميع فروع التجارة والأعمال الأخرى ليسوا انداداً على الإطلاق لمنافسيهم الآسيويين؛ وأنهم في بيوتهم عاجزون أو عازفون عن مواجهة ومقاومة النفوذ الهندي البرتغالي والآسيوي المستمد من زوجاتهم والذي أكد قدرته على الاستمرار والصمود. أو لنقل بعبارة أخرى أن البرجوازيين الأحرار أخفقوا في أن يصنعوا من أنفسهم مستعمرة هولندية الطابع والجوهر، مثلما أخفقوا

في ان يكونوا نواة «لهولندا الجديدة» في جاوة أو سيلان أو فورموزا.

والملاحظ أن نقاد هذه الخطط الفاشلة الداعية إلى إنشاء مستعمرات يعزرون فشلها إلى عادات السكر والفساد (أو الكسل والاسراف) التي آدمتها الهولنديون هناك. بيد أن هذا حكم غير منصف تماماً. أولاً إن المصالح الاقتصادية لسكان المستعمرات تصادمت في الغالب مع مصالح الشركة، وحيث يقع هذا التصادم تكون الغلبة بطبيعة الحال لمصالح الشركة. وإذا كان مجلس إدارة الـ ١٧ قد نزع بين الحين والآخر إلى إثارة البرجوازيين الأحرار بسبل مختلفة دون المستوى، إلا أنه لم يحاول أن يقدم إلى المستوطنين أي حوافز حقيقية تشدهم وتستهوهم مثل المشاركة في تجارة التوابل أو المشاركة بنصيب في النقل البحري إلى اليابان والبنغال وسوارت وفارس، وهي جميعها أعمال تدر أرباحاً مغرية. ثانياً لم يكن من المتوقع أن يقدر البرجوازيون الأحرار على الدخول في منافسة فعالة مع التجار الآسيويين والتجار الجوالين، وقد كانوا أقدر على التلازم والتآلف مع مواطنيهم من حيث الديانات واللغات والأهواء والبيئة. وحدث أحياناً أن أصدرت سلطات باتافيا وسيلان تشريعات تقوم على التمييز العنصري ضد التجار المواطنين في محاولة لمساعدة البرجوازيين الأحرار في أعمالهم التجارية. بيد أن هذه السلطات عجزت عن المضي في هذا الطريق إلى مدى بعيد نظراً لأن المسئولين أنفسهم كانوا يعتمدون على مساعدة وخدمة التجار الصينيين والمسلمين إلى حد ما. علاوة على هذا أن مثل هذه التشريعات يمكن التهرب منها وتفاديها عن طريق الرشوة على نحو ما اكتشف ستافورينوس عندما قدم شكوى إلى أحد المسئولين في باتافيا ضد رجل صيني صاحب بيت للقمار. إذ أجاب المسئول على الشكوى بقوله: «لا أستطيع أن أفعل لك شيئاً في هذا الطلب، فها أنت تسمع الصيني ينكر ذلك تماماً». وأضاف ستافورينوس وقد استبد به السخط: «وهذه هي الإجابة الوحيدة والإجراء الوحيد الذي يمكن الحصول عليه في مثل هذه الحالات من المسئول عن تنفيذ القانون حسب خبرتي

الشخصية. أما عن الأعمال الزراعية فقد كانت الفرص شبه معدومة أمام الجنود السابقين الأوربيين للمنافسة بنجاح ضد الصينيين وأبناء جأوة والتاميل والسنهاليين والملاويين في العمل الشاق الذي يقسم الظهر في حقول الأرز تحت شمس المنطقة الاستوائية الحارقة. وليس لنا أن ندهش لفشل جهود الحاكم العام البارون فان ايمهوف حين حاول توطين فلاحين المان في المناطق الداخلية في باتافيا والملاحظ أن البرجوازيين الأحرار الذين استطاعوا جمع ثروات - خاصة في باتافيا - إنما كانوا موظفين سابقين في الشركة وتقاعدوا عن عملهم بعد أن جمعوا ثروتهم. ثم ضاعفوها، أو حافظوا عليها عن طريق الاقتراض بالربا أو استثمارها في التجارة الخاصة.

ووضح تماماً فشل البرجوازيين الأحرار الهولنديين، أو فشل مستخدمي الشركة في حفز نسائهم الآسيويات أو الأورو - آسيويات في الاقتلاع عن أخلاقياتهن الهندية البرتغالية، أو تبني الأسلوب الهولندي في الحياة. وفي ضوء نتائج الخبرة البرتغالية السابقة في الزواج المختلط بين الأعراق الأوروبية والآسيوية والتي رأى فيها مجلس إدارة الـ ١٧ تحذيراً ونذيراً لما هو محتمل مستقبلاً، شدد المجلس في دعوته (عام ١٦٤١) إلى الهولنديين الراغبين في الزواج من آسيويات أن يختاروهن من بين نساء الطوائف الاجتماعية الراقية أو المشهود لهن بالسلوك الاجتماعي الطيب. ولكن ما أيسر القول دون الفعل ذلك أن هؤلاء النساء، سواء منهن الهندوسيات أو المسلمات أو البوذيات، كن يعشن في مجتمعات تجيز الزواج فقط داخل أطار مجموعات معينة ومحددة المعالم بوضوح كامل. إذ باستثناء بعض النساء الصينيات أو اليابانيات اللاتي يؤمنن بالبوذية، (وهو استثناء محتمل وغير مؤكد) فإن أي امرأة آسيوية تتزوج من رجل من خارج عرقها أو طائفتها أو دينها، تخسر كل حق لها في أن تحظى باحترام أسرتها ومواطنيها - تماماً مثلما كان يحدث لأي امرأة أوروبية تتزوج بإرادتها من رجل (لنقل) تركي أو هندي أو اندونيسي. ولهذا كان محتملاً على الهولنديين في الشرق أن يصبحوا رغماً عنهم زوجاتهم

ومحظياتهم أو خلياتهم من بين نساء إما أوراسيات أو من أصول لطيفة فقيرة أو عبيد، تماماً مثلما فعل البرتغاليون من قبلهم. علاوة على هذا أصدر مجلس إدارة الـ ١٧ قراراً يقضي بأن من حق مستخدمي الشركة الزواج فقط بنساء على المذهب الكالفني. وأدى هذا القيد تلقائياً إلى استبعاد الآسيويات من بنات الطبقة العليا اللاتي نادراً ما يتحولن إلى المسيحية.

وهكذا كانت زوجات -أو خليات- الهولنديين الذين تزوجوا في آسيا هن في الغالب من سلالة هندية برتغالية. وكانت اللغة البرتغالية شائعة على السبيل أولئك الذين لم يتربوا في ظل أجواء تسودها المؤثرات الثقافية الهندية البرتغالية، وذلك لأسباب أوضحها الحاكم العام مايتسوكر ومجلسه في عام ١٦٥٩ إذ قال: «اللغة البرتغالية لغة سهل تعلمها والتحدث بها. وهذا هو السبب في أننا لا نستطيع أن نمنع العبيد الذين جيء بهم إلى هنا من أراكان ولم يسمعوا اللغة البرتغالية إطلاقاً (بل ولا أن نمنع أيضاً أطفالنا) من إيثار هذه اللغة على جميع اللغات الأخرى والتحدث بها وكأنها لغتهم». وظل مايتسوكر وأعضاء مجلسه على موقفهم الانهزامي هذا في عام ١٦٧٤. ونجد لكل من نيقولاس دي جراف وجوهان سبلنتر ستافورينوس وغيرهما كثيرون ممن زاروا باتافيا في القرنين السابع عشر، والثامن عشر تعليقات على مدى انتشار اللغة البرتغالية واستمرارها باعتبارها اللسان المشترك في المستوطنات الهولندية، على الرغم من الجهود التي بذلتها الحكومة بصفة دورية لإبدالها باللغة الهولندية. والملاحظ أن عدداً غير قليل من النساء الهولنديات اللاتي ولدن ونشأن لأبوين أوروبيين في باتافيا، كن يتحدثن لغة برتغالية خليطاً ويؤثرنها على لغتهن الأم التي كن يستطعن التعبير بها عما في نفوسهن ولكن بلسان غير طلق.

ولعل البعض توقع أن يشدد أزواجهن أو آبائهن عليهن لاستخدام اللغة الهولندية في بيوتهن، بيد أن الشيء الواضح أن هذا لم يحدث، وأحد الأسباب (كما لاحظت سلطات باتافيا في ١٦٧٤) أن أغلبية أبناء الأراضي المنخفضة

ظنوا «بغياء» أن من مظاهر التكريم والشرف القدرة على التحدث بلغة أجنبية – على خلاف البرتغاليين من قبلهم أو الانجليز والفرنسيين من بعدهم الذين جاءوا لبناء امبراطورية. وسبب آخر، ولعله أكثر صواباً، هو الذي ذكره ستافورينوس في عام ١٧٧٨ حين قال: «الرجال المتزوجون لا يبالون كثيراً بزوجاتهم ولا يبدون نحوهن أي اهتمام. إذ نادراً ما يتحدثون اليهن، أو على الأقل لا يتحدثون معهن في أي من الأمور المفيدة، أو في أمور تهم المجتمع. ولهذا فإن السيدات نجدهن بعد سنوات من الزواج بهن، جاهلات بأمور العالم وبقواعد السلوك مثلاً كن ليلة زفافهن. وليست المشكلة انهن لا يمكن القدرة على التعلم بل لأن أزواجهن ليست لديهم رغبة في تعليمهن»*

وهكذا كانت باتافيا، والمستوطنات الهولندية الأخرى في آسيا ولكن بدرجات متفاوتة، صورة لافتة للنظر بغرابتها لمجتمع رجل هولندي كالفني مربوط، على نحو قلق غير مستقر، بمجتمع أنثوي تغلب عليه المرأة الهندية البرتغالية – وطبيعي أن البنات نتاج هذه الزيجات المختلطة كن يسرن مسار أمهاتهن – أو مسار المربيات من الرقيق اللاشي ترعاهن – وليس مسار آبائهن. ومن ثم فإن عناصر الثقافة الاستعمارية الهندية البرتغالية التي حملتها النساء الأوليات معهن دامت واتصلت وانتقلت عبر الأجيال التالية على مدى قرنين تقريباً. والملاحظ أن العناصر الآسيوية لهذه الثقافة الهندية – البرتغالية في المجتمع، مثل الغذاء واللباس ونظام الحريم لم تضعف كثيراً بمرور الوقت. واثراً هذا المناخ الخاص. والغريب حتماً على الأزواج إلى حد ما على المدى الطويل. وهكذا نجد أن المستوطنات الهولندية في آسيا بدلاً من أن تشكل وتبني «هولندا الجديدة» في المنطقة الاستوائية بعدت أكثر من المؤثرات الثقافية لأرض الوطن.

وتزداد سورة غضب نيكولا دي جراف في شجبه لمظاهر الكبرياء والبذخ

* J. S. Stavorinus; Voyages to East Indies; Val. I; PP. 313-314.

والعهر عند نساء باتافيا المتزوجات سواء الأوروبيات أم الأوراسيات - أم الآسيويات خلال الربع الأخير من القرن السابع عشر. إنهن، وعشرات العبيد زمن اشارتهم في بيوتهن، اتخذن سيماء الاميرات حتى أن الواحدة منهن تعف عن أن تلتقط من على الأرض منديلاً سقط منها. واعتمدن في حياتهن اعتماداً كاملاً على العبيد الذين يعاقبوهن عقاباً قاسياً لأقل هفوة تصدر بل ودون سبب أو خطأ ما على الإطلاق. واتبعن أو احتفظن بالعادات الشرقية مثل الجلوس جلسة القرفصاء على الأرض، بدلاً من الجلوس فوق الكراسي، وتناول الأرز والكاراي بأصبعهن بدلاً من الشوكة والمعلقة. ويقلن من التحدث بالهولندية فيما بينهن، وربما لا يتحدثن بها على الإطلاق، ويؤثرن الحديث بلغة برتغالية هجين شائثة. وموضوع ثرثرتن الوحيدة هو أخطاء وهفوات عبيدهن وأطباق الطعام الشهية التي أكلنها. وإذا خرجن إلى الكنيسة أو ظهرن في الأماكن العامة أسرفن في مظاهر الزينة واللباس الحريري الفاخر والمجوهرات ووراء كل منهن صفوف من العبيد. وإذا بقين داخل بيوتهن جلسن القرفصاء أو تربعن على الأرض وهن في ملابسهن الداخلية أو قمصانهن الشفافة. ولم يكن كبرياؤهن وغطرستهن أمراً محتملاً. وفاقم من هذا السلوك جهلهم بأصول المجتمع المذهب. وقد يقال أن دي جراف بالغ إلى حد ما، غير أن ديرك فان هوجندروب الذي تزوج هو نفسه بفتاة من باتافيا قال بعد قرن من الزمان: «إن التعليم في باتافيا شر أسوأ من الجحيم، وإنني أؤثر أن أقطع رقبة أي طفل وليد لي على أن أدعه يقاسي شرور التنشئة في باتافيا».

واضح أن هذه الثورات الغاضبة يجب ألا نأخذها بمعناها الحرفي، ولكن ثمة شواهد أخرى كثيرة معاصرة تبين لنا أن أخلاقيات وسلوك كثيرات من النساء الهولنديات - الأوراسيات لم تكن جميعها مرفوضة. ويصدق الشيء نفسه بدقة على نساء جوا الهندييات - البرتغاليات اللاتي لهن عيوب مماثلة. وقد حكى هذه العيوب وقص تاريخها بأسلوب خيالي مروع لينشوتن وبيراد

دي لا فال، وجين موكيت وغيرهم كثيرون ممن زاروا «الهند البرتغالية». وواضح أن الأسباب الرئيسية واحدة في كلتا الحالتين. إذ كانت النساء المعنيات إما إنهن نُشئن في بيت أهله من العبيد، أو أنهن تحللن من أشكال الرقابة الاجتماعية المتبعة في المجتمعات الوطنية التي انحدرن منها. وإن التحلل الأخلاقي الذي أصابهن يمكن أن يتغير مع الزمن ومع توفر الظروف المواتية لذلك. بيد أن بيئتهن اليومية وأسلوب حياتهن لا يمكن وصفها بأي شيء إلا أن نقول إنهما يساعدان على التحول. ومما زاد الطين بلة أن شاع اعتقاد بأن الأطفال نتاج هذا الزواج المختلط يرثون رذائل كلا العنصرين دون فضائلهما. وعزا أصحاب هذا الرأي نواقص الأطفال إلى دمهم الأوراسي دون ظروف تنشئتهم القاصرة. والنتيجة أن جميع من ولدوا في أوروبا ونشأوا وتربوا في هولندا اعتادوا النظر إلى هؤلاء الأطفال بازدراء كبير الأمر الذي أكمل الدائرة الخبيثة وجعلها دائمة متصلة. وتعددت الصفات الاليمة المؤذية ممن امتزج دمهم بالدم الهندي مثل وصفهم بـ «المولدين أو الملونين» و«الاقطن غير المبيضة». و«الغربان» بل و«الصراصير».

ويحكى لنا نيكولا دي جراف - وهي حكاية لنا أن نصدقها تماما - أن نساء باتافيا المتزوجات اللواتي ذهبن إلى أوروبا (أو عدن منها) بصحبة أزواجهن عجزن، إلا في النادر، عن التلاؤم مع أبسط طرق الحياة في المقاطعات المتحدة. إذ سرعان ما كن يشعرن بالاحباط والخزي إذا ما حاولن إصدار أوامر في استعلاء إلى خادمت هولنديات على نحو ما كن يتصرفن مع عبيدهن. ومن ثم كان عليهن إما أن يغيرن سلوكهن أو أن يعشن في بيوتهن بدون خادمت. وشعر أكثرهن بالأسى والأسف لأنهن تركن حياة البذخ والترف في الشرق؛ وشاركن أزواجهن في هذا الشعور. وفي أكتوبر ١٦٥٦ بعث مجلس إدارة الـ ١٧ رسالة تنطوي على لهجة نصع وتحذير إلى مايتسوكو ومجلسه في باتافيا يقول فيها: «لاحظنا باستياء شديد وصول عدد كبير من العائلات على متن الأسطول الأخير من السفن العائدة إلى الوطن.

إن أغلبية هذه العائلات سوف تندم بشده لذلك، إذ لم يكد أكثرها تطاً بقدميها أرض الشاطئ حتى تغلبت عليه الرغبة في العودة إلى جزر الهند ثانية، دون أن تتوفر الفرصة دائماً لعودتها. والغريب أن أفراد هذه العائلات لم يتعلموا من خبرة من سبقوهم خلال السنوات السابقة، سواء أكانوا موظفين كباراً أم صغاراً، أو برجوازيين أحراراً ممن أتوا إلى هنا على التعاقب ولكنهم الآن يعضون على النواجذ ويبذلون كل جهد ممكن ليشدوا الرجال عائدين .. كل شيء هنا نادر باهظ الثمن، وليس أمامهم غير القليل الذي يرتزقونه، أو لا شيء على الإطلاق - ناهيك عن الترف الذي يخطف الأبصار - والذي اعتادوه في جزر الهند وليس له وجود هنا. وهذا أمر دام واستمر مع دوام واستمرار شركة الهند الشرقية.

ومن ناحية أخرى فإن القول بأن النساء البيض من أصول متواضعة لديهن فرصة طيبة لزواج ثري في الشرق حفز بقوة كثيرات من البغايا للسعي من أجل الذهاب إلى هناك تحت ستار العمل كبجارة أو أي قناع ذكوري آخر. وهذا النمط من النساء المغامرات وغير المرغوب فيهن وهاجرن إلى هناك، هو النمط الذي أشار إليه جاك سبكس الحاكم العام في رسالته إلى مجلس إدارة الـ ١٧ في الأول من فبراير ١٦٢٩ بعد أسبوع من مغادرة تكسل. «البجارة جميعهم بحالة جيدة وأكفاء، ولا ينقصنا شيء سوى الكثير من الفتيات والزوجات اللواتي بدلاً من تلك الأبواق القذرة والمتسكعات اللواتي يملأن كل جنبات السفينة (ولعل الله يصلح الحال). ما أكثرهن وما أبشعن حتى أنني أخجل من ذكر أي كلمة عنهن». وأصدر المديرون بعد ذلك قراراً يحد من عدد النساء المسموح لهن بالسفر إلى باتافيا ويؤكد لنا دي جراف أنه لو لم يتخذ مجلس الإدارة هذا القرار لتجاوز عدد النساء الرجال على ظهر السفن. وهذه بمالفة واضحة. ولكن يبدو نسبياً أن عدد النساء الهولنديات اللواتي سافرن (أو حاولن السفر) على متن السفن المغادرة أرض الوطن كن أكثر من النساء البرتغاليات أو الانجليزيات أو الفرنسيات اللواتي شرعن في هذا.

ولعل نقص النساء الهولنديات المحترمات وعدم توفر العدد الكافي منهن كزوجات للجنود والتجار والموظفين والمستوطنين في المستعمرات الهولندية في البرازيل كان بالمثل أحد أسباب سرعة زوال مستعمرة «نيوهولاند» في برنامبوكو. إذ مثلما حدث في الشرق تزوج الهولنديون المقيمون في البرازيل وأنجولوا من نساء برتغاليات استوطن هناك ويحملن عرقاً هندياً أمريكياً أو دماً زنجياً. ونظر رجال الدعوة والوعظ وكبار الموظفين شذراً إلى هذه الزيجات إذ توقعوا عن حق أن هؤلاء الأزواج أقرب إلى التحول أو الردة إلى المذهب الكاثوليكي الروماني بدلاً من أن تتحول زوجاتهم إلى المذهب الكالفني. والجدير بالذكر أن الكونت جون موريس الذي حكم نيذرلاند البرازيل من ١٦٢٧ إلى ١٦٤٤، لم يكف عن تحذير رؤسائه في لاهاي وأمستردام من عواقب ذلك مؤكداً لهم أنه ما لم يرسلوا أعداداً كافية من الأسر البروتستانتية الهولندية أو الألمانية أو الاسكندنافية ليحلوا محل أو للامتزاج بالمستوطنين البرتغاليين المحليين سيظل هؤلاء وإلى الأبد برتغاليين حتى النخاع وربما يتمردون عند أول فرصة تسنح لذلك - وهو ما حدث بالفعل في يونيو ١٦٤٥، إذ أنه خلال الحرب التي نشبت في هذا التاريخ اختار الكثيرون من الموظفين والتجار الهولنديين الذين يشغلون مناصب قيادية في برنامبوكو ولواندا وبنجويلا والمتزوجين من نساء برتغاليات، الوقوف إلى جانب زوجاتهم ومساندة عقيدتهن الدينية عندما كان على الأزواج أن يختاروا بين الاعتراف بسلطان الملك جون الرابع وبين استمرار ولائهم لإدارة عموم الولايات. وإن الأسر الباقية في بلدة واندري في برنامبوكو، وكذلك في بلدة فان دون في لواندا إنما ترجع في أصولها إلى أسلافها الذين اختاروا تحويل ولائهم.

وإذا كانت «نيوهولاند» عجزت بسبب افتقارها أساساً إلى العدد الكافي من المهاجرين البروتستانت، عن أن تصمد على المدى الطويل أمام الضغوط العسكرية والاجتماعية والدينية التي مارسها ضدها أهالي برنامبوكو الكاثوليكيون الرومان فان نيونيذر لاند المقامة على ضفاف نهر هدسون

وشواطئ جزيرة مانها تان تهيأت لها على ما يبدو فرصة أفضل. إذ لم يضطر المستعمرون الهولنديون هنا إلى الدخول في تحد مع التربة والمناخ الاستوائيين، أو مع أغلبية من سكان يدينون بالمذهب الكاثوليكي الروماني. بل دخلوا في صراع مع ظروف طبيعية تشبه ظروف بلدهم من بعض النواحي. وهنا كان بالإمكان إذا صدق العزم تأسيس مستعمرة يقيم فيها الرجال ويعملون ويتعبدون بنفس الطريقة المتبعة في أرض الوطن وعلى الرغم من السياسة المتذبذبة لمجلس إدارة الـ ١٧ بشأن خطط إقامة المستعمرات التي كانت تظهر اقتراحاتها بين الحين والآخر، وعلى الرغم من تردد بعض حكام المستعمرات واحجامهم عن السماح للمستوطنين بهذا القدر من الحكم الذاتي في الشؤون المحلية والمخول لهم به فقد قيل ان المستعمرة كانت تضم ١٠٠٠٠ نسمة عندما استولى عليها الانجليز في عام ١٦٦٤. وهذه يقينا مبالغة كبيرة إذ الحقيقة هي ان نيونيذرلاند كانت مقاطعة أهلة بسكان قليلين متناثرين وسط مستوطنات نيو انجلاند الأكثر سكانا واتساعا وحركية وان القليلين من المقيمين على جانبي المحيط الاطلسي هم الذين ظنوا ان ادارة عموم الولايات عقدت صفقة خاسرة بتنازلها عن مطالبتها بشأن نيو نيذرلاند مقابل حيازتها لمستعمرة سورينام الاستوائية بناء على معاهدتي بريد (عام ١٦٦٧) ويستمنتر (١٦٧٤). غير أنه يمكن القول ان نيونيذرلاند توفرت لها الأسباب التي تبرر لها اسمها هذا وبفضل مساندة صادقة من مجلس إدارة الـ ١٩ وحكومة أرض الوطن عشية ان تركها الانجليز. لقد التزم المستوطنون من أبناء مقاطعة والون وغيرهم من المستوطنين غير الهولنديين، وكانوا كثيرين، باللغة الهولندية، مثلما التزموا بعقيدة الكنيسة الهولندية الاصلاحية والاخلاق والاعراف الهولندية، وهو ما لم يكونوا قد التزموا به قبل ذلك. وظل كثيرون من اجيالهم التالية يتحدثون الهولندية حتى سنوات طويلة من القرن الثامن عشر، ولم تسقط «الكنيسة الاصلاحية في امريكا». من اسمها كلمة «الهولندية» إلا في عام ١٨٦٧.

ونظراً لاعتدال مناخ نيونيزرلاند فلأننا نجد عدداً كافياً من النساء الأوروبيات هاجرن إلى هناك، هذا على الرغم من وجود خليط عرقي يقينا في الأيام الباكرة من انشاء المستعمرة وهو ما يشهد عليه الاسم «معين العاهرات» الذي اطلق على موقع كان «الهنود كرماء بما فيه الكفاية بحيث كانوا يقدمون نساءهم الصغيرات وبناتهم إلى مواطنينا أبناء هولندا هناك». ولقد اضطر الهولنديون الرجال إلى اتخاذ خليلات لهم من بين النساء المواطنات في المناطق الاستوائية حيث يقل عدد النساء البيض هنا. وفعل البعض ذلك مضطراً وعن غير رغبة مصداقاً للقول الماثور «الحاجة أم الاختراع وبالأوراسية». وعلى الرغم من أن الرجال من أبناء الأراضي المنخفضة المقيمين في الشرق نادراً ما كانوا يقبلون على الزواج بأي امرأة آسيوية (تمييزاً لها عن المرأة الأوراسية) إلا أنهم قل ما كانوا يعترضون على اتخاذها محظية حتى وإن لم ينغمسوا في هذا السلوك على نطاق واسع مثلما فعل من قبلهم البرتغاليون. وكان الهولنديون في القرن الثامن عشر يؤثرون اتخاذ النساء من رقيق بوجينا في سيليبيس كمحظيات لهم لأسباب أوضحها ستافورينوس بأسلوبه الفريد حين قال: «نساء بوجينا يتميزن بوجه عام بأنهن أكثر أناقة من النساء الهنديات (الآسيويات) الأخريات. وإن البعض منهن يتحلين بوجه جميل يجعلهن موضع إعجاب وتقدير كبيرين حتى في أوروبا ذاتها. وآه لو أنهن تزين بأزهار الزنبق وورود الشمال لكن على قدم المساواة مع أكثر بنات جنسهن أناقة. إنهن يعشقن متع الحب الحسية وتستثيرن أشد نيران الشهوة حرارة، مبدعات لكل فنون ومتع العشق، ولهذا يفضل الرجال الأوروبيون والهنود بنات بوجينا كمحظيات دون جميع نساء الشرق. وعرفت من السيد فان بلورين الذي أقام هنا ثمانى سنوات، ومن كثيرين غيره من الثقات، أن من بين هؤلاء النسوة ومن بين نساء ماكاسار أيضاً، كثيرات يمتلكن، هن وبعض النساء البرتغاليات في باتافيا، سرا يمكنهن بفضل بعض الأعشاب ووسائل أخرى من أن يستعدن عشاقهن إذا ما قاطعوهن وابتعدوا عنهن، إذ يستطعن أن يجردنهم من أي قدرة على

تكرار هذا العمل الجارح لمشاعرهن، بل قد يصل الأمر إلى درجة حرمان الرجل من قدرته الذكورية وغير ذلك من أمور يقتضي واجب الأدب والاحتشام الامساك عن الكلام فيها.

وطبيعي أن اتخاذ السادة الأوروبيين من نساء العبيد محظيات أفضى إلى انجاب عدد كبير من الاطفال الأوراسيين غير الشرعيين. وحدث في عام ١٧١٦ أن أعرب الحاكم العام ومجلسه في باتافيا عن قلقهما الشديد لهذا الوضع وأصدر الحاكم أمراً يقضي بحرمان الآباء البيض لهؤلاء الاطفال من العودة ثانية إلى أوروبا وأن عليهم البقاء في الشرق. وأصدر مجلس ادارة الـ ١٧ تشريعاً يحرم ابتداء من عام ١٦٤٤ وما بعده جلب الرقيق والمولودين إلى أوروبا على متن السفن التجارية المتجهة إلى أرض الوطن. ولم يطبق التشريع بدقة وصرامة. وفي عام ١٦٧٢ حظرت سلطات باتافيا تشغيل كتبة آسيويين، إلا بإذن خاص، بحجة أن «الهند (آسيا) زاخرة بأطفال من امتناء. وليس واضحاً إن كان الاطفال المولودون يدخلون ضمن هذه الفئة من الاطفال أم لا. ولكن المؤكد أن الشركة حظرت تماماً تعيينهم في الاعوام ١٧١٥-١٧١٧ إلا في حالة عدم توافر أوروبيين صالحين للعمل. وامتد هذا الحظر في عام ١٧١٨ ليشمل الاطفال المولودين لآباء بيض في آسيا. وبعد تسع سنوات أصدر مجلس الـ ١٧ مرسوماً يقضي بأفضلية التعيين دائماً للأفراد المولودين في أوروبا دون المولودين في آسيا إيا كانت أصول هؤلاء. وقد يراودنا الشك في الالتزام الدقيق في تطبيق هذا القانون، ولكن نعرف أنه منذ عام ١٧٢٩ أنن الحاكم العام ومجلسه بتعيين بعض الكتبة الآسيويين، ونظراً للنقص الشديد في عدد الكتبة الأكفاء. وفي عام ١٧٥٦ أمر مجلس ادارة الـ ١٧ حكومة باتافيا بالتوقف عن ارسال المزيد من العمال والصناع الحرفيين إلى القلاع والمحطات التجارية الموجودة خارج جاوة، حيث يتعين من الآن فصاعداً تدريب العمال المهرة من بين الأبناء المحليين المواطنين والأوراسيين.

وإذا كان موقف أهل الاراضي المنخفضة من نظرائهم الأوراسيين يغلب

عليه طابع التنازل أو الازدراء السافر، فإن الأمر كان أوضح في تعاملاتهم مع الآسيويين في مجموعهم. حقا كان مجلس إدارة الـ ١٧ يشدد بين الحين والآخر على ضرورة معاملة الآسيويين بعطف وانصاف، ومن المؤكد بالمثل ان حكومة باتافيا أصدرت أحيانا تعليمات بهذا المعنى. غير أن رعاياهم نادراً ما أبدوا قدراً ملحوظاً من الاهتمام والاعتبار للمواطنين ونادراً ما كشفوا عن أي قدر من التفهم الودي لوجهة نظرهم. وها نحن نطالع مجوعة المراسيم التي صدرت في باتافيا ضمن مجلد ونراها كثيراً ما تشير الى الاندونيسيين والصينيين والمسلمين وتنعتهم بصفات مثل «الخسيس» و«الوضيع»، بل ان رجلاً مثل كرونليس سبيلمان الذي كان يتحدث لغة الملايو بطلاقة واتخذ من السلوك والاخلاقيات والمعتقدات والأعراف الآسيوية موضوعاً لدراسته في كل بلد حل فيه سواء في الهند أم في اندونيسيا يشير ساخرًا إلى الحسنات اليابانيات ذات اللونين «الأصفر والبني» واللاتي اتخذ منهن خليلات له في أغلب الأحيان. وطبيعي كان هناك دائماً رجال ذوو فكر مفتوح وعقلية متسامحة مثل ستيفن فان دير هاجن ولورنس رايل في مولوكا، أو دكتور جاوكوب بوتيتوس في باتافيا الذي احتج ضد طرد الأوروبيين للآسيويين لأنهم «وثنيون متعصبون» و«خونة» و«همج بلداء». والجدير بالذكر أن حجة قوية تدعو إلى «أن نرى أنفسنا مثلما يرانا الآخرون» يمكن أن نعزوها إلى القائد البحري العظيم بيت هاین الذي خدم بامتياز في كل من جزر الهند الشرقية والغربية ويعرف بوضوح دون أي أوهام أسباب مشاعر العداء التي غالباً ما يبديها سكان المناطق الاستوائية تجاه الهولنديين، إذ يقول:

إنهم يشعرون في أعماقهم شعوراً حاداً بالخطأ الذي وقع في حقهم، وهذا هو السبب في أنهم أصبحوا أكثر شراسة وعدوانية عما هم في حقيقتهم. إنك إذا وطئت دودة بقدميك فإنها تتلوى وتلتف حول نفسها ألماً؟ ومن ثم هل لنا أن ندهش لأن هندياً يثار لخطأ في حقه ارتكبه شخص أو آخر؟ ... الصداقة يجب أن تبدأ من جانبنا نحن، لأننا نحن الذين سعينا إلى هؤلاء الناس وليسوا هم

الذين سعوا إلينا. ربما حدث، ولا بد وأنه قد حدث في بعض الأماكن وبسبب سوء التفاهم أن أبدى الهنود نحونا مزيداً من مشاعر العداء أكثر من مشاعر الود والصداقة في أول الأمر. ولكن ليس هذا سبباً يدعونا إلى أن نفرق في أعمال عدائية ضدهم، أو أن نرد عليهم بالمثل .. إننا إذا ما عاملنا الهنود بقسوة وبشراسة فإننا نقدم لهم السبب والمبرر لكراهيتنا وهذه الكراهية ستحفر سريعاً جذوراً عميقة وتحول عواطفهم ضدنا .. ولكن على يقين من أننا نغضب الله بأعمال ظالمة، وبدلاً من أن نخدم الله ونحزن أداة عقاب وقسوة لمصلحة الآخرين (الاسبانيين والبرتغاليين) لنساله تعالى (العون على تحمل عناء المسئولية).

بيد أن الكالفنيين أصحاب البصيرة الثاقبة من أمثال بيت هارين كانوا قلة ضئيلة دائماً. ونجد النظرة الأكثر شيوعاً هي تلك التي عبر عنها رجل الدعوة والوعظ الهولندي المقيم في سيلان، والذي أنقذ العريف سار من تقديمه لحكمة عسكرية على إثر قتله خطأ لرجل سنهالي إذ أخبر قائده أن هذا امر لا يدعو الى القلق «حيث أن حياة الهندي لا تساوي شيئاً ذا بال». وحسم الأمر وانتهت القضية بدفع مبلغ نقدي زهيد الى أرملة القاتل خصماً من راتب سار الضئيل. ولكنه قال صراحة لو أن الضحية أوروبي لما استطاع ان يفلت من عقوبة الاعدام. والجدير بالذكر ان جوهان مايتسوكر عندما تخلى عن منصبه كحاكم عام لساحل سيلان في عام ١٦٥٠ أكد على خليفته بضرورة معاملة الرؤساء السنهاليين بما يليق من اعتبار وتقدير «حيث انهم حساسون جداً ازاء كل ما يمس كرامتهم. وحري بسعادتكم ان تولوا هذه النقطة كل الاهتمام نظراً لأن هناك الكثيرين منا ينظرون اليهم نظرة قائمة على الانحياز مؤكدين أن هؤلاء «الكلاب السوداء» كما يسمونهم قصد الاهانة، يجب ألا نسمح لهم بأن يحظوا بمثل هذا الشرف والجميل». وان رجلاً على حظ كبير جداً من العلم والثقافة وهو دوميني فرانسوا فالنتين الذي كان يزهو ببراعته في التحدث بلغة أهل الملايو، وأبدى اهتماماً عميقاً وأصيلاً بجوانب كثيرة من الحضارات

الآسيوية، نراه يصف أمير ترناتن كاتشيل سايدي، الذي قتل غيلة وبقسوة سادية على يد الهولنديين في عام ١٦٥٦ فيقول «انها نهاية رقيقة ومريحة للغاية لرجل كان يستحق ان يعيش اطول لينال ميتة اشد إيلاماً، وإن هذا الخلط البغيض بين الكالفنية والسادية لم يكن بالشيء النادر الوقوع. إذ نراه مطبقاً على يد جان بيترزون كوين حينما استأصل الباندانيين وحين أساء بقسوة معاملة سارا سبيكس وهي فتاة أوراسية تبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً، وجريمتهما أنها سمحت لنفسها بان تقع في حب خطيبها الشاب الذي تم إعدامه بأوامر من كوين.

لقد كان الهولنديون في الشرق يستبد بهم حتى النخاع ذلك الاعتقاد الفطري بتفوق الرجل الأبيض. وهو الاعتقاد الذي كان الحافز والقوة المحركة وراء مفكرين وأدباء برتغاليين من أمثال أفونسو دي البوكيرك، وكذلك جورج أورويل حيث تجسد هذا الاقتناع لدى شخصيته الخيالية في رواية «أيام بورما». إذ تقول هذه الشخصية «تذكرني يا سيدتي دائماً ولا تنسي أبدا نحن أطهار وهم أقذار»، البرتغاليون والأسبان والهولنديون والانجليز والفرنسيون كانوا جميعاً على وجه التقريب مقتنعين تمام الاقتناع أن المسيحي الأوروبي بحكم واقعه وطبيعته أرقى من عرق آخر - حتى من تحولوا إلى المسيحية غير مستثنين من هذه القاعدة عملياً، مهما كانوا نظرياً، وإذا كان هذا هو الاقتناع السائد بين جميع المسيحيين على اختلاف طوائفهم، فإنه أشد رسوخاً وعمقاً حتماً بين الكالفنيين الذين كانوا على اقتناع كامل عن وعي أو عن غير وعي، بأنهم الصفوة التي اختارها الله، وأنهم ملح الأرض. وواضح أن هذا الاتجاه لا يعبر عنه أصحابه في وضوح وسفور في جميع الاقطار حيث توجد حكومات قوية ترفض وتتصدى بقوة لمثل هذا الهراء على السنة التجار الأوروبيين عند الأطراف الساحلية. مثال ذلك أنه يبين لنا من كتاب دانييل هافارت. صعود وانهيار كورومانديل (١٦٩٣) أن العلاقات الاجتماعية التي تربط الوكلاء التجاريين الهولنديين بالتجار والموظفين

ورجال البلاط الهنود في جولاكوندا سواء من المسلمين أو الهندوس، كانت بشكل عام علاقات ودية وغير متشددة نسبياً. ولم يستطع الهولنديون أن يبدوا أي مشاعر قوية تكشف عن نوازع التفوق العرقي في المراكز التجارية المنعزلة مثل مراكز ديشيما في اليابان أو كانتون في الصين. غير أن مثل هذه المظاهر تتكرر كثيراً في اليوميات والمراسلات السرية التي تستهدف مخاطبة أوروبيين فقط ولا يطلع عليها غيرهم. وطبيعي أنه كانت هناك استثناءات لهذا الاقتناع العام بالتفوق الأوروبي، ولكنها ظلت استثناءات فقط دون أن تتجاوز هذه الحدود.

ونحن لا نملك الوثائق الكافية التي تبين لنا نظرة الآسيويين إلى الأوروبيين وفكرتهم عنهم بوجه عام، وعن الهولنديين بوجه خاص، فيما خلا بعض الأمم مثل الصين واليابان التي تملك سجلات تاريخية تضارع سجلات الغرب حجماً ونطاقاً. أما كيف نظر المسلمون المعتدلون إلى الأوروبيين المشاكسين مدمني الخمر والذين تسلطوا على مولوفا، فهذا يمكن أن نستدله من الملاحظة التالية لواعظ هولندي في أمبويما في عام ١٦١٥ حيث يقول: أبناء هذه الأمة السود، حيث هم كذلك، هم أهل حضارة واستقامة ونظام في سلوكهم وحياتهم اليومية، لا يعودون إلى بيوتهم مخمورين يترنحون يجرجرون أذيالهم، ويرفعون عقيرتهم، ويفرغون أمعاءهم، ويصيحون في هياج، ويضربون الزوجات ويعددها يدفعونهن إلى خارج الأبواب مثلما يفعل رجالنا في غالب الأحيان، وهذا هو السبب في أن أحدا منهم لا يقبل تزويج ابنته لرجل منا، والسبب في أن بناتهم يخفن الزواج من أحدنا.

وفي اندونيسيا حيث استقر الهولنديون وفرضوا أنفسهم بقوة السلاح كان أهل البلاد يناصبون حكم الهولنديين العداء وان عجزوا عن التعبير عن ذلك بحكم القهر الذي يخضعون له. ويعبر ريجكوف فان جوين عن هذا صراحة في عام ١٦٥٥ إذ يقول «جميع شعوب آسيا تكرهنا كراهيتهم للموت». وتؤكد هذا الرأي مصادر أخرى كثيرة معاصرة، مثال ذلك شهادة

ادوارد بارلو وقد كان أسير حرب في باتافيا عام ١٦٧٢ ومن ثم عرف عن كُتب حقيقة نظرة أهل باتافيا إلى المحتلين الهولنديين والتي تشبه نظرة أهل أندونيسيا المحتلة، يقول: أهل جاوة يكرهونهم إلى أقصى حد. ومع هذا يمعن الهولنديون في إخضاعهم حتى لا يجرؤوا على فعل أي شيء لأنهم يعرفون جيدا أنهم إذا ما قدر لهم أن ينهضوا وينتصروا عليهم فلن تأخذهم بهم رحمة. وباتافيا جزيرة منيعة داخليا وخارجياً بحيث لا تستطيع قوة صغيرة أن تلحق بأهلها أي ضرر. وتكشف سجلات أحداث تاريخ جاوة مدى الشك والتوجس وعدم الثقة في نظرة معظم أهل جاوة إلى الهولنديين وإلى أفعالهم. أما عن سيلان فإن مشاعر أهلها في المناطق الساحلية الخاضعة لسلطان الهولنديين بعد طرد البرتغاليين في عام ١٦٥٨ إنما يعبر عنها بإيجاز، كما أوضح روبرت كنوكس، المثل السائر السنهالي الذي يحكى قصة رجل أحسن فكان جزاؤه جزاء سنمار، إذ يقول المثل «أعطيته عسلا فأعطاني خلاء».

وأدت الاختلافات الدينية الى توسيع الهوة بين الأوروبيين وبين الآسيويين. فإذا كان الهولنديون الكالفينيون في القرن السابع عشر شاركوا في الرأي البرتغاليين الكاثوليك الرومانيين اعتقادهم في حق المسيحيين الأوروبيين المطلق في استغلال جميع السلالات الأدنى شأننا خارج حظيرة المسيحية، فإن شعب أندونيسيا المسلم نظر بكرامية وازدراء إلى الهولنديين باعتبارهم «كفاراً، تماماً مثلما فعل البرتغاليون الكاثوليك أو أهل بالي من الهندوس أو الوثنيون الدياكس في بورنيو. وفي سيلان حيث النظام الطائفي ضارب بجذور عميقة الغور بين السنهاليين البوذيين مثلما هو بين التاميل الهندوس، اكتشف الهولنديون أن أبناء الطوائف الأدنى شأننا كانوا أميل إلى «عدم الولاء» لهم وأكثر انفتاحاً إلى المؤثرات الآتية من مملكة كاندي المستقلة على عكس أبناء الطوائف الأدنى مرتبة. علاوة على هذا كان من المحتم كقاعدة عامة أن يؤثر الآسيويون القهر من جانب حكام من أبناء جلدتهم وعقيدتهم على قهر من جانب غزاة أتوا اليهم من أوروبا عبر البحر، لهم أنماط فكر

وسلوك غريبة عنهم وعليهم تماما. ومع هذا، وهو أمر طبيعي، أن الهولنديين لم يحسنوا دائماً فهم هذا الوضع. وعندما كان ريجكوف فان جوينز حاكماً عاماً على سيلان، أحس بقلق شديد إذ وجد الأغلبية العظمى من السنهاليين يفضلون حكم راجا سنهيا «الاستبدادي القهري» على إدارته «المسيحية القديمة». ونادراً ما أثبت المديرون بالبرهان صدق هذه النظرة الأبوية داخل الوطن. ففي عام ١٦٧٥ منعوا الحاكم العام ومجلسه في باتافيا من إيفاد سفن تحمل مؤنًا وأطعمة لإغاثة شعب سيلان من المجاعة. وكتب مجلس إدارة الـ ١٧ في هذا الصدد «أحكام الناس ليست بالأمر الذي يعنيناه».

وإن الهوة الواسعة الفاصلة بين الأوروبيين والاندونيسيين سواء أكانت دينية أم اجتماعية أم لغوية أو سياسية، لم تكن لتعني أن الاندونيسيين يعارضون قيام جبهة متحدة ضد عدوان الأوروبيين. بل الأمر أبعد من ذلك كثيراً. فإن أهالي سيرام، وهم أشد من عانوا من قسوة حملات هونجي العسكرية التي استهدفت استئصال جميع أشجار التوابل غير المرخص بزراعتها، كانت تمرقهم عداوات وحزازات قديمة بين مختلف الشيوخ والعشائر والقرى. وساعد هذا الهولنديين إذ جعلهم يعتمدون على مخبرين في مقاطعة ما ليأتوهم بأخبار كاملة عن نشاط أي تهريب يجري في مقاطعة أخرى. وعمد الهولنديون في أكثر من مناسبة إلى رشوة سفاكي الدماء السوثيين في داخل الجزيرة للعمل كقوات مساعدة ضد القرى الساحلية المسلمة المتمردة أو المنشقة سواء في سيرام أو أمبويانا. والمعروف أن احتلال ماكاسار لم يكن ممكناً إلا بفضل تعاون الأمير الـيوجيني أور بالاكا ومحاربيه من بوني. ويصدق الشيء نفسه على غزو كورنيس لمنطقة الأزتكس الذي تم بفضل المساعدات القوية التي تيسرت له نتيجة تحالفه مع أعدائهم الألداء التلاكس كالانز. وكذلك أفادت الشركة في حروبها لاحتلال جاوة منذ عام ١٦٧٤ بالمساعدات التي تلقتها من القوات العسكرية لكل من أمبويانا وباليانا ومادوريس. وكثيراً ما اتهم البعض الشركة بانتهاج سياسة ماكيا

فيليه التي تعتمد على مبدأ «فرق تسد» وواقع الأمر أنها لم تفعل في أغلب الأحيان أكثر من استغلال التطاحنات العدائية عميقة الجذور والقديمة بين الفرق المختلفة المنتشرة في كثير من الجزر الأندونيسية.

وتأثر انطباع الصينيين عن الهولنديين في القرن السابع عشر تأثيراً قوياً بهجمات القرصنة التي اعتاد الهولنديون شنّها ضد السفن التي تتاجر مع مانيلّا، وكذلك اختطاف الصينيين عنوة واسكانهم قسراً في باتافيا بعد استيلاء كوين على جاكارتا. وكتب مؤرخ صيني معاصر لتلك الفترة يقول: «إن الناس الذين نسميهم ذوي الشعور الحمراء أو البرابرة الحمراء الهولنديون ويعيشون على سواحل المحيط الغربي. إنهم نهايون يطمعون في أملاك غيرهم، ومخادعون، ولديهم خبرة واسعة بالبضائع النفيسة، وأصحاب ذكاء وحيلة في سبل الكسب وجمع المال. يخاطرون بحياتهم من أجل الحصول على الربح. ولا يعز عليهم الوصول إلى أي مكان مهما كان بعيداً. يملكون سفناً ضخمة قوية متينة والتي نسميها في الصين «السفن ذات الأنواع الخشبية المزدوجة». وهم أصحاب حيلة واسعة وعقلية ابتكارية. يصنعون أشعة السفن على هيئة بيوت العنكبوت والتي يمكن توجيهها إلى أي زاوية في اتجاه الرياح. وإذا اعترضوا طريق أحد في البحر فلا بد وأن ينهبوه». وبعد أن استولت أسرة مانسو على فورموزا، وقبل الهولنديين الالتزام بقواعد التجارة الصارمة في كانتون على قدم المساواة مع الانجليز والفرنسيين والدانمركيين وغيرهم نظر الصينيون إلى أبناء الأراضي المنخفضة نفس نظرهم إلى هؤلاء «الشياطين الأجانب»، ومن ثم اقتصرّت الاتصالات على العلاقات التجارية فحسب.

والجالية الصينية الضخمة التي نمت في باتافيا وفي مناطق أخرى خاضعة لحكم الهولنديين في أندونيسيا، تناسلت وتكاثرت عن طريق زواج (أو اتخاذ محظيات) الرجال الصينيين بنساء أندونيسيات نظراً لأن عدداً قليلاً جداً من النساء الصينيات هن اللاتي غادرن المملكة الزهرية الوسطى

آنذاك. ونظرت الحكومات الصينية المتعاقبة سواء حكومات أسرة منج أو ماتشو، إلى الصينيين في أندونيسيا باعتبارهم فئات منبوذة اجتماعيا، نظراً لأن هؤلاء المهاجرين ارتضوا أن يهجروا موطن ميلادهم وتخلوا عن رعاية مقابر أسر أسلافهم. وعندما ارتكب الهولنديون مذبة اجتماعية ضد الجالية الصينية وراح ضحيتها أغلب أبناء هذه الجالية في باتافيا في عام ١٧٤٠ إثر تصور خاطئ بأن الصينيين على وشك التمرد ضدهم، خافوا الانتقام منهم ومن تجارتهم مع كانتون. ولكن لم يحدث أي شيء يعكر صفوهم وأوضح بلاط أسرة مانشو في بكين أنه غير مبال تماما ولا يعنيه مصير الصينيين المقيمين فيما وراء البحار. وهذا هو نفس ما فعله أباطرة أسرة منج عندما اعتاد الأسبان ارتكاب مذبة بصورة دورية ضد الصينيين المقيمين في مانيلا.

وثمة تاريخ صيني لأحداث باتافيا تألف في عام ١٧٩٢ اعتمادا على سجلات حفظها الأمناء المتعاقبون للجالية الصينية هناك. ويهيء لنا هذا التاريخ رؤية عن كبار الموظفين الهولنديين، وهي رؤية من المفيد مقارنتها لرسوم الشخصيات التي رسمها فالنتين والمؤرخون الهولنديون المحدثون للحكام العامين. ويصف الصينيون الحاكم العام جوهان مايتسوك (١٦٥٣-١٦٧٨) بأنه «رجل ذو شخصية مشاكسة غير محبة. ولذلك لا يجرؤ أبناء الطبقات الدنيا على المرور أمام بابه. وإذا حدث ومر من أمامه أحدهم عن غير قصد، فقد يقبض عليه ويعاقبه. ولم تبذل الشركة أي جهد لإيقاف هذا العمل». وينتقد الصينيون جوهانس كامفيوس (١٦٨٤-١٦٩١) لأنه شرع في أعمال احتكارية جديدة. «جلبت الثراء للشركة والفقر للناس». ومن ناحية أخرى يمتدحون هذا الحاكم العام لأنه سمح ببناء مدرسة صينية. وأن الهولنديين كشفوا بهذا العمل عن رغبتهم في التلاؤم مع رغبات ومعاملة الأجانب معاملة تتسم بالكرم وجدير بالذكر أن الحاكم العام فالكثير (١٧٣٧-١٧٤١) لا ينحون عليه أساسا باللائمة بسبب المذبحة الرهيبة ضد

الجالية الصينية في باتافيا في عام ١٧٤٠، بل اللوم موجه إلى خليفته جوستاف بارون فان ايمهوف الذي يوصم بأنه عار على البشرية في حياته وفي مماته. «ويصف الصينيون في هذا الكتاب بتروس البرنوس فان دير بارا، الذي يعتقد في نفسه انه أبرّ الناس، (١٧٦١-١٧٧٥) فأنه ودود في ظاهره مع الناس، ظالم في باطنه.

واتسم موقف اليابانيين تجاه الهولنديين بالجمع بين النقيضين في وحدة واحدة أكثر من مواقف سواهم. فمن ناحية، وكما نعرف من سجلات المحطة التجارية في هيرادو وفي ديشيما أن الشعبين الهولندي والياباني يجمعهما عشق المشروبات الكحولية وامكانية الانغماس في اللذات والمرح الى درجة جعلت الاسبانيين والبرتغاليين الأكثر اعتدالا يمجون هذا الطراز من الحياة خلال الفترة المعروفة باسم «القرن المسيحي» في اليابان (١٥٤٣-١٦٤٠). وخلال قرني العزلة اللذين فرضهما حكم طوكوجاوا الدكتاتوري العسكري (١٦٤٠-١٨٥٤) قام الهولنديون أيضا بدور «تجار المعرفة والتنوير» في ديشيما. وكانت هذه المحطة التجارية الهولندية هي القناة الوحيدة التي حصلت من خلالها السلطات اليابانية على المعلومات (التي يرغبون فيها وفي الحدود التي ينشدونها) عن أحداث أوروبا. وتلقى الهولنديون عبر هذه القناة أيضا الكتب الهولندية التي يمكن أن يقرأها عدد محدود من المترجمين اليابانيين من أبناء ناجازاكي. وخلال القرن الثامن عشر بدأ عدد قليل من الباحثين والموظفين بل والديميو Daimyo (أو البارونات الاقطاعيين اليابانيين) في الاهتمام فكريا بالتعليم الهولندي. ولكن شخصا أو شخصين من ذوي الاتجاهات الشاذة مثل (شييا كوكان (١٧٢٨-١٨١٨) وهوندا توشيكاكي (١٧٤٤-١٨٢١) اعتبروا الحضارة الأوروبية أرقى مرتبة من حضارة الصين واليابان من بعض الوجوه. وحققت دراسة علوم الغرب من الطب والفلك والرياضيات تقدما مذهلاً داخل الحلقات الصغيرة التي اقتصر عليها بالضرورة.

وأعجب اليابانيون كذلك بمهارات الهولنديين كملاحين وبناء سفن وصناع أسلحة. والملاحظ أن رؤساء محطة ديشيما التجارية أو الأطباء المقيمين هناك حينما كانوا ذوي اهتمام فكري بالأحداث المحيطة بهم ومن ثم بذلوا جهداً لفهم نظرة اليابانيين إلى الحياة والمجتمع، استقبلهم الموظفون اليابانيون الرسميون وكذلك الديميو: بارونات الاقطاع استقبلاً حافلاً ينطوي على قدر كبير من الاحترام والتقدير، مما ساعد على قيام علاقات طيبة. وما هو رجل مثل ايزاك فيتسنج الذي أقام في اليابان بضع سنوات (١٧٨٠-١٧٨٣) وأجرى مراسلات ودية من البنغال مع عدد من المترجمين اليابانيين في ناجازاكي ومع اثنين من الديميو أو أمراء الاقطاع الذين تعلموا قراءة وكتابة اللغة الهولندية. وكثيراً ما كان الهولنديون في ديشيما من الطراز الذي انتقده ثنبرج في عام ١٧٧٥. إذ انتقد هذا الرحالة السويدي بقسوة «حمق بعض ضعاف الفكر من الضباط الهولنديين الذين يعملون هناك لما يبدو من كبرياء إزاء اليابانيين، وما يكشفون عنه من سلوك ينطوي على ازدراء، فضلاً عن نظرات الاحتقار وضحكات السخرية. وأقضى هذا إلى أن استشعر نحوهم اليابانيون بدورهم كراهية واحتقاراً. وزادت الكراهية كثيراً عندما لاحظ اليابانيون بدورهم كراهية واحتقاراً. وزادت الكراهية كثيراً عندما لاحظ اليابانيون الأسلوب غير الودي والسلا إنساني في سلوك الهولنديين عادة فيما بين بعضهم البعض، والمعاملة الوحشية التي يعاني منها البحارة على أيدي قادتهم علاوة على اللعنات واللكمات التي تنهال على هؤلاء المساكين من قادتهم».

وإذا كان الضباط الهولنديون اعتادوا صب اللعنات والسباب واللكمات على بحارتهم فإن لنا أن نتخيل بسهولة نوع المعاملة التي يلقاها العبيد على يد سيادهم إذا ما أخطأوا. وعلى الرغم من أن الهولنديين لم يعتمدوا في الأصل

* C. P. Thunberg; Travels Val. I; p. 277.

* C. R. Boxer, The Dutch in Brazil, 1624-1654.

على جهد العبيد في أداء الأعمال بنفس الدرجة عند البرتغاليين قبلهم في القارات الثلاث؛ إلا أنهم سرعان ما اكتشفوا أن لا طاقة لهم على الحياة بدونهم مهما كانت طبيعة وخزات الضمير الكالفني التي تؤلمهم بشأن هذه التجارة في الجنس البشري. وسبق أن رأينا أن التجارة الهولندية الأولى مع غرب أفريقيا استهدفت أولا وأساسا تجارة الذهب والعاج، غير أن غزو شمال شرق البرازيل في الأعوام ١٦٣٤-١٦٣٨ أفضى إلى الطلب الكبير على العبيد في «نيوهولاند»، علاوة على العبيد الذين كانوا يباعون إلى الأسبان في منطقة الكاريبي وإلى الانجليز في فرجينيا. وحدث أن تلاعب جون موريس حاكم ناسو - سيجين أول الأمر بفكرة استخدام العمال البيض الأحرار للعمل في طواحين السكر في برنامبوكو. غير أنه سرعان ما عاد إلى النظرة السائدة لدى كل من المزارعين البرتغاليين والهولنديين في المناطق الاستوائية وهي «أن ليس بالإمكان عمل شيء مجد في البرازيل بدون العبيد ... وأن لا سبيل إلى الاستغناء عنهم في أي مناسبة من المناسبات. وإذا ما ظن أي أمرىء أن هذا رأي خاطيء فإن ظنه في غير محله.» ولقد كانت باتافيا بدون المستعمرين الوافدين من الأراضي المنخفضة، أهلة بالعبيد الذين أتى بهم من المناطق المحيطة بخليج البنغال، وكان البحث يجرى لجلب زوجين شابين مع أطفالهما لهذا الغرض. كذلك فإن مزارع ثمرة جوزة الطيب المملوكة للهولنديين في جزر باندا كان يسكنها أساسا عبيد جلبوا من الخارج وصينيون من معتادي الاجرام، بعد طرد أو استئصال السكان الأصليين. بل إن الهولنديين حرصوا على جلب العبيد حتى في مناطق مثل ساحل كورومانديل حيث الأيدي العاملة الحرة رخيصة ومتوفرة. وإن البحث عن أسواق العبيد دفع بسفن شركة الهند الشرقية إلى مناطق بعيدة حتى وصلت إلى مدغشقر ومنداناو.

وإذا كان الهولنديون قد دخلوا سوق تجارة العبيد، سواء شرقا أم غربا مع بعض التردد والخوف في أوائل القرن السابع عشر فإنهم سرعان ما بددوا شكوكهم ومخاوفهم وأقدموا على الشروع في التجارة متأخرين. وأعرب بعض

الرحالة الهولنديين الأوائل عن شعورهم بالهلع إزاء سوء معاملة البرتغاليين لِعبيدهم، ولكن سرعان ما اقتترف الهولنديون الإثم ذاته وأرتكبوا أفعالا وحشية مماثلة على نحو ما تكشف روايات الرحالة عن القرنين السابع عشر والثامن عشر كما كشفت عن القسوة الوحشية المروعة لتشريعاتهم الاستعمارية في هذا الموضوع. ومثلما حدث على يد البرتغاليين لاحظ كثيرون من شهود العيان أن نساء ملاك العبيد ارتكبن أفظع الأعمال الوحشية قسوة ضد عبيدهن خاصة ضد الفتيات الجميلات اللاتي راودهن شك في أن يكن خليلات لأزواجهن. وجدير بالذكر أن مديري الشركتين الشرقية والغربية منعوا لأسباب مختلفة استرقاق الهنود الأمريكيين والهنوتوت وأبناء جاوة. ونعرف أن معظم العبيد الأندونيسيين أتوا من سلييس وبالي وبوتون وتيمور. وكان استيراد العبيد من ماكسار وبالي إلى باتافيا محظوراً قانوناً، أو يخضع لقيود قاسية في الغالب الأعم نظراً لنزوع أبناء تلك الجزر إلى الاندفاع في الطرقات وقتل كل من يصادفهم أو ميلهم إلى الانتقام إذا أسيتت معاملتهم. ولكن يبدو أن أوامر الحظر التي كانت تصدر بصفة دورية مصيرها إلى حد كبير الإهمال عملياً.

وضمنت بيوت الهولنديين أعداداً كبيرة لا لزوم لها من العبيد، وإنما يحتفظون بهم قصد التفاخر والتباهي مثلما كان الحال في جوا البرتغالية وفي لواندا وباهيا. وما هي عروس احتفلت بزفافها حديثاً تكتب رسالة من باتافيا إلى خالتها في هولندا عام ١٦٨٩ تصف فيها مهام تسعة وخمسين من العبيد في بيتها على النحو التالي: ثلاثة أو أربعة من الشباب، وعدد كبير من الخدامات يصطحبونها هي وزوجها أينما حلا أو رحلا خارج المنزل. وخمسة أو ستة آخرون يعملون في خدمة الرجال وتصطف الخدامات وراء كرسي كل منهما وقت تناول الطعام. وعندهم جوقة موسيقية عازفوها من العبيد، يعزفون على القيثارة والكمان والباسون ساعة تناول الطعام، وينتظر كلا منهما دائماً ثلاثة أو أربعة عبيد في الداخل ويجلس واحد عند مدخل البيت لا يبرحه على

استعداد لتلقي الرسائل أو للجري سريعاً لإبلاغ رسائل. ويعمل بقية العبيد في أداء مهام مختلفة داخل البيت مثل تخزين الطعام والطبخ ورعاية الحديقة والخياطة.. الخ.

ولقد كانت سخرة العبيد في الزراعة على يد الهولنديين، شأنهم شأن القوى الاستعمارية الأخرى، عملاً يغب عليه طابع اللا إنسانية وبلادة الحس أكثر مما هو الحال داخل البلاد. وتملك سورينام دون شك سجلاً قاسياً في هذا المجال خلال القرن الثامن عشر. والمعروف أن أحداث تمرد العبيد انتشرت واستشرت طوال هذا القرن. ويبدو أن أصحاب المزارع في سورينام أو نظام هذه المزارع لم يستخلصوا الدرس الذي استخلصه واحد من زعماء تمرد العبيد في عام ١٧٦٠ حيث قال: «كان البيض يجدهم أنوفهم، وبهذه المعاملة السيئة للأيدي العاملة الثمينة التي تعمل في حقولهم كانوا يدفعونهم قسراً إلى التماس ملاذ لهم في الغابات». وكوّن العبيد الهاربون أو «زئوج الأدغال» كما كانوا يسمونهم مستوطنات داخل الغابات وكانت هذه المستوطنات هدفاً دورياً لهجمات تشنها مجموعات من الجنود الهولنديين لإنزال العقاب بسكانها ولكن دون الوصول إلى نتائج إيجابية. وحدث أن أسر أحد القادة الزئوج ويدعى يارون ضابطاً أبيض من ضباط الجيش الهولندي لم يعض عليه في سورينام سوى وقت قصير. ولكن الزعيم الزنجي أطلق سراحه وهو يقول له: إذهب لأنك لم تبق هنا في المستعمرة وقتاً طويلاً لتصبح مذنّباً وتحمل وزر إساءة معاملة العبيد».

لقد كان مجتمع سورينام في القرن الثامن عشر يشبه في بنيته مجتمع المزارع والعبيد لمستعمرات السكر للسلطات الأوروبية في جزر الهند الغربية إذ يحتل المزارعون البيض قمة الهرم الاجتماعي. ويحرصون في حياتهم على مظاهر وأبهة السادة الاقطاعيين شأن نظرائهم في أنتيل وفي البرازيل. ثم ظهر ما يمكن أن نسميه جنين الطبقة الوسطى التي تضم نظار الزراعة والكتابة والتجار وجميعهم من البيض. وتأتي بعد ذلك مجموعة الأحرار. ويحتل

قاعدة الهرم العبيد الزوج الوافدون الجدد من غرب أفريقيا واصطلح على تسميتهم «زوج المياة المألحة» لتمييزهم عن الأيدي العاملة القديمة الذين أطلق عليهم اسم المولودون. وكما هو الحال في جميع المجتمعات التي تعيش على جهد العبيد وسخرتهم نجد المسافة الاجتماعية الفاصلة بين هذه الفرق واضحة وبعيدة، والعلاقة المباشرة بين أرقى الجماعات وبين أدناها مرتبة إنما تأتي من خلال اتخاذ الرجال البيض محظيات لهم من بين الزوجيات وكانت العلاقة المشتركة بين السادة والعبيد في سورينام أقل من جزر الهند الغربية الانجليزية والفرنسية، وذلك لأن اللغة المشتركة المستخدمة هناك لم تكن الهولندية ولا البرتغالية بل لغة غريبة تسمى الانجليزية الزنجية وهي بقايا موروثة عن أصول انجليزية للمستعمرة في ١٦٥٠-١٦٦٦ - ولعل العناصر الثقافية التي وفدت مع الزوج العبيد كانت أكثر رسوخا في سورينام عنها في أي مكان آخر من العالم الجديد. وفي رأينا أن هذا يرجع جزئياً إلى أن أصحاب المزارع حالوا بصورة منظمة دون انتشار أي شكل من أشكال المسيحية بين عبيدهم. ولكن يمكن القول إجمالاً أن امتهان الإنسان للإنسان بلغ أقصاه في سورينام. وقد نلتمس بعض الراحة لنخفف عن أنفسنا ومن ثم ننقل إلى مجال آخر من التاريخ أقل سوءاً ودناءة.*

* R. A.J van Lier; the Development and Nature in the west Indies (Amsterdam, 1950); L. L.E. Reus; The Historical and Social Background of Surinam's Negro-English (Amsterdam; 1953).

الباب التاسع

حانة مجمع البحرين

لست على يقين لمعرفة اسم أول من أطلق على رأس الرجاء الصالح اسم «حانة المحيط الهندي» غير أن مفوض الحكومة أو تنهاج دي ميست الذي استخدم هذه العبارة في «مذكراته» الشهيرة التي صدرت عام ١٨٠٢، والذي تعزى إليه على أنه قائلها، لم يكن هو يقينا أول من ابتدع هذا الوصف. ان شونبرج الذي زار الرأس في عام ١٧٧٢ كتب يقول: «يمكن تجهيز هذا المكان على نحو ملائم ليكون نزلاً للمسافرين من وإلى جزر الهند الشرقية، حيث يمكنهم بعد مشقة سفر دام شهوراً في البحر ان يلتئموا فيه بعض الراحة والانتعاش على اختلاف صوره، وحيث يكونون في منتصف الطريق، سواء من الوطن أم إليه». وأشك أن العبارة يرجع تاريخها إلى القرن السابع عشر، ولكن ايا كان الامر فإننا نعرف أنه منذ ان رفع جان فان ريبك العلم الهولندي هناك في عام ١٦٥٢ وحتى تاريخ افتتاح قناة السويس بعد أكثر من قرنين، كان مواطنو مدينة الكاب هم مضيفو الحانة القائمة عند مجمع المحيطين الهندي والاطلسي.

وإذا كان البرتغاليون هم الذين اكتشفوا الرأس وأطلقوا عليه اسمه قبل نهاية القرن الخامس عشر، إلا أن سفنهم التجارية الشرقية سواء المتجهة إلى أرض الوطن أو خارجة منها، اعتادت تجنب الرسو بها واتخذت من جزيرة موزمبيق ذات الجمال الساحر، وإن كانت غير صحية، ميناء رئيسياً تعرج عليه السفن في زيارة قصيرة. وعندما قرر مديرو شركة الهند الشرقية الهولندية تحدي مزاعم البرتغاليين في احتكار المحيط الهندي، حاولوا انتزاع

* C. P. Thunberg; Travels in Europe, Africa and Asia, 1770-79, Val. I, P. 229.

هذا الحصن من أيدي أعدائهم في عامي ١٦٠٧-١٦٠٨. ولو أنهم نجحوا في مسعاهم هذا لما قرروا أبدا إنشاء محطة أو مركز للترويج في رأس الرجاء الصالح، ولسار تاريخ جنوب أفريقيا في مسار آخر مغاير تماما. ولكن بعد فشل الهولنديين في الاستيلاء على موزمبيق، استحسن كل من البرتغاليين والانجليز فكرة إقامة مستوطنة خاصة بهم في الرأس، بهدف احباط أي محاولة من جانب الهولنديين لاحتلالها. وفي يوليو ١٦٢٠ رسا قائد أسطول انجليزي عابر يتبع شركة الهند الشرقية الانجليزية عند الرأس وغرس علما مرسوما عليه صليب القديس جورج فوق كفل الاسد واعتبر هذا إيذانا بملكية رسمية لشبه جزيرة الرأس باسم الملك جيمس. ولكن لم يكن هناك من يعترف بهذا الاعلان، وظلت شبه جزيرة الرأس أرضا مشاعا غير مملوكة لأحد إلى حين جاء فان ريبليك ونفذ قرار مجلس ادارة الـ ١٧ بشأن إقامة محطة للترويج وتموين السفن هناك بعد اثنتين وثلاثين سنة.

وحري بنا أن نسلم بأن رأس الرجاء الصالح لم يحقق تماما جميع آمال المديرين نظراً لأن بحارة السفن الهولندية الذين عرجوا على هذا الميناء عانوا من أمراض كثيرة ليس أقلها النقرس وغيره من أمراض البحارة المعروفة، ونحن لا نملك إحصائيات عن نسبة الوفيات خلال فترات سابقة ولكن الاطلاع على ما نملك من احصائيات يعطينا انطباعا بأن معدل وفيات البحارة كان خلال السنوات الخمسين السابقة على تأسيس مدينة الرأس خلال الخمسين سنة الأخيرة من عمر الشركة. ويمكن القول، على أية حال، مع ضمان قدر معقول من اليقين أن معدلات الوفيات بدأت تتزايد خلال العقد الأخير من القرن السابع عشر وتدهورت باطراد (مع تذبذبات كثيرة) خلال القرن الثامن عشر، وكانت الأعوام من ١٧٦٠ إلى ١٧٩٥ هي أسوأ الأعوام جميعها.

ويقدم لنا ستافورينوس مثالا نموذجياً شاهداً على هذا بقوله «ما بين سبع وعشرين سفينة أبحرت من أوروبا في ١٧٦٨-١٧٦٩ والتي ضمت كما

تفيد سجلات العاملين عليها، ٥٩٧١ عاملاً، بلغ عدد الموتى منهم ٩٥٩، وهي نسبة تقارب كثيراً نسبة ١ إلى ٦. وفي عام ١٧٨٢ غادرت الأراضي المنخفضة عشر سفن تابعة لشركة الهند الشرقية تحمل على متنها ٢٦٥٣ رجلاً، مات منهم ١٠٩٥ أي ٤٢ بالمائة قبل وصول السفن إلى رأس الرجاء الصالح، وأودع ٩١٥ منهم المستشفيات. ونذكر بهذه المناسبة أن هذا المكان أي المستشفى لم يحظ، إلا نادراً، بسمعة طيبة؛ بل هناك من وصفه بأنه جبانة لدفن الموتى وليس مستشفى. ولقد كان منتسبيل على صواب دون ريب عندما كتب عن الجنود والبحارة المرضى في مدينة الكاب، «أن الهواء النقي واللحم الطازج أسهما في شفائهم أكثر مما أسهم الأطباء بكل ما قدموه من أدوية». وإن زيادة معدلات الوفيات بين رجال سفن شركة الهند الشرقية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ربما ترجع إلى عدم صلاحية الكثيرين من هؤلاء الرجال - أصلاً - أولئك الموجودون في موانئ هولندا بحالتهم الصحية المتدهورة بسبب بيوت إيواء البحارة، وأولئك الموجودون في باتافيا وانهكتهم حمى الملاريا المتفشية وأحالت «ملكة بحار الشرق» إلى مقبرة. ولكن مهما كانت معدلات الوفيات خلال السنوات ١٦٥٢-١٧٩٥ بالغة السوء إلا أنها كانت ستغدو أشد سوءاً أو تفاقمًا بدون إنشاء مرسى مدينة الرأس ليكون استراحة في منتصف الطريق.

جانب آخر من التوقعات الأولى التي استهدفها مؤسسو الرأس «الكاب» ولم يحققها الميناء وهو أن منطقة تيبيل باي Teble Bay تبين أنها مرفأ غير مأمون أو أقل أماناً مما كان متوقعاً. إذ خلال شهور الشتاء، وبخاصة في شهري مايو ويونيو لا تكون منطقة الكاب مرسى آمناً لرسو السفن نظراً لهبوب رياح وعواصف شديدة شمالية وشمالية غربية. وإن قصص كوارث السفن على مدى مائة وخمسين عاماً كثيرة ولا يمكن سردها هنا. ولكن تكفي إشارة عابرة للمأسى الرهيبة خلال السنوات ١٦٩٧ و١٧٢٢ و١٧٢٨ و١٧٣٧ و١٧٩٠ وهي سنوات شهدت أفظع كوارث تحطم وفقد سفن

تجارية محملة بأغلى البضائع وضاعت هي ومن عليها وكل ما فيها. وفي عام ١٧٥٣ أصدر مجلس إدارة الـ ١٧ قراراً بحظر رسو السفن التجارية في الكاب خلال موسم الشتاء من ابريل الى سبتمبر، وعليها أن ترسو في مرفأ فولس باي False Bay لانه افضل من الكاب لما يتمتع به من حماية تقيه غوائل الرياح الشمالية الغربية. ولم تلتزم السفن التزاماً صارماً بهذا الأمر، ولم تهتم اهتماماً كافياً بالأوامر المتكررة التي أصدرها مجلس إدارة الـ ١٧ والتي تحد من بقاء السفن التجارية في منطقة الكاب لمدة تتراوح ما بين عشرة وعشرين عاماً. ودرس مجلس الإدارة إمكانية حظر رسو السفن التجارية في منطقة الكاب، إلا لأسباب اضطرارية يستحيل تفاديها، وذلك حفاظاً على السفينة وأرواح البحارة. بيد أن المديرين قرروا في النهاية (عام ١٧٦٦) أن على السفن التي تغادر باتافيا بعد الأول من ديسمبر ألا ترسو للراحة في منطقة الكاب إذا ما كان بالإمكان تحاشي ذلك. ولم يكن الدافع وراء هذه الأوامر التي تحذر من البقاء طويلاً في المرفأ هو فقط الرغبة في تجنب تحطم السفن بل وأيضاً الأقلال من النفقات التي تنطوي عليها هذه الأحداث، والحد، قبل هذا أو ذاك من عمليات التهريب والتجارة الخاصة.

وحاربت السلطات هنا، مثلما حاربت في مواضع أخرى، معركة خاسرة ضد هذه الآفة التي لا خلاص منها. وإن القوانين المتوالية ضد نشاط التهريب، وعمليات الاستنكار المتكررة لسوء سلوك البحارة والجنود العابرين بسفنهم، تبين مدى اغفال الالتزام بهذه الأوامر والتحذيرات. وما هي ديباجة أحد هذه القوانين الصادرة في مدينة الكاب عام ١٧١٩، تعترف في أسى بأنه على الرغم من قسوة العقوبات المفروضة على كل من ينتهك القواعد المناهضة للتهريب أو يخرق النظام إلا أن «انتهاك البحارة للقانون لم ينقص بدافع الخوف من العقاب بل على العكس ازداد كثيراً. وتفاقم الموقف كثيراً في منطقة الكاب نظراً لأن السفن التجارية الأجنبية التي ترسو في الميناء خلال القرن الثامن عشر أكثر من الهولندية. وحاول مجلس إدارة الـ ١٧ أن يثني السفن

التجارية الأجنبية عن الرسو في الكاب بأن أصدر تعليماته بأن لا تحصل هذه السفن إلا على أقل حد ممكن من المؤن الضرورية. ولكن المديرين اتخذوا بعد ذلك سياسة أكثر ليبرالية بعد أن أدركوا أن كلا من الشركة وأهالي مدينة الكاب يمكنهم الاستفادة وتحقيق عائد من الأرباح نتيجة بيع المنتجات المحلية وتقديم خدمات للسفن التجارية الأجنبية بعد أن أصبحت المستعمرة مكتفية ذاتيا بالمواد الغذائية ابتداء من عام ١٦٨٤.

وتزايد اعتماد «حانة مجمع البحرين» على السفن الأجنبية مورداً لرخائها، وهذا ما تشهد به تعليقات زائرة انجليزية زارت مدينة الكاب في العامين ١٧٦٤-١٧٦٥، والتي تقول فيها:

«لا شيء أحب إلى الناس هنا من وصول سفينة انجليزية، إذ بوصولها تنساب النقود بين أيدي الناس. والحقيقة أن أموال الانجليز هي دعامة أكثر الناس هنا. ولا يتأتى هذا فقط عن طريق اصطحاب القباطنة والركاب وغيرهم للمبيت والخدمة في بيوت أهل البلد، بل وايضاً عن طريق تزويد السفن بالمؤن. وترسو هنا سفن فرنسية كثيرة، وكذلك السفن الهولندية في طريقها من وإلى الهند. ولكنهم جميعاً يتلقون الخدمات اللازمة بأسعار محددة نصت عليها تعليمات الشركة الهولندية. ونظراً لأن الفرنسيين والهولنديين لا ينفقون بحرية وعن سعة مثل الانجليز، فقد كان طبيعياً أن لا يكونوا ضيقاً مرغوباً فيهم. والعادة المتبعة هي دفع دولار يومياً عن استضافة الفرد طعاماً ومبيتاً فضلاً عن الخدمات الأخرى. وترى الموائد حافلة بأنواع الطعام والبيوت نظيفة، والناس مهذبين، ومما يبعث على المزيد من الراحة أن معظمهم يتحدثون الانجليزية. وهنا ايضاً كثيرون يتحدثون الفرنسية، ولهذا يجد الأجانب أنفسهم في جو عائلي يحيط بهم في هذا الميناء على نحو يفوق الخيال.

وبعد سنوات قليلة أبدى كل من ستافورينوس وثنوبرج ملاحظات مماثلة. ويلاحظ الهولندي أن الزائرين الانجليز «لا يعاؤون بأموالهم وما

ينفقونه منها بحرية وعن سعة على السيدات، بينما يلاحظ السويدي: «إن ضابطاً فرنسياً، حسن الهندام متأنقاً إلى أقصى حد، يزين صدره نجم علامة الجدارة والشرف ورمز تكريم من مليكه، مثل هذا الضابط لا يلقي التكريم والاحترام اللائقين. هذا بينما تجد بحارا انجليزيا أشعث الشعر يلقي ترحاباً وتقديراً كبيرين لكثرة نفوده وانفاقه السخي».

وعلاوة على أهمية ميناء الكاب كمستراح. للزيارات القصيرة عند مرور السفن التجارية المتجهة إلى الشرق والتابعة لمختلف الجنسيات، تحول الميناء إلى مستعمرة ذات طابع فريد إلى حد ما - فيما عدا نيونيدرلاند التي عاشت لفترة قصيرة - قياساً إلى ممتلكات شركتي الهند الشرقية والغربية. إذ كانت بها أراضٍ ممتدة إلى الداخل تتميز بجوها الصحي، ومناخها شبه الاستوائي وخصوبة تربتها جزئياً، ولم يكن يشغلها سوى بدو رحل من أبناء البوشمان والهوئتوت والذين لم يشكلوا خطراً. وكان الاستعمار الأبيض هنا ملائماً مثلما كان ملائماً في نيونيدرلاند علاوة على ميزة إضافية تتمثل في عدم وجود دولة أوروبية منافسة تجاورها. ولا ريب في أن ظروف رواد فان ريبك كانت شديدة القسوة نظراً لأن كل شيء لا بد وأن يبدأ بناؤه بالعرق والظافر، ولم تكن الأيدي العاملة الرخيصة ميسورة مثلما كان الحال في القلاع والمراكز التجارية المملوكة للشركة الشرقية. ولم تكن أخشاب المباني متوفرة مما استلزم استيراد كميات كبيرة من اسكنديناوة عن طريق هولندا إلى أن تم اكتشاف الغابات في مقاطعة الكاب الشرقية في العقد السادس من القرن الثامن عشر، ولم يدر بخلد مجلس إدارة الـ ١٧ أي إمكانية لتوسيع نطاق المستوطنة البيضاء التي أذن المجلس باقامتها كمستعمرة، ولذا ظل حريصاً زمناً طويلاً على ابقائها في أضيق حدود ممكنة بهدف اقتصاد النفقات. وأرجأ ريجكوف فان جوينز (١٦٥٥-١٦٥٧) مشروعاً لحفر قناة تصل بين فوولس باي وتيبل باي، بقصد تحويل شبه جزيرة الكاب إلى جزيرة يسهل الدفاع عنها، ولكن الظروف أرغمت الحكام المحليين (أو القادة كما كانوا يسمون

حتى عام ١٦٩١)، كما أرغمت مجلس إدارة الـ ١٧ من خلالها، على توسيع المستوطنة الأولى إلى حدود لم يكن يحلم بها مؤسسوها في بادئ الأمر.

وسرعان ما أدرك فان ريبك أن الجنود السابقين والبحارة والكتبة والصناع الحرفيين ليسوا أنسب العناصر ليكونوا عمالاً زراعيين حسب ما تقضي به الضرورة إذا ما أردنا أن تزود المستوطنة السفن التجارية التابعة للشركة الشرقية بما يكفيها من مؤن تشتمل على اللحوم والخضراوات والفواكه الطازجة وغيرها. وطالب هو وخليفته زكريا فاجيناير باستخدام العمال الصينيين وذلك لأن كليهما عملا في الشرق الأقصى وأعجبتهما النتائج التي حققها مزارعو البساتين الذين ينتجون للأسواق في فورموزا وجاوة. غير أن سلطات باتافيا عجزت عن حث الصينيين على الهجرة إلى هذه المواقع الخارجية النائية التي يجهلونّها تماما. وإذا كان فان ريبك ضغط في سبيل ارسال عبيد اليه كبديل عن الصينيين إلا أن العبيد لم يبدأ وصولهم بأعداد كافية إلا بعد أن تطورت علاقات تجارة العبيد مع مدغشقر في سبعينيات القرن السابع عشر، وكان مجلس إدارة الـ ١٧ قد حظر صراحة استرقاق السكان المحليين الأصليين. وعلى أية حال فإن الخبرة العملية سرعان ما أكدت أن العناصر الخالصة من الهوتونتوت والبوشمن غير صالحة للعمل كأجراء زراعيين، على الرغم من أن رجال الهوتونتوت يجيدون العمل رعاة وسائسي خيل وسائقين، كما عملت نساء وبنات الهوتونتوت خادمت في المنازل أحيانا.

واضطر فان ريبك، نظراً لعدم وجود العبيد والصينيين إلى العودة إلى نظام البرجوازيين الأحرار الذي فشل فشلاً ذريعاً في جزر الهند الشرقية. وشجع بعض الموظفين المحليين الذين أبدوا - أو تظاهروا بأنهم أبدوا - استعداداً للعمل الزراعي وترك خدمة الشركة والحصول على هبة من الأراضي لزراعتها شريطة بيع المنتج إلى الشركة بأسعار تحددها الشركة. وسمحت السلطات أخيراً للفلاحين والبرجوازيين بالحصول على أسعار أعلى مقابل المؤن التي يزودون بها السفن الأجنبية، فيما عدا فترات القحط التي لا

يبيعون فيها، حسب ما هو مفترض، إلا للشركة وحدها. وظل التقدم بطيئاً جداً لسنوات عديدة... ونلاحظ من ناحية أن السلطات بدأت تشكو من أن البرجوازيين الأحرار ينزعون إلى هجرة عملهم في الأرض ليعملوا بدلاً من ذلك مديري حانات في مدينة الكاب. ونجد من ناحية أخرى البرجوازيين الأحرار يشكون من أنهم عاجزون عن حراثة الحقول وزراعة القمح بدون الاستعانة بثيران وعبيد، وأن الشركة تبخسهم حقهم عند شراء المحاصيل. وبلغ الوضع أسوأ مراحلها في عام ١٦٦٠ عندما تمكن اثنان وأربعون من بين ما مجموعه سبعون برجوازيا حرا من السفر خلصة إلى الأراضي المنخفضة على متن سفن قادمة من جزر الهند الشرقية، وساعدهم البحارة على ذلك. وبعد اثني عشر عاماً كان عدد السكان البيض لم يتجاوز بعد ٦٠٠ نسمة من بينهم أربعة وستون فقط من البرجوازيين الأحرار الذكور البالغين، وأن تسعة وثلاثين شخصاً من هؤلاء هم المتزوجون.

وكانت نقطة التحول في ثمانينات القرن السابع عشر عندما قرر المديرون أخيراً أن مزايا تشجيع عمليات بناء مستعمرات بيضاء في منطقة الرأس ترجح المساوئ. وأرسلوا فرقا مهاجرة للمساعدة من منافي الهوجونوت (البروتستانت الفرنسيين) في فرنسا بعد إلغاء مرسوم نانتييس Nantes (١٦٨٥). كما أرسلوا بعض الأسر الهولندية ومجموعات من الفتيات اللاتي في سن الزواج من دور الأيتام إلى المقاطعات المتحدة. وحتى عام ١٦٩٥ لم يكن هناك أكثر من ٣٤٠ تقريباً من البرجوازيين الأحرار في منطقة الكاب بفضل القيادة النشطة والروح الرائدة للحاكم العام سيمون فان ديرستيل (١٦٧٩-١٦٩٩). وأراد المهاجرون من الهوجونوت العيش معاً، والاحتفاظ بهويتهم القومية غير أن الحاكم سيمون الذي كان منحازاً لميوله القومية كهلندي أصر على تقسيمهم ووزعهم بين المزارعين الهولنديين. وتم استيعابهم بالكامل بعد جيلين أو ثلاثة. ولم يفتأ تيار من الموظفين والعسكريين التابعين للشركة في منطقة الكاب يأخذ طريقه إلى خارج الشركة.

يترك هؤلاء الخدمة بالشركة والتحول الى برجوازيين أو مزارعين. واستوطن هذه الطريقة عدد كبير من الالمان خلال القرن الثامن عشر. ولم تات اغلبيّة هؤلاء بنسائهم معهم بل تزوجوا في الكاب بفتيات من اصول هولندية (أو مولدات تجمعن بين الدم الهولندي والدم الفرنسي) وما أن حل عام ١٧٨٠ حتى كان هناك ما بين ١١٠٠٠ و ١٢٠٠٠ من البرجوازيين الاحرار في المستعمرة، من بينهم ٣٠٠٠ على الأقل يعيشون في مدينة الكاب. ويشير ستافورينوس إلى ملاحظة له قبل ذلك بأعوام قلائل: «إذا كانت المستعمرات الأولى تشكلت هنا من قوميات متباينة، إلا أنها وبعامل الزمن. امتزج بعضها ببعض تماما بحيث يتعذر تمييز قومية عن أخرى. بل نلاحظ أن من ولدوا في أوروبا والذين أقاموا واستقروا هنا لعدة سنوات قد غيروا جميعا طابعهم القومي واصطبغوا بطابع هذا البلد. أو لنقل بعبارة أخرى لقد بدأ تكوين لشعب الافريقاني المولد الذي يجمع بين الدم الافريقي والدم الأوروبي».

ولكن التنمية الاقتصادية للمستعمرة تعثرت إذ عاقتها القيود العديدة التي فرضتها الشركة على النشاط التجاري، ولكن بدرجة أقله على النشاط الزراعي للبرجوازيين الاحرار على نحو ما يبين من شكاواهم المتصلة. وقد كتب فان ريد رسالة إلى دراكنستين في عام ١٦٨٥ أبلغه فيها أن جميع البرجوازيين الاحرار ساخطون من حكم الشركة، فالذين يسكنون قرب القلعة ساخطون لحرمانهم من العمل بالتجارة بحرية. وأولئك الذين يعملون بمزارع انتاج اشجار الأخشاب ساخطون لأنهم لا يحصلون على اسعار مرتفعة مقابل انتاجهم، وأولئك الذين يعملون في حقل تربية المواشي ساخطون لأنه غير مسموح لهم بالمقايضة مع الهوتونتوت. وليس من المعقول أن نتوقع من المديرين الهولنديين في القرن السابع عشر أن يلتزموا بأراء التجارة الحرة التي لم تبدأ في الظهور والشيوع إلا في انجلترا خلال العصر الفيكتوري والتي عبر عنها بإيجاز سير جون باورنج حين قال «التجارة الحرة هي يسوع المسيح، ويسوع المسيح هو التجارة الحرة». ولكن

عدداً قليلاً من المفوضين التجاريين الذين زاروا الكاب خلال السنوات ١٦٥٥-١٧٩٥ انتقدوا بالقل القيود المتشددة المفروضة على السكان، وأوصوا بتخفيف العبء بوسائل بسيطة مختلفة. ونذكر من هؤلاء دانييل تولثنيوس الذي وصل به الأمر في عام ١٧٤٨ إلى أن أشار بأن المستعمرة لن تحقق أي ازدهار حقيقي ما لم تمنح السلطات المسئولة حق حرية التجارة والملاحة «ليس فقط لسكان هذه المنطقة وحدها بل ولجميع من يرغبون في المشاركة سواء للذين يعيشون في أوروبا أو في آسيا» وطبيعي أن مثل هذه النظرية الثورية لم يكن من المتوقع أن تصادف قبولاً لدى مديري الشركة الذين ليس لهم من هدف غير «التجارة والربح» دون أي شيء آخر. وإن رغبة المديرين في الحفاظ على تكاليف صيانة المستعمرة عند أدنى مستوى لها، وتزويد السفن بالمؤن الطازجة بأرخص الأسعار الممكنة، تصادمت وتعارضت مع رغبة سكان المستعمرة في الحصول على الأسعار التي ظنوا أنها حق لهم والتي يمكنهم بالفعل تحصيلها من ركاب وبحارة السفن الأجنبية العابرة. لقد كان هذا صراع مصالح والذي لم يتسن حسمه لمصلحة أي من الطرفين خلال فترة سيطرة الشركة. وإن نظرة سريعة إلى تطور زراعة وإنتاج القمح والنبيد والصوف في مزارع المستعمرة قد تساعدنا على توضيح ما نقصده.

وللأسباب المذكورة آنفاً. مضى وقت طويل أطول مما توقع المديرين في أول الأمر قبل أن تصبح مستوطنة الكاب معتمدة على نفسها وتفي بحاجتها من المواد الغذائية. وسرعان ما أنتجت بساتين الخضراوات التي زرعها فان ريبيك كميات كافية من الخضراوات الطازجة لبحارة السفن التجارية، كما أمكن الحصول على ما يكفي من اللحوم الطازجة عن طريق المقايضة مع الهوتنوتوت. ولكن الكاب ظلت قرابة ثلاثين عاماً معتمدة على استيراد القمح والأرز من باتافيا ومن غيرها. وتحسن الوضع مع اتساع رقعة المستعمرة، وكانت درجة الخصوبة الطبيعية للتربة تختلف من مكان إلى آخر اختلاف

واضحاً، ولكن، وكما أشار منتزيل، لم تكن هناك سوى مزارع قليلة جداً هي المحرومة من مساحات ذات تربة خصبة تتداخل مع رقع من الأرض الرملية والحجرية. واعتاد الفلاحون جني المحاصيل ثلاث سنوات متتالية ثم يتركون الأرض مراحاً السنة الرابعة. واستخدموا محارث تجرها ثيران يتراوح عددها ما بين ستة أو ثمانية أو عشرة ثيران مع فريق من ثلاثة رجال. والمحاصيل الأساسية هي القمح والشعير والجاودار. وموسم الحصاد عادة في أيام عيد الميلاد حيث تتكاتف جميع الأيدي، بما في ذلك الأطفال والعبيد، للعمل داخل الحقول ابتداء من الفجر حتى الفسق مع استراحة للإفطار الساعة السابعة صباحاً، واستراحة أخرى للقيولة من الساعة العاشرة إلى الساعة الرابعة حيث يتعذر العمل بسبب شدة الحر.

وعندما انتجت الكاب أول فائض من القمح يصلح للتصدير طرأت فكرة تخصيص هذا الفائض لتصديره إلى الأراضي المنخفضة، غير أن مجلس إدارة الـ ١٧ رفض هذه الفكرة باعتبار أنها غير عملية نظراً لأن تكلفة إنتاج القمح في الكاب تصل تقريباً إلى ضعف تكلفته في أرض الوطن. ومن ثم حاول المديرين تشجيع تصدير فائض إنتاج الكاب من القمح إلى باتافيا. ولكن السلطات هناك أوضحت أن بإمكانهم الحصول على قمح أفضل وأرخص من البنغال وسورات فضلاً عن أن أرزجاوه متوفر بين أيديهم. غير أن الموقف تغير بسبب الحروب المتعاقبة بين أهالي جاوة والتي اقترنت بتحلل ما تارام (١٧٠٤-١٧٥٥) وأدت إلى إهدار وتبديد مساحات واسعة من الأراضي المزروعة. وقبل أن يحل عام ١٧٥٠ أصبحت الكاب تصدر سنوياً حوالي ٢٠٠٠ طن من القمح إلى باتافيا، علاوة على كميات أقل إلى سيلان. وبعد ١٧٧٢ أصبح في استطاعة فلاحي الكاب تزويد جميع المستوطنات الهولندية في آسيا بحاجتها من القمح، فضلاً عن تصدير القمح إلى الأراضي المنخفضة بعد الارتفاع الكبير في أسعار القمح في سوق أرض الوطن عقب عام ١٧٦٧. وأن الحرب الهولندية الانجليزية المدمرة التي دارت رحاها خلال الأعوام

١٧٨٠-١٧٨٤ وضعت نهاية لعملية التصدير إلى هولندا مثلما قضت على الكثير من أسباب رخاء المستعمرات الهولندية. ونشأت مشكلة محورها ما العمل بفائض انتاج القمح المخصص للتصدير. وظلت هذه المشكلة بدون حل إلى أن انهار حكم الشركة في عام ١٧٩٥. وطوال هذه الفترة عجزت الشركة عن أن تدفع للفلاحين في الكاب ثمناً مرتفعاً لانتاجهم من القمح يضاهي الثمن الذي يدفعه سكان مدينة الكاب. ولهذا أثر البرجوازيون الأحرار ببيع قمحهم إلى الأجانب على الرغم من اللوائح والأوامر التي تصدرها الشركة بصورة دورية وتحذر من هذا الإجراء وتطالب بأن تكون الأولوية للشركة.

ويمثل انتاج وتصدير النبيذ مشكلة أخرى لم تتفق بشأنها آراء الشركة مع المنتجين. أدخل فان ريببيك عب النبيذ وتم اختيار عديد من المهاجرين الهوجونوت في ثمانينات القرن السابع عشر لجذبهم في هذا الشأن ولكن مضى وقت طويل قبل أن تحظى أنبذة الكاب بقبول العملاء في بلدان أخرى. وعلى الرغم من تحسن نوعية النبيذ، وزيادة انتاجه باطراد، بل وتضاعفه فيما بين ١٧٧٦ و ١٧٨٦، إلا أن الصادرات لم تتزايد بنفس القدر. وأقبل أغلب الزوار بشهية على أنبذة الكاب بعد رحلاتهم البحرية الطويلة، ولكن ما أن استقر بهم المقام في باتافيا أو كلكتا أو غيرها حتى يعودوا إلى سابق عهدهم واستحسناتهم للمشروبات الفرنسية. واتفقت آراء دي لا كيل ومنتزيل وغيرهما من المراقبين الأجانب على امكانية تطوير وتحسين أنبذة الكاب إذا ما حظيت مزارع الكرم بقدر أكبر من الرعاية. إذ أن معظم منتجي عب الأنبذة لا يعرفون كيف يعالجون أنبذتهم بطريقة جيدة وسليمة. وإن من أجاد زراعة كرم الأنبذة وأجاد صناعتها احتفظوا بسر المهنة بغية الحصول على أسعار أعلى من الشركة أو من السوق السوداء. واضطر منتجو النبيذ إلى بيع انتاجهم للشركة بأسعار محددة. وأكد منتزيل ان احتكار الشركة لانتاج النبيذ لم يكن مثيراً لمشاعر الزراع، غير أن هؤلاء كانوا دائمي الشكوى من أن أسعار بيع أنبذتهم تعتمد إلى حد كبير على قرارات حفنة من سادة الشركة وأصحاب

ومن بين المشكلات التي أخرجت تطور مزارع القمح خلال القرن السابع عشر ايثار أغلب المزارعين العمل في مجال تربية الأغنام والماشية نظراً لأن هذا المجال يحتاج إلى أيد عاملة أقل فضلاً عن توفرها. واعتمدت الشركة منذ البداية على نظام المقايضة في التجارة مع الهوتونتوت للحصول على حاجتها من الأغنام والماشية لتزويد سكان المستعمرات والسفن باللحم الطازج. وتغيرت هذه السياسة بسبب المشكلات الدورية التي كانت تنشب مع قبائل الهوتونتوت - وأن لم تتفاقم لتصل إلى حد الحروب الطويلة - علاوة على مرض الجدري الذي كان يحصد أبناء القبائل. وعلى الرغم من أن السلطات أعطت الأولوية لإنشاء مزارع لإنتاج الأخشاب إلا أنها لم تضع العقبات في طريق اشتغال البرجوازيين بتربية الماشية. وزحفت مراعي الأغنام والماشية بعيداً إلى داخل الأراضي مما دفع المزارعين إلى البحث عن مراعي جديدة في أرض شحيحة بمائها والتربة عاجزة عن توفير الكلا. وضمت مراعي الكاب الأغنام وهي التي تشكل الغذاء لسكان المدينة. ولقد كان الزوار من ركاب وبحارة السفن التجارية الذين يعرجون على المدينة للبقاء فيها بعض الوقت يشكون من طبق الضأن اليومي وطريقة طهيه حيث يكثر الدسم. ويستخدم جلد الأغنام لصناعة الأحذية، غير أن الصوف غير ذي فائدة إذ كما يقول عنه منتزيل أنه شعر وليس صوفاً.

وبذلك السلطات بين الحين والآخر جهوداً لتحسين السلالة عن طريق استيراد كباش فارسية وأخرى من نوع المارينو. غير أن هذه الجهود لم تحقق حتى نهاية سلطة الشركة نتائج ذات قيمة كبيرة بالنسبة لإنتاج الصوف بحيث يصلح للتصدير. وفي عام ١٧٨٢ التمس بعض البرجوازيين والموظفين «السماح لهم بإدخال صناعة خامات من الصوف». غير أن الجهات المالية المسئولة في الشركة رفضت التماسهم موضحة أن إقامة مثل هذه الصناعات يتعارض تعارضاً مطلقاً مع الرفاهية الحق والنظام السياسي

السيد الذين تستهدفهما هذه الحكومة، نظراً للآثار المعاكسة التي تؤثر بها هذه الصناعة على الجهود المبذولة لانعاش صناعة النسيج في الأراضي المنخفضة. ومع هذا فإن تربية الأغنام من أجل لحم الضأن كان عملاً مربحاً ومنتجاً. إذ كانت القطعان التي تضم ألفاً من الأغنام تعتبر قطعاناً صغيرة. ونعرف أن ثوبنرج أقام مع مزارع في بوكفيلد يملك ثلاثة آلاف رأس من الماشية واثنى عشر ألف رأس من الأغنام. وقبيل نهاية القرن الثامن عشر كان في المزرعة أكثر من ١٢٥٠٠٠ رأس من الأغنام على الرغم من أن ٧٠٠٠ رأس منها فقط من النوع المنتج للصوف*.

وإذا كان اتجاه الشركة نحو تطوير الزراعة في الكاب تآثر أساساً برغبتها في الحفاظ على الأسعار منخفضة مع ضمان رخص أسعار الامدادات الغذائية اللازمة لسفنها قدر المستطاع، إلا أنه لم يكن اتجاهها معوقاً تماماً. ففي عام ١٧٠٦ ونتيجة لشكاوى كثيرين من سكان المدن البرجوازيين ضد الحاكمين سيمون وفان دير ستيل لأنهما، كما قيل، استأثرا لأنفسهما بمساحات كبيرة من أجود الأراضي لتكون مزارع خاصة بهما (١٦٨٥-١٧٠٥)، فقد حظر مجلس إدارة الـ ١٧ على موظفي الشركة وجميع العاملين بها امتلاك أراض واسعة أو العمل بالزراعة. ولم يكن هناك التزام دقيق بهذا القانون طالما وأن بالامكان التهرب منه عن طريق زواج يجرى اختياره بطريقة حكيمة. ولكن القانون ضمن بأن البرجوازيين الأحرار العاملين في مجال الزراعة أو انتاج النبيذ لن ينافسوا الموظفين من كبار ملاك الأراضي. وضمن البرجوازيون والمزارعون في الكاب حصة معقولة لمنتجاتهم في سوق أرض الوطن حتى وإن لم يتسن لهم الحصول على الأسعار التي طلبوها ثمناً لانتاجهم من القمح والنبيذ والصوف، بل وحتى ان لم يستطيعوا دائماً تصدير فائض انتاجهم من هذه السلع.

* O. F. Mentzel; Description of the Cape; Val. III; pp. 210-12.

وما أن انتهت الأيام الطليعية الرائدة للحاكم فان ربيك وخلفائه المباشرين حتى بات بالامكان تقسيم المجتمع الأبيض في الكاب إلى مجموعات ثلاث رئيسية! البيروقراطيون أو موظفو الشركة، سكان المدن (البرجوازيون) الأحرار سكان مدينة الكاب، وسكان الريف الأحرار أو البوير. ويشكل كبار موظفي الشركة الثمانية ما عرف باسم «مجلس الحكومة» برئاسة الحاكم. ويجتمع هذا المجلس (باستثناء الحاكم) أيضاً مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع باعتباره هيئة العدالة. وابتداء من عام ١٦٨٥ انضم إلى عضوية هذه الهيئة اثنان (ثم ثلاثة بعد ذلك) من ممثلي سكان المدن، البرجوازية، وكان يسمح لهم أحياناً بتمثيل زملائهم من المواطنين في مجلس الحكومة، أيضاً وكان بعض كبار الموظفين، وهم دائماً على وجه التقريب من أبناء الأراضي المنخفضة المولودين في أوروبا، على وعي بتميزهم الثقافي المزعوم على سكان المدن البرجوازيين وأكثرهم من هولنديين أو فرنسيين أو ألمان أو محليين من أصول متواضعة. ولكن من المؤكد أيضاً وبنفس الدرجة ان العلاقات الاجتماعية بين البيروقراطيين وبين سكان المدن البرجوازيين أقل توتراً وأقل شكلية مما كانت عليه في باتافيا. وأن منزل الذي أشار إلى التوتر القائم بين الهولنديين المولودين في أوروبا وبين المولودين الذين يجمعون بين الدم الأوروبي والأفريقي، لاحظ أيضاً أنه «في المناسبات العامة مثل حفلات الزفاف وما شاكلها غالباً ما كنت أشاهد صفار التجار بل وموظفين يرقصون مع بنات اساكفة بينما ترقص بناتهم مع أبناء تجار. وتمتع كبار التجار بحق التميز والتبجيل لعضويتهم في الحكومة ومجلس رئاسة الدولة. ولكن لا أحد سواهم ينظر إلى نفسه باعتباره أفضل من جيرانه. ولقد كانت الأراذل ذوات الثراء في باتافيا مولعات بالزواج برجال الدعوة والوعظ، ونجد لهذا الميل نظيره في منطقة الرأس، كما يحكى منتزيل، حيث أن رجال الدعوة والوعظ يحتلون مرتبة أعلى من التجار العاديين، ويتقاضون مرتبات كبيرة ومنحاً وعلاوات اضافية سخية، فقد كان باستطاعتهم دائماً أن يكون لهم

السبق على نظرائهم*

وحول أغنياء البرجوازيين في مدينة الكاب بيوتهم إلى دور ضيافة لضباط وركاب السفن التجارية التي تعرج للراحة في مدينة الكاب، بينما فعل «أبناء العامة» الشيء نفسه من أجل البحارة والجنود. ولوحظ أن أغلبية زوار مدينة الكاب في القرن الثامن عشر امتدحوا الإناث من طبقة البرجوازيين لما تتحلى به من ميزات في نظرهم على الذكور، زاعمين أنهن أكثر حيوية وذكاء ولكن هذا قبل الزواج. ولم يكن ستافورينوس وحده الذي استتكر كسل وجهل أثرياء الذكور من أبناء طبقة البرجوازيين الذين اعتادوا حياة الخمول شأن نظرائهم في باتافيا. «الرجال الذين هم من أحرار المدينة نادراً ما تقع عليهم العين على متن السفينة! إنهم عادة قعيذو البيت، يخلعون لباسهم، ويقضون وقتهم في تدخين الغليون، والمشي في تراح وتلكؤ ذهاباً وجيئة داخل بيوتهم. وبعد الغداء يتيكئون حسب العادة الهندية وفي المساء يلعبون الورق. إنهم لا يدابون القراءة، ومن ثم يغلب عليهم الجهل، ولا يكادون يعرفون شيئاً عما يدور في أنحاء المعمورة، إلا سمعوه على لسان الأجانب الذين يزورونهم بين الحين والآخر». ويرسل بعض البرجوازيين الأثرياء أبناءهم للتعليم في جامعات هولندا أو ألمانيا، ويعود هؤلاء ولديهم حصيلة من المعارف أفضل من كل ما كان يمكن تحصيله في مدارس الكاب الابتدائية أو مما يمكن تعلمه على يد الجنود الألمان والضباط الذين كانوا يعملون أحياناً معلمين لحساب كبار البرجوازيين والمزارعين.*

وإن القيود التي فرضها ستافورينوس لم تطبق بحذافيرها كاملة على فقراء البرجوازيين الذين يستضيفون في بيوتهم بحارة وجنود السفن التجارية ويمارسون علاوة على هذا حرفة منتظمة مثل الحدادة والتجارة والخيطة وغيرها. وحققت زوجات هؤلاء عادة: كما لاحظ منتزيل، مكاسب

* J. S. Stavorinus; Vayages, 1768-1778, Val. III, pp. 435-42.

مالية عن طريق تهريب البضائع مع ضيوفهم من النزلاء أو مع الفلاحين القادمين من داخل البلاد لزيارة مدينة الكاب. وفي هذا الصدد يلاحظ أن جميع سكان المدينة سواء الفقراء أم الأغنياء، اشتغلوا بالتجارة الخاصة سواء مباشرة أو (وهو الأغلب عادة) عن طريق زوجاتهم. وتشتمل تجارة التهريب على عنصر للمضاربة يتمثل في اعتمادها على وصول ورحيل السفن التي لا يمكن التكهّن بدقة حمولاتها، والسوق السوداء عرضة للتقلب بين حالتها التخمة والندرة. ويمكن القول بوجه عام أن تلك المؤن التي يجري انتاجها محلياً تميزت برخص أسعارها الشديد في الكاب، أما السلع المصنعة المستوردة فكانت باهظة الثمن. واعتاد ركاب وبحارة السفن المتجهة إلى أرض الوطن أن يحملوا معهم الشاي والبن والخزف الصيني والحريز والمنسوجات القطنية وغير ذلك من سلع شرقية لبيعها لحسابهم الخاص، أما ركاب وبحارة السفن المغادرة أرض الوطن فكانوا يحملون معهم سلعا وأطعمة معلبة أوروبية. ووجدت جميع السلع الأوروبية سوقاً رائجة لها في الكاب بما في ذلك البيرة والجبن الهولنديان نظراً لرداءة الأنواع المحلية ولحسن حظ مضيقي «حانة مجمع البحرين» أن البحارة والجنود من زوار المنطقة كانوا مطلقي اليد في إنفاقهم، ويبددون القسط الأكبر من مدخراتهم التي ادخروها على مدى أعوام خلال أيام قلائل من إقامتهم في الكاب.

ولم يغب عن نظر أي زائر يزور الكاب زيارة غير قصيرة وجه التباين والمقارنة بين البرجوازيين وسكان مدينة الكاب وسكان الريف في المناطق الداخلية والمعروفين باسم البوير. وكلمة بوير هي في الأصل ذات دلالة استهجانية على نحو ما تبين من الترجمات الانجليزية في القرن السابع عشر لكلمتي «جلف» و«مهرج». ورأى فان ريد في عام ١٦٨٥ ضرورة تغيير مصطلح «البرجوازيين الأحرار» إلى «المزارعين وأجراء الفلاحين»، مستهدفاً التأكيد على أن دورهم هو العمل في مجال الزراعة دون التجارة. ومع مرور الوقت انقسم البوير إلى فئتين. فريق عاش قريباً من مدينة الكاب وتيسر له

العمل في زراعة كرم النبيذ ومزارع لاشجار خاصة بانتاج الاخشاب فضلاً عن تربية الاغنام والماشية. والفريق الثاني يسكن مقاطعات الحدود المتغيرة ويقتصر عملهم على تربية الماشية نظراً لطبيعة التربة ونقص الأيدي العاملة وبعد المسافة عن مدينة الكاب وقلة الطرق فضلاً عن رغبتهم هم أنفسهم في العيش بحرية بعيداً عن القيود التي تفرضها بيروقراطية المدن.

والجدير بالذكر ان قطاعاً كبيراً من مساحة أرض قطرها حوالي خمسين ميلاً من مدينة الكاب تحولت إلى مزارع حرة تفصل بين الواحدة والأخرى مسافة يقطعها الراكب في ساعة كاملة، أما المقاطعات النائية فقد حصل عليها حائزوها على سبيل الإغارة أو الإيجار، إذ يستأجر حائز الأرض من الشركة الأرض والتربة، مدى الحياة، ودون أي ضمان بأن الحكومة تكفل استمرار المنحة لمصلحة ورثته. وإذا أقام المالك مبانٍ على الأرض تكون ملكاً له، وله حق بيعها هو أو ورثته إذا ما طرد من الأرض. ومع زيادة نسل الأسرة وكثرة عددها يخصص عادة الفلاح نعجة لمصلحة المولود الجديد عند ولادته وتكون ذريته المتوالية هي وأولادها ملكاً للطفل. وهكذا تتكون لكل طفل نواة لقطاع كبير يزداد عدداً بمرور السنين. ولهذا يتوفر الحافز الذي يحفز كل شاب للاستقلال عن مزرعة الأب لكي يقيم مزرعته المستأجرة في مكان مستقل. وصدرت تعديلات جديدة للتشريعات الخاصة بالأرض في عام ١٧٤٩ تسمح بتحويل ستين مورجن من كل مزرعة معارة إلى حيازة حرة ويظل الباقي على وضعه القديم عارية قابلة للرد إلى الشركة عند طلبها.

وكثيراً ما أهلك الجفاف والفيضانات والأمراض والكوارث الطبيعية على اختلاف أنواعها القطعان الأولى. ولكن الطبيعة عادة ما تعوض سريعاً الخسائر الناجمة عن مثل هذه الظروف. وكان أغلب البوير أحسن حالا من نظرائهم في أوروبا، على نحو ما أشار عن حق منزل حين قال: «يملك الكثيرون من البوير ما بين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ ثور و١٠٠ إلى ١٥٠ أو أكثر بقرة. و٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ من الأغنام و٤٠ إلى ٥٠ من الخيل، و٢٠ إلى ٣٠ أو أكثر

من العبيد الأرقاء، واقطاعية واسعة. لذلك فإن الرجل من البوير الأفارقة لا بد أن يفكر مرتين إذا ما عرض عليه أن يغير مكانه ويبدله مع نبيل الماني.*

وهناك غيرهم بطبيعة الحال، خاصة من يعيشون على حافة الحدود المتغيرة، ليسوا في ميسرة شأن أولئك القريبيين من مدينة الكاب. قد يملكون، وهم بالفعل كانوا يملكون أعدادا كبيرة من الأغنام والماشية. ولكن نادراً ما يملكون أكثر من ستة من العبيد والهوتنتوت للعمل في خدمتهم، وربما يملكون عبداً واحداً أو اثنين فقط. وكان بعض الموظفين والبرجوازيين من سكان مدينة الكاب يملكون اقطاعيات صغيرة من الريف وبيوتاً جميلة يسكنونها ونجد رسوماً تصور بيوتهم في كتب من تأليف اليس تروتر ودوروثيا فير بريدج. ولم يحقق أي من هؤلاء الفلاحين أو ملاك الأراضي ثروة طائلة، نظراً لأن مدينة الكاب لا تتوفر فيها الظروف التي تسمح بتراكم الثروة أو تحتاج إلى اتفاق كبير، ناهيك عن دورات الكساد المتوالية التي تعاقبت في ظل سيطرة الشركة.

وطبيعي أنه كلما بعدت المسافة عن مدينة الكاب كلما كانت ظروف المعيشة أكثر بدائية. ونجد آخر البيوت المكسوة بالجص في منتصف القرن الثامن عشر بالقرب من خليج موسيل أما الرعاة وصيادو الحيوانات فقد كانوا يعيشون في أكواخ متواضعة أو خيام ويجمعون قطعانهم ليلاً بعد الرعي. وكثيراً ما اتهم سكان مدينة الكاب الزوار الأجانب البوير الموجودين في المقاطعات الحدودية بأنهم يعيشون على طريقة الهوتنتوت. وما هو ستافورينوس، على سبيل المثال، بعد أن قضى الليل في مزرعة بالقرب من الكاب يتحدث بحماس عن مضيفه في صحيفته في اليوم التالي حديثاً يليق بأحد المعجبين برجل مثل روسو أو رانيال. «يا لهم من مخلوقات سعيدة بكل ما تعنيه السعادة، أولئك الذين يقيمون هنالك عند الطرف الأقصى من

O. F. Mentzel Life at the Lape; pp. 39-129-30.

المعمورة وسط براري افريقيا التي كانت قبل ذلك أرضاً عارية جرداء، معزولة. إنهم يستطيعون أن يحيوا حياة القناعة والرضا والبراءة*. ولم يكن مجاملاً بهذه الطريقة في حديثه عن البوير الذين يسكنون منطقة الحدود النائية والذين يصفهم بقوله «إنهم في سلوكهم ومظهرهم أكثر شبهاً بالهوتنتوت دون المسيحيين»*

أما ثونبرج الذي توغل في الداخل أكثر مما فعل ستافورينوس فقد كتب يقول عن البوير: سكان الريف لديهم وفرة من المؤن، ونقص في الأثاث. كثيراً ما تقع العين على كراسي ونضد صنعها الفلاح بنفسه، يغطيها بجلد العجل أو يصنعها من طبقات الجلد. وأرضية البيوت من تراب مذكوك وناعم. ولكي تكون الأرضية صلبة متماسكة فإنهم يدكونها بمزيج من الماء وروث البهائم أو بدم العجل، وهي طريقة تجعلها زلقة في الوقت نفسه. أما التوافذ الزجاجية فهي من الأمور الشديدة الندرة، ولا تجد في بيوت الفلاحين شرفات أو عليّات أو أسقفاً خشبية، وترى أشعة الشمس مستقرة دائماً على الجدران والبيوت، أو إن شئت الدقة الأكواخ التي من هذا النوع مبنية بالطوب اللبن الذين يشكلونه على هيئة قوالب ويجفف في الهواء وهذا هو النوع الشائع والنمطي للبيوت التي يسكنها البوير الذين لا يعرفون البيوت الفاخرة الموجودة في جروت كوستانتيا، أو جروت شير التي تحظى باعجاب السياح هذه الأيام*. والطرق نادرة مما جعل نقل السلع الثقيلة بالعربات أمراً غير عملي سواء من المزارع أو إليها، فيما عدا فترة الصيف عندما ينخفض منسوب مياه الأنهار ويغدو من السهل على الثيران الخوض في المياه الضحلة وجرد العربات. والأخشاب نادرة كذلك في كثير من الأحياء، مما اضطرهم إلى استيراد القمح من أوروبا ليستخدمه الحدادون.

* J. S. Stavorinus; Vayages, Val. II, P. 71-2.

* C. P. Thunberg; Travels, 1770-1774 Val. I, pp. 256.

واعتماد أبناء الفلاحين على شظف العيش خارج دورهم منذ سن الشباب الباكر حيث يعملون بحراسة قطعان آبائهم والطراد والتجارة (غير المشروعة) في قطعان الماشية مع الهوتونتوت. ومع مرور السنين وتوالي الاجيال شعر أبناء سكان مناطق الحدود بالحاجة الملحة إلى الزحف إلى داخل الأراضي. وبهذه الطريقة تجاوز الرعاة والصيادون من البوير مع الهوتونتوت عند افضل مراعيهم ثم تجاوزوا معهم في الأراضي الزراعية التي لا تعنيهم كثيراً. وهكذا توغل البوير اكثر فأكثر حتى جاؤوا قبائل البانتو المتجهة جنوباً في سبعينيات القرن الثامن عشر. ونشبت حتما صدامات مسلحة بسبب المراعي وسرقة قطعان الماشية، هذا على الرغم مما بذلته حكومة الكاب من محاولات يغلّب عليها الطابع الشكلي لتثبيت خط الحدود بين البيض والسود على طول امتداد نهر السمك العظيم أو Great Fish River.

واتجه موظفو الشركة أحياناً باللوم إلى بوير الحدود واتهامهم بأنهم هم الذين يثيرون تلك النزاعات، ورفضوا اتخاذ اجراءات عدوانية ضد البانتو وأثار هذا الموقف ضيقاً شديداً لدى البوير الكالفينيين في منطقة جراف رينت. واقتفى أثرهم بوير منطقة سويليندام. ومن ثم أعلن هؤلاء هؤلاء تخليهم عن ولائهم الإسمي لشركة الهند الشرقية في عام ١٧٩٥. وحدث ذلك في الوقت الذي آل فيه نجم الشركة إلى الافول. وأعلنوا أيضاً ولاءهم كرعايا لمجلس عموم الولايات ولكن مع حقهم في الاستقلال الذاتي لإقليمهم بالكامل. وحرى إلا نأخذ اعترافهم بالولاء لمجلس عموم الولايات مأخذاً جاداً على الإطلاق، ذلك لأن كثيرين ممن زاروا منطقة الكاب في أواخر القرن الثامن عشر لاحظوا أن البوير اعتادوا النظر إلى جنوب أفريقيا باعتبارها أرض الآباء وليس الأراضي المنخفضة المطلة على بحر الشمال التي لم تكتحل عيونهم بها. وإن السهولة التي احتل بها الانجليز منطقة الكاب مرتين (١٧٩٥ و ١٨٠٦) مؤثر آخر على الضعف النسبي في مشاعر الافارقة المولدين تجاه هولندا. وهناك من اتهم الرائد جيمس بريور بالمبالغة قليلاً عندما أشار بعد ذلك بسنوات قلائل إلى

مشاهداته وقال: «حسب معلوماتي فإن البوير (الأجلاف) لا يعنيه في كثير أو قليل من الذي يملك مدينة الكاب هل هم الانجليز أم الصينيون طالما وأنهم يتمتعون بميزة بيع قطعانهم ويربحون من وراثتها، وطالما أنهم بعيدون عن تطبيق القيود التشريعية عليهم. وإنما يجب أن نضيف أن بعض جاليات الحدود كانوا واعين بعزلتهم الثقافية واعتادوا تقديم التماسات بشكل دوري إلى السلطات لكي ترسل اليهم قساوسة كالفنيين مقيمين ومدرسين. ولكن قليلين جداً من قبلوا التطوع للعمل في هذه البراري النائية حتى حينما أبدت الشركة استعدادها لتحمل النفقات.*

وهناك علاوة على فئات البيروقراطية والبرجوازيين أو سكان المدن والبوير، فئة رابعة من البيض في الكاب تستحق أن نعرض لها هنا بإيجاز. ونعني بهذه الفئة المستخدمين بعقود ويسمون نخت Rnechts وأغلبهم من العاملين في الحامية العسكرية. إذ حينما يجد الفلاح نفسه عاجزاً عن إدارة مزرعته أو مزارعه بنفسه فإنه يتقدم إلى سلطات مدينة الكاب بطلب يعرب فيه عن حاجته لخدمات جندي من جنود القلعة أو (وهو نادراً ما يحدث) بحار من العاملين بالمستشفى، وإذا ما تطوع للعمل في خدمته رجل ملائم للخدمات المطلوبة واتفق مع المزارع على شروط العمل، تسرحه السلطات من خدمة الجيش - وإن ظل بالإمكان استدعاؤه للخدمة العسكرية ثانية وقت الطوارئ ومن ثم «تعيّره» السلطات للفلاح لمدة عام. ويمكن تجديد عقده سنوياً والأجر شهرياً علاوة على المأكل والمبيت. أما من يستأجره المزارع للعمل معلماً لتعليم أطفاله فيبدأ راتبه بـ ١٤ فلورين شهرياً مع زيادة سنوية. ويشير منتزل الذي عمل هو نفسه مستخدماً إلى هذا فيقول: «هذا الشكل من العمالة كان بمثابة خطوة على الطريق نحو الثروة بالنسبة للأكفاء. وكثيراً ما كان الرجل من هذا النوع من الرجال يتزوج بابنة سيده أو

* J. Prior, *Vayages Along the Eastern Coast of Africa* [London, 1819] p. 11.

بأرملته. ولقد عرفت في واقع الأمر حالات عمدت فيها الأرامل إلى استخدام رجال بهدف الزواج منهم». وطبيعي أن تحقيق ثروة أو الاستفادة من هذا الأسلوب لم يكن ميسوراً لجميع المستخدمين، ولأولئك الذين لم يهبطوا إلى مستوى «البيض الفقراء» الذين كسبوا ما لا أقل من الملونين الأحرار المهرة بل وأقل من بعض العمال من العبيد».

ولكن تشكيل الجنود السابقين نظاراً أو مشرفين لم يحل مشكلة الأيدي العاملة بالنسبة للمزارعين. وأمكن حل المشكلة جزئياً عن طريق استيراد العبيد. ونظراً لأن مجلس إدارة الـ ١٧ حظر بشدة استرقاق الهوتونتوت والبوشمان، فقد اضطرت سلطات مدينة الكاب إلى جلب حاجتها من العبيد من أماكن نائية. وأصبحت موزمبيق ومدغشقر أهم سوقين للرقيق. واستوردوا أيضاً الكثير من العبيد من خليج البنغال ومن اندونيسيا، وكان عددهم قليلاً أول الأمر. إذ كان هناك في البداية حوالي ٨٠٠ من الرقيق البالغين في مدينة الكاب خلال القرن الثامن عشر، ثم وصل تعدادهم إلى ٤٠٠٠ بعد خمسين عاماً، وبعدها إلى ١٠٠٠٠ في عام ١٧٨٠. وخلال القرن السابع عشر تزايدت سريعاً أعداد سكان المستعمرات عن أعداد العبيد، غير أن الوضع انعكس خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر. وكان كثيرون من العبيد الهنود والاندونيسيين فنانين أو حرفيين مهرة، ولوحظ أن بعض الاندونيسيين الذين يوصفون عادة باسم أبناء الملايو، حرصوا على أن يميزوا أنفسهم ويعيشوا بمعزل عن جمهرة الملونين، ولا يزالون على عاداتهم هذه حتى اليوم. والجدير بالذكر أن دمهم به مزيج قليل من الدم الزنجي، وحافظوا على بعض الأغاني الفلوكلورية الهولندية القديمة، كما التزموا بعض طرق التعبير الهولندية في النطق والتي لا نجدها الآن بين البيض المولدين.

وناقش الحاكم ومجلسه في عام ١٧١٦ مسألة ما إذا كانت الأيدي العاملة البيضاء الحرة أفضل اقتصادياً أم العبيد والملونون. وأيد أعضاء المجلس بقوة

ودون تردد، فيما عدا قائد الحامية، تشغيل العبيد. وزعم أحد أعضاء المجلس ان دارسة دفاتر حسابات الشركة كشفت عن أن تشغيل العبد يتكلف سنوياً ٤٠ فلورين بينما تكلفة العامل الأبيض تصل الى ١٧٥ فلورين. وقيل أيضاً أن العبيد أكثر طواعية وأقدر على تحمل العمل الشاق على أمل اعتاقهم فيما بعد، بينما العمال البيض أميل إلى معاقرة الخمر والتعطل، وطعن قائد الحامية في دقة هذه المعلومات، وأكد بقوة أن العامل الأبيض سيكون أرخص تكلفة على المدى البعيد، وأكثر فائدة من أجل تنمية المستعمرة تنمية صحية سليمة. وقال ان العبيد سيظلون دائماً عبثاً مكلفاً وبغيضاً بسبب التكلفة الكبيرة لرحلات جلب العبيد، ومعدلات وفياتهم العالية ونزوعهم إلى الهرب فضلاً عن ضرورة توفر عدد كاف لإلزامهم بالانضباط ومتابعتهم. ووقف الحاكم مع الأغلبية، وأضاف إلى ما قالوه أن أي إنسان يشك في ضرورة الرقيق كأيد عاملة عليه أن يلقي نظرة ليتبين كيف يجري العمل، بكل أنواعه، في جميع أنحاء آسيا وفي جميع المستعمرات في جزر الهند الغربية وفي سورينام وغيرها. وكان لهذا القرار أهمية حيوية نظراً لأن مجلس إدارة الـ ١٧ وافق عليه ولا سبيل لبذل جهود إضافية لتشجيع هجرة المزارعين الأوروبيين بأحجام كبيرة. وتزايدت أعداد العبيد باطراد، وبدأت مزارع أشجار الأخشاب تعتمد أكثر فأكثر على العبيد طوال الفترة التالية من القرن.*

كان العبيد في منطقة الكاب طائفتين رئيسيتين: طائفة تتبع الشركة، وأخرى تتبع الأفراد من موظفين وبرجوازيين والبوير. ومن المقدر نظرياً أن عدد عبيد الشركة ينحصر في ٤٥٠ فرداً، ولكنهم عملياً يتراوحون ما بين ٦٠٠ و ٨٠٠. ولم يعمل هؤلاء لدى الشركة حمالين وبنائين وطحانين وصانعي أوان وعمال ملبنة وساسة خيل وممرضين وبستانيين وعمال تسقيف أو تجليد كتب .. الخ الخ. لحساب الشركة فقط بل كانت تحيرهم أو تؤجرهم للعمل في الخارج لحساب مختلف الموظفين الذين كانوا يسيئون استعمال هذا الحق

V. de Rock; those in Bondage. (Cape Town, 1950).

بتشغيل الرقيق وقتاً أطول مما هو مسموح به. واعتمد أكثر المقيمين في مدينة الكاب في أداء أسباب معاشهم على عبيدهم الذين تدربوا على مهن وأعمال مختلفة ويؤجرون للعمل باليوم أو بالشهر. وتميز العبيد الذكور الأندونيسيون كعمال بناء وتقاشين وصانعي حلوى وطهاة وصيادي أسماك، وتميزت أكثر النساء في أعمال الخياطة. وعمل العبيد الزوج في الأعمال الشاقة مثل تحميل وتفريغ السفن، وفي مزارع الكرم والمزارع العادية ومزارع الخضراوات المملوكة للمستعمرين.

وإحدى القسمات المميزة للحياة في مدينة الكاب والتي استحوذت على إعجاب كثيرين من الزوار الموهبة الموسيقية التي تحلى بها العبيد من أبناء الملاوي ومهارتهم في العزف السماعي للموسيقى. وكتب في هذا الصدد ليختنشتين عام ١٨٠٣ فقال «أعرف الكثير من البيوتات الكبيرة التي لا يوجد بها واحد من بين العبيد لا يعرف العزف على آلة من آلات الموسيقى، وحيث يمكن تشكيل جوقة موسيقية على الفور إذا ما طلب أهل البيت ذلك عند زيارة بعض معارفهم لهم بعد الظهر وأرادوا التسمية عنهم بالرقص لساعة أو ساعتين. والامر لا يحتاج غير إيماء بالراس حتى يغيّر الطباخ الغرفة التي في يده ويبدلها بفلوت، ويترك السائس مشط الخيل ويمسك الكمان، ويسقط البستانى الفأس من يده ويجلس إلى آلة التشيلو». وها هو وليام هيكي الذي كان يزهو بنفسه كواحد من خيرة العارفين بفنون الموسيقى ومعرفته بالخمير والنساء ويؤكد أن العبيد عازفي الفلوت الذين صاحبوا فرقته قدموا أعذب الألحان التي سمعها في حياته».

واستحسن معظم الزوار الأجانب معاملة ملاك العبيد في الكاب لعبيدهم فيما عدا ذلك الشكس جون بارو. وإن كابتن جيمس كوك الذي شاهد أغلب بلدان العالم وتفوق في هذا على معاصريه وأراؤه جديرة بالتقدير والاعتبار كتب يقول في عام ١٧٧٢ «كبار القوم من سكان الكاب يملكون أحياناً في بيوتهم ما بين ٢٠ إلى ٣٠ عبداً والذين يعاملون عادة في لين ورفق كبيرين،

ويصبحون أحياناً أثيرين لدى سادتهم الذين يمنحونهم ملابس جيدة جداً، ولكنهم يلزمونهم بعدم استخدام أحذية أو جوارب - إذ أن الاقدام العارية هي شعار العبودية. وطبيعي أن كانت هناك استثناءات، وربما كان السادة القساة الغلاظ أكثر عدداً نسبياً بين المناطق العليا التي يسكنها البوير منهم بين البرجوازيين سكان مدينة الكاب، وإن تناقضت الشواهد أزاء هذا الواقع. ولم يكن العبيد محرومين تماماً من أي وسائل مشروعة للقصاص، ولهم حق التماس اعفائهم إذا ما عوملوا بغلظة وقسوة أو لم ينالوا كفايتهم من الطعام. ولا ريب في أنهم لم تواتهم الجراة دائماً وأبداً على تقديم مثل هذا الالتماس ولكن ثمة شواهد مسجلة لبعض الحالات التي التمسوا فيها ذلك. مثال ذلك أنه في عام ١٦٧٢ اشتكى العبيد العاملون في شركة إلى المفوض العام ارنولد فان أو فريبك أثناء زيارته للمنطقة من نقص حصصهم من التموين ونقص الملابس. وتم بحث الشكوى وتبين أنهم على حق، وصدرت الأوامر بضرورة تحسين حالهم مستقبلاً من حيث الطعام واللباس.

أما الأفراد من ملاك العبيد الذين أصبحوا مكروهين بسبب معاملتهم السيئة لعبيدهم فقد كانوا عادة - وليس دائماً - يلقون العقاب جزاء هذه المعاملة. وفي حالات قليلة بالغة القسوة تم ابعاد الرقيق عن سيطرة أصحابهم المعذبين الساديين. ويمكن القول بوجه عام أن حظ الرقيق في الكاب من الطعام واللباس كان كافياً تماماً طوال القرن الثامن عشر، كما أنه اتخذت اجراءات لتعليم أطفالهم. إذ انشأت الشركة مدرسة أولية لتعليم أبناء بعض العبيد من العاملين لديها مبادئ القراءة والكتابة والحساب علاوة على اللغة الهولندية. وحدث أحياناً أن بعض ملاك العبيد الأفراد علموا أبناء عبيدهم مع آبائهم سواء في المدرسة الأولية أم في بيوتهم. ولم يكن من غير الشائع أن تعتق الشركة أو يعتق ملاك العبيد الأفراد من رقيقهم وفق ظروف وشروط معينة مع ضمان أنهم لم يشكلوا عبئاً على المجتمع. ولكن العبيد الذين أرسلوا مباشرة إلى المقاطعات المتحدة فقد حصلوا على حريتهم إذ اعتقوا فور وصولهم

بناء على قاعدة وضعها مجلس ادارة الـ ١٧ في عام ١٧١٣، أي قبل ٦٠ عاماً تقريباً من صدور حكم لورد مانسفيلد الذي يقول فيه ان العبد يغدو حراً في اللحظة التي تخطى فيه قدماه أرض انجلترا.

وعلى الرغم من أن العبيد كانوا، على الأرجح، يلقون معاملة في الكاب أقل منها في أي مكان آخر، إلا أن هذا لا ينفي حقيقة أنهم كانوا يعاقبون بسبب جرائمهم بقسوة ووحشية وفق سياسة معتمدة. ويحكي منتزل كيف أن أحد رجال الحكومة منعه زملاؤه في مجلس العدالة من إساءة استخدام سلطاته القضائية بصورة مبالغ فيها، إذ كان مسموحاً له أن يفعل ما بدا له مع العبيد الهاربين أو غيرهم من المجرمين من أبناء هذه السلالة، وذلك لأنه لا أمان لحياة أي إنسان ما لم يتم ردع المواطنين لمنعهم من اقتراف الجرائم وذلك بتطبيق العقوبات القاسية عليهم مثل الشنق والخوزقة وغيرها. أما الأوروبي فلا بد وأن يكون قد ارتكب جريمة شديدة الخطورة لكي يصدر ضده حكم بالإعدام. وخلال السنوات الثماني التي قضيتها في الكاب (١٧٣٢-١٧٤٠) لم يصدر حكم بالإعدام إلا على ستة من الأوربيين فقط، وكانوا يستحقونه بالفعل. وهناك من تشكك في دقة هذه الملاحظة. ونحن نعرف أن التعذيب كان شائعاً ومشروعاً بموجب القانون الروماني الهولندي، وكان يطبق أحياناً على البيض، ولكن شهادة منتزل أكدها ستافورينوس الذي كتب بعد أربعين عاماً تقريباً كما تؤكد القراءة المتفحصة للمراسيم والأحكام التي تضمنها كتاب Kaapse Plakaatboek عن الأعوام ١٦٥٢-١٧٩٥. ومن المسلم به حتماً أنه في أي مجتمع عبودي يلقي العبيد عقاباً أشد قسوة ووحشية من الأحرار جزاء الجرائم ذاتها - وإن تصادف وقوع أمثلة مناقضة أحياناً.

وكان معدل الوفيات بين العبيد في الأغلب مرتفعاً، خاصة في القرن السابع عشر حيث كان الوافدون الجدد من العبيد يعادلون تقريباً المتوفين ولكن زاد كثيراً معدل المواليد بين السكان العبيد خلال القرن الثامن عشر، «حيث ساهم في زيادته المواليد غير الشرعيين نتيجة العلاقات غير الشرعية بين الجنود

والبحارة وبين الاناث من العبيد، كما اوضح منتزل. إذ كان الجنود والبحارة يصطفون كل مساء لهذا الغرض خارج مسكن العبيد العاملين في الشركة قبل أن تغلق البوابة الساعة التاسعة مساء. ويؤكد بعض المؤرخين المحدثين المؤلدين أن «سكان الكاب الملونين» جاءوا جميعاً من آباء من هذه العناصر العابرة المشاكسة، بل ويضيفون إلى هذا قولهم إنه لا البرجوازيون ولا البوير انغمسوا في عمليات التزاوج المختلط بنساء سوداوات سواء كن من الرقيق أم حرائر. وهذه مزاعم لا يمكن قبولها إزاء شواهد موثقة تناقضها. ولقد صدرت مراسيم حكومية متوالية في مدينة الكاب أدانت «الناس غير المسئولين سواء من بين مستخدمي الشركة من الحامية العسكرية لهذه القلعة أو من المستوطنين الأحرار أو السكان الذين يقطنون هذا المكان» لأنهم يعيشون حياة صداقات مفتوحة مع نساء من الملونات أو نساء من الرقيق يتخذونهن خليلات لهم، وينجبون منهن أطفالاً غير شرعيين. باتوا يملأون أحياء العبيد التابعين للشركة أو الأفراد. وإن بعض هؤلاء الأوغاد، ومن بينهم كثيرون من البرجوازيين سكان مدينة الكاب، لم يجشموا أنفسهم مشقة الاعتراف كتابة بأنهم آباء لأطفال تم انجابهم عن هذا الطريق غير الشرعي». والأسوأ من هذا، أنه في عام ١٦٨١ اكتشفت السلطات أن بعض الجنود والبرجوازيين اعتادوا الاتفغاس اسبوعياً في علاقات عريضة جنسية مع نساء من الرقيق اللاني يتبعن الشركة، صباح كل أحد، حيث يخلع الجميع ملابسهم كما ولدتهم أمهاتهم ويرقص بعضهم مع بعض على مرأى من جميع الحضور. وهددت السلطات المخالفين بتوقيع أقسى العقوبات عليهم مثل الجلد والكي. ولكن يبدو واضحاً أن التزاوج المختلط استمر طوال القرن الثامن عشر وإن ظل في طي الكتمان.

ويحكي منتزل أن أبناء البرجوازيين في سن العشرينات كانوا ينتقون بنات العبيد الجميلات في بيوتهم وغالباً ما تنجب البنات نتيجة لهذه العلاقة. ونادراً ما كان المجتمع يعترف بالأبوة لهؤلاء الأطفال السفاح. ومع هذا لم يكن

ينظر إلى هذه الأمور على أنها ذات خطر. تتلقى الفتاة اللوم والتعنيف لاستهتارها، وتجد من يهددها بأشد العقاب إذا ما جرؤت على فضح السر وكشفت عن الشخص المسئول عن الوضع الذي هي فيه. وأحياناً يدفع لها الشخص رشوة لتلقي باللوم على شخص آخر. ولا ريب في أن هذا كله لم يكن ليخفي الحقيقة ذلك لأن البنات زميلاتهن من العبيد يعرفن حقيقة ما جرى. ومن ثم تتسرب القصة ليعرفها الجميع. ولا يحدث شيء إذ الأمر لا يعني أحداً. وقد يكون من العسير تماماً إثباته، هذا علاوة على أن الجريمة من الأمور التي يغفرها المجتمع. أنها جريمة لا تؤثر على مستقبل الولد، بل إن طيشه يغدو موضوعاً للتسلية ويقال إنه فتى غر وكشف عن طبيعته.

وتكرر الشيء نفسه في المزارع، وإذا كان لنا أن نثق في ما قاله ثونبرج (وهو شاهد موثوق به عادة) فإن بنات البوير كن يحملن أحياناً من عبيد آبائهن السود. وفي هذه الحالة يجرى تدبير زوج للفتاة مقابل مبلغ من المال، ويتم إرسال العبيد بعيداً عن هذه المنطقة. وكانت من الأمور الشائعة في مدينة الكاب أن يسمح مالك العبيد لإحدى الإناث من عبيده بأن تعاشر رجلاً أبيض كزوجة له. ويجرى تعميد وعق الأطفال نتاج هذه العلاقة، ولكن الثمرة تكشف دائماً من نوع الشجرة. فإن أكثر الأطفال الذين حملتهم إناث من العبيد لهم آباء أبيض، وغالباً ما يحملون وجه شبه لافيت للأنظار، كما يقول منزل. وتشكلت طبقة من العبيد. وأصبحت هذه الذرية هي المفضلة أكثر من غيرها في نظر البرجوازيين والبوير في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وكما هو الحال في المجتمعات الأخرى التي يسود فيها نظام الاسترقاق، مثل مجتمعات البرازيل وسورينام، نجد أن الطراز السائد من الأعراق في المزرعة هو في الغالب مالك أبيض للمزرعة ومشرف مولد، ورقيق سود.

وعلاوة على الزواج المختلط بإنات العبيد في البيت، الثلاثي كن عادة من أصول آسيوية، كانت هناك زيجات كثيرة بين رجال البوير ونساء الهوتنتوت خاصة في الأحياء الحدودية النائية التي لم يكن أحد يرى فيها بنات الملايو

الجميلات من العبيد اللاتي يعشن في مدينة الكاب. وأكد سبارمان أن مزارعي هذه المناطق من البوير حتى وإن كانت لهم زوجات بيض «متسامحات» إلا أنهم يميلون إلى مضاجعة نساء الهوتنتوت ومن ثم ينجبون أطفالاً يشبهون الأب أكثر مما يشبهون الأم. وهذا الزواج المختلط يثير الدهشة حيث إن الهنود اعتادوا النظر إلى الهوتنتوت باعتبارهم أحط أجناس البشر، باستثناء البوشمن. ولقد مضى وقت طويل قبل أن يستطيع الأوروبيون التفرقة بين الهوتنتوت وبين البوشمن.. ولكن البوشمن أضيروا تماماً على يد الهوتنتوت والبوير والبانقو الذين اغتصبوا على التوالي أراضيهم واستأصلوا شأقتهم وكانهم جرذان. ونعرف أن أيضاً، وهي امرأة شهيرة من الهوتنتوت وعملت مترجمة رسمية وتزوجت ثلاثة رجال من الهولنديين، كانت أشبه بالعصفور المعتزل الذي لا عش له. وإذا كان رجال البوير يرفضون تماماً الزواج بنساء من الهوتنتوت، إلا أنهم اختلطوا بهن اختلاطاً واسعاً في مناطق الحدود وتشكلت نتيجة لذلك مجتمعات كاملة مثل مجتمع الجريكا Griquas وهؤلاء هم سلالة التزاوج المختلط بين التريكيبوير Trekboers وبين نساء الهوتنتوت، ويجري فيهم قدر كبير من الدم الأبيض ولهذا أطلق عليهم زمناً طويلاً كلمة «أبناء السفاح». وإن القلة الباقية منهم، والعديد الكبير الآخر من الشعوب الملونة في الكاب يمثلون في آن واحد سبباً للحرع والعار لكل دعاة العزل العنصري الموجودين اليوم.

وإذا كان جنوب أفريقيا شهد توتراً دائماً بين البيض والملونين فإنه قد مضت أجيال غير عديدة قبل أن يشعر الرجال والنساء من أبناء الآباء البيض في الكاب أنهم على نحو أو آخر يختلفون عن الموظفين والبرجوازيين الذين ولدوا ونشأوا وتربوا في أوروبا. ويبدو أن كلمة أفريكاني Africanes استخدمت لأول مرة في عام ١٧٠٧، وفي وقت اجتمع فيه شمل الأبناء البيض سواء من أصل هولندي أو ألماني أو هوجونوت (البروتستانتية الفرنسية) للدفاع عما ظنوه حقوقهم الموروثة ضد زمرة فان دير شتيل الرسمية ذات

السطوة. وعلى الرغم من أن مجلس إدارة الـ ١٧ فصل فان دير شتيل وسائد البرجوازيين الأحرار في موقفهم هذا، إلا أن التنافس بين مواليد أوروبا ومواليد جنوب أفريقيا لم ينته بل تفاقم. ومنتزلاً له رأي يفيد هنا لما يلقيه من ضوء كاشف على هذه المشكلة. وإن بدا مضحكاً، كيف أن هذا الجندي البروسي المغفور أدان أول حاكم من مواليد جنوب أفريقيا ونعني به هندريك سويلنجرييل لأنه أثر أصدقاءه الأفريكانيين (المولدين والذين ولدوا بالطبع في جنوب أفريقيا) على الأوروبيين. لقد كانت المسألة مسألة عقيدة عند منتزلاً بالنسبة لاعتقاده أن الأفريكانيين أدنى ثقافة وذكاء من الأوروبي. ولا ريب في أن هذا الاعتقاد يشاركه فيه عدد من الموظفين الهولنديين. حقاً إذا كان هناك من وثق في رأي منتزلاً في هذا الشأن، فقد شاركه فيه بالمثل كثيرون من النساء الأفريكانيات من أهالي مدينة الكاب. إذ بعد أن أشار إلى أن الكثيرين من عامة الجنود ذوي الخلق الحسن قد تزوجوا بنات برجوازيين، يضيف إلى ملاحظته هذه قوله: «أي فتاة دون استثناء تفضل أن يكون زوجها رجلاً من مواليد أوروبا وليس من مواليد المستعمرة». وحتى إذا كان هذا هو الرأي السائد أيام منتزلاً فإن الكراهية التي يكنها الموظف الأوروبي المولد تجاه البوير الأجلاف كانت لها ما يقابلها في نفس هؤلاء أيضاً، الذين يبدون نوعاً من الكراهية المكتومة تجاه الأوروبيين.

والذي لا شك فيه أن سكان الحدود من البوير جهلاء أجلاف، ولكنهم يتصفون بالاعتماد على النفس في تزميت كالفني وروح استقلالية وهي صفات أكدتها ورسختها طبيعة حياتهم الشاقة القاسية. والجدير بالذكر أنه ابتداءً من ١٧٥٠ تقريباً فصاعداً، بدأت لهجتهم تختلف باطراد عن الهولندية الحقّة، وإن البدايات الأولى للغة الأفريكانية كلفة كلام يمكن تمييزها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وبدأ البرجوازيون سكان الكاب كذلك يستخدمون شكلاً بسيطاً وشائعاً من اللغة الهولندية، وجاء ذلك من ناحية نتيجة للحديث اليومي مع عبيدهم. ولا تزال الأصول الأولى الحقيقية للغة

الافريكانية موضع خلاف. ولكن ثمة رأي راجح يؤكد انها نشأت كلسان مولد او مختلط نتيجة التفاعل الاجتماعي بين الهولنديين من المستوطنين البيض، سواء البوير او البرجوازيون، وبين اللغات المنطوقة التي يتكلمها الهوتونقوت والعبيد. ونعرف عن يقين أن لغة العبيد اشتملت على مزيج غني من اللغتين المولدة والبرتغالية.

وأيا كان الأمر فإن اللغة الافريكانية اوضحت أشبه باللسان أو اللغة الام للشعوب الملونة، ولا تزال حتى اليوم. ونذكر في هذا الصدد أن جنوب أفريقيا بالمثل كان مستعمرة فريدة في ذاتها ولها طابعها المميز. وبينما أخفق الهولنديون في غرس لغتهم لتكون لغة راسخة بين شعوب جزر الهند الشرقية والغربية فإنهم نجحوا في هذه المهمة بين شعوب جنوب أفريقيا. بل ان حقبة السيطرة البريطانية في القرنين ١٩، ٢٠ - قرن الخطأ - لم تحل دون تأكيد وتدعيم ونمو اللغة الافريكانية كلغة حديث أولا ثم كلغة مكتوبة.

الباب العاشر

«القرن الذهبي» و «حقبة الركود والادعاء»

ج. ك فان ليور كان موته في معركة بحر جاوه (يناير ١٩٤٢) خسارة كبيرة ومؤسفة للدراسات التاريخية الاندونيسية وهو الذي احتج أكثر من مرة على الميل الشائع للمؤرخين الهولنديين - وغيرهم ممن ساروا على دربهم - إذ اتجهوا إلى المقارنة بين «العصر الذهبي» للقرن السابع عشر وبين حقبة الركود والادعاء، في القرن الثامن عشر، قصد الحط من قدر الحقبة الأخيرة. لقد أكد أن هذه المقابلة هي نتاج اسطورة نسج خيوطها «الوطنيون الثوريون» في عام ١٧٩٥ لاستثمارها سياسياً ضد النظام القديم في الجمهورية الهولندية. ورسخت تلك الاسطورة على يد «الرومانسيين الوطنيين» في القرن التاسع عشر من خلال الأدب الذي كتبوه عن العصر الذهبي. والقول بأن الأراضي المنخفضة الشمالية لم تنجب رسامين مثل رمبرانت أو شعراء مثل فوندل خلال حقبة الادعاء، لا يغير من الحقيقة شيئاً وهي أن هذه الحقبة المزدرة «جسدت الجهد الأكبر لوضع أسس الثقافة البرجوازية الحديثة» في الأراضي المنخفضة وفي غيرها من بلدان أوروبا على نحو ما أكد فان ليور*.

ومع كل التقدير الواجب لمثل هذا الرأي المتميز، يبدو لي من نواح معينة أن المقارنة التقليدية بين انجازات القرن الذهبي وبين الركود النسبي في حقبة الادعاء هي مقارنة صحيحة. إن تاريخها لا يعود إلى عصر «الوطنيين الثوريين» و«الرومانسيين الوطنيين»، بل سبق أن نوقش الوضع ذاته وادّين في منتصف القرن الثامن عشر سواء داخل الجمهورية الهولندية أم في نطاق

* J. C. Van Leur, Indonesian Trade and Society; pp. 266, 271, 288.

شركة الهند الشرقية الهولندية، إذ كتب الحاكم العام ومجلسه في عام ١٦٤٩ «نحن نعيش، بفضل من الله، في قرن الازدهار في باتافيا». بيد أننا لا نجد أثراً لهذا الرضا النفسي الكامل في المراسلات التي كتبها حلفاؤهم بعد ذلك بمائة عام. وتجد الصحافة الهولندية الدورية الصادرة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر زاخرة بالشكاوى بسبب التدهور الحقيقي أو المزعوم للطابع والطاقة القوميين بالمقارنة بما كان عليه الحال خلال قرن سابق. ومن المعروف أن بعض الأصوات الداعية إلى الانشقاق ارتفعت ضد هذا الاعتقاد الواسع النطاق. وأبرز أحد هؤلاء النقاد (في عام ١٧٦٩) أن الناس الذين يقارنون الماضي بالحاضر إنما ينتقون دائماً أفضل ما كان لدى الأجيال السابقة لمقارنته بأسوأ ما لدى الواقع الراهن. وأكد أن معاقرة الخمر والنهم في الأكل والقصف غير المنظم كل هذا قد تدهور خلال القرن الثامن عشر مقارنة بالقرن السابع عشر: «وانتهى إلى القول: «نحن لدينا قدر أكبر من الادعاء والتظاهر، وقد أقل من النزاع والتشاجر». واتساقاً مع هذا الخط استبق مؤرخ هولندي حديث ذلك بقرنين تقريباً حين قال: «نحن نعجب بشخصية وفكر إرازموس الذي عاش في عصر مضطرب ووصف حوار الأصدقاء داخل حديقة غناء بأنه ذروة التسلية الحضارية، بيد أننا نضيق باتباعه الذين عاشوا في القرن الثامن عشر ووضعوا نظريته موضع التطبيق». نحن نناهض النزعة العسكرية ولكننا نعاف ونشمئز من المجتمع الذي ينطوي على أقل قدر من النظام العسكري في كل تاريخ هولندا. إن ثمة شيئاً عاطفياً خالصاً ولا عقلانياً في موقف أغلبية أبناء الأراضي المنخفضة تجاه هذه الحقبة». وربما كان هذا صحيحاً تماماً. ولكن المتشائمين ممن عاشوا أثناء حقبة الركود والادعاء وأولئك الذين يوافقونهم اليوم على رأيهم لديهم في الماضي والحاضر بعض الحق ولديهم مبرراتهم للقول إن المجد قد زایل البلاد مع نهاية القرن الذهبي.

إن التناقض السكاني يُنظر إليه، عن صواب أم خطأ، باعتباره عرضاً

حالة تحليل قومي. وهناك كثيرون في المقاطعات المتحدة عام ١٧٨٠، ومن بينهم أمير آل اورانج، رأوا أن عدد السكان كان أقل منه منذ قرن سابق. وللأسف أننا لا نملك أرقاماً يمكن الاعتماد عليها لإجمالي سكان هولندا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ومن ثم سوف نعتمد لزماً على بعض التقديرات القليلة المعاصرة والمتناقضة. مثال ذلك كتاب بيتر دي لاكورت الصادر في عام ١٦٦٢ تحت عنوان «مصالح هولنداء» ويشير إلى أن الحد الأقصى لتعداد سكان المقاطعات المتحدة ٢٤٠٠٠٠٠ نسمة، وإن أشار إلى أن هذا الرقم تخميني إلى حد كبير. وثمة تقدير آخر له حظ أكبر من الشيوع يقول إن التعداد حوالي مليوني نسمة. ويوافق معظم الكتاب المحدثين على هذا الرأي. ولم يتسن لي العثور على مصدر لهذا الرقم وعلى أي تفسير لماذ ظل هذا الرقم دون تغيير حتى نهاية الجمهورية الهولندية. وإنما الملاحظ أن جميع أهل الرأي متفقون على أن هذا هو إجمالي العدد في عام ١٧٩٠. ولكن الملاحظ أن أوروبا الغربية شهدت آنذاك زيادة سريعة في السكان بعد منتصف القرن الثامن عشر. ولذا يبقى سؤال لماذا شذت الأراضي المنخفضة الشمالية عن هذه القاعدة خاصة وأنها لم تتعرض لكوارث حروب ولا أهلكتها أوبئة تفشت خلال حقبة الركود.

ومن الأسباب التي تقال لتفسير النمو السكاني السريع في غرب أوروبا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر أن هبوط معدل وفيات الأطفال اقترن بعادة الزواج المبكر ومن ثم إنجاب عدد أكبر من الأطفال (مع ثبات جميع الظروف الأخرى). ونحن لا نعرف إلى أي حد يصدق هذان العاملان على وضع المقاطعات المتحدة على الرغم من أن رجلاً انجليزيا أقام زمناً طويلاً في هولندا أشار في عام ١٧٤٣ إلى «حالة العقم الواضحة لدى نساء هولنداء». ويسوق هذا الرأي وكأنه واقع معروف وشائع ولا اعتراض عليه من أحد.

* B. M. Vlekke, Evolution of the Dutch Nation, P. 241.

ولعل الأهم من ذلك أن متوسط معدلات الزواج السنوية في امستردام خلال الفترة من ١٦٧٠-١٦٧٩ هو تقريباً نفس متوسط معدلات السنوات ١٧٩٤-١٨٠٣ وهو ٢٠٧٨ و ٢٠٨٢ على الترتيب. ونعرف أن متوسط معدلات السنوات الفاصلة بين المرحلتين كان أعلى أحياناً من ذلك ولكنه لم يزد على ٢٢٠٤ في عام (١٧٤٦) وتراوح معدل حالات الزواج السنوية ما بين ٢١٠٠ و ٢٥٠٠. على أية حال فإنه يبدو واضحاً أن سكان امستردام، وهي أكثر مدن الجمهورية سكاناً وازدهاراً، زادوا زيادة سريعة فيما بين ١٥٨٠ و ١٦٦٠، وزيادة بطيئة جداً فيما بين ١٦٦٢ (حوالي ٢٠٠١٠٠ أو ٢١٠٠٠٠ نسمة) و ١٧٩٥ (حوالي ٢١٧٠٠٠ أو ٢٢١٠٠٠ نسمة). وظل عدد البيوت في امستردام كما هو فيما بين ١٧٤٠ و ١٧٩٥ مما يشير إلى عدم طرؤ زيادة كبيرة في السكان خلال هذه الفترة على الرغم من أن فان دير أو دير مولن -Ou-dermeulen زعم غير هذا في عام ١٧٩٥.

وحتى عام ١٧٨٠ كانت امستردام لا تزال مدينة مزدهرة تنعم بقدر كبير من التجارة فيما وراء البحار بينما الأوضاع في بعض الأنحاء الأخرى من المقاطعات المتحدة تدهورت وازدادت سوءاً خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وكتب في هذا الصدد جيمس بوسويل من أوترش في عام ١٧٦٤ ما يلي: «إن أغلب مدنهم الرئيسية تحلت بصورة محزنة، وبدلاً من أن نجد البشر جميعاً يعملون إذا بك تصادف أعداداً غفيرة من الناس البائسين الذين أضناهم التسكع بلا عمل».

ولقد تحولت أوترش إلى خراب. ثمة أحياء كاملة مكتظة ببشر تعساء لا يملكون من طعام يومهم غير حبات من البطاطس وشرية جن ووسائلاً يسمونه شايا وقهوة. والأدهى والآنكى، فيما اعتقد، أنهم اعتادوا هذه الحياة حتى أنهم لم يقبلوا على العمل إذا ما تيسر لهم .. وها أنت ترى الأمور اختلفت هنا كثيراً عما تصوره معظم الانجليز، ولو أن سير وليم تمبل زار ثانية هذه المقاطعات فإنه لن يصدق تلك التحولات المذهلة التي طرات على البلاد. «ونجد

شهادة بوسويل تتردد مرة أخرى بعد أربعة عشر عاما على صفحات صحيفة هولندية أسماها «دي بورجر» التي تقرر (١٩ أكتوبر ١٧٧٨) أن انهيار الأمة اقتصاديا بلغ الحضيض حتى بدأ وكان هيكل الكومنولث لن يضم بعد قليل إلا اصحاب املاك تدر عليهم دخلا وشحاذين - وكلتا النوعين هما اقل الناس فائدة ونفعاً للبلاد.*

وربما نزع كل من بوسويل وصحيفة دي بورجر إلى التركيز على الجانب السوداوي من الصورة، ولكن ثمة شواهد معاصرة أخرى كثيرة تشير إلى أن سكان عديد من مدن المقاطعات نقص عددهم خلال هذه الحقبة، وأن البيوت والطرق أزيلت لتحل محلها حدائق ومساحات خضراء. وهذا النقص كان شاملاً، ويبدو أنه كان أكثر وضوحاً في المدن البحرية الصغيرة الواقعة شمال هولندا وفي زيلانده، وفي عديد من المدن الداخلية مثل أوترشت وهارلم وليندن ودلفت. والشئ الذي لا نعرفه هو إلى أين ذهب فائض سكان الحضر (إذا كان ثمة فائض). ولقد قيل إنه ربما اتجه إلى مناطق المستنقعات في المقاطعات الشمالية الشرقية، التي بدأ استصلاحها وتطويرها آنذاك، وأنشئت فوقها قرى جديدة. ومن الأمور الواضحة أن سكان مقاطعة أوفرجيسيل الشرقية زادت بنسبة ٩٠ بالمائة فيما بين ١٦٧٥ و ١٧٩٥. غير أنه من المؤكد أن هذه الزيادة الكبيرة لم يكن لها صدى في أي مقاطعة أخرى حيث ظل تعداد السكان في معظم المقاطعات ثابتاً كما هو أو ربما نقص في بعضها الآخر. ومن المؤسف أن مقاطعة أوفرجيسيل، وهي الأصغر والافقر من المقاطعات السبع الوحيدة التي تعرف أرقام سكانها بدقة خلال عصر الجمهورية. وإلى حين إجراء المزيد من الدراسات عن التاريخ السكاني للمقاطعات الأخرى، لن نستطيع أن نحدد رأياً بشأن إجمالي عدد سكان جمهورية هولندا، ومعرفة هل زاد العدد أم نقص فيما بين ١٦٠٠ و ١٨٠٠ في ضوء الشواهد المتاحة

* F. A. Pottle (ed); Boswell in Holland, 1763-1764; [London, 1952]; pp. 280-1.

المعارضة والمتجزة.

وإذا كان ثمة شك كبير إزاء إجمالي سكان المقاطعات المتحدة خلال فترة الركود مقارنة بالقرن الذهبي، إلا أن ثمة شكاً ضئيلاً بالنسبة للنصف الثاني من القرن الثامن عشر الذي كشف عن نقص لا تخطئه العين في الصناعة عامة، وفي صناعة صيد السمك خاصة مقارنة بأوضاع قرن سابق. إن صيد سمك الرنجة، الذي كان يعرف عادة بمنجم ذهب المقاطعات المتحدة في النصف الأول من القرن السابع عشر، كان لا يزال له وضعه المثير في عام ١٧٢٨ وقتما قال خبير انجليزي حسن الاطلاع عاش في هولندا وأعطى تقديراً يفيد بأن متوسط إجمالي سفن الصيد العاملة في مجال هذه الصناعة يصل إلى ٨٠٠ سفينة من نوع الباص والتي تقوم بثلاث رحلات سنوياً. وعلى الرغم من أن هذا العدد الإجمالي أقل مما كان عليه قبل ذلك بقرن من الزمان، إلا أن إجمالي أطنان حمولة السفن العاملة في القرن الثامن عشر تراوح ما بين ٣٠ إلى ٥٠ طناً، بينما لم يزد الإجمالي قبل ذلك على ٢٠ إلى ٣٠ طناً. ويقدر بعض الثقات الهولنديين المحدثين أن مقاطعة هولندا وحدها اعتادت أن تقدم حداً أقصى سنوياً قدره حوالي ٥٠٠ سفينة رنجة من السفن المعروفة باسم الباص وذلك في عام ١٦٣٠. ونقص هذا الحكم إلى (٢١٩) في عام ١٧٣١. ويقدر المصدر نفسه أنه باستثناء مدينة فالاردنجن فإن عدد السفن التي احتفظت بها جميع المدن العاملة بالصيد نقص خلال القرن الثامن عشر، وبدأ النقص ملحوظاً بوضوح في مدينة انخوزن التي كانت تجهز ما بين ٢٠٠ إلى ٤٠٠ باص في أواخر القرن الثامن عشر. ولم يتجاوز الرقم ٧٥ باصاً في ١٧٣١ و٥٦ باصاً في ١٧٥٠. وزاد معدل التناقص سريعاً بعد عام ١٧٥٦. ولم يعمل أكثر من ١٥٠ إلى ١٨٠ باصاً فقط في مصايد أسماك الرنجة الهولندية سنوياً عشية الحرب الانجليزية الرابعة (١٧٨٠).

وتكررت القصة نفسها مع صيد سمك البكلاء، وكان الحال أسوأ في مجال صيد الحيتان. إذ كانت مصايد سمك البكلاء في دوجر بانك لا تزال

تضم ما بين ٢٠٠-٣٠٠ سفينة عاملة تنتج كل منها ما بين ٤٠ إلى ٦٠ طناً في عام ١٧٢٨ حسب ما قاله أونسلو بوريش. ولكن يبدو أن هذا الاجمالي أقل كثيراً مما كان عليه في النصف الثاني من القرن السابع عشر. وبدا النقص في صيد سمك البكلاة أكثر وضوحاً في السنوات الثلاثين الأخيرة من القرن الثامن عشر، وعندما انهارت الجمهورية في عام ١٧٩٥ لم تكن تعمل في هذا المجال سوى ١٢٥ سفينة. ووضح بالمثل النقص في صيد الحيتان بالمنطقة القطبية. وكان الصيد جيداً بين حين وآخر خلال القرن الثامن عشر إلا أن سنوات الازدهار ١٦٧٥-١٦٩٠ لم تعد ثانية أبداً. وفي هذا يقول أونسلو بوريش في عام ١٧٢٨ «الرأي السائد ان هذه التجارة نوع من الحظ أو اليانصيب، ولذلك لا يضطلع بها سوى أشخاص من أصحاب الثروات الكبيرة الذين إذا خالفهم الحظ عاما توقعوا حظاً أفضل في العام التالي دون أن يخيب هذا آمالهم. ولكن هذه التجارة ذات نفع عام ولا شك للدولة بصورة عامة نظراً لأنها تدعم نمو وزيادة حركة الملاحة كما تدعم استهلاك سلع تعتمد عليها.»*

وليس من المتعذر على الباحث فهم أسباب تدهور صناعة صيد الأسماك الهولندية على السواحل أو في عرض البحر خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر والسبب الرئيسي هو زيادة المنافسة مع صيادي البلدان المجاورة وبخاصة إنجلترا وسكوتلندا، ونضيف اليهما أيضاً الدانمرك والنرويج، ناهيك عن الصيادين الفلمنكيين من الأراضي المنخفضة النمساوية (بلجيكا). وتزايدت أهمية هامبورج باطراد لتصبح السوق المركزية لسمك الرنجة الذي تستهلكه مناطق شمال المانيا واسكنديناوة. واتخذت أكثر هذه الاقطار اجراءات حماية لدعم صناعتها كانت في صيد الأسماك على حساب هولندا. وطبقت الحكومة البريطانية بوجه خاص نظام الإعانات والعلاوات لتعزيز

* Onslow Burrish; Bataria Illustrata - London, 1728, pp. 265-73.

صناعة صيد الأسماك فيها. وفرضت الحكومة الفرنسية حظراً على استيراد الرنجة الهولندية في عام ١٧٥١، واقتدت بها الأراضي المنخفضة النمساوية (بلجيكا) والدانمرك وبروسيا في الأعوام ١٧٦٦ و ١٧٧٤ و ١٧٧٥ على الترتيب. وقُلّ الطلب على سمك الرنجة من أوروبا خلال القرن الثامن عشر، نظراً لتغيير العادات الغذائية. ومع نهاية هذه الحقبة أصبح كل ما يفي بالطلب لا يتجاوز إجمالي ٢٠٠ باص رنجة من كل أوروبا، بينما في الماضي كان حوالي ٥٠٠ باص رنجة هولندي لا يكاد يفي بالحاجة غير أن هولندا ظلت محتفظة لنفسها بالتميز من حيث نوع الرنجة والأسلوب الفني الصناعي المتبع في المصايد والتعبئة. واستمرت هولندا على تفوقها وتميزها حتى النهاية. وفي عام ١٧٨٠ كانت هولندا لا تزال تقدم حوالي نصف إجمالي الطلب الأوروبي على الرنجة المملحة. ولا تزال أسباب تدهور صيد أسماك البكلاة في هولندا غير واضحة حتى الآن، على الرغم مما كانت تتمتع به من قوة تؤهلها للتصدي للمنافسة المتزايدة مع الصيادين الانجليز والفرنسيين.

وإن تدهور المصايد الهولندية أثر بالقطع، بدرجة كبيرة أو صغيرة على العديد من الأعمال التجارية والمهنية المساعدة والمرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً. ومن هذه تجارة الأخشاب مع بلدان بحر البلطيق، التي تورد الأخشاب اللازمة لبناء وإصلاح سفن الصيد المعروفة باسم الباص: وتجارة الملح مع البرتغال وفرنسا، التي تورد الملح اللازم لتعليق أسماك الرنجة، ومهن النجارة وجلفطة السفن والحدادة، وصناعة الحبال والأشعة والبراميل التي كانت تنتج بكميات هائلة لتعبئة الرنجة، وصناعة الشباك وغير ذلك من الأعمال التجارية البسيطة اللازمة لتجهيز العنيد من الأدوات الرياضية لمصانع تعليب الأسماك والتي أوضحها أونسلو بوريش في دراسته عام ١٧٢٨. واستنتج من دراسته أن مصايد الرنجة وحدها تهيم ظروف عمل وارتزاق لثلاثين ألف أسرة على الأقل. دون حساب العدد الهائل من الناس الذين يحصلون على معاشهم اعتماداً على استهلاك جميع أنواع الأقمشة

والمواد الغذائية والتموينية وإذا أضفنا إلى هذا صناعة صيد الحيتان وسمك البكلاة والمصايد الساحلية والصناعات القائمة داخل البلاد والمرتبطة بصيد الأسماك، علاوة على صناعة الرنجة يمكن أن ندرك أن نسبة كبيرة من الأيدي العاملة الهولندية كانت تعتمد بشكل مباشر أو غير مباشر على رخاء وازدهار هذه الصناعات في مجموعها، حتى وإن اعتبرنا التقرير الذي انتهى إليه دي لاكور في عام ١٦٦٢ والذي يقرر فيه أن ٤٥٠٠٠٠ نسمة يعتمد اعتماداً مباشراً على هذه الصناعات تقديراً مبالغاً فيه. وتتضاعف فيه مصايد الأسماك إذا ما نظرنا إليها باعتبارها دار حضانة وتدريب لتخريج البحارة، ومصدراً للعمالة لكل العاملين على الشواطئ وهذا هو السبب في الاحتفاظ بمصايد سمك البكلاة في بحر الشمال خلال فصل الشتاء أثناء القرن الثامن عشر، على الرغم من أنها لم تكن تدر عائداً تجارياً ذا قيمة جديرة بالذكر، بسبب التكلفة العالية للاحتفاظ بالسفن والمعدات خلال طقس شتوي عاصف.

عامل آخر جدير بالملاحظة عند الحديث عن تدهور مصايد الأسماك الهولندية إلا وهو النقص المطرد في عدد الصيادين العاملين في عرض البحار، والذين لم يطرا عليهم أي عجز خلال القرن السابع عشر حسب شهادة جميع من كتبوا عن ذلك من أهالي الأراضي المنخفضة أو الأجانب، لقد عانت المصايد معاناة قاسية أثناء الحروب الكبرى التي تورطت فيها الجمهورية: عمليات النهب التي شنها أهالي دنكيرك فيما بين ١٦٠٠ و ١٦٤٥، والهجمات التي شنها الانجليز خلال الحروب الانجليزية الهولندية، ثم قبل هذا وأهم منه القراصنة الفرنسيون خلال الحرب التي دارت رحاها فيما بين ١٧٠١ - ١٧٠٢، وهي حروب أفضت إلى تدمير مصايد الرنجة. غير أن سنوات السلم التي تخللت هذه الحروب ساعدت بدرجة أو بأخرى على استعادة الوضع الطبيعي عقب كل حرب حتى وإن كان من المتوقع أن أسراً كاملة احترقت مهنة الصيد لم تعد إلى البحر ثانية ليكون وسيلتها لكسب العيش.

والملاحظ أن شركات الصيد الأجنبية التي حاولت منافسة الهولنديين خلال القرن الثامن عشر تاورت وجاهدت في سبيل إغواء الصيادين الهولنديين المهرة من أصحاب الخبرة الواسعة في هذا المجال وذلك خلال السنوات الأولى من العمل. ولسنا نعرف عن يقين كم عدد من خضعوا واستسلموا لهذه الغواية، ولكن ما نعرفه أن أغلبية القباطنة الذين كانوا يعملون في عام ١٧٥٦ في خدمة جمعية المصايد البريطانية الحرة التي تأسست قبيل هذا العام (١٧٥٠-١٧٧٢) كان معظمهم من الهولنديين أو الدانمرك.

وأصدرت إدارة عموم الولايات بشكل دوري مراسيم تحظر على التجار البحارة والصيادين الهولنديين العمل في خدمة أمم أجنبية. غير أن تكرار إصدار مراسيم الحظر يعني ضمناً عدم الالتزام بها. ولا نملك وسيلة لحساب عدد الصيادين الهولنديين الذين خدموا على متن السفن الأجنبية في تحد واضح لهذه المراسيم ولا نعرف ما إذا كان عملهم هذا مؤقتاً أو دائماً. ولكن الشيء المؤكد أن توفير الرجال اللازمين للعمل على ظهر أساطيل الصيد الهولندية أصبح - واستمر - مشكلة خلال القرن الثامن عشر، وهي مشكلة لم يكن لها وجود في القرن السابع عشر. وثمة حصة موثوق بها تفيد أن عمال مصايد الأسماك الهولندية على الشاطئ وفي عرض البحار في نهاية القرن الثامن عشر لم يتجاوز عددهم ثلثي العدد الذي كان لازماً لمصايد الرنجة وحدها عام ١٦٠٠. ومن المؤكد بالمثل أن الأعداد المتزايدة من النرويجيين والدانمركيين وأبناء شمال ألمانيا ساعدوا في توفير العاملين اللازمين لسفن الصيد الهولندية في القرن الثامن عشر تماماً مثلما فعلوا بالنسبة لأسطول الولايات والسفن التجارية المملوكة لشركة الهند الشرقية الهولندية والبحرية التجارية. وقيل إن هذه الأيدي العاملة (وأكثرها لا تزال غير خبيرة) حلت محل البحارة الهولنديين ذوي الخبرة العالية بعد أن عملوا ضمن رجال الأساطيل الأجنبية وعلى متن السفن التجارية الأجنبية. غير أننا

لا نملك برهاناً على أن هذا قد حدث على نطاق واسع. ومن الثابت أنهم لم يدخلوا بأعداد غفيرة في خدمة السفن التجارية الانجليزية التي نادراً ما كانت تتسع، فيما عدا زمن الحرب، لتشغيل أكثر من بضع مئات من الأجانب.

وأياً كانت الأسباب، فإنه لا خلاف على أن مصايد الأسماك الهولندية، وإن ظلت معامل تفريخ للبحارة، لم تكن في عام ١٧٨٠ ذات أهمية كبرى في هذا المجال على نحو ما كانت عليه قبل ذلك بقرن من الزمان. فخلال حروب السنوات التسع من ١٦٨٩-١٦٩٧ استطاع الهولنديون أن يرسلوا حوالي ١٠٠ سفينة حربية إلى البحر كل عام مجهزة بحوالي ٢٤٠٠٠ من الرجال ناهيك عن العديد من مراكب القراصنة التي تم تعديلها وملاءمتها لهذا الغرض وآلاف البحارة العاملين على ظهر السفن التجارية وسفن الشركة الشرقية التي اعتادت أن تمخر عباب البحار السبع ومعها سفن مرافقة لها لحراستها أو بدونها. وفي أغسطس ١٧٨١ وقتما أصاب الشلل تجارة البحر ومصايد الأسماك وبات لزاماً على كثيرين من البحارة أن يكونوا على استعداد لكي يدرجوا اسماءهم ضمن العاملين في الاسطول البري العسكري، لم تستطع هولندا، إلا بشق الأنفس، أن تدفع إلى البحر بأسطول شديد التواضع يضم سبع عشرة سفينة مجهزة بحوالي ٣٠٠٠ رجل حاربوا في ظروف صعبة تحت إمرة العميد البحري زوتمان. ولم تستطع هولندا أن تجهز لهذه الحرب المدمرة أكثر من ١٩١٧٦ رجلاً من بين ٣٠٠٤٦ هم عدد الرجال اللازمين لست وأربعين سفينة حربية مختلفة الأنواع. والنتيجة الوحيدة التي يمكن استخلاصها من هذا الوضع، والتي تبدت بوضوح في شواهد أخرى، هي: أن المجتمعات البحرية في كل من هولندا وزيلندا لا بد وأنها تناقصت كثيراً فيما بين ١٦٨٠ و ١٧٨٠.

وإن تدهور مصايد الأسماك الهولندية ونقص أعداد العاملين فيها لم ينظر إليهما بعين اللامبالاة، المعاصرون المدركون للمشكلة كانوا في وضع يسمح لهم باتخاذ تدابير علاجية حتى وإن قصرت هذه التدابير عن تحقيق

نتائج إيجابية لها طبيعة الاستمرار. وتم وضع العديد من تدابير الحماية بهدف مساعدة صيادي الرنجة والتجار ضد منافسيهم الأجانب. ولقد اتخذت ولايات هولندا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر هذه التدابير ومن بينها منح إعانات ومكافآت بالمثل الانجليزي. وذهبت ولاية زيلاندا إلى أبعد من ذلك، وقدمت في عام ١٧٥٩ منحة مالية نقدية لجميع سفن الصيد في المقاطعة. وإذا حكمنا على النتائج في ضوء تجربة مدينة زيريكزي التي كانت واحدة من المدن البحرية الرئيسية في زيلندا فإننا نقول إنها نتائج فاشلة ومخيبة للأمال. ونعرف أن هذه المدينة كانت تحتفظ بأسطول صيد يقدر بحوالي أربعين سفينة في عام ١٧٤٥ وتناقص العدد إلى سبع عشرة أو ثمانى عشرة في عام ١٧٨٥. ويوازي هذا النقص نقص آخر في عدد السفن التجارية المسجلة في الميناء نفسه، إذ نقصت من حوالي ستين أو سبعين سفينة في عام ١٧٦٠ إلى خمس عشرة سفينة فقط. وما بين كبيرة وصغيرة، بعد ذلك بخمس وعشرين سنة. ونحن لا نملك أرقاماً مناظرة لهذه بالنسبة للمدن البحرية الأخرى في زيلندا، مثل مدينة فير أو فليسجنج أو ميديلبرج، وإن كان هذان الميناءان الأخيران لا يزالان يحتفظان بنصيب مهم وكبير في التجارة البحرية المتجهة إلى جزر الهند الشرقية والغربية وكذلك إلى غرب أوروبا. غير أن من المرجح أن الكثير من الموانئ الصغيرة تدهورت هي الأخرى بالطريقة نفسها التي حدثت في زيريكزي. وإن ما يعرف باسم «المدن الميتة» في زيلندا وشمال هولندا والتي شكلت يوماً ما ولزمن طويل واحدة من أهم مصادر جذب وإغراء السياح في الأراضي المنخفضة لا يرجع تاريخها بوضعها هذا إلى القرن التاسع عشر بل إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

وكما ذكرنا آنفاً فإن صيادي سمك الرنجة الهولنديين وكذا العاملين في تمليح وتحميل وتعبئة هذه الأسماك ظلوا محتفظين بتفوقهم الفني على جميع منافسيهم من الأجانب حتى النهاية؛ حتى وإن تناقص عددهم لأسباب

حتمية. ولكن صناعة صيد الحيتان في هولندا تدهورت كما وكيفما معا. إذ بينما كان الهولنديون خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر قادة مصايد الحيتان دون منازع، تفوق عليهم الانجليز بعد ذلك بقرن واحد. واستطاع هؤلاء تحسين تقنيات الصيد وزيادة كمياته بفضل رحلات الصيد البعيدة ولفترات زمنية أطول مع استخدام سفن أكبر وأثقل وزناً يمكنها أن تتعقب الحيتان إلى مسافات بعيدة بين جبال الجليد الطائفية. وقدم الانجليز تقنيات جديدة ومحسنة مثل الحربون «الرمح المستخدم لصيد الحيتان» الذي يعمل ميكانيكياً بدلاً من الحربون اليدوي. ولم تستخدم السفن الهولندية هذه الطرق الحديثة أو أنها استخدمتها في فترة متأخرة، ولم يشارك الهولنديون في صيد عجل البحر الذي عني الانجليز والألمان بصيده ضمن رحلاتهم لصيد الحيتان.

وانعكست أيضاً هذه العقلية المحافظة وغير التجارية في مجالات أخرى مهمة للغاية من مجالات التجارة والصناعة الهولنديتين خلال فترة الركود وهو ما يتناقض مع الروح التجارية والدينامية التي تحل بها التجار والبحارة الهولنديون خلال القرن الذهبي. وسبق أن لاحظنا أن الهولنديين فقدوا زعامتهم التي انعقد لهم لواؤها في القرن السابع عشر فيما يختص برسم الخرائط البحرية والتقنيات الملاحية البحرية وانتقلت الزعامة إلى منافسيهم الانجليز والفرنسيين، وتراخى الهولنديون كثيراً في اتباع الطرق الحديثة والمحسنة في مجال بناء السفن. وهنا نجد كلا من ستافورينوس وديرك فان هوجندورب ينتقد مديري غرفة امستردام لشركة الهند الشرقية الهولندية في الربع الأخير من القرن الثامن عشر وذلك لإحجام المسؤولين عن بناء سفن صيد مستوية السطح بدلاً من السفن المقعرة. هذا على الرغم من أن ستافورينوس أشار إلى هذا في عام ١٧٧٤ حين قال: لا جدال في أن السفينة المستوية السطح أقدر على تحمل ومواجهة موج البحر من السفينة المقعرة. وثمة تباين واضح أيضاً بين موقف مديري ومستخدمي

شركة الهند الشرقية الهولندية من مناظريهم ومنافسيهم الانجليز خلال القرن السابع عشر وبين موقفهم منهم خلال القرن الثامن عشر. إذ حتى عام ١٦٧٠ تقريباً اعتبر الهولنديون أنفسهم أساتذة من حيث طاقتهم وقدرتهم، وكذلك من حيث رأسمالهم ومواردهم المادية بالمقارنة بالانجليز. علاوة على هذا اعترف الانجليز مراراً بأنهم أدنى مستوى نسبياً. ولكن في الربع الأخير من القرن السابع عشر بدأت مواقف الطرفين المتنافسين تتحول من النقيض إلى النقيض. إذ نجد الانجليز يزدادون عدوانية وثقة بالنفس، بينما بدأ الهولنديون يتشككون في قدرتهم على المنافسة مع الانجليز في أماكن مثل ساحل كوروماندل حيث شركة الهند الشرقية الهولندية لا تملك سلطة مطلقة دون تحد ومنافسة مثلما هو الحال في المياه الأندونيسية. ويبدو التحول أكثر وضوحاً في القرن الثامن عشر، وفي النصف الثاني منه بخاصة. إذ نجد المراسلات الرسمية لشركة الهند الشرقية الهولندية مليئة بالشكوى والتحسر بسبب تفوق الانجليز وخطرهم على هولندا في جميع الأنحاء حتى في مياه اندونيسيا.

ومن العسير أن نتجنب النتيجة الواضحة وهي أن الانجليز أصبحوا في الواقع أكثر مغامرة وقدرة وإقداماً من الهولنديين في الشرق. ومن المسلم به أن تقدمهم يرجع أساساً إلى تفوق مواردهم الكبيرة من حيث رأس المال وما يتحلون به من مزايا اقتصادية توفرت لهم بفضل امتلاكهم للبنغال ثم سيطرتهم على تجارة الصين. ويبدو أن ثمة قدراً من الحقيقة فيما قاله ديرك فان هو جندروب أن موظفي شركة جون كانوا كقاعدة عامة أقدر من موظفي شركة جان. وهذا هو النقيض تماماً للوضع النسبي للشركتين في النصف الأول من القرن السابع عشر. وبيان أسباب هذا التحول يستلزم بحثاً وتحقيقاً، ولكن قد يكون من بين الأسباب التي أسهمت في ذلك زيادة ميل شركة الهند الشرقية الهولندية إلى الاعتماد على عاملين جهلاء مغفلين من وسط المانيا عاطلين من أي حافز يحفزهم إلى العمل الجاد والشاق من أجل

المديرين وأصحاب الأسهم الهولنديين. وتكررت دائماً الشكاوى من انخفاض وتدني مستوى مستخدمي الشركة سواء أكانت شكاوى حقيقية أم باطلة. ولكن يبدو أنها شكاوى لها ما يبررها خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر على نحو ما يبين من التقارير التي كتبها نيكولا هارتنج المقيم الرسمي وحاكم شمال شرق جاوة على مدى السنوات ١٧٤٦-١٧٦١.

بيد أن تدهور شركة الهند الشرقية الهولندية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بدأ من بعض نواحيه ادعاء أكثر منه حقيقة واقعة. ذلك لأن حجم هذه التجارة بالقياس إلى التجارة البحرية للجمهورية في مجموعها زاد بالفعل خلال هذه الفترة. ونجد هذه الزيادة واضحة من أرقام السفن التجارية التابعة لشركة الهند الشرقية المغادرة لأرض الوطن والتي تظهر لنا في الجدول التالي:

سفن شركة الهند الشرقية الهولندية
المغادرة لأرض الوطن (١٦١١ - ١٧٨١)

السفن	الفترة
١١٧	١-١٦٢٠-١٢-١٦١١
١٤٨	١-١٦٣٠-١٢-١٦٢١
١٥١	١-١٦٤٠-٢-١٦٣١
١٦٢	١-١٦٥٠-٢-١٦٤١
٢٢٦	١-١٦٦٠-٢-١٦٥١
٢٥٧	١-١٦٧٠-٢-١٦٦١
٢١٩	١-١٦٨٠-٢-١٦٧١
٢٠٩	١-١٦٩٠-٢-١٦٨١
٢٤١	١-١٧٠٠-٢-١٦٩١
٢٧١	١-١٧١٠-٢-١٧٠١
٣٢٧	١-١٧٢٠-٢-١٧١١
٣٧٩	١-١٧٣٠-٢-١٧٢١
٣٦٥	١-١٧٤٠-١٢-١٧٣١
٣١٥	١-١٧٥٠-٢-١٧٤١
٢٧٦	١-١٧٦٠-١٢-١٧٥١
٣٠٣	١-١٧٧٠-٢-١٧٦١
٢٩٤	١-١٧٨٠-٢-١٧٧١

ويؤكد الاستاذ بروجمان من خلال هذه الأرقام أن حجم تجارة سفن شركة الهند الشرقية الهولندية تضاعف فيما بين ١٦٣١ و ١٧٨٠. ولكن يبدو لي أن هذا الاستنتاج ليس مأمونا تماما على إطلاقه. إذ من الواضح أن عدد السفن التجارية التابعة للشركة التي تبحر فيما بين الأراضي المنخفضة وجاوة تضاعف من خلال هذه الفترة، ولكن عدد السفن العاملة في مجال التجارة بين موانئ آسيا قد انخفض. فبينما نجد ما بين خمس إلى عشر سفن من السفن التجارية، أكثرها ذات حجم كبير جداً، تبحر سنوياً من باتافيا إلى ناجازاكي خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر، نجد أن متوسط السفن البحرية لم يتعد واحدة أو اثنتين خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وبالمثل فإن عدد السفن التجارية الهندية العاملة في التجارة مع الهند تضاعف جداً خلال الفترة من ١٧٥٠ إلى ١٧٨٠ بالقياس إلى قرن سابق. هذا بينما توقفت التجارة مع بعض المناطق مثل البحر الأحمر والخليج الفارسي. ومن المسلم به أن هناك زيادات طفيفة في التجارة مع مناطق أخرى، مثل التجارة مع كانتون وربما أيضاً مع سيلان. بيد أن هذه الزيادة لا تعوض النقص الشديد في أعداد السفن الهولندية العاملة بالتجارة بين موانئ آسيا من مولوقا إلى مليا أجمالاً.

ففي عام ١٦٤٠، كمثال، كان هناك خمس وثمانون سفينة هولندية تجارية تمخر عباب البحار الآسيوية، مع استبعاد السفن البحرية من وإلى أوروبا. وفي عام ١٧٤٣ تضاعف هذا العدد الإجمالي إلى ثمان وأربعين سفينة دون أن يقابل هذا النقص أي زيادة كبيرة في الحمولة بالطن لكل سفينة.

وخلال القرن الذهبي وخلال حقبة الركود الهولندي كان منافسهم التجاريون الغيورون على استعداد للقول بأن الشركتين الهنديتين الشرقية والغربية الهولنديتين - والأولى منهما بخاصة - هما عماد ودعامة وركيزة الرخاء التجاري للمقاطعات المتحدة. ولكن هذا الانطباع لا تؤكد الأرقام ذات الصلة التي لدينا وكذلك الأرقام التي ذكرها فان دير أو ديرمولن في عام

١٧٨٥ والذي كان واحداً من أعضاء مجلس إدارة الـ ١٧ وأحد من قدموا هذا الرأي. إذ أنه يورد الأرقام التالية عن قيمة التجارة الهولندية البحرية عشية الحرب الانجليزية الرابعة:

المنطقة	القيمة بملايين الجلدات
التجارة مع جزر الهند الشرقية	٣٥
التجارة مع جزر الهند الغربية وأمريكا	٢٨
التجارة مع البلدان الأوروبية	٢٠٠
ويذهب في تقديره لقيمة التجارة الهولندية مع بلدان أوروبا إلى ما يلي:	
مع إنجلترا	٤-٤٢
مع فرنسا	٨-٣٦
مع منطقة بحر البلطيق	٥٥

ومن ناحية أخرى يجب أن لا ننسى أن أغلبية السلع التي يستوردها الهولنديون من جزر الهند الشرقية والغربية لم تكن للاستهلاك المحلي في المقاطعات المتحدة بل لإعادة تصديرها إلى بلدان أوروبية أخرى. وإن المؤلف المجهول لكتاب «وصف هولندا» الصادر في عام ١٧٤٣ ربما بالغ شيئاً ما، ولكنه لم يبالغ كثيراً حين قال: «اليوم ترسل الشركة الهولندية إلى جزر الهند الشرقية ما بين مليونين أو ثلاثة ملايين من الجلدات نقداً ويعيدون مقابلها إلى الوطن سلعاً قيمتها تتراوح ما بين خمسة عشر أو ستة عشر مليوناً. ويستهلك منها في هولندا حوالي جزء من اثني عشر أو جزء من أربعة عشر ويعاد تصدير الباقي إلى بلدان أوروبية أخرى ليدفعوا مقابلها نقداً. وزعم فان دير أودرمان في عام ١٧٨٥ أن «ثلاثة أرباع وسبعة أجزاء من ثمانية من إجمالي الشحنات المستوردة من جزر الهند الشرقية يعاد تصديرها من الأراضي المنخفضة باستثناء الشاي والبن اللذين تستهلك منهما كميات كبيرة في نويزلاند وجروممكن». وهكذا يحق للمرء أن يقول عن يقين بأن بلدنا تستمد أغلب تجارتها من جزر الهند الشرقية مع أجانب وفاء لمصلحة كبرى

ونأسف أننا لا نستطيع أن نعرف نسبة منتجات المستعمرات الى تجارة الصادرات الهولندية مع البلدان الأوروبية الأخرى في مجموعها، ولكن لا بد وأنها كانت كبيرة جداً. وذهب فان دير أودير مولن إلى أن انهيار شركة الهند الشرقية الهولندية لم يكن ليؤثر تأثيراً مدمراً على الدولة فقط بل سيضر كذلك بكل فرد هولندي. ولكن مسار الأحداث خلال الأعوام من ١٨١٢ إلى ١٨١٤ عندما كانت الأراضي المنخفضة بدون أي تجارة مع مستعمراتها السابقة أوضح أن هذا غير صحيح. ولكن المرجح أن شركة الهند الشرقية الهولندية أسهمت في مجال الرفاهية العامة للمقاطعات المتحدة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر وكانت اسهاماتها أكثر مما شاء أن يصرح به بروجمان. إذ علاوة على تشغيل الشركة لآلاف من الرجال، فإنها ساعدت بشكل غير مباشر على الحفاظ على ٣٠٠٠ بحار هم عدة السفن التجارية الهولندية الذين عملوا في التجارة مع بلدان بحر البلطيق والبحر المتوسط والبلدان الأوروبية المطلة على المحيط الأطلسي. وهي التجارة التي قام بالدور البارز فيها عملية إعادة تصدير السلع مثل التوابل والشاي والبن والتبغ والمنسوجات وغيرها.

جانب آخر للتجارة البحرية الهولندية يتعين أن نلقي عليه نظرة سريعة قبل أن نتناول بإيجاز التطورات التي طرأت على الزراعة والصناعة والمال. ونعني به تجارة التهريب - ومع انجلترا أولاً وقبل كل شيء. ومن الواضح أنه لا سبيل أمامنا للتأكد من مدى ونطاق هذه التجارة المحظورة. ولكن الأمر المتيقن منه أنها ساعدت على توفير أسباب العيش لآلاف الهولنديين، خاصة سكان مدن السواحل في جنوب هولندا وزيلاندا. إذ على مدى القرن الثامن عشر كله تقريباً، كانت انجلترا أفضل سوق لبيع الشاي، فضلاً عن أن الرسوم الجمركية العالية التي فرضتها الحكومة الانجليزية على هذه السلعة شجعت ولا شك عملية التهريب على جانبي بحر الشمال. والملاحظ أن حرب الأعوام ١٧٨٠-٨٤ والموافقة على القانون المعروف باسم قانون «بيت لجواز

الانتقال، في العام الأخير، وجَّها معا ضربة قاسية للمجتمعات الزيلاندية البحرية في هذا المجال على نحو ما أقره فان دير ميلون في عام ١٧٨٥. واستمر صيادو الحيتان الهولنديون في التجارة المحظورة مع أيسلندا ومع بلدان أخرى، وكذلك الحال بالنسبة لصيادي سمك البكلاة في بحر الشمال إذ انخرطوا لأذانهم في أعمال التهريب إلى المناطق المجاورة. وإن شبكة الرسوم الضريبية الثقيلة الوطأة التي أرهقت كثيراً الطبقات الفقيرة في المقاطعات المتحدة كانت بطبيعة الحال سببا في أن كثيرين من الهولنديين العاملين في البحر مستعدون لتهريب السلع إلى داخل موانئ هولندا وإلى خارجها أيضاً. ولكن لم يكن صغار البحارة والصيادين هم وحدهم المذنبين الوحيدين، ولا حتى المذنبين الأساسيين في مجال التهريب من ضرائب الاستيراد والتصدير. وإنما كان نصيب الأسد في ذلك للتجار وأصحاب السفن. ولهذا السبب، ضمن أسباب أخرى، منيت الإمارات البحرية بخسائر فادحة نظراً لأن عوائدها كانت تعتمد أساساً على هذا المصدر غير المؤكد والمتذبذب. وزعم نقاد هذه الضرائب والرسوم أنهم لم يحافظوا فقط على تكاليف مواد التموين، ومن ثم تكاليف المعيشة في هولندا، بل، وإنهم بالمثل شجعوا الأجانب على الاتجار مباشرة مع بعضهم البعض بدلاً من استخدام الهولنديين وسطاء على نحو ما فعلوا في القرن السابع عشر. وأعطوا مثلاً نموذجياً على هذه الحالة، وهو تصدير السكر والبن والنيلة من بوردو إلى ألمانيا والبلطيق. وبعد أن كان في وقت ما ثلاثة أرباع هذه السلع تودع أمانة عن طريق امستردام والربع الآخر عن طريق هامبورج فإن هذه النسب منذ ١٧٥٠-١٧٥١ انقلبت إلى العكس تماماً.

وكم من كتاب تحسروا على تدهور التجارة البحرية الهولندية، وما هو أحدهم يزعم في عام ١٧٨٠ أن المشكلة الحقيقية هي أن ملكية السفن انفصلت بوتيرة متزايدة عن صناعة البحر واستقلت عنها. ففي القرن السابع عشر كان الكثيرون من القباطنة - التجار هم أصحاب سفنهم بأكملها أو أصحاب

جزء منها، ووضعوا أبناءهم وأقاربهم للعمل على متنها مما عزز امكانات تطويرها. وأبدوا كذلك اهتماما نشطا ببيع شحنات السفن، ومن ثم كانت لهم مصلحة مباشرة في الأرباح الناجمة عن ذلك. ثم يستطرد هذا الناقد قائلاً: أما الآن فإن معظم ملاك السفن نادراً ما يشاركون في أعمال الشحن، فضلاً عن أن شحنات سفنهم تخص في الأساس طرفاً آخر من الأجانب، وليس لهم نصيب في الأرباح الناجمة عن النقل سوى ما يتقاضونه كأجور شحن». وزعم أكثر من هذا أن المراسلين أو المشاركين الأجانب العاملين مع مؤسسات الشحن كثيراً ما يأتون بأبناء بلدتهم للعمل قباطنة وضباطاً بحريين على متن هذه السفن. وهؤلاء بدورهم يفضلون ويدعمون مواطنيهم دون أبناء الأراضي المنخفضة. وأحس أبناء الأراضي المنخفضة إزاء هذا الوضع بالإحباط وفقدوا الأمل في التقدم ومن ثم انغمسوا في الشراب وشهوات الجنس وتركوا خدمة البحر كارهين مشمئذين.

واضح أن هذا الكاتب، شأن آخرين على شاكلته، يبالغ كثيراً في تقييمه للوضع. إذ من المعروف أن ملكية السفن تحولت تدريجياً إلى مهنة بحاجة إلى تفرغ كامل واستقلال في الأراضي المنخفضة الشمالية ابتداء من النصف الثاني من القرن السابع عشر فصاعداً بيد أن هذه العملية لم تكتمل حتى عام ١٧٨٠. ذلك أن فروعاً عديدة من التجارة البحرية، مثل تجارة الأخشاب والحبوب مع منطقة البلطيق، ظلت تسير في الأساس حسب النظام القديم، وكان القباطنة لا يزالون هم التجار والوكلاء المسئولون عن شحنات سفنهم. ولكن من الواضح أيضاً، وبنفس القدر، أو هكذا يبدو لي، أن مشاركة الأجانب في الملاحة البحرية تحت العلم الهولندي بدأت تظهر بوضوح أكثر خلال هذه الفترة. إذ بينما نجد أصحاب السفن والقباطنة الهولنديين يتاجرون خلال حرب الثمانين عاماً مع شبه جزيرة ايبيريا وغيرها وقد تنكروا على أنهم من اسكنديناوة أو غيرها، انقلب الوضع إلى العكس مع حلول عام ١٧٨٠. واستمر هذا الوضع الخاطئ زمناً طويلاً، حتى إنه صادف في ملقا سفناً

عديدة مملوكة لهامبورج ومزودة بوثائق هولندية. وقال إن قباطنتها يفتخرون صراحة أنهم يستطيعون بسهولة رشوة أي برجوازي في امستردام ببضعة جلدرات ليقسم اليمين بأن السفينة مملوكة لامستردام. «واقع الأمر أن جميع ملاكها يعيشون في هامبورج» وحث دي رويتر إمارة البحر على وقف هذا الخطأ ولكنه كان أكثر شيوعاً على مدى قرن بعد ذلك. ذلك أننا نجد كلويت يشكو في عام ١٧٩٤ من أن برجوازي هولندي له أن يدعي أنه مالك لإحدى السفن، دون مطالبة بتقديم برهان على صدق دعواه، والنتيجة الحتمية لذلك أن كثيرين من التجار الأجانب عملوا في البحر تحت العلم الهولندي وهم يحملون وثائق هولندية تؤكد أو تثبت ملكيتهم لهذه السفن.

بعد أن نطرح جانباً من مظاهر المبالغة على لسان الأطراف أصحاب المصلحة، أرى لزماً أن نعترف بأن أسباب قوة البحرية الهولندية ضعفت كثيراً خلال القرن الثامن عشر. وإن أفضل ثقات هذه الحقبة - مثل فان دي شبيجل وفان دير أو دير ميولن - اتفقوا في الرأي على أن الاسطول التجاري الهولندي (بما في ذلك السفن التابعة للشركتين الهندية الشرقية والهندية الغربية) ظل حتى عام ١٧٨٠ يهيء فرصاً للعماله لحوالي ٣٠٠٠٠ أو ٤٠٠٠٠ من البحارة، ويبدو للوهلة الأولى أن هذا لا يشير إلى حدوث تحول كبير جداً عن عام ١٥٨٨ وقتما كانت إمارة البحر في هولندا تزدهر بقدرتها على حشد ٣٠٠٠٠ بحار محارب خلال اسبوعين فقط، ولا يختلف عن عام ١٦٨٨ وقتما أبحر وليم الثالث ليبدأ «الثورة المجيدة» في إنجلترا. ولكن الشيء المؤكد في هذين العامين أيضاً ١٥٨٨ و١٦٨٨ أن سكان زيلندا وشمال هولندا العاملين في البحر كانوا أكثر عدداً مما هم عليه في عام ١٧٨٠، وأن جمهورية هولندا وهي في فتوتها لم تكن لتستطيع، إلا بصعوبة أو بجهد، أن تحشد حوالي ٨٠٠٠٠ من البحارة الكفاء. زد على هذا أنه وإن كانت هذه الأرقام قد تشتمل على أعداد من البحارة المولودين في الخارج وكانوا من العناصر المتاحة وقتذاك، إلا أن لدينا ما يبرر الاعتقاد بأن نسبتهم زادت كثيراً في عام ١٧٨٠

على عكس ما كان الوضع عليه قبل ذلك بقرن أو بقرنين.

وإذا عدنا من البحر إلى تربة الزرع في شمال الأراضي المنخفضة نجد أن الزراعة الهولندية أظهرت نجاحاً أكثر من صناعة البحر الهولندية في القرن الثامن عشر مقارنة بالوضع في القرن السابع عشر. إذ على الرغم من أن المصالح التجارية والمالية لجمهورية هولندا أثرت في تشكيل بيئتها الاقتصادية أكثر مما أثر قطاع الزراعة. إلا أن الزراعة أتاحت فرص عمل أكثر مما أتاحت التجارة أو الصناعة. وصدق هذا يقينا بالنسبة للمقاطعات الزراعية الخمس (باعتبار فريزلاند مقاطعة مستقلة) خلال العصر الذهبي وفترة الركود وربما صدق هذا أيضاً بالنسبة إلى زيلاند وجنوب هولندا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وصناعة منتجات الألبان كانت أبرز جوانب انتاج المزارع الهولندية. وتقيد حسابات عام ١٧٤٠ أن الربع الشمالي من مقاطعة هولندا كان ينتج وحده حوالي ٢٠ مليون رطل من الجبن في السنة حين يكون الانتاج جيداً. ونذكر بهذه المناسبة أن سنة ١٧٤٠ كانت كارثة على الزراعة الهولندية، نظراً لموسم الشتاء الشديد القسوة والذي أعقبه صيف حار مدمر. وبلغت معاناة الأيدي العاملة أشدها حتى أن بعض الكتاب يؤرخون بهذه السنة بداية تدهور المقاطعات المتحدة. ويمثل الزيد أحد سلع التصدير المهمة من صناعة منتجات الألبان الهولندية، على الرغم من المنافسة الشديدة التي واجهتها هذه السلعة من الزيد الأيرلندي فيما بين عامي ١٦٦٦ و١٧٥٧. وقتما حظرت الحكومة الإنجليزية استيراد الزيد ومن ثم أرغمت المزارعين الأيرلنديين على توسيع أسواقهم وفتح أسواق جديدة لهم في أراضي لفلاندرز وفي فرنسا وشبه جزيرة أيبيريا.

والجدير بالذكر أن تربية الماشية والأغنام والخيل والخنازير احتلت مرتبة أقل أهمية بالقياس إلى صناعة منتجات الألبان. وأصبحت القطعان بأوبئة أهلك الكثير وحصدتها حصداً في السنوات ١٧١٢-١٧٢٣. ١٧٤٤-١٧٥٥، ١٧٦٦-١٧٨٦ فضلاً عن تفشي أمراض كثيرة في مناطق

محدودة محلياً خلال السنوات الفاصلة بين سنوات تلك الأوبئة. ولم يكن مفهوماً علمياً منشأ هذه الأوبئة ولا سبل علاجها، غير أن المقاطعات أصدرت مراسيم لاتخاذ تدابير علاجية أو وقائية مشتركة فيما بينها. وكثيراً ما اهتم الفلاحون هذه الارشادات والنصائح وذلك لعدم ثقتهم من ناحية في «السادة البكوات» سكان المدن الذين أصدروها، وايضاً لإيمانهم بأن الوباء تعبير عن غضب الله وأن مقاومته نوع من الفسوق وعدم الالتزام بقضائه وقدره. وخلال العقدين الأخيرين من القرن الثامن عشر بدأ يظهر اتجاه جديد بفضل جهود قلة من المزارعين أصحاب التوجيهات التقدمية، وبفضل الجمعيات الزراعية التي شجعت تطعيم القطعان ضد الأوبئة. وتحسن الوضع بعد بضع سنوات إثر استيراد سلالات جديدة من الخارج، وزاد انتاج تربية الماشية والأغنام فيما بين ١٧٥٠ و ١٨٠٠. ومن ناحية أخرى فلأن تفشي أوبئة أو طاعون الماشية حفز فلاحين كثيرين على التحول بالكامل أو جزئياً عن تربية الماشية إلى الزراعة لانتاج الأخشاب. وفي جروننجن تحول الفلاحون أساساً إلى زراعة الحبوب، أما في هولندا فقد استهدف التحول زراعة الزهور لتسويقها. وحققت بعض المقاطعات نجاحاً كبيراً في مجال تربية الماشية فكان هناك حوالي ٢٠٠٠٠ رأس من الأغنام في جزيرة تكسيل في منتصف القرن الثامن عشر.

ولكن نظام الضرائب والجمارك المرهقة كان سبباً في تحول عدد كبير من الفلاحين في شمال هولندا إلى مهن أخرى خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر. وشهد النصف الثاني من هذا القرن ارتفاعاً عاماً في أسعار الحاصلات الزراعية في أسواق أوروبا الغربية. وساعدت هذه الزيادة على تعويض عبء الضرائب الذي أثقل كاهل الفلاحين والمزارعين في بعض المقاطعات ومن ثم جعل الحياة ميسورة إلى حد ما بالنسبة لهم. وقد حدث هذا يقيناً في مقاطعة أوفرجيسيل - وهي المقاطعة الوحيدة التي تملك إحصائيات عنها - حيث أن ارتفاع أسعار الحاصلات الزراعية قلل من عبء الضرائب إلى

النصف تقريباً. بيد أن هذا لم يكن عاماً وشاملاً.

ودخلت التحسينات التقنية في مجال الزراعة الهولندية خلال القرن الثامن عشر في وقت متأخر فضلاً عن أنها دخلت ناقصة بالقياس إلى التحسينات التقنية في كل من فرنسا وإنجلترا آنذاك. إذ ظل الفلاح الهولندي متشبهاً في عناد بالتقنيات القديمة التي ورثها عن أسلافه في القرن السابع عشر، ونظر إلى التجديدات نظرة شك وريبة. والمعروف أن الفلاحين في جميع أنحاء العالم هم بحكم طبيعتهم محافظون في أفكارهم ومن ثم فإن الفلاح الهولندي لم يكن استثناء. وإن انتشار الأفكار بالأساليب الجديدة بين سكان الريف يعتمد إلى حد كبير على مصلحة وتعاون ناظر المدرسة والواعظ الديني ولم يكن أي منهما صاحب فكر باحثاً عن الجديد. وأجرى بعض كبار ملاك الأراضي تجارب استخدموا فيها الأدوات الزراعية الجديدة مثل آلات البذر. وفيما بين عامي ١٧٥٠ و ١٧٨٤ شكل عدد من المزارعين وملاك الأراضي جمعيات لتحسين وتطوير الزراعة اقتداء بالنموذجين الانجليزي والفرنسي، غير أن نتائج دعايتهم وتجاربهم وجهودهم لم تبدأ تثمر إلا في السنوات الأخيرة من تاريخ الجمهورية. ويبدو واضحاً في الحساب الختامي أن الزراعة بصورة عامة والبستنة لصالح السوق وزراعة أشجار الأخشاب بصورة خاصة بدأت جميعها في الازدهار نسبياً خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وخلال العقدين الأخيرين منه بوجه أخص على نقيض صيد الأسماك والصناعة وما شهداه من تدهور خلال هذه الفترة. وتم خلال هذه الفترة استصلاح المزيد من الأراضي التي انتزعت من البحر، واستصلاح لمستنقعات ولكن أهم أسباب رخاء الزراعة هو ارتفاع أسعار الحاصلات المنتجات الزراعية.

وإن الانهيار المؤكد الذي أصاب الصناعة الهولندية في مجموعها خلال القرن الثامن عشر لم يكن انهياراً شاملاً طال جميع فروع الصناعة، فضلاً عن أن التعاقب الزمني لم يكن دائماً واحداً. مثال ذلك أن صناعة النسيج هي

من أولى الصناعات التي أصابها التدهور نظراً لأنها الأكثر عرضة للمنافسة الأجنبية الحادة. ويمكن أن نعود بتاريخ بداية التدهور إلى حوالي عام ١٧٢٠ على الرغم من أن بعض قطاعات هذه الصناعة دعمتها متطلبات تصدير شركة الهند الشرقية حتى عام ١٧٩٥. وكذلك صناعة الأقمشة في لندن التي بلغت ذروتها سنة ١٦٧١ بمعدل انتاج سنوي قدره ١٢٩٠٠٠ قطعة بدأت في التدهور الشديد والسريع بعد ذلك. ولم تنتج في سنة ١٧٠٠ سوى ٨٥٠٠٠ قطعة. وفي سنة ١٧٢٥ انتجت ٧٢٠٠٠ قطعة. وفي سنة ١٧٥٠ انتجت ٥٤٠٠٠. وفي ١٧٧٥ انتجت ٤١٠٠٠ قطعة. وفي ١٧٩٥ انتجت ٢٩٠٠٠ قطعة. ولا غرابة في أن تدهور أعظم صناعات مدينة ليدن قابله انكماش في عدد السكان العمال. ونلاحظ هنا أن صناعات التخمر والتقطير وتكرير السكر ومعالجة الملح وصناعة الصابون والمصابغ ومصانع التبغ ومحطات الزيت ومؤسسات تقطيع الماس، وهي صناعات ازدهرت جميعها خلال القرن الذهبي، لم تتدهور جميعها خلال حقبة الركود، وإن حدث هذا بالنسبة لبعضها خاصة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. إذ حافظت صناعة تقطيع وصقل الماس على نفسها حتى آخر أيام الجمهورية، مثلما فعلت صناعة الورق. ولعل السبب الرئيسي لذلك هو الارتفاع الكبير في أسعار هاتين السلعتين. ويصدق الشيء نفسه على صناعة أجود أنواع المخمل في أوترشت. وظلت صناعات تقطير البراندي مزدهرة حتى عام ١٧٧١ وقتما كان يجري تصدير ٨٥ بالمائة من هذا المشروب الوطني إلى الأسواق ومنها أسواق أمريكا الشمالية وممتلكات الشركتين الهندية الشرقية والهندية الغربية. وتماسكت صناعة التبغ والصباغة لأطول مدة خلال القرن الثامن عشر على الرغم مما أصابها من تدهور محلي في بعض المقاطعات. وإن صناعة خزف دلفت الشهير التي بلغت أوجها في الأعوام ١٦٨٥ إلى ١٧٢٥، بدأت في التدهور بعد ذلك ولم يكن تدهوراً مأساوياً. واطرد ازدهار قماثن الطوب وكان يجري تصدير منتجاتها على ظهر السفن إلى بلدان بحر البلطيق بعد الوفاء بالاحتياجات المحلية. ومن ناحية أخرى فقد كان حتماً أن تتدهور صناعة

زيت كبد الحوت مع نقص مصائد الحيتان.

التدهور الشامل الذي أصاب الصناعة الهولندية في هولندا خلال الأعوام ١٧٥٠-١٧٩٥ مثلما انعكس بوضوح في صناعة بناء السفن. ففي القرن السابع عشر كان جميع نجاري السفن الهولنديين يعملون جميعاً كل الوقت في بناء وإصلاح وإبدال السفن لصالح مصايد الأسماك والأسطول الحربي وتجارة النقل البحري الأوروبية وللشركتين الهندية الشرقية والهندية الغربية، فضلاً عن السفن التي يبنونها لبيعها أو لتأجيرها في الخارج. وتفيد بعض التقديرات أنه كان هناك حوالي ٥٠٠ سفينة للملاحة البحرية يجرى بناؤها في الجمهورية سنوياً. باستثناء ما يتم بناؤه لحساب بلدان أجنبية، وعلاوة على المراكب الصغيرة التي تستخدم في المجاري المائية داخل البلاد. وعلى الرغم من مظاهر الرواج والكساد الحتمية إلا أن صناعة بناء السفن ظلت مزدهرة حتى الربع الأول من القرن الثامن عشر، ثم بدأت في التناقص تدريجياً. وبدأ تدهورها أكثر وضوحاً بعد عام ١٧٥٠ تقريباً ثم زاد تدهورها سريعاً خلال الربع الأخير من القرن ذاته. وإن منطقة الزان القريبة من امستردام التي كانت في القرن السابع عشر المكافئة لمنطقة كلايد البريطانية في عهد الملكة فيكتوريا، لم تكن في عام ١٧٠٧ تضم أكثر من ٦٠ حوضاً للسفن بها ما مجموعه ٢٠٦ سفن كبيرة وصغيرة تحت الانشاء. وفي عام ١٧٧٠ لم يكن بها سوى ٢٥ أو ٣٠ سفينة لبنائها هناك. وفيما بين سنة ١٧٩٠ وسنة ١٧٩٢ لم يتجاوز المتوسط خمس سفن فقط سنوياً، وأصبح المتوسط بعد ١٧٩٢ سفينة واحدة فقط. وكانت روتردام بها ثلاثة وعشرون حوضاً لبناء السفن في عام ١٦٥٠، ثم انكمشت لتصبح خمساً فقط قبيل نهاية القرن، إلا أن الوضع تحسن ثانية بعد مائة عام. غير أن هذه الصحوة لم تكن لتعوض الانهيار المأساوي الذي أصاب منطقة الزان. وسجلت فريزلاند زيادة ملحوظة في عدد السفن خلال القرن الثامن عشر، حيث كانت هناك ٢٠٠٠ سفينة مسجلة في المقاطعة عام ١٧٧٥، وهو أكبر عدد في أي مقاطعة من

المقاطعات السبع، ولكن الأغلبية العظمى من هذه السفن هي سفن صغيرة تعمل بالقرب من السواحل وحمولتها أقل من ٨٠ طناً، ومن ثم فهي غير ذات أهمية كبرى بالنسبة للتجارة البحرية مع أوروبا.

وإن أسباب التدهور العام في الصناعات الهولندية خلال القرن الثامن عشر واضحة جداً. إذ بالمقارنة مع أخطر منافسيها ونعني بهم إنجلترا وفرنسا، نجد أن الأراضي المنخفضة الشمالية بدت فقيرة للغاية من حيث المواد الخام وأسواقها الداخلية قياساً إلى هذين البلدين. والملاحظ خلال فترة الازدهار التي شهدتها القرن الذهبي أن صناعات هولندية كثيرة، علاوة على صناعة الأقمشة في ليدن، توسعت كثيراً وتجاوزت حاجات السوق المحلية واعتمدت إلى حد كبير على التصدير. وعندما طبقت البلدان المجاورة نظام الحماية الجمركية منذ أيام كولبرت وما بعدها، فإن هذا النظام أثر تأثيراً كبيراً إذ شجع استهلاك المنتج المحلي على حساب الصادرات الهولندية. ولم يستطع رجال الصناعة الهولندية التراجع والاعتماد فقط على الطلب المحلي مثلما لم يكن بالإمكان زيادة مبيعاتهم بنسبة كبيرة إلى المستعمرات في المنطقة الاستوائية. علاوة على هذا أن الصناعات الهولندية كانت في الأساس صناعات تشطيب لمنتجات بلدان أخرى مثل المنسوجات القطنية والصوفية من إنجلترا. غير أن هذه البلدان الأخرى حققت بمرور الوقت تقدماً تقنياً أهّلها للقيام بنفسها بعمليات التشطيب اللازمة لمنتجاتها. وبعد أن شقت الثورة الصناعية طريقها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كان الهولنديون في وضع لا يحسدون عليه بسبب نقص الفحم والحديد. وإذا كانت صناعة النسيج هي أهم صناعات هولندا، فقد كان حتماً أن تكون هي الأكثر تضرراً. وثمة ملاحظة لها ما يبررها تقول «النسيج قلب السياسة التجارية في جميع الاقطار».

وإن الرسوم الجمركية المانعة التي فرضتها إنجلترا وفرنسا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر على الأقمشة الهولندية المصنعة، تبعها

بالتدريج تشريعات حماية مماثلة أصدرتها روسيا وبروسيا والدانمرك والنرويج وأسبانيا خلال الربع الأول من القرن الثامن عشر. وهكذا كان انهيار صناعة النسيج في هولندا نتيجة لذلك أمراً حتمياً.

وعلاوة على تشريعات الحماية المعبرة عن المصالح التجارية، ثمة سبب آخر يفسر لماذا استطاعت البلدان الأجنبية أن تطور صناعاتها على حساب صناعات هولندا. وهذا السبب هو أن تلك البلدان أغرت العمال المهرة العاملين في الأراضي المنخفضة للنزوح إليها إبان المراحل الأولى لتطوير صناعاتها. والواقع أن هجرة العمال الهولنديين المهرة ظلت مطردة حتى بعد أن اكتفت الصناعات الأجنبية وأوفت بحاجتها. وسبب استمرار الهجرة هو انتشار البطالة بين العمال الصناعيين في شمال الأراضي المنخفضة خلال القرن الثامن عشر، ونحن لا نملك وسيلة لحساب عدد المهاجرين، غير أننا نعرف أن إدارة عموم الولايات أصدرت في عام ١٧٥١ مرسوماً يحظر هجرة فئات محددة من العمال المهرة، خاصة عمال النسيج وصناع الحبال والعاملين في مجال قطع الأخشاب. وهذا ليس سوى مجرد مثال لهذا النوع من التشريعات، وليس هناك ما يمنعنا من افتراض أن هذه التشريعات كانت عديمة الجدوى، وكما كان يسيراً التحايل عليها من جانب الراغبين في مغادرة البلاد. وكانت السلطات أكثر عجزاً بالتالي عن منع العمال الأجانب من الخدمة في مجال التجارة الهولندية حيث يتعلمون سر المهنة ثم يعودون بخبرتهم إلى أوطانهم لاستثمار كفاءاتهم الجديدة.

سبب آخر أورده كثير من المعاصرين في معرض تفسيرهم لأسباب تدهور الصناعات الهولندية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ألا وهو أجور العمال في المقاطعات السبع، وفي هولندا بشكل أخص، حيث كانت أعلى من مثيلاتها في البلدان الأخرى. مثال ذلك أن الأجر الأسبوعي لعامل طباعة الأقمشة القطنية في سويسرا كان يعادل ٢,٥٠ فلورين في عام ١٧٦٦ و ٣ فلورين في أوجسبرج في عام ١٧٦٠ و ٩,١٠ فلورين في هولندا. ومن ناحية

أخرى ظهرت قوارق واسعة بين معدلات الأجور في مناطق مختلفة في المقاطعات السبع. إذ كانت بعض أحياء الريف في أماكن محددة تدفع أجوراً أعلى كثيراً من الأجور المناظرة في المدن. وكان الوضع على العكس من ذلك في أماكن أخرى. ونقل بعض رجال الصناعة الهولنديين مصانعهم من هولندا إلى شمال برابانت أو غيرها حيث الظروف المحلية تسمح باستغلال الفقراء استغلالاً بشعاً، وكتب في هذا الصدد شاهد عيان في عام ١٧٨٥ فقال: «إن من يعرفون فلاحي بلدة بارابانت لابد وأن يعترفوا بأنهم محرومون من كل وسائل الراحة في الحياة التي تشكل جزءاً أصيلاً وجوهرياً ليكون البشر بشراً. إنهم يشربون اللبن الرائب أو الماء ويأكلون البطاطس والخبز دون إدام من الزبد أو الجبن، ويرتدون ملابس رثة، وينامون على القش. إن السجين في هولندا ينعم بحياة أفضل من حياة فلاح برابانت».

وكم هو عسير القول إلى أي حد كانت الأجور «المرتفعة» على حد زعم البعض، التي كان يتقاضاها بعض العمال الهولنديين المهرة شكلت عاملاً من عوامل تدهور الصناعة في هولندا. إذ مثلما اعتاد الفلاحون دائماً الشكوى من الطقس، واعتاد التجار الشكوى من الضرائب التعجيزية أو المنافسة الأجنبية غير المتكافئة، كذلك فإن رجال الصناعة على استعداد للظن بأن قوة عملهم الخاصة التي تنال حقها إنما يقتطعها العرق المبدول من قوة عمل منافسيهم الأجانب. ومنذ عام ١٧٤٠ ثمة رجل انجليزي أقام طويلاً في هولندا، ولاحظ أن كلا من الهولنديين والانجليز حققوا درجة عالية من الكمال في قمة حداثة وسباكة البنادق. ثم أضاف بعد اشارته هذه قائلاً: «وحيث إن لنا ميزة كبيرة على الهولنديين في حوض البحر المتوسط وفي المشرق، فقد ظهر من أبدى رغبة في خفض رسومنا الجمركية أو أن يحتال على عمالنا خلال ذلك على العيش عند مستوى أدنى ويعملون بأجور زهيدة مثل الهولنديين». وأكد قائلاً وإنه

* B. M. Vlekke, Evolution of the Dutch Nation; pp. 259-60.

في مثل هذه الحالة سوف تسقط تجارة الأسلحة مع الامبراطورية العثمانية ومع ولايات المغرب في أيدي الانجليز*.

ولست أدري هل احتفظ العمال الهولنديون في مجال صناعة الأسلحة بقدراتهم الفنية على نفس مستوى منافسيهم الانجليز أم لا. ولكن الشيء الجدير بالذكر انه في أربعينيات القرن الثامن عشر بدأ النمو الاقتصادي لبريطانيا يسرع كثيراً وبدأت المرحلة الأولى من الثورة الصناعية. وبعد أربعين عاما بدأ يتعالى نواح رجال الصناعة الهولنديين وهم يتحسرون بسبب التدهور العام الذي أصاب الصناعة الهولندية، وعبروا عن ذلك بالعبارات التالية: «لا يسع المرء إلا أن يلاحظ أن عدداً قليلاً جداً من فروع الصناعة أو التجارة هنا هي التي لا تحتاج إلى إدخال تحسينات عليها وتطويرها، سواء من حيث الشكل أو أدوات التشغيل. إن عمال سباكة وتشكيل النحاس وعمال الحديد والصلب وغير ذلك من صناعات مماثلة باتوا جميعاً عمالاً غير مهرة، وإذا ما قارنا بين منتجاتهم ومنتجات العمال الأجانب نجد انتاجهم أدنى مستوى. لقد أضحت الصناعات جميعها غير متقنة، فضلاً عن سوء التشطيب النهائي بالقياس إلى ما يجري في البلدان الأخرى. ويمكن القول إن إنتاج السلعة بات أكثر تكلفة بسبب سوء التدريب». وفي العام نفسه (١٧٧٩) تحدث واحد من رجال صناعة النسيج في ليدن وأبدى حزنه الشديد بسبب انتقاد المبادرة بين رجال الصناعة ورجال الأعمال الهولنديين، فضلاً عن نفورهم الشديد إزاء تجربة تقنيات وطرق جديدة. إنهم يرون أن ما صلح للسلف فهو صالح لهم أيضاً. ويبدو أن هذه كانت إحدى الصفات الأساسية في المجتمع الهولندي خلال العقود الأخيرة من فترة الركود سواء في مدن وحقول الأراضي المنخفضة الشمالية أو في المناطق الداخلية من رأس الرجاء الصالح.

* A Description of Holland (1743); pp. 236-7.

وإن نقص روح المبادرة والمغامرة عند أغلبية رجال الصناعة الهولنديين وكذلك عند الفلاحين الهولنديين إلى حد ما، يتباين تبايناً شديداً مع ما كان عليه الوضع قبل ذلك بمائة عام عندما كان رجال الأعمال والصناعة والتقنيون الهولنديون هم رواد التقدم التجاري والتقني في العالم الغربي. وكما أشار بصدق شارلس ويلسون حين قال: «ظل التقني الهولندي حتى القرن السابع عشر في وضع المهندس الاسكوتلندي خلال القرن التاسع عشر، بل وكانت مجالات نشاطه الاقتصادي أكثر اتساعاً. إذ تجده حينما يوجد عمل يربح، ومطلوباً حيث تكون الحكومة أو أصحاب المشروعات الخاصة بحاجة إلى مهارة تقنية أو إدارية». ولكنه فقد كل هذا بعد قرن من الزمان على نحو ما أقر بذلك أحد المشاركين في كتاب De Roopman في عام ١٧٧٥، حين قال حزينا: «لم نعد مبتكرين بطبيعتنا الأصلية؛ وأضحت الأصالة الإبداعية نادرة بين صفوفنا هنا. واليوم لا عمل لنا سوى الاستنساخ والمحاكاة بينما كنا في السابق لا ننتج غير كل مبتكر جديد وأصيل.»*

ولا ريب في أن هذا قول ينطوي على قدر من المبالغة وإن رددت الصحف الهولندية نواحا مماثلاً خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وحري بنا أن نتذكر هنا ما قاله الكابتن جيمس كوك من ثناء عند الحديث عن مهارة وكفاءة النجارين في باتافيا في عام ١٧٧٠. غير أنني قد أجازف بالقول إنه على عكس ما ذهب إليه بعض الكتاب المحدثين فإن حقبة الادعاء في المقاطعات المتحدة كانت عصر ركود لا عصر تلاحم إذا ما قارنا بإنجازات القرن الذهبي في معظم نواحيه ولا أقول جميعها.

وإن المعاصرين الذين تحسروا على التحلل الاقتصادي الذي أصاب الجمهورية الهولندية خلال النصف الأخير - أو الربع الأخير بشكل أخص - من القرن الثامن عشر إنما نزعوا إلى صلب اللوم أساساً حسب زعمهم، على

* C. Willson; Holland and Britain, (London, 1945) pp. 14-18.

الراسماليين وذوي الاملاك المكتفين بأنفسهم فضلاً عن قصر نظرهم لأنهم آثروا استثمار أموالهم في الخارج بدلاً من تدعيم الصناعة والتجارة البحرية المملوكة للبلاد ومن ثم يخفقون من حدة البطالة. لقد ساد الأراضي المنخفضة وممتلكاتها في المناطق الاستوائية خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر اتجاه اللامبالاة ازاء كل ما يخص النفس. حيث شاع قول ماثور بمعنى «الانامالية» أو أنا ليس لي شأن أو لا شأن لي بغيري». ولو أن مثل هذا الاتجاه كان موجوداً قبل ذلك بقرن لما بدا واضحاً وملحوظاً بهذا القدر الواضح. وكتبت مجلة دي بروجر عن أصحاب الاملاك الاثرياء في عام ١٧٧٨ فقالت: «كل امرئ يقول: «أنا وبعدي الطوفان» كما يقول المثل الفرنسي الذي التزمنا به في أفعالنا دون الأقوال». وبعد بضع سنوات كتب ديرك فان هوجندورب من جاوة فقال: «إن أكثر الشعارات شيوعاً بين المواطنين ذلك الشعار القائل: «غدا يظهر الغيب واليوم لي، وما سوف يحدث غداً لا يعنيني». ولقد رأينا كيف أن بعض هذه الشكاوى مبالغ فيها. وعلى أية حال فإن زيادة غير مستحقة لأي دخل نتيجة استثمار رؤوس أموال هولندية خلال القرن الثامن عشر انما تعوض إلى حد كبير، وربما أكثر، التدهور الحادث في قطاعات أخرى من الدخل القومي مثل مصايد الأسماك وصناعة النسيج وبناء السفن وبعض فروع التجارة البحرية. وقد قدر فان دي شبيجل فائض الربح هذا بإجمالي سنوي في عام ١٧٨٢ قدره ٢٧ مليون فلورين. وثمة أبحاث تاريخية حديثة بشأن أسباب التدهور الاقتصادي في الأراضي المنخفضة الشمالية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر أكدت أن هناك عوامل اقتصادية - لم يكن من المستطاع تجنب أكثرها مثل تطور الصناعة والتجارة البحرية وبناء السفن في البلدان المجاورة - كانت هي المسؤولة أولاً وأساساً عن هذا التدهور ولكن هناك أيضاً أسباب أخرى مساعدة، والتي كان بالإمكان التخفيف من حدتها أو تجنبها تماماً لو أن بنية مجتمع الجمهورية الهولندية كانت غير ما كانت عليه.

* C. Willson; Holland and Britain, (London, 1945) pp. 14-18.

أولاً: (كما أشار جوهان دي فرايز) كان هناك تراث تجاري له الغلبة موروث عن القرن الذهبي، وقتما كانت لتجارة الهولنديين الهيمنة على التجارة البحرية في القطاع الأكبر من العالم، وأوشكوا على الاقتناع بأنهم من اصطفاهم الرب ومنحهم هذا الحق. وظلت دائماً مكانة التاجر اجتماعياً أرقى من مكانة رجل الصناعة، أو أرقى من كثيرين من الناس ممن هم خارج دائرة الاقلية الغنية الحاكمة. وهذا التراث التجاري وتلك المكانة الاجتماعية والنزوع العام لم تكن جميعها من العوامل المواتية التي تخلق عقلية صناعية وتنميها. والملاحظ أن من حققوا لأنفسهم ثروة أو حتى حياة ميسورة من خلال الصناعة أو الحرف المهنية الفنية كانوا مهئين للتحويل إلى العمل التجاري بعد أن يتوفر لهم رأس المال الكافي لكي يتعلموا هذا، وأن ينشئوا أبناءهم على العمل بالتجارة. ثم إن البنية غير المركزية لحكومة الجمهورية، والغيرة بين المقاطعات وبعضها البعض المسماة زيفاً «المقاطعات المتحدة»، وإن لم تشكل عقبة كبيرة في سبيل النمو الاقتصادي خلال القرن الذهبي، إلا أنها أضحت أكبر العقبات بعد أن تحولت الظروف في القرن الثامن عشر، وقتما أصبحت المنافسة الأجنبية شديدة الفعالية والتأثير ... يضاف إلى هذا أن المساهمات المالية من جانب المقاطعات المختلفة لمصلحة «إدارة عموم الولايات»، والتي جمدت خلال الفترة من ١٦٠٩-١٦٢١ ظلت كما هي دون تغيير إلى أن انتهت الجمهورية على الرغم من الجهود الفاشلة التي بذلها بعض رجال الدولة لمراجعتها وتعديلها حسب الظروف المتغيرة. ثم هناك الانقسامات السياسية، وعدم الثقة المتبادلة بين من هم مع أو ضد آل أورانج خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ومعنى هذا أن أي اقتراحات جادة تستهدف الإصلاح يطرحها طرف من الأطراف يرفضها أو يمنحها جانباً تلقائياً الطرف الآخر. ولقد حالت الغيرة بين المقاطعات أحياناً دون الاتفاق بينها على تحسين الطرق أو القنوات التي تصل بين حدود المقاطعات. ومن المؤكد إن الفساد والمحسوبية بين أبناء طبقة الأوليغاركية الحاكمة كانا موجودين خلال القرن السابع عشر، ولكنهما لم يؤثرا سلباً على الفعالية

الاجتماعية بنفس الدرجة التي اثرا بها من خلال سلاله هذه الطبقة اثناء الركود عندما أصبحت «عقود المراسلة» هي القاعدة وليس الاستثناء.

وساد زعم في أواخر القرن الثامن عشر يفيد بأن الرأسماليين وأصحاب الأملاك الهولنديين الذين استثمروا بعضاً من رؤوس أموالهم في المؤسسات والمصارف الانجليزية والفرنسية إنما ساعدوا بذلك أخطر منافسي الجمهورية. بيد أن هذا زعم ليس له ما يبرره على الأرجح، ذلك أن هذين البلدين كانا سيطوران تجارتيهما وصناعتهما حتى ولو بدون مساعدة رأس المال الهولندي. لقد كانت إنجلترا بدورها دولة مصدرة لرأس المال وإن لم تكن على نفس مستوى هولندا. وأوضح جوهان دي فرايس أن إنجلترا كانت قادرة على تحمل العبء المالي لحرب الاستقلال الأمريكية دون صعوبة كبيرة حتى ولو سحب الهولنديون قسماً من رؤوس أموالهم المودعة في لندن. ويؤكد أن الآثار المعاكسة الحقيقية لعملية استثمار الأموال في الخارج، وهي العملية التي اتسع نطاقها من قبل الرأسماليين الهولنديين خلال القرن الثامن عشر، هي أنها استمرت خلال القرن التاسع عشر لفترات زمنية أطول مما هو مقبول وسليم اقتصادياً.

وسواء اكان بالامكان الحيلولة دون وقوع بعض اشكال التدهور الاقتصادي أم لا، فإنه ما أن حل عام ١٧٨٠ حتى كانت العملية قد قطعت شوطاً طويلاً أكثر مما كان يتوقع أو يستطيع الجميع، وربما لم يتوقع التجار وأصحاب الأملاك الاثرياء أن الأمور «ستتحسن جيداً على هذا النحو بالنسبة لهم»، غير أن وضع الفقراء على ما يبدو ساء إلى أقصى حد بل وأسوأ مما كان عليه منذ قرن مضى خاصة ممن يعيشون في المدن بعيداً عن المهجر. وإن وصف بوسويل لمدينة أوترشت في عام ١٧٦٣ يعثل استباقاً للملاحظة أبداها لوزاك بعده بعشرين عاماً حين قال: إن أي إنسان لديه أدنى قدر من المشاعر، وبعض الحب لأرض الأبناء لا يمكنه أن يمضي عبر المدن السداخلية بعينين جامدتين غير دامتتين». وفي عام ١٧٩٢ قال شاهد عيان آخر: «حيثما أمعنت

النظر حولك تأكدت لك الحقيقة المحزنة وهي أن رفاهية تلك الطبقة التي تعيش حياة عمادها العمل أخذت في التدهور باطراد. وأن الارتفاع العام والمطرّد في تكاليف المعيشة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر كان يقينا أحد أسباب هذا التدهور على نحو ما أشار وأكد كثيرون في عام ١٧٧٨. لقد كان نفشي الفقر ظاهرة واضحة ليس فقط بين أبناء الطبقة العاملة الذين تدهورت حياتهم في المدن مثل مدينة ليدن ودلفت وزاندام، بل وفي مقاطعة أوفرجيسيل الريفية، حيث اقترنت الزيادة في تعداد السكان فيما بين ١٦٧٥ و١٧٦٧ بزيادة سريعة في الفقر. ولم تكن النتيجة الحتمية والوحيدة هي خلق هوة واسعة فاصلة بين الأغنياء وبين الفقراء، بل وأيضاً هو أكبر بين الطبقة العليا وبين الشريحة الدنيا من الطبقة المتوسطة في المدن.

إنه على الرغم من زيادة التسامح الديني وانحسار التعصب الديني الأعمى، وعلى الرغم من جهود هيئات عديدة مثل الفرع الاقتصادي لجمعية العلوم الهولندية في سبيل تطوير وتحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية عن طريق النصح والقدوة. وعلى الرغم من جهود بتجي وولف ومؤيديهما من أجل تعليم الجماهير ورفع مستواهم، وعلى الرغم من تراجع الرغبة في تناول شراب الجن والبراندي وزيادة الرغبة في تناول القهوة والشاي - أقول على الرغم من كل هذا وغيره من جوانب التنوير التي تستهدف التطوير والتي يمكن أن تأتي على ذكرها، أجدني على يقين لا يدانيه شك في أن وطن رمبرانت وفوندل ودي رويز كان لا يزال مكاناً أفضل وأقدر على إثارة الحوافز والرغبة المعيش فيه مما هو الحال بالنسبة لوطن كورنيليس تروست، وبيلدرجيك وزوتمان.

ملحق

ملاحظات عن العملات

والموازين والمقاييس الأساسية

المذكورة في النص

الجلد أو الفلورين الهولندي يشتمل على ٢٠ ستوفير، ويمكن اعتباره مساوياً للفلورين الانجليزي. ولم يكن بشكل عام هو العملة السائدة في الشرق. ولكن حسابات شركة الهند الشرقية كانت مقدرة على أساس الجلد ووحده من الستوفير، ومن ثم كانت العملات المحلية يجرى تحويلها طبقاً للأسعار السائدة للعملة والتي كانت تتباين تبايناً كبيراً. وعبرة «طن ذهب» التي ترد كثيراً في السجلات والوثائق الهولندية لا تعني سوى ما قيمته ١٠٠٠٠٠ جلد من أي شيء. وخلال النصف الأول استخدم الهولنديون على نطاق واسع الريال الأسباني الأمريكي سواء كعملة حقيقية أو كوحدة حسابية يجرى تحويلها عادة إلى ما يساوي ٤٨ ستوفير، ويعادل ما يعرف باسم ركس دولار Rix-Dollar أي ٢,٥ فلورين. وأدخلت الأراضي المنخفضة وباتافيا سلسلة من الإصلاحات النقدية خلال الأعوام ١٦٥٦-١٦٥٨ أدت إلى تثبيت سعر الريال والركس دولار عند ٦٠ ستوفير. ولكن جرى تعديل المدفوعات بالنسبة للخدمات في شركة الهند الشرقية بحيث أصبح هناك نوعان من الستوفير، «ثقل» و«خفيف»، والخفيف يساوي أربعة أخماس الستوفير الفضي. وتعد الأمر نتيجة أن الجلد أو الفلورين الحسابي ظل عند قيمته ٢٠ ستوفير على الرغم من اعتبار عملة الستوفير في الأراضي المنخفضة من النوع «الثقل» واعتباره في الأراضي الممتدة من الكاب إلى ناجازاكي من النوع «الخفيف». وهكذا، وكما أشار منتزل تم حساب الرواتب في دفاتر الحسابات على أساس سعر ٢٠ ستوفير لكل فلورين بينما يتقاضاه المرء محلياً بسعر ١٥ ستوفير لكل فلورين. وفي النظام النقدي الجديد في باتافيا حلت عملة

الركس دولار Rix-Dollar والتي تساوي ٣ فلورين (أو ٦٠ ستويفر) محل الريال الثماني Rial-of-Eight كعملة حسابية، مع استمرار التعامل بالجلدر حسب قيمته.

والرطل الهولندي الذي شاع استخدامه هو رطل امستردام ووزنه ٠,٤٩٤ من الكيلو جرام أو أنه يساوي عملياً ١,٠٩ رطل انجليزي.

واللاست Last الهولندي أو طن الفراغ المشغول عند شحن السفن يساوي عادة ١٢٠ قدماً مكعباً أو ٢ طن (قياسي). ويساوي اللاست أيضاً ٢ طن من الأحمال الساكنة = ٢ طن متري، أو ٢٠٠٠ رطل امستردامي = ٤,٣٥٦ رطل أوليبرا.

والميل الهولندي تغير حسابه كثيراً مع القرون، ولكنه كان يساوي عادة في القرن السابع عشر الفرسخ الانجليزي أو ثلاثة أميال.

مراجع مختارة
ضمنها المؤلف كتابه

- Vlekke, B. H. M., *Evolution of the Dutch Nation* (New York, 1945).
- Vlekke, B. H. M., *Nusantara. A History of the East Indian Archipelago* (Cambridge, Mass., 1945).
- Vries, Johan de, *De economische achteruitgang der Republiek in de achttiende eeuw* (Amsterdam, 1959).
- Warnsinck, J. C. M. (ed.), *Reizen van Nicolaus de Graaff gedaan naar alle gewesten des Werelds, 1637-1687* (The Hague, 1930).
- Wilson, Charles, *Anglo-Dutch Commerce and Finance in the Eighteenth Century* (London, 1941).
- Wilson, Charles, *Holland and Britain* (London, 1945).
- Wilson, Charles, *Profit and Power. A study of England and the Dutch Wars* (Cambridge, 1957).
- 'Taxation and the decline of empires, an unfashionable theme' (*BMHGU*, Vol. 77, Utrecht, 1963, pp. 10-26).
- Zumthor, Paul, *Daily Life in Rembrandt's Holland* (London, 1961).

- Slicher van Bath, B. S., *De agrarische geschiedenis van West Europa, 500-1850* (Utrecht, 1960). An English translation of this book was published after the present work had gone to press in 1963.
- Snapper, Frits, *Oorlogs invloeden op de overzeese handel van Holland, 1551-1719* (Amsterdam, 1959).
- Sousa Coutinho, Francisco de, *Correspondência diplomática de F. de S. C. durante a sua embaixada em Holanda, 1643-1650* (ed. E. Prestage et al., 3 vols., Coimbra and Lisboa, 1920-55).
- Stavorinus, Johan Splinter, *Voyages to the East Indies; by the late John Splinter Stavorinus, Esq., Rear-Admiral in the service of the States-General. Translated from the original Dutch by Samuel Hull Wilcocke, with notes and additions by the translator, the whole comprising a full and accurate account of all the present and late possessions of the Dutch in India, and at the Cape of Good Hope* (3 vols., London, 1798).
- Temple, William, *Observations upon the Provinces of the United Netherlands. By Sir William Temple of Shene, in the County of Surrey, Baronet, Ambassador at the Hague, and at Aix la Chappelle in the year 1668. The third edition, corrected and augmented* (London, 1676).
- Terpstra, H., *Jan van Neck, Amsterdam's admiraal en regent* (Amsterdam, 1960).
- Thunberg, Carl Pieter, *Travels in Europe, Africa, and Asia. Performed between the years 1770 and 1779* (4 vols., London, 1795).
- Tijdschrift voor Geschiedenis* (44 vols., Groningen, 1920-63). In progress.
- Toit, P. S. du, *Onderwys aan die Kaap onder die Kompanjie, 1652-1795. 'N Kultuur—historiese studie* (Cape Town, 1937).
- Troostenburgh de Bruyn, C. A. van, *De Hervormde Kerk in Nederlandsch Oost-Indië onder de Oost-Indische Compagnie, 1602-1795* (Arnhem, 1884).
- Trotter, Alice, *Old Cape Colony. A chronicle of her men and houses from 1652 to 1806* (Cape Town, 1903).
- Udemans, Godfried, *'T Geestelyck Roer van't Coopmans schip. Dat is: Trouw bericht hoe dat een coopman en coopvaerder, hem selven dragen moet in syne handelinge in pays ende in oorloge, voor Godt, ende de menschen, te water en te lande, insonderheyt onder de heydenen in Oost-ende West-Indien. Den derden druck, verbeteret ende vermeerderet by den Autheur* (Dordrecht, 1655).
- Unger, W. S., 'Bijdragen tot de geschiedenis van de Nederlandse slavenhandel', articles reprinted from the *Economisch-Historisch Jaarboek, Bijdragen tot de Economische Geschiedenis van Nederland*, vols. 26-8 (The Hague, 1956-61).
- Valentyn, François, *Oud en Nieuw Oost-Indien, vervattende een naukeurige en uitvoerige verhandelinge van Nederlands mogentheyd in die gewesten* (5 vols. in 8, Dordrecht & Amsterdam, 1724-6).

- Laet, Johannes de, *Iactryck Verhael van de verrichtinghen der Geootroyeerde West-Indische Compagnie in derthien boecken* (Leiden, 1644). Quotations are taken from the 5-vol. Linschoten Vereeniging edition by S. P. L'Honoré-Naber & J. C. M. Warnsinck (The Hague, 1931-7).
- Leuftink, A., *De Geneeskunde bij 's Lands oorlogsvloot in de 17e eeuw* (Assen, 1953).
- Lew, J. C. van, *Indonesian Trade and Society. Essays in Asian social and economic history* (The Hague, 1955).
- Meilink-Roelofs, M. A. P., *Asian Trade and European Influence in the Indonesian Archipelago between 1500 and about 1630* (The Hague, 1962).
- Mentzel, O. F., *Life at the Cape in the mid-Eighteenth Century; being the biography of Rudolph Siegfried Alleman, Captain of the military forces at the Cape of Good Hope* (Cape Town, 1919).
- Mentzel, O. F., *A Geographical-Topographical Description of the Cape of Good Hope* (3 vols., Cape Town, 1921-44). Publications of the Van Riebeeck Society, Vols. 2, 4, 6 and 25.
- Onslow Burroughs, *Batavia Illustrata: Or, a view of the policy and commerce of the United Provinces: particularly of Holland, with an enquiry into the alliances of the States General with the Emperor, France, Spain, and Great Britain* (London, 1728).
- Oost-Indisch-practij, *voorgevallen in Batavia tusschen vier Nederlanders. Den eenen een Koopman, d'ander een Krijghs-Officier, den derden een stuyrman, en den vierden of den laetsten een Kranckebesoecker* (n.p., 1663). Knuttel nr. 8756.
- Parival, Jean de, *Les Delices de la Hollande . . . ouvrage revu, corrigé, changé et fort augmenté* (Leiden, 1662).
- Perron, see Du Perron.
- Poelhekke, Jan, *De Vrede van Munster* (The Hague, 1948).
- Ratelband, K., *Vijf Dagregisters van het Kasteel São Jorge da Mina (Elmina) aan de Goudkust, 1645-1647* (The Hague, 1953).
- Raychaudhuri, Tapan, *Jan Company in Coromandel, 1605-1690. A study in the interrelations of European commerce and traditional economics* (The Hague, 1962).
- Rees, O. van, *Geschiedenis der Staathuishoudkunde in Nederland tot het einde der achttiende eeuw* (2 vols., Utrecht, 1865-8).
- Renier, G. J., *The Dutch Nation. An historical study* (London, 1944).
- Schoute, D., *De Geneeskunde in den dienst der Oost-Indische Compagnie in Nederlandsch-Indië* (Amsterdam, 1929).
- Schrieke, Bertram, *Indonesian Sociological Studies* (2 vols., The Hague, 1955).

- Hogendorp, Dirk van, *Stukken raakende de tegenwoordigen toestand der Bataafsche bezittingen in Oost Indië en de handel op dezelve* (The Hague and Delft, 1801).
See also under Du Perron & De Roos, above.
- Hollandse Mercurius*, 1650-1690 (41 vols. in 8, Haarlem, 1651-91). First word of title variously spelt *Hollandtze*, *Hollandsche*, etc.
- Huizinga, J., *Nederland's beschaving in de zeventiende eeuw. Een schets* (Haarlem, 1941).
- Hullu, J. de, 'Ziekten en Doktors op de schepen der Oost-Indische Compagnie' (in *BTLVNI*, Vol. 67, pp. 245-72).
- Hullu, J. de, 'De handhaving der orde en tucht op de schepen der Oost-Indische Compagnie' (in *BTLVNI*, Vol. 67, 1913, pp. 516-40).
- Hullu, J. de, 'De voeding op de schepen der Oost-Indische Compagnie' (in *BTLVNI*, Vol. 67, 1913, pp. 541-62).
- Hullu, J. de, 'De Matrozen en soldaten op de schepen der Oost-Indische Compagnie' (in *BTLVNI*, Vol. 69, 1914, pp. 318-65).
- Jameson, J. F., *Willem Usselinckx, Founder of the Dutch and Swedish West-India Companies* (New York, 1887).
- Jameson, J. F. (ed. and trans.), *Narratives of New Netherland, 1609-1664* (New York, 1909, reprinted 1959).
- Japikse, N., *De verwickelingen tusschen de Republiek en Engeland, 1660-1665* (Leiden, 1900).
- Japikse, N., *Johan de Witt* (Amsterdam, 1928).
- Jonge, J. C. de, *Geschiedenis van het Nederlandsche Zeewezen* (5 vols., Haarlem, 1858-62).
- Jonge, J. K. J. de, *De opkomst van het Nederlandsch gezag in Oost-Indië. Verzameling van onuitgegeven stukken uit het oud-koloniaal archief* (11 vols., The Hague and Amsterdam, 1862-83).
- Kaapse Argiefstukke. Kaapse Plakaatboek, 1652-1806* (6 vols., Cape Town, 1944-51). Edited by M. K. Jeffreys & S. D. Naudé.
- Kernkamp, J. H., *Johan van der Verken en zijn tijd* (The Hague, 1952).
- Keuning, J., 'Ambonnezen, Portugezen en Nederlanders. Ambon's geschiedenis tot het einde van de zeventiende eeuw' (reprinted from *Indonesië*, Vol. IX, 1956, pp. 135-68).
- Knuttel, W. P. C., *Catalogus van de pamfletten-verzameling berustende in de Koninklijke Bibliotheek* (8 vols. in 10, The Hague, 1889-1926).
- Kock, Victor de, *Those in Bondage. An account of the life of the slave at the Cape in the days of the Dutch East India Company* (London, 1950).

- Eliás, Johan E., *Schetsen uit de geschiedenis van ons zeewezen, 1568-1654* (6 vols., The Hague, 1916-30).
- Feenstra Kuiper, J., *Japan en de buitenwereld in de achttiende eeuw* (The Hague, 1921).
- Fockema Andrae, S. J., *De Nederlandse staat onder de Republiek* (Amsterdam, 1962).
- Geer, W. Van, *De Opkomst van het Nederlandsch gezag over Ceilon* (Leiden, 1895).
- Geyl, Pieter, *The Revolt of the Netherlands, 1555-1609* (London, 1962).
- Geyl, Pieter, *The Netherlands in the Seventeenth Century*, I, 1609-1648 (London, 1961). Part II, 1648-1715 (London, 1964), appeared after the present work had gone to press.
- Geyl, Pieter, *Geschiedenis van de Nederlandse Stam* (3 vols., 1958-9). In progress. The three volumes published so far cover the period down to 1798.
- Geyl, Pieter, *Studies en Strijdschriften* (Groningen, 1958).
- Glamann, Kristof, *Dutch-Asiatic Trade, 1620-1740* (Copenhagen and The Hague, 1958).
- Gonsalves de Mello, José Antonio, *Tempo dos Flamengos. Influência da Ocupação Holandesa na vida e cultura do Norte do Brasil* (Rio de Janeiro, 1947).
- Graaff, Nicolaus de, *Reysen van Nicolaus de Graaff na Asia, Africa, America en Europa, mitsgaders zijn Oost Indische Spiegel* (Hoorn, 1701 and 1703). Cf. also under Warnsinck, J. C. M. *infra*.
- Groeneveldt, W. P., *De Nederlanders in China. De eerste bemoeiingen om den handel in China en de vestiging in de Pescadores, 1601-1624* (The Hague, 1898).
- Haan, F. de, *Priangan. De Preanger-Regentschappen onder het Nederlandsch bestuur tot 1811* (4 vols., Batavia, 1910-12). Covers far more ground than is indicated by the title.
- Haan, F. de, *Oud Batavia. Gedenkboek uitgegeven door het Bataviaasch Genootschap van Kunsten en Wetenschappen naar aanleiding van het driehonderdjarig bestaan der stad in 1919* (2 vols., and album of plates, Batavia, 1922).
- Haan, J. C. de & Winter, P. J. van (eds.), *Nederlanders over de zeeën. 350 jaar Nederlandsche Koloniale Geschiedenis* (Utrecht, 1940).
- Hannay, David, *The Great Chartered Companies* (London, 1926).
- Havart, Daniel, *Op-en Ondergang van Connandel, in zijn binnenste geheel open, en ten toon gesteld* (Amsterdam, 1693).
- Hickey, William, *Memoirs of William Hickey, 1749-1809* (ed. A. Spencer, 4 vols., London, 1919).

- Carter, Alice, 'The Dutch and the English public debt in 1777' (*Economica*, May 1953, pp. 159-61).
- Carter, Alice, 'Dutch foreign investment, 1738-1800' (*Economica*, November 1953, pp. 322-40).
- Carter, Alice, 'The Dutch as neutrals in the Seven Years War' (*The International and Comparative Law Quarterly*, July 1963, pp. 818-34).
- Chuijs, J. A. van der, *Nederlandsch-Indisch Plakaatboek, 1602-1799* (12 vols., Batavia, 1885-94).
- Colenbrander, H. T., *Jan Pieterszoon Coen. Levensbeschrijving* (The Hague, 1934).
- Court, Pieter de la, *Interest van Holland ofte gronden van Hollands welvaren* (Amsterdam, 1662). First published under the pseudonym of V.D.H., this work was reprinted in a revised and enlarged edition in 1669 entitled *Aanwysing der heilsame politieke gronden en maximen van de Republike van Holland en West-Vriesland*, and translated into English under the title of *The True Interest and Political Maxims of the Republick of Holland and West-Friesland* (London, 1702), wrongly ascribed to Johan de Witt.
- Dagh-Register gehouden int Casteel Batavia vant passerende daer ter plaetse als over geheel Nederlands India, 1624-1682* (23 vols., Batavia, 1896-1931).
- Dam, Pieter van, *Beschryvinge van de Oostindische Compagnie* (4 books in 6 vols., The Hague, 1927-54). First 5 vols. edited by F. W. Stapel, the sixth by Baron van Boetzelaer van Asperen en Dubbeldam.
- Davies, David W., *The World of the Elseviers, 1580-1712* (The Hague, 1954).
- Dillen, J. G. van, *Het oudste aandeelhoudersregister van de Kamer Amsterdam der Oost-Indische Compagnie* (The Hague, 1958).
- Du Perron, E., *De Muze van Jan Companjie. Overzichtelijke verzameling van Nederlands-Oostindische belletrie uit de Compagniëstijd, 1600-1780* (Bandoeng, 1948).
- Du Perron, E. & De Roos, E., 'Correspondentie van Dirk van Hogendorp met zijn broeder Gijsbert Karel, 1783-1797' (in *BTLVNI*, Vol. 102, pp. 125-273, The Hague, 1943).
- Eekhof, A., *De Hervormde Kerk in Noord-Amerika, 1624-1664* (2 vols., The Hague, 1913).
- Eekhof, A., *De Negerpredikant Jacobus Elisa Joannes Capitein, 1717-1747* (The Hague, 1917).
- Elias, Johan E., *Het voorspel van den eersten Engelschen oorlog* (2 vols. in one, The Hague, 1920).
- Elias, Johan E., *Geschiedenis van het Amsterdamsche Regentpatriciaat* (The Hague, 1923).

- Barlow's *Journal of his Life at Sea in King's Ships, East and West Indiamen and other Merchantmen from 1659 to 1703* (ed. Basil Lubbock, 2 vols., London, 1934).
- Bijdragen en Mededelingen van het Historisch Genootschap gevestigd te Utrecht* (Utrecht, 1878 to date). In progress. Prior to 1878, the title began with the word *Kroniek*.
- Bijdragen voor de Geschiedenis der Nederlanden* (The Hague and Antwerp, 1946 to date). In progress.
- Böseken, Anna J., *Nederlandsche Commissarissen aan de Kaap, 1657-1700* (The Hague, 1938).
- Böseken, Anna J., *Die Nederlandse Kommissaris en die 18de eeuwse samelewing aan die Kaap* (Cape Town, 1944).
- Bosch Kemper, Jeronimo de, *Geschiedkundig onderzoek naar de armoede in ons vaderland, haare oorzaken en de middelen, die tot hare vermindering zouden kunnen worden aangewend* (Haarlem, 1851). An abridged version was published in 1860.
- Bosman, Willem, *Nauwkeurige Beschryving van de Guinese goud-, land-, en slave-kust, nevens alle desselfs landen, koningryken en gemenebesten* (Utrecht, 1704). The English translation, *A New and Accurate Description of the Coast of Guinea*, was published at London, 1705, reprinted, 1721.
- Boxer, C. R. (trans. and ed.), *The Journal of Maarten Harpertzoon Tromp, Anno 1639* (Cambridge, 1930).
- Boxer, C. R., *Jan Compagnie in Japan, 1600-1850. An essay on the cultural, artistic and scientific influence exercised by the Hollanders in Japan from the 17th to the 19th centuries* (The Hague, 1950). Revised edition of a work first published in 1936.
- Boxer, C. R., *The Dutch in Brazil, 1624-1654* (Oxford, 1957).
- Britain and the Netherlands. Papers delivered to the Oxford-Netherlands Historical Congress, 1959* (London, 1960). Edited by J. S. Bromley & E. H. Kossmann. Vol. II, *Papers Delivered to the Anglo-Dutch Historical Conference 1962* (Groningen, 1964), appeared after the present work had gone to press.
- Brugmans, H., *Opkomst en bloei van Amsterdam* (Amsterdam, 1944). Posthumous edition by A. Le Cosquino de Bussy & N. W. Posthumus.
- Busken Huet, Conrad, *Het Land van Rembrandt. Studien over de Noord Nederlandsche Beschaving in de zeventiende eeuw* (3 vols., Haarlem, 1886).
- Carr, William, *An Accurate Description of the United Netherlands* (London, 1691). First published at Amsterdam under a different title in 1688, this work continued to be reprinted under varying titles and in slightly differing editions, mostly with the omission of Carr's name, down to 1744 at least.

Select bibliography

THIS BIBLIOGRAPHY is limited to a list of the fuller titles of the principal works cited in the footnotes, with the addition of a few exceptionally important monographs and articles. The omission of certain recent works such as Enno van Gelder's *The Two Reformations in the 17th Century* (The Hague, 1964) is explained by the fact that they only came to the author's notice after his manuscript was in the press.

I. Gosses & J. Japikse, *Handboek tot de Staatkundige Geschiedenis van Nederland* (3rd edition, The Hague, 1947), gives detailed bibliographies after each chapter. These bibliographies can be brought virtually up to date by consulting those published in the *Algemene Geschiedenis der Nederlanden*, listed below. Periodical articles published before 1954 are listed in the 10-volume work edited successively by L. D. Petit, H. Ruys, Aleida Gast & J. Brok-Ten Broek, *Repertorium der verhandelingen en bijdragen betreffende de geschiedenis des Vaderlands* (Leiden, 1907-59), which is still in progress. The excellent colonial bibliography by W. P. Coolhaas, *A Critical Survey of Studies on Dutch Colonial History* (The Hague, 1960), includes all but the most recent works in this field. These, as well as those dealing with the Netherlands, are equally well surveyed and evaluated by E. & J. Kossmann in their serial 'Bulletin critique de l'historiographie néerlandaise', which has been published annually in the *Revue du Nord. Revue historique trimestrielle. Nord de France-Belgique-Pays Bas* (Lille, 1954 to date), and long may this invaluable guide continue to appear.

Aitzema, Lieuwe van, *Saken van staet en oorlogh, in ende omtrent de Vereenigde Nederlanden, 1621-1668* (6 vols., The Hague, 1669-72).

Algemene Geschiedenis der Nederlanden (12 vols., Utrecht, 1949-1958). Vols. 5-8 are the relevant ones for the period 1567-1795.

Anon, *A Description of Holland: or, the present state of the United Provinces. Wherein is contained a particular account of the Hague, and all the principal cities and towns of the Republick . . . of the manner and customs of the Dutch, their constitution, etc., etc.* (London, 1743).

Arasaratnam, Sinnappah, *Dutch Power in Ceylon, 1658-1687* (Amsterdam, 1958).

Barbour, Violet, *Capitalism in Amsterdam in the Seventeenth Century* (Baltimore, 1950).

Bell, A. E., *Christian Huygens and the Development of Science in the Seventeenth Century* (London, 1947).



المجمع الثقافي

ابوظبي - ص. ب. ٢٣٨٠ - هاتف: ٢١٥٣٠٠ - دولة الامارات العربية المتحدة

CULTURAL FOUNDATION - ABU DHABI- P.O BOX: 2380 - TEL. 215300 - U.A.E.